

يفيم ريزفان

الحج قبل مئة سنة

الصراع الدولي على الجزيرة العربية
والعالم الاسلامي

١٨٩٩-١٨٩٨

مكة للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين الى مكة

ديعة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع والادارة



الحج قبل مئة سنة

يخيم ريزفان

الرحلة السرية للضابط الروسي
عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة
١٨٩٨ - ١٨٩٩

الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي

رواية وصفية بديعة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والإجتماع والإدارة

حقوق الطبع محفوظة للناسر

دار التقريب **بين المذاهب الإسلامية**

شارع جان دارك - بناية الوهاد

تلفون: ٢ / ٣٥٠٧٢١

٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠

فاكس: ٥٢٢١٠٧ - ٠٠٣٥٧٩

تلکس: ELTOUP LE ٢٢٦٦١

ص.ب: ٨٣٧٥

برقياً: انكسامس

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

تصميم الغلاف جمانة ابو شقرا

يفيم ريزفان

عبد العزيز دولتشين
وسفرته السرية الى مكة

- صفحة عنوان تقرير دولتشين.

ان اوصاف المدينتين المقدستين فى الجزيرة العربية ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، تشغل ، لاسباب مفهومة ، مكانا كبيرا فى المؤلفات التى وصلت الينا من ادب التاريخ والجغرافية عند العرب وسائر الشعوب الاسلامية . فان مؤلفات جغرافية شهيرة عديدة ، ومنها «سفر نامه» من تأليف ناصرى خسرو (٣٩٤ - حوالى ٤٨١ هجرية / ١٠٠٣-١٠٨٨) قد ظهرت بمثابة اوصاف للحج الى مكة . كما ظهر نوع خاص من المؤلفات مكرس لفضايا المدينتين المقدستين . وفى هذا الصدد لفت العلماء الاوروبيون من زمان بعيد الانتباه الى الامكانية الفريدة التى توفرها المصادر من هذا النوع لبعث تاريخ مكة المكرمة وجغرافيتها التاريخية . فمن سنة ١٨٥٧ الى سنة ١٨٦١ اصدر فرديناند فوستنفلد سلسلة من اربعة مجلدات اسمها «اخبار مدينة مكة» (١) ، وختمها بمؤلف النهر والى (توفى سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢) . ويحتوى كتاب اوغست رالى «المسيحيون فى مكة . . .» (٢) عرضا لانطباعات رحالة اوروبيين زاروا هذه المدينة بدءا من سنة ١٥٠٣ (لودوفيكو بارتيمبا) وانتهاء بسنة ١٨٩٤ (جرفه-كورتيليمون) . ان المواد التى استرعت انتباه صاحبي هذين الكتابين ترتبط فى المقام الاول بمكة والمدينة مباشرة ، ولكنها تتسم باهمية خارقة على صعيد دراسة الحج بالذات ، ودوره التاريخى الثقافى والاجتماعى السياسى فى المجتمع الاسلامى . ان دراسة مختلف المصادر من هذا النوع بمجملها ، ومنها مثلا الوصف الشعري للحج بلغة «الحميادو» من وضع مؤلف مغربى مجهول فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣) تتيح لنا ان نرى فى الحج شكلا للوحدة فى الايمان التى توحد ملايين المسلمين على اختلاف بلدانهم وتقاليدهم القومية والثقافية . وباعتبار الحج عنصرا محوريا ، تتيح لنا هذه الدراسة ان نرى تاريخ

الشعوب الاسلامية في وحدته . وان المؤلف يود لو يعتبر هذا البحث قسطا في بناء صرح جليل لهذا التاريخ .

وهذا الكتاب الذي نضعه بين ايدي القراء يركز على وثائق ومواد فريدة وعسيرة المنال من الارشيفات والمكتبات السوفيتية : ارشيف المستشرقين ومكتبة فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكااديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، ارشيف الدولة العسكرية التاريخي المركزي (موسكو) ، ارشيف الدولة التاريخي المركزي (لينينغراد) ، مجموعات المخطوطات والوثائق لدى اكااديمية العلوم في جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفيتية (طشقند) ، ارشيف الدولة المركزي للاسطول البحري العربي (لينينغراد) ، ارشيف سياسة روسيا الخارجية ، ارشيفات مكتبات اخرى في لينينغراد وموسكو وقبيليسي .

يعود مكان الصدارة في هذا الكتاب الى المواد المتعلقة برحلة الضابط في الجيش الروسي ، النقيب عبد العزيز دولتشين الى مكة والمدينة سنة ١٨٩٨ . ولكي يحصل القارئ على تصور عن كل طيف الآراء والتقييمات المتواجدة في روسيا على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين بصدد الحج ، جمعنا في الملاحق سلسلة من المواد ، في عدادها انطباعات عن الحج ، اصدرها حجاج بسطاء من منطقة الفولغا والاورال الجنوبي وتركستان تبرز اولوياتهم واهتماماتهم وتعطى تصورات عن العقائد الشعبية العديدة بصدد الحج ؛ نظرة الى الحج من كاتب تقدمي اجتماعي اسلامي ومن معاون في القنصلية الروسية في جدة مفعم بالروح الاوروبية ؛ رأي كاتب اجتماعي مفعم بالشوفيتية وروح الدولة الكبرى في حج المسلمين من رعايا دولة روسيا ، واخيرا ، وثيقة رسمية لوزارة الداخلية في امبراطورية روسيا تتعلق بتنظيم حج المسلمين .

يعرب المؤلف عن خالص الامتنان لنوريه بكياشيفا على العون الكبير الذي قدمته في مجال دراسة الوثائق ، وكذلك للدكتور عبد الجبار عبد الوحيدوف والدكتور حميد الله حكمت اللايف على العون في اعداد المخطوطات من مجموعة اكااديمية العلوم في جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفيتية لاجل النشر .

* * *

ان القرار غير العادي نوعا ما بارسال الضابط في الجيش الروسي ، المسلم من حيث الاصل والتربية ، النقيب دولتشين ، قد اتخذ في وضوح

تعاطف فيه كثيرا دور العامل الاسلامي في سياسة روسيا الداخلية والخارجية . وقبل ان نشرع في عرض المواد التي في مثالنا والمتعلقة بحياة دولتشين ونشاطه ، نحاول ان نرسم اطار السياسة الخارجية والداخلية الذي اتخذ فيه هذا القرار ، وخصائص العلاقات بين الطوائف والعلاقات بين المسلمين في روسيا على تغوم القرنين التاسع عشر والعشرين ، والقضايا الناشئة لمناسبة حج المسلمين من رعايا روسيا .

النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو مرحلة تعاطف نفوذ روسيا في الشرق الاوسط وفي آسيا الوسطى بسرعة وحدة . وقد شهد عام ١٨٩٨ ضم اقليم تركستان الى روسيا . فقد التحق بقوام الامبراطورية الروسية - علاوة على الشعوب الاسلامية التي كانت تعيش فيها من قبل - الملايين والملايين من المسلمين ومن حافظوا على كل بنية علاقاتهم في اطار العالم الاسلامي . ومع خانة (امارة) بخارى وخانة (امارة) خوى ، بلغ عدد الرعايا المسلمين في الامبراطورية ١٦ مليون نسمة . ومن حيث الجوهر لم يبد السكان المحليون مقاومة بوجه القوات المسلحة الروسية . وفي غضون ٣٥ سنة (١٨٤٧-١٨٧٩) من العمليات الحربية التي جرت هنا ، خسرت روسيا ، بموجب المعطيات الرسمية ، زهاء ٤٠٠ قتيل (٤) . ان تخفيض ضريبة الارض الى النصف ، واعفاء السكان من الخدمة العسكرية ، وتوظيفات الراسمال الكبيرة ، ومستوى احترام الادارة الروسية لعادات السكان المحليين وتقاليدهم الدينية ، ومنافع التجارة المحلية من اتساع الاتصالات مع روسيا - كل هذا خفف كثيرا في عيون السكان المحليين من عواقب توسع القيصرية الاستعماري . وبموجب استنتاجات لجنة التفتيش برئاسة المستشار السري غيرس (سنة ١٨٨٢) ، بدأ في سنة ١٨٨٦ تطبيق لائحة ادارة اقليم تركستان . وقد نصت هذه اللائحة على مساواة حقوق السكان المحليين بالحقوق التي كان يتمتع بها السكان الروس ضمن حدود الامبراطورية ، وعلى تطبيق نظام قضائي مستقل ، وتخفيض عدد موظفي الادارة في الاقضية ؛ واخيرا على تطبيق «مبدأ الانتخاب» عوضا عن تعيين مدراء النواحي . وكان يبدو ان التهدة قد تحققت في المنطقة . ولكن نشبت فتنة انديجان في ١٨ ايار (مايو) ١٨٩٨ ؛ وفي سياقها ذبح ٢٠ جنديا روسيا وجرح ٢٢ جنديا ، وقطع رأس مستوطن روسي . قامت هذه الفتنة تحت شعار الجهاد ، وتراسها الزعيم الصوفي المحلي ايشان محمد علي صابر اوغلي ، الذي قام قبل ذاك بقليل بالحج الى مكة والذي استقبل ، كما بين التحقيق ، رسلا من اسطنبول . وفي عداد المشتركين في الفتنة كان خمسة من مدراء النواحي ، وقضاة انتخبهم السكان المحليون .

وفي سياق المحاكمة ، ذكر محمد علي صابر اوغلي في عداد دوافعه فساد الاخلاق ، والانحراف عن مقتضيات الشريعة ، والغاء الزكاة وقوانين الاوقاف ، واخيرا ، منع الحج . وبالفعل وضعت الخزينة يدها على الاراضي المسماة باوقاف السواد («قره وقوف») التي اعتبرت وثائق ملكيتها غير شرعية ؛ ومرارا منعت السلطات الحج بسبب وباء الكوليرا ووباء الطاعون .

ان تحليل هذه الاحداث ، وكذلك الاضطرابات التي وقعت قبل ذلك في سنة ١٨٧٢ (في منطقة نهر قره سو) وفي سنة ١٨٩٢ في طشقند ، قد يبين الدور الكبير الذي لعبه ذوو المكانات الدينية (الايشانات) في تنظيمها . ولم تستطع السلطات او لم تشأ ان ترى في هذه الاضطرابات بداية لحركة واسعة معادية للاستعمار تجلت بعد بضعة اعوام فقط في الكثير من التمردات والانتفاضات التي شملت عددا من المراكز الهامة في تركستان .

في اواخر القرن التاسع عشر ، اشتد الصراع بين الدول الاستعمارية على السيطرة في منطقة الخليج العربي وحوض البحر الاحمر (٥) . والى هذا الصراع ، وعلى الاخص بصدد بناء سكة حديد بغداد ، انجذبت روسيا ايضا . وظهرت في الخليج العربي السفن الحربية والتجارية الروسية (٦) . وقد حاولت الاطراف المتصارعة هنا الاستفادة في مصلحتها من بأس روسيا ونفوذها . ومن الادلة الطريفة على محاولات الدبلوماسية الالمانية من هذا النوع رسائل ادوارد غلازر الاختصاصي في تاريخ جنوب الجزيرة العربية وثقافتها ، وعميل المخابرات الالمانية الكبير كما يتضح من هذه الرسائل التي ارسلها في خريف ١٨٩٨ الى وزير الخارجية في روسيا ميخائيل مورافيوف . وهدف هذه الرسائل ومحورها الرغبة في استثارة تدخل روسيا في شؤون الجزيرة العربية الى جانب تركيا ، الامر الذي كان من شأنه ان يؤدي في آخر المطاف الى تقارب فرنسي روسي الماني ذي وجهة معادية للانجليز . وفي المانيا كانوا يخشون خارق الخشية من ان توافق روسيا على اقتراح بتقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق نفوذ مع احالة جميع الاراضي العربية الى انجلترا . هذه المقترحات تقدم بها في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٩٨ رئيس وزراء بريطانيا العظمى سولسبيري . وقد كان من شأن تطبيقها ان يؤدي الى انهيار سياسة القيصر الالمانى «البغدادية» كلها . وقد حسب سولسبيري ، اذ تقدم باقتراحاته ، ان تحول المانيا دون تعزيز مواقع روسيا في الشرق الاوسط تعزيزا جوهريا وان تعود الاراضي العربية الى انجلترا . ولكن الدبلوماسية الروسية درست وتفهمت فحوى مقترحات غلازر ، فرفضت تطبيقها (٧) ، كما رفضت الموافقة على مقترحات سولسبيري .

ومن جراء ذلك ، قامت فى الصحافة الانجليزية وبخاصة فى الصحافة الانجلو-هندية حملة واسعة ضد روسيا فى خريف سنة ١٨٩٨ وفى ربيع سنة ١٨٩٩ ؛ وقد اتهمت الحكومة الروسية بالاعداد لاحتلال سلطنة تاجورا ، وبارسال' العملاء الى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج (٨) .

وفى روسيا تفاقم الحذر من سياسة المانيا فى الشرق الادنى . وقد قدروا فى روسيا كل عمق نفاق «السياسة الاسلامية» التى كان ينتهجها القيصر الالمانى غليوم الثانى الذى ارسل الى القيصر الروسى نيقولاى الثانى رسالة بتاريخ ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ كتبها اثناء اقامته فى القسطنطينية : «تذكر اننا انت وانا قد اتفقنا فى بيترهوف على الا ننسى ابدا ان من الممكن ان يصبح المسلمون ورقة كبيرة للغاية فى لعبتنا اذا ما وجدنا انفسنا فجأة ، انت وانا ، فى حالة حرب مع دولة معروفة تدس انفسها فى كل مكان» (٩) . وقد فهموا فى بطرسبورغ ان محاولة المانيا لاستغلال الامزجة الاسلامية ضد اتجلترا موجهة ايضا ضد روسيا التى يعيش فيها الملايين والملايين من المسلمين . والى هذا اشار ، مثلاً ، نشر الترجمة الروسية فى سنة ١٩٠٢ فى برلين لكتاب الكاتب الاجتماعى الاسلامى التوحيدى مير على من الهند «حياة وتعاليم محمد او روح الاسلام» ؛ وفيما بعد ، فى عشية الحرب العالمية الاولى وفى سياقها ، صدرت فى برلين نداءات الى مسلمى آسيا الوسطى تدعوهم الى الجهاد .

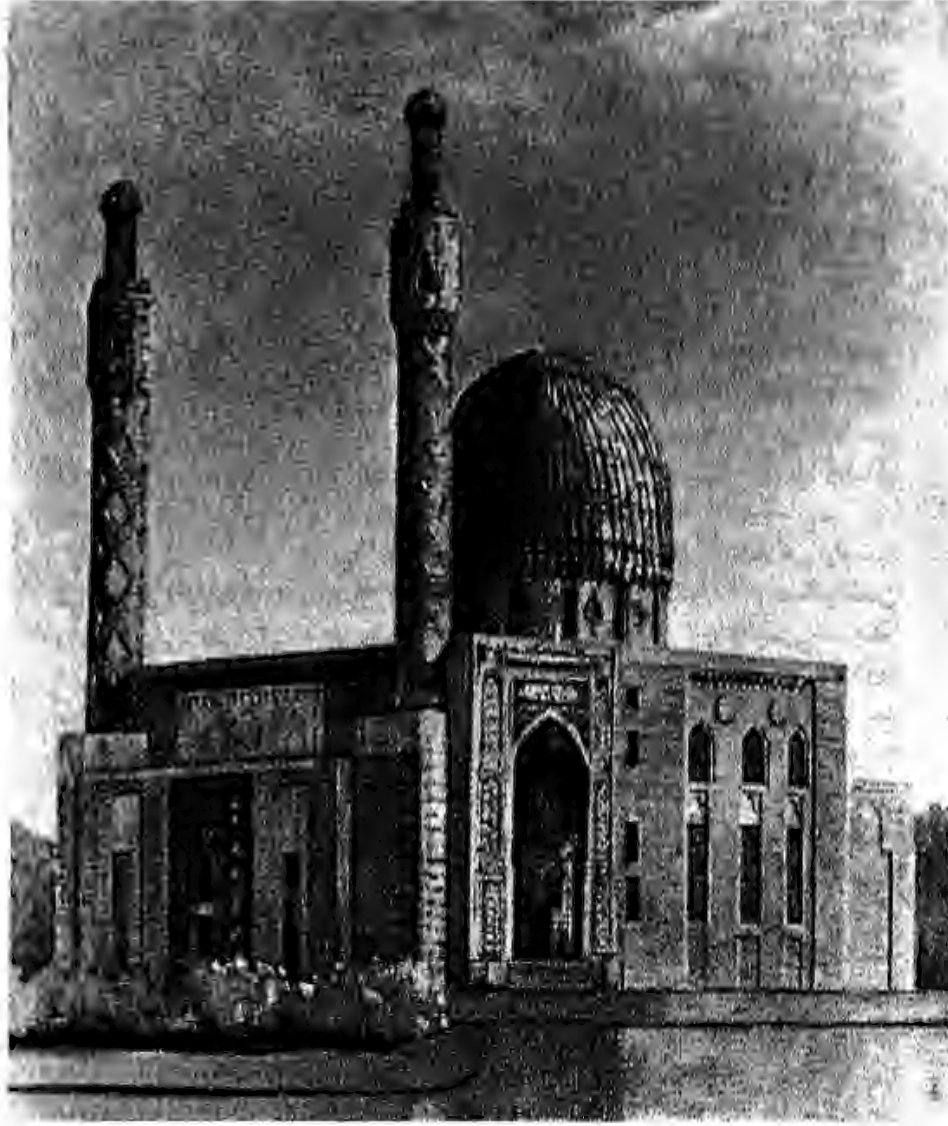
وبما ان روسيا كانت ترى فى الخليفة التركى عدوا حرييا دائما ، فقد كانت تنتهج بالطبع حيل الاسلام سياسة حذرة قوامها تأمين حرية الاعتقاد وحرية ممارسة الشعائر الدينية لاجل السكان المسلمين ، والاعتماد على رجال الدين المسلمين ذوى التفكير التقليدى ، وتحويل الائمة والمفاتي من حيث الجوهر الى موظفين حكوميين ، وكذلك الموقف السلبى من اغلبية حركات التجديد فى الاسلام ، والنضال ضد الدعاية الاسلامية التوحيدية والدعاية التركية التوحيدية .

فى سنة ١٧٨٧ ، صدر فى بطرسبورغ نص القرآن بامر من الامبراطورة ايكاتيرينا الثانية . وهذا النص اعده الملا عثمان ابراهيم وزوده بالتعليقات . وقد اعيد طبع النص مرارا عديدة فى بطرسبورغ ثم فى قازان . وقد صدرت احدى الطباعات على حساب الخزينة وخصيصا «لجل التوزيع على الشعب القرغيزى القيساقى» . وبموجب فرمان بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٠٠ لغيت القيود على اصدار المطبوعات الدينية الاسلامية فى روسيا ؛ وفى سنة ١٨٠٢ ، افتتحت فى قازان اول مطبعة اسلامية . وفى

سنة ١٨٢٩ صادق الامبراطور نيقولاى الاول على نموذج تصميم وواجهة لاجل بناء مساجد كان ينبغي تخصيص امكنة لائقة لها فى المقامات السكنية الاسلامية . وفى سنة ١٨٣٣ صدر فرمان يطالب جميع مسلمى روسيا بالتقيد الدقيق بمقتضيات دينهم وعقائده وبمعاقة المخالفين معاقبة صارمة . ومن السهل مواصلة تعداد الوقائع من هذا النوع ؛ ولكن هذه المتطلبات لم تكن تمنع الدعم الرسمى لرسالة الكنيسة الارثوذكسية فى حقل التبشير والدعوة الى اعتناق الدين المسيحى شرط عدم جواز اعمال العنف والتطرفات التى كان من شأنها ان تؤدى موضوعيا الى الاخلال بالاستقرار فى الامبراطورية الروسية .

ادت سياسة روسيا حيال الاسلام الى تعاظم التعاطف معها فى صفوف الشعوب الاسلامية . واننا نجد دليلا طريفا على ذلك فى «تقرير» دولتشين الذى اورد قول المدرّس السيد علي ظاهر المشهور فى الحجاز : «إيماننا صحيح ؛ ولا ريب فى هذا ؛ ولكن لا وجود للعدالة فى الدول الاسلامية ؛ يجب البحث عن العدالة عند الروس» (١٠) . وفى هذا كان اخصام روسيا يستشفون خطرا على مصالحهم . وفى سنة ١٨٧٣ اتهمت الجريدة الانجليزية «Pall-Mall Gazette» روسيا بدعم الهيئات الدينية الاسلامية اذ رأت فيه مكائد ضد انجلترا (١١) . وفى سنتي ١٨٧٣ و ١٨٧٤ غالبا ما كان الشاه الايرانى نصر الدين يردد «ان الروس اخطر من الانجليز لان المسلمين يكرهونهم اقل مما يكرهون الانجليز» (١٢) .

على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين تبدت بكل وضوح فى اوساط المسلمين من رعايا روسيا ايضا التغيرات فى وعى الشعوب الاسلامية الدينى ، ونشوء الاتجاهات المتصلة بتعاليم المهدي والبعث الاسلامي وتطور الميول الاصلاحية فى الفكر الدينى والفكر الاجتماعى السياسى . وفى عداد الوقائع من هذا النوع يسترعى الانتباه ظهور «فوج فايسوف الربانى» فى سنة ١٨٦٢ ، الذى اسسه بهاء الدين فايسوف (١٨٠٤-١٨٩٣) والذى دام حتى سنة ١٩١٨ ، عندما قتل ابن مؤسس الحركة عنان الدين فايسوف الذى واصل قضية والده . ان ايدولوجية هذه الحركة التى كانت تحظى دوريا بوسع الانتشار بين السكان المسلمين فى منطقة الفولغا كانت ترتبط سواء بتقاليد الطريقة «النقشبندية» ام بافكار البعث . وقد طالب زعماء هذه الحركة فى مؤلفاتهم وفى ممارستهم (١٣) سواء بالخضوع التام لاحكام القرآن ، ام بالامتناع المطلق عن الاتصال مع سلطات الدولة ومع معلى الاسلام التقليدى . وقد احيل الفايسوفيون الى المحاكمة بسبب الامتناع عن اداء



- بطرسبرج، الجامع الكبير. نسخة من لوحة لرسام مجهول.
سنوات العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين.

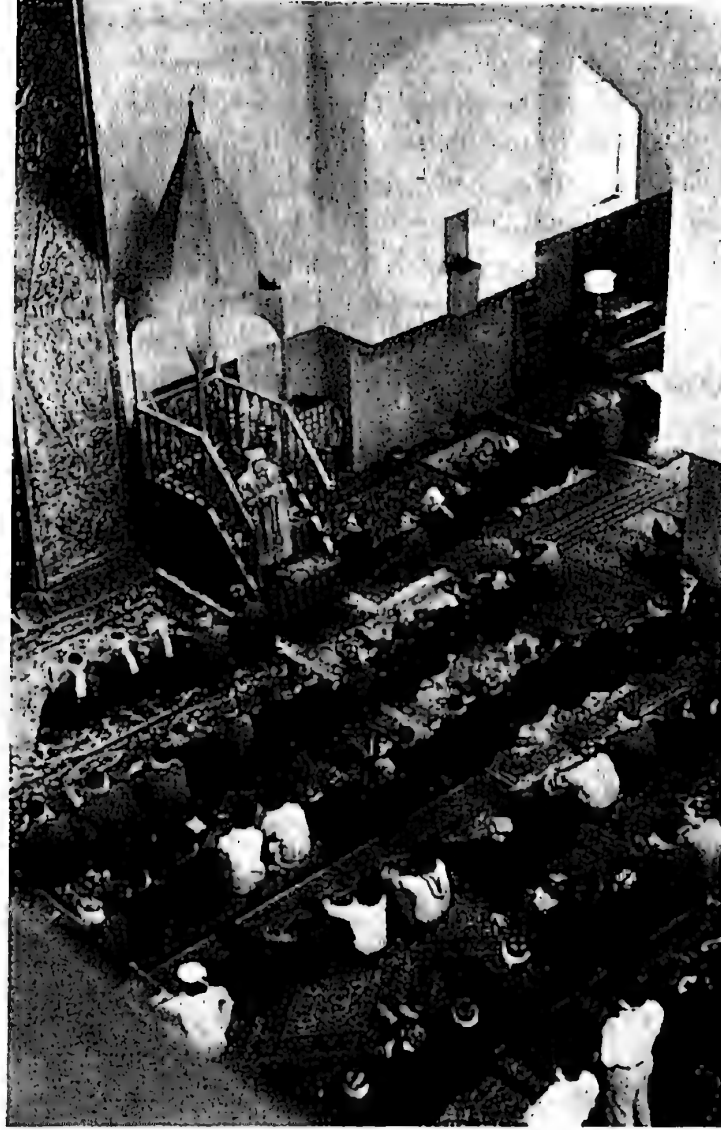
الخدمة العسكرية ، كما ان مؤسس الحركة توفي اثناء سجنه في مستشفى الامراض النفسية في دائرة قازان . ورغبة في نيل الدعم من جانب الراى العام الروسى تراسل ابنه وتلاقى مع ليون تولستوى (١٤) . ان انتشار الامزجة المهدية التى كتب عنها دولتشين قد مس كذلك اراضى الامبراطورية الروسية . فقد كتبت جريدة «سانكت-پيتربورغسكيه فيدوموستى» (العدد ٦٤ لسنة ١٨٨٣) فى رسالة «من القفقاس» ان مسلمى القفقاس يتحدثون دائما عن قرب مجيء المهدي وان انباء الجرائد عن المهدي السودانى «صبّت النار فى لهيب التوقعات الشعبية ، وان المسلمين تتبعوا بانتباه وتوتر الاحداث التى تتطابق مع تعاليم الكتب الاسلامية» . ويستفاد من اقوال ن . ب . اوسترووموف الذى استشهد باحاديثه مع المسلمين ان «الحجاج المسلمين من رعايا روسيا الذاهبين الى مكة والمدينة كانوا يحاولون ان يروا فى الطريق المهدي الذى كان قد بدأ العمل فى السودان وان ينحنوا امامه . . .» (١٥) . وفى سنة ١٨٨٨ ، جاء الى مدينة اوبا البشكيريان تشوفاشوف وعبدالوف ، وصرح الاول انه «النبي المهدي» وعلن الثانى انه «رسول النبي» . وقال الاثنان انهما جاءا الى اوبا ليخاطبا المفتى والعالم الاسلامى كله . وقد اعتبروا الاثنان مجنونين (١٦) .

ومن جراء اليقظة القومية والثقافية للشعوب الاسلامية القاطنة فى روسيا ظهرت فى اوساط المثقفين القوميين جماعة من الكتاب الاجتماعيين والسياسيين ممن كتبوا من مواقع اصلاحية . وبرزهم كان رئيس تحرير الجريدة الروسية التتيرية «بيريفودتشيك»/«الترجمان» (مدينة بختشى سراى) اسماعيل بك غاسبرينسكى (١٨٥١-١٩١٤) الذى كان غالبا ما يتحدث مع ليون تولستوى اثناء استراحته فى غاسبيرا ، وامام سانكت بطرسبورغ عطالله بايازيدوف (توفى سنة ١٩١١) ، والكتاب الاجتماعيون والسياسيون احمد بك اغايف ، ودولت قيلديف ، وسليم غيرى سلطانوف (١٧) . وقد عرضوا فى مقالاتهم وكراريسهم افكارا قريبة جدا من افكار كبار المصلحين المسلمين من امثال سيّد احمد خان (١٨١٧-١٨٩٨) ، وجمال الدين الافغانى (١٨٣٩-١٩٠٩) ، ومحمد عبده (١٨٣٤-١٩٠٥) . ان انتقاد الموقف الذى وقفه ارست رينان فى محاضراته فى جامعة السوربون (١٨) لم يظهر فى مقالة الافغانى المنشورة فى «Journal des débats» وحسب ، بل ظهر كذلك فى كراس بايازيدوف «موقف الاسلام من العلم وغير المسلمين» (سانكت بطرسبورغ ، ١٨٨٧) . وكانت قضية اصلاح التعليم (١٩) من عداد القضايا الرئيسية التى تناولها الجدل بين المسلمين التقدميين

«الجديديتين» والمسلمين المحافظين «القديماتيين» . وقد تعاون المسلمون التقدميون مع الأحزاب المعارضة ، ورحبوا فيما بعد بأحداث سنة ١٩١٧ . وبالمقابل استثار نشاطهم حذر السلطات الرسمية وارتياها ، وانتقاد وغضب الشوفيين المفعمين بروح الدولة الكبرى . وقد كتب احدهم ، وهو ن . اى . ايلمينسكى (١٨٤٢-١٨٩١) : «المتعصب بدون التعليم الروسى واللغة الروسية افضل نسبيا من التترى المتمدن على الطريقة الروسية ، والاريسقراطى اسوا من هذا الاخير وذو التحصيل الجامعى اسوا ايضا» (٢٠) . وقد وافقه فى الراى ف . تشيريفانسكى ، عضو «المدولة الخاصة فى شؤون الايمان» ، ومؤلف عدد من البحوث كان بهاؤها بمثابة تحذير من «خطر فادح» مزعوم يتهدد بلدان اوروبا من جانب العالم الاسلامى (٢١) . ولكن الآراء من هذا النوع لقيت الرد والصدى سواء فى الصحافة الديموقراطية الروسية ام فى بحوث المستشرقين الروس الحقيقيين (٢٢) .

ومن قلق الاوساط الحاكمة بصدد الوضع فى المناطق الاسلامية من الامبراطورية الروسية ، نبعت ضرورة جمع المعلومات الموضوعية بشأن مجموعة القضايا المتعلقة بدور الاسلام فى الحياة الاجتماعية والسياسية للسكان المسلمين فى روسيا ، بما فيها قضية حج المسلمين من رعايا روسيا . وبناء على امر من محافظ تركستان س . م . دوففسكى ، انشئت فى سنة ١٨٩٨ لجنة خاصة لدراسة احوال ونشاط رجال الدين المسلمين فى اقليم تركستان . وقد نشر التقرير عن نشاط هذه اللجنة فى سلسلة «مواد فى الاسلام» التى شرعت تصدرها فى عام ١٨٩٨ هيئة اركان الدائرة العسكرية التركستانية . وفى هذه السلسلة وردت ايضا مقالة عن الحج بقلم الملازم ياروفرافسكى (٢٣) .

وتدرجيا اخذت قضية الحج الى مكة تكتسب المزيد والمزيد من الاهمية ؛ وفى المقام الاول اعتبروا الحج سبيلا لتسرب افكار الجامعة الاسلامية الى روسيا . وفى ذلك الوقت كانوا يقيّمون الحج ، لا فى روسيا وحسب ، بل ايضا فى الدول الاوروبية الاخرى ، كظاهرة دينية سياسية قبل كل شئ ، علما بانهم كانوا غالبا ما يربطون الاضطرابات فى المستعمرات الاسلامية السكان بامر من مكة (٢٤) . وفى ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٨ (كانت تدور رحى الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨) افاد مراسل وكالة رويتر من القسطنطينية ان «رئيس لجنة «الهلال الاحمر» راح الى مكة بذريعة مراقبة تطبيق التدابير الصحية نظرا لاقتزاب عيد الاضحى . اما هدف سفرته الحقيقى ، فكان يتلخص فى تبادل الآراء مع الحجاج من الهند



- الصلاة في الجامع الكبير بمدينة بطرسبرج.

وافغانستان وآسيا الوسطى الذين كان من المتوقع ان يصلوا الى مكة باعداد كبيرة فى الشهر المقبل وفى التأثير فيهم بروح ملائمة للسياسة الانجليزية ومعادية لروسيا» («غولوس» ، سانكت بطرسبورغ ، سنة ١٨٧٨ ، العدد ٢٨٩) . ودون تقييم موضوعية هذا الخبر ، تجدر الاشارة الى انه يدل على الاقل على رأى الصحفى من وكالة رويتر بصدد احتمال تأثير الحج العسكرى السياسى .

ان مؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين القروسطيين تبيّن ان ممارسة الحج الثابتة قد قامت على امتداد قرون عديدة عند السكان المسلمين فى الاراضى التى دخلت فيما بعد فى قوام روسيا . فان ابن بطوطة ، مثلا ، يرى ان اسم مدينة استراخان نفسه يرتبط باعفاء هذه المدينة من الضرائب لان حاجا تقيا كان يعيش فى هذه الانحاء (٢٥) . وقد لعب الحج دورا كبيرا جدا فى انتشار الممارسة الدينية والعادات القائمة فى سائر مناطق العالم الاسلامى الى هذه الاراضى . ومن الامثلة على ذلك ، نشاط شيخ الطريقة النقشبندية زين الله رسوليف (١٨٣٣-١٩١٧) (٢٦) . ولا ريب فى ان الحج كان ايضا قناة بالغة الشأن لايصال مخطوطات مؤلفات هامة جدا للشخصيات الاسلامية الكبيرة الى الاراضى الداخلة فى قوام الامبراطورية الروسية ، الامر الذى كان ييسر فعلا تبادل الافكار والنظرات فى العالم الاسلامى . وكان الحجاج يتمتعون بين مواطنيهم بعقيق الاحترام . ومن الامثلة على ذلك ، وصف لقاء فريق من الحجاج فى مدن آسيا الوسطى من وضع ا . فامبيرى . اللقاء فى غموشتيه : «انتشر نبأ وصولنا فى كل مكان : النساء والاولاد وحتى الكلاب تدفقوا فى حيرة غريبة من الخيام لكى يلقوا نظرة الى الحجاج المقتربين ، وينالوا بلمسهم ، جزءا من الافضال والمكافآت الناجمة عن الامر الربانى عن الحج . . . غريب ! الشبان والشيوخ ، دون تمييز فى الجنس او اللقب ، الجميع رغبوا فى لمس الحجاج الذين نزل عليهم غبار المدينة او مكة المقدس . احكموا على دهشتى حين اندفعت نساء رائعات الجمال وحتى فتيات الى معانقتى ! لقد تملكنا التعب والعذاب من جراء مظاهر الاحترام هذه» . ثم جاء : «اما فى بوابة خوى ، فقد استقبلنا بضعة اتقياء من سكان خوى وقدموا لنا الفواكه المجففة والخبز . من زمان بعيد لم يتوافد الى خوى مثل هذه الكثرة من الحجاج . كان الجميع ينظرون الينا بدهشة ! ومن جميع الجوانب كانت تصل الى مسامعنا هتافات : «اهلا وسهلا ! آه ، انت صقرى ! انت اسدى !» . وقد تأثرت بالغ التأثر حين اندفع الناس يبورسون يدى وقدمى - اجل ! - والشراريب المتدلية من حزامى» . وحين

غادر الحجاج خوى ، «تراكض كثيرون من السكان وراءنا حوالى نصف ميل : كانت مشاعر التقوى تتير الدموع من عيونهم ؛ وقد سمعنا هتافاتهم اليايسة : «من يعرف متى تسعد خوى مرة اخرى من ايواء مثل هذا العدد من الرجال الاتقياء ضمن جدرانها» (٢٧) .

نحو اواخر القرن التاسع عشر ، تكونت ثلاثة طرق رئيسية لحج الحجاج من رعايا روسيا (٢٨) .

١ - فى منطقة ما وراء القفقاس (ارمينيا واذربيجان وجورجيا) والقسم الشمالى من ايران عبر كرمشاه ومدينة خانقين الواقعة قرب الحدود مع تركيا ، فى اتجاه بغداد ، نحو كربلاء والنجف ، ثم عبر رمال الجزيرة العربية الى مكة والمدينة .

٢ - عبر سمرقند وبخارى ومزارى شريف وكابول وبشاور فى افغانستان ومن ثم الى بومباي (الهند) ، ومنها بحرا الى جدّة وينبع .

٣ - عبر اوديسا وسيباستوبول (لاجل المناطق الداخلية فى روسيا وسيبيريا) وعبر باطوم لاجل سكان آسيا الوسطى ومنطقة ما وراء قزوين ، عبر القسطنطينية والسويس وجدّة وينبع . كذلك شرعوا يستغلون السكة الحديدية الجديدة عبر فيينا والقسطنطينية .

كتب ياروفرافسكى ان «الطريق الاول بين الطرق المذكورة ينطلق عليه على الاغلب المنتون الى الشيعة من مسلمى منطقة ما وراء القفقاس ومنطقة ما وراء قزوين الذين يعطون من بيئتهم ، على ما يبدو ، العدد الاكبر من الحجاج ، اى نحو ١٢-١٥ الف شخص . وليس من النافل الاشارة الى ان حج مسلمى ما وراء القفقاس قد استقر برسوخ بفضل من يسمونهم «بالجاويشية» الذين يقومون حصرا بتكوين وتوديع قوافل الحجاج لقاء اجر معين . ان «الجاويشية» يتمتعون بكبير التأثير بين السكان ويشبهون فى الطريق ربان السفينة بحكم العادة ؛ بعض منهم احيانا من السكان المحليين وبعض آخر من الاثراك والعرب القادمين الذين يتسربون بلا عائق الى اراضى الامبراطورية الروسية ؛ وكل سنة يتجربون فى الوقت المناسب فى قرى الاقليم ، ويدعون بجميع الوسائل الى الحج ، ثم يعينون اماكن تجمع الحجاج ، ويقودونهم اخيرا عبر الحدود ، بدون اية مصاعب على ما يبدو ، دفعات كل دفعة من ٧٠ فارسا واكثر غير مزودين عادة باية جوازات سفر . ثم يتجمع الحجاج الذين يقودهم الجاويشية ، بعد عبور الحدود الايرانية ، لاجل مواصلة السير بصورة مشتركة ، الى نقطة من النقاط المختارة سلفا تبعا لامكنة اقامتهم ؛ وهذه النقاط هى عادة :



- اسطنبول، على تخوم القرن التاسع عشر والعشرين.
النقطة الرئيسية في طريق انطلاق الحجاج الروس إلى الجزيرة العربية.

١ - تبريز - لاجل سكان الاقسام الجنوبية من محافظة يريفان ومحافظة ايليزايتبول .

٢ - اردبيل - لاجل سكان القسم الجنوبي من محافظة باكو .

٣ - خوى - لاجل سكان القسم الغربى من محافظة يريفان ومنطقة قرص .

٤ - ٥ - انزلى وبلغروشى - لاجل الذاهبين بحرا من مدينة باكو والاقسام الشمالية من محافظة باكو ومن منطقة داغستان (مدينتى بتروفسك ودربند) .

وتبعاً لنقاط التجمع المذكورة ، تنقسم جميع الطرق التى يسلكها الحجاج فى ايران الى خمس فئات :

١ - تبريز - بيناب - «صاين قلعه» - كرمنشاه .

٢ - خوى - تبريز - كرمنشاه .

٣ - اردبيل - زنجان - همدان - كرمنشاه .

٤ - انزلى - رشت - زنجان - كرمنشاه .

٥ - بلغروشى - طهران - قم - كرمنشاه .

ومن كرمنشاه التى تتسم بالتالى باهمية خاصة بوصفها عقدة تقاطع جميع الطرق البالغة الشأن من حدود الامبراطورية الروسية الى الجزيرة العربية الخاضعة لتركيا ، يمضى الحجاج فى طريق واحد عبر ماهيدشت ، وغورون آباد ، وقريند ، وسريبول ، وكافى شيرين الى مدينة خانقين الحدودية ، ثم عبر شهرباد وبمقوبة الى بغداد او الى مدينة الكاظمية الواقعة بالقرب من بغداد ؛ ومن هناك يتفرقون الى كربلاء والنجف وغيرهما من الاماكن .

فى الاتجاه الثانى ، عبر سمرقند وبخارى الى افغانستان ، مع قطع الطريق من بيشاوار الى بومباى بالسكة الحديدية ، يمضى كل سنة من مناطق آسيا الوسطى ٤ - ٧ آلاف من الحجاج . وهؤلاء يفضلون هذا الاتجاه رغم كل طول الطريق وغلائه وصعوبته ، وذلك اساسا ، بسبب السهولة المتوفرة لهم لتحاشى جميع المتطلبات المتعلقة بجوازات السفر ، ثم لانه الطريق الذى تكون على امتداد القرون والذى تقع عليه ، فيما تقع ، مدينة مزار شريف حيث مقام علي (صهر النبى محمد) الذى يملك ، كما يقول المسلمون ، قوة عجيبة لشفاء العميان والخرس . ومن مزارى شريف يمضى الحجاج عبر طش كورغان ، وغى باغ ، وشاريقار ، وكابول ، وغزنى ، وقندهار وكنه ، ثم بالسكة الحديدية الى مرفا كاراتشى ومنه بالباخرة الى بومباى ؛ ويمضى الآخرون عبر جلال آباد الى بيشاوار ، ومنها بالسكة الحديدية الى بومباى .

واخيرا الطريق الثالث ، وهو الاسهل والاقصر ، ينطلق من مرافىء البحر الاسود الى القسطنطينية والسويس ، ويستفيد منه جميع التتر وسنتيو القفقاس والقرغيز القاطنون فى غرب المنطقة من رعايا الامبراطورية الروسية ؛ وجميعهم يقدمون كل سنة بين الفين وثلاثة آلاف حاج ؛ وبينهم يتواجد فى الوقت الخالى من الاوبئة ، نظرا للمراقبة الشديدة هنا ، عدد من حملة جوازات السفر ؛ اما فى السنوات غير الملائمة (حين تمنح الحكومة الحج) ، فانه يتبين ان الاغلبية الساحقة منهم مزودة باوراق تركية وفارسية وبخارية قديمة يحصلون عليها لقاء ثمن باهظ فى باطوم واوديسا» (٢٩). ولتبيان ما كان يتوقع الحجاج فى طرقهم الى مكة ، نورد فى «ملاحق» هذا الكتاب ملاحظات سفر لحجاج قاموا برحلاتهم فى مسيرات مختلفة .

تشير جميع مصادرنا الى ان الحجاج من رعايا روسيا كانوا يفضلون ، كما من قبل ، استعمال جوازات السفر التركية والفارسية والبخارية القديمة ، وحتى جوازات السفر الصينية . ومرد ذلك الى التعقيدات البيروقراطية التى كانت ترافق الحصول على جوازات السفر فى روسيا ، والى المنع الدورى (مثلا ، فى سنوات ١٨٩٢-١٨٩٥ ، ومنذ النصف الثانى من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩٠٠) من اعطاء جوازات السفر للحجاج نظرا لخطر الاوبئة فى الشرق . ان غياب الوثائق الرسمية لم يقلل عدد الحجاج من رعايا روسيا ، ولكنه جعلهم رهنا بشتى ضروب الانذال الذين كانوا يأخذون منهم مبالغ ضخمة من النقود لقاء جوازات السفر . وان الرسم الكاريكاتورى الذى اخذناه من مجلة المسلمين التقدميين «الملا نصر الدين» الصادرة فى تفليس يسخر من جنس «الشاطر» الذين يبتزون الارباح من طموح آلاف الحجاج غير المجريين وسعيهم المشكور الى زيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد كتب ياروف-رافسكى : «يتشكى جميع الحجاج على الخصوص من ابتزاز الاموال الرهيب فى عموم افغانستان . فعن حق دخول الاراضى الافغانية ، وعن الحصان ، وعن الاشياء ، وغير ذلك ، مثلا ، كانوا يتقاضون فى مزارى شريف من كل حاج روبية واكثر ، وفى وزيرآباد روبيتين ، وفى باميان وقاضىآباد وطوشزار روبية ، وفى شاريقار ٩ روبيات ، وفى كابول ٥١/٧ روبيات ، وفى جلالآباد روبية ، والخ . . فضلا عن هذه الاتاوى ، لم يكن من النادر ان يصبح الحجاج ضحايا الكذب والخداع والابتزاز فى بومباى من جانب من كانا يقولان عن نفسيهما انهما وكيلان حجاج بخارى ، سليمان خوجا (وهو من مواليد انديجان) ويوسف علي (من مرغلان) . ويقول الحجاج ان سليمان خوجا الذى ارسل منذ عشر سنوات الى بومباى مع اوراق من امير افغانستان بصفة دليل ووكيل

لاجل الحجاج يبتز من كل منهم بضعة روبيات عن المسكن ، وعن اركابهم على متن باخرة ، وخلافه ، ناهيك بانه يجبرهم بالقوة على شراء الطحين والرز والقمح من بائع يعرفه ومنه وحده مؤكدا لهم انهم سيبيعون كل ما اشتروه بريح فى جدّة . صحيح ان ثقل بضعة اكياس من الطحين والرز من بومباى بالباخرة مجانى ، ولكن ثمن هذا الطحين او الرز او القمح فى جدّة مثل ثمنه فى بومباى واحيانا ارخص .

وفى باطوم ايضا حيث يعيش الفارسي خوجا علي يتعرض حجاجنا لابتزاز الاموال وعمليات التعسف لانهم لا يحملون جوازات سفر ؛ فان خوجا علي لا يفعل غير ان يبيع من حجاجنا ، بواسطة يولداش وكولداش من بخارى ، تذاكر هوية فارسية قديمة واوراقا بخارية قديمة . وتعتبر القسطنطينية النقطة التالية بعد باطوم من حيث ابتزاز الاموال وغير ذلك من عمليات التعسف . ففيها يتعرض حجاجنا ، حتى وان كانوا يحملون جوازات سفر ، من قبل مختلف الادلة ، لاساليب متنوعة ، منها اخذ جوازات السفر منهم لاجل اجراء معاملة الفيزا فى القنصلية العامة الامبراطورية ولاجل تسليمهم بموجبها تذاكر تركية . وبعد ان يتقاضى الادلة النقود عن هذا وذاك ، يعطون الحجاج التذاكر عند سفرهم بالذات ، ويعيدون لهم جوازات السفر بدون فيزا القنصلية . وبما ان كلفة جواز السفر الروسى مع فيزا القنصلية تبلغ ١٢ روبلا و ٦٠ كوبيكا ، فان هذا قد ادى الى خسارة تكبدتها الخزينة تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ الف روبل كل سنة (٣١) .

اما فيما يتعلق بعدد الحجاج ، فان مصادرنا تعطى الارقام التالية :

عدد الحجاج الاجمالى :

سنة ١٨٠٧ - ٨٢٠٠٠	سنة ١٨٦٥ - ٩٠٠٠٠ (٣٢)
سنة ١٨١٤ - ٧٠٠٠٠	سنة ١٨٨٤ - ٤٦٢٨٠ (٣٣)
سنة ١٨٥٤ - ٥٠٠٠٠	سنة ١٨٨٨ - ١٠٠٠٠٠ (٣٤)
سنة ١٨٥٥ - ٨٠٠٠	سنة ١٨٩١ - ٤٤٩٠٠
سنة ١٨٥٦ - ١٢٠٠٠	سنة ١٨٩٢ - ٥٣٩٦٢
سنة ١٨٥٧ - ١٤٠٠٠	سنة ١٨٩٣ - ٨٦٤٨٩
سنة ١٨٥٨ - ١٦٠٠٠٠	

وبالاعتماد على تقارير القنصل الروسى فى جدّة ليفيتسكى ، يسوق الملازم ياروفرافسكى المعطيات التالية (٣٥) .

ثم كتب ياروفرافسكى : «مع الانتقال الى عرض التقرير عن الحجاج المسلمين من رعايا روسيا وبخارى بوجه الحصر ، يلفت القنصل فى جدّة

قائمة
الحجاج المسلمين (ما عدا حجاج روسيا)
من ١٦ تموز ١٨٩٠ (يوليوس) الى اول تموز ١٨٩٤

التقريبية	الحج سنة ١٨٩٢ من ٢١ آب (اغسطس) الى ٢٠ تموز ١٨٩٢			الحج سنة ١٨٩٣ من ٨ تموز ١٨٩٣ الى ١ تموز ١٨٩٤			الحج سنة ١٨٩٤ من ١٠ تموز ١٨٩٣ الى ١ تموز ١٨٩٤		
	صير			صير			صير		
	جدة	نتيجه	المجموع	جدة	نتيجه	المجموع	جدة	نتيجه	المجموع
المواثر يون	١٥٥٤	١١	٣٨٥٠	٤٨٢٩	٢٥	٤٨٥٤	١٢١٥	٣٨	١٢٥٣
امريه	٢٠٨٦	٦٨	٢١٥٤	١٦٤٦	—	١٢٤٦	١٥٣٦	٢٦	١٥٥٢
اسمريون	٦٢٨٥	٥٤	٦٣٣٩	٧٩٠٠	٢١٩	٨١١٩	١٣٨٧٣	٤٧٢	٦٩٩٢
اسمريون	١١٠٣٥	١٢	١١٠٤٧	١٥٩٥٩	٣٨	١٥٩٩٧	١٥٤٧٨	٧	١٥٤٨٥
اسمريون والحجازيون	١٨٨٧	—	١٨٨٧	٢٦٩٣	—	٢٦٩٣	١٥٧	١٥٧	٢٥٦٤
اسمريون	١٧١٧	٢٣٧	١٩٥٤	١٠٢١	١٦٤	١١٨٥	٢٣٥٤	١١١	٢٤٦٥
اسمريون	٢٤٧	٤١	٢٨٨	٢٨٨	—	٢٨٨	٤٤٨	١٤	٤٦٢
الامريك والاسمريون	٣٢٨٥	١٨٠٦	٥٠٩١	٧٥٢٨	٢٢٢٨	٩٧٥٦	١٣٤٤٧	٥١٩٨	٧١١٤
مختلف القوميات على زوارق شراعية	١٠٨١٧	—	١٠٨١٧	١١٥٠٨	—	١١٥٠٨	١٣٨٥٦	—	١٢١٢٦
(مابك)	—	١٤٧٤	١٤٧٣	—	٣٣١٦	٣٣١٦	—	٢٤٥٢	١٢٦٧
المجموع	—	—	٤٤٩٠٠	—	٥٣٩٦٢	٨٦٤٨٩	—	—	٤٦٢٨٠

**قائمة
السفن التي دخلت مرفأ جدة بالحجاج
من ١٦ تموز (يوليوس) ١٨٩٠ الى اول تموز ١٨٩٤**

تحت اية راية	السج ١٨٩١ من ١٦ تموز ١٨٩٠ الى ٢ تموز ١٨٩١			السج ١٨٩٢ من ٢١ آب (انستس) ١٨٩١ الى ٢٠ حزيران (يوليوس) ١٨٩٢			السج ١٨٩٣ من ٢٠ حزيران (يوليوس) ١٨٩٢ الى ٨ حزيران ١٨٩٣			السج ١٨٩٤ من ٩ حزيران ١٨٩٣ الى ٣١ ايار (مايو) ١٨٩٤		
	من الجنوب	من الشمال	المجموع	من الجنوب	من الشمال	المجموع	من الجنوب	من الشمال	المجموع	من الجنوب	من الشمال	المجموع
النمساوية	٢	٦	٨	٢	٤	٦	١	١	٢	١١	١١	٢٢
الانجليزية	٥٢	١٧	٦٩	٥١	١٥	٦٦	٦٦	٢١	٨٧	٣	٢١	٢٤
الامانية	—	—	—	١	—	١	—	١	١	٢	٢	٤
الهولندية	٨	—	٨	٢٢	٨	٣٠	٢٠	٤	٢٤	١٢	١٢	٢٤
اليونانية	١	١	٢	—	١	١	—	—	—	—	—	—
المصرية	١٢	٢٠	٣٢	١٥	٢٩	٤٤	١٤	٤١	٥٥	١٧	٢٣	٤٠
الزنجبارية	١	—	١	١	—	١	١	—	١	—	—	—
البرتغالية	٣	—	٣	—	—	—	—	—	—	—	—	—
التركية	٥	٤	٩	١٦	٩	٢٥	١٢	١١	٢٣	١٠	١٠	٢٠
الفرنسية	—	٥	٥	—	٤	٤	—	١٢	١٢	—	—	—
المجموع	٨٤	٥٣	١٣٧	١٠٨	٧٠	١٧٨	١١٣	٩١	٢٠٤	١٠٩	٧١	١٨٠

قائمة
الادلة والوكلاء (بموجب تقرير القنصل في جدة)
عن سنة ١٨٩٣

الرقم	الادلة في مكة	الوكلاء في جدة	لاجل اى حجاج
من مواليد مكة			
١	علي محمود شكرى	محمد غيريتلى	من انديجان
٢	علي بيرينجى	محمد غيريتلى	من اوش
٣	الشيخ محمد اصغر	الشيخ حسين	من خوى
٤	أ- سيد احمد مؤذن	من مواليد طرابلس	الشركس
		احمد غوريانى	
		من مواليد جدة	
٥	ب- خليل دوى	محمد صالح بانفاس	تتر القرم
	سليمان مداح	الشيخ حسين من طرابلس	
	عباس عبد الرفاشين		
٦	من ذرية بنى (من مكة)	حميد بحرى الجدى	من داغستان
	من ذرية سنانى من مكة	محمد صالح بانفاس	
	ابراهيم سلميلى	محمد صالح بانفاس	
٧	ابراهيم ميرى	لا وكيل	من قوقند
	من ذرية اشجى من مكة	خوجا موسى من قشقار	
	من ذرية علي سروجى	عبد الرسول من	
٨	من مكة	مواليد اليمن	وتتر قازان
	سيد عبد القدير اصله	محمد دهاقينى من	من نامانغان
	داغستانى	مواليد جدة	
١٠	سيد محمد كوتشك	محمد جان	من بخارى
	من بخارى	من مواليد خوجند	سمرقند
		وخوجا موسى من	طشقند
		قشقار	مرغلان
			خوجند
			تركستان

الانتباه الى «المطوفين» او «الادلة» الذين مضوا في سنة ١٨٩٤ الى بخارى وتركستان لاجل دعوة مسلمينا الى الحج . فمن مكة ، مثلا ، راح دليلان من ابناء مكة هما سعيد حسن كوتشوك ، ابن سعيد حمود ، وعبد الله كوتشوك ، ابن خوجا-سريمسك ، ومن المدينة سيد محمد (وهو من مواليد بخارى) ، ابن معصوم خوجا .

جميع ادلة الحجاج ينقسمون الى فئتين : «المطوفين» او الادلة ووكلائهم ، وعلى رأسهم شيخ مع وكيله . والشيخ ، مثله مثل الادلة ، يُعين بفرمان خطي من شريف مكة ، بينما الوكلاء يختارهم الادلة .

ومع تقديم قائمة بالادلة والوكلاء لاجل رعايا روسيا وبخارى ، يفيد القنصل ان حسن غونغ (وهو من مواليد مكة) يعتبر شيخ جميع الادلة في جدة ، وان علي اخضر (وهو ايضا من مواليد مكة) وكيله . وفي المدينة لا وجود لشيخ الادلة .

ان بعض الادلة ، ومنهم مثلا المشار اليهم في هذه القائمة بالرقم ٣ و ٩ و ١٠ ، كانوا ، بعد سنة او سنتين ، يمضون بانفسهم الى روسيا وبخارى لاجل جمع الحجاج . وكان آخرون ، ومنهم مثلا ، الوكيل المشار اليه بالرقم ٨ ، يرسلون من طرفهم شخصين او ثلاثة سواء لاجل بيع الماء من بئر زمزم والمسباح والتمر وغير ذلك ام لاجل الدعوة الى الحج .

وبما ان مسلمي آسيا الوسطى من رعايا روسيا ، وكذلك التتر والافغان والقشقر وقسم من الفرس كانوا معروفين في جدة عموما بانهم بخاريين ، فمن المستحيل تعيين العدد الحقيقي من الحجاج من رعايا روسيا ورعايا بخارى .

في سنة ١٨٩١ بلغ مجمل الحجاج من رعايا روسيا وبخارى القادمين الى مكة عبر افغانستان والهند زهاء ١٢٦٩ شخصا وعبر القسطنطينية ٧٨٤ شخصا . وفي سنة ١٨٩٢ وصل الى الحج عبر الطريق الاول ٣٠٤٣ شخصا وعبر الطريق الثاني ٨٠٤ اشخاص . وفي سنة ١٨٩٣ وصل الى الحج

الرقم	الادلة في المدينة	الوكلاء في ينبع	لاى حجاج
١	محمد علي (من بخارى)	لا	من بخارى
٢	سيد شافي (من المدينة المنورة)	وكلاء	القرغيز والتتر

عبر بومباي ٤٣٢٨ شخصا ، وعبر السويس ١٨٠٨ اشخاص ؛ وفي سنة ١٨٩٤ ، بلغ عدد الحجاج من بلادنا ٣٣٤٩ شخصا منهم ٢٩٣١ جازوا عبر الهند و٤١٨ عبر السويس .

ومن اصل ٣٣٤٩ شخصا لم يستجوبوا في القنصلية الامبراطورية فسي جدة سوى النصف اي ١٧٩٥ شخصا تبين ان بينهم من :

٤	تركستان	٤٥٦	الديجان
٢	خوجند	٢٤٢	قوقند
١٧٩	بخارى	٣٥٢	مرغلان
٢٠	داهستان	٢٠٤	نامانغان
٣٠	الشركس	٦٨	اوش
	الذين صرحوا	٢٧	سمرقند
	بالهم من رعايا	٤٦	التتر
٨٥	روسيا فقط	٨٠	طشقند

واذا امعن المرء في هذه القائمة ، لا يصعب عليه ان يلاحظ ان منطقة فرغانة التي اكتسبت شهرة سيئة بالانتفاضة في شهر ايار (مايو) ١٨٩٨ تعطى ثلاثة ارباع مجمل عدد الحجاج عندنا في اقليم تركستان . ومن حيث نوع الاشغال يشكل الزراعة بالطبع العنصر المهيمن - فان عددهم ١٢٥٠ شخصا .

ومن حيث العمر ينقسمون جميعهم كما يلي :

٢٩٤	من ٢٠ الى ٣٠ سنة
٣٥٩	٣١-٤٠
٤٤٣	٥١-٦٠
٢٢٧	٦١-٧٠
٦٨	٧١-٨٠
١١	٨١-٩٠
٣٩٣	العمر غير الواضح
١٧٩٥	المجموع

جميع هذه الارقام بعيدة عن الواقع لان تعيين عدد المسلمين من رعايا روسيا الذين يمضون الى الحج كل سنة ، وتعيينهم بدقة كافية من مجمل عدد الحجاج المذكور آنفا ، يبدو ، في الظروف الراهنة ، مستحيلا تماما

لأنهم ، بأغلبيتهم الساحقة ، يمضون بدون أية جوازات سفر . ويستفاد من المعطيات المتوافرة عند القنصلين في بغداد وجدة ان عدد الحجاج السنين والشييعين من رعايا روسيا لا يقل تقريبا بالاجمال عن ١٨-٢٥ ألف شخص (٣٦) .

من المقطع المذكور يتبين ان صاحب المقالة يربط مباشرة انتفاضة انديجان بعدد سكان منطقة فرغانة الذين قاموا بالحج . وللمقارنة نسوق هنا جدولا من «تقرير» دولتشين (٣٧) .

عدد الحجاج في سنة ١٨٩٨ يبلغ :	
٢٥٠	من روسيا : القرفيز
١٠٠	التتر
١٠٠	سكان ما وراء القفقاس
٢٠	من تركستان الصينية
٨٠٠٠	الفرس
١٠٠٠٠	الأتراك
٤٥٠٠	السوريون
٥٢٤٥	المصريون
١٥٠٠	البدو المصريون
٦٠٠	من سكان : طرابلس
٢٠٠	تونس
٢٠٠	الجزائر
٣٠٠	فاس-المغرب
١٠٠٠	الهند
	ساحل افريقيا
٢٠	الغربي
٤٠٠٠٠	سكان مكة وضواحيها
	سكان الجزيرة العربية :
٣٥٠٠	المدينة
٤٠٠٠	اليمن
٣٠٠	عمان
٢٠٠	عدن
٤٠٠٠	نجد وغيرها
٢٠	الافغان
١٥٠٠٠	الماليزيون
<hr/>	
١٠٠٠٠٠	الحاصل حوالى

ومن تقرير القنصل الروسى فى جدة برأى ان متوسط عدد الحجاج من رعايا روسيا ٨-١٠ آلاف شخص فى السنة ، علما بأنه فى سنة ١٩٠١ اعطى الرقم ٦٠٠٠ وفى سنة ١٩٠٢ الرقم ١٦٠٠٠ وفى سنة ١٩٠٣ الرقم ٤٧٤١ (٣٨) .

ان اداء فريضة الحج ، كما سبق ان قلنا ، كان محفوظا فى ذلك الوقت بخطر نقل اوبئة الطاعون والتيفوس والكوليرا المشؤومة العواقب الى داخل الامبراطورية الروسية ، علما بان هذه الاوبئة كانت تزهق ملايين الارواح فى الشرق الاوسط وفى آسيا الوسطى . وآذاك مثلا نسبوا نشوب وباء الطاعون فى محافظة استراخان الى الحج . وفى كانون الثانى (يناير) ١٨٩٧ ، انشئت لدى وزارة الداخلية لجنة خاصة لمكافحة عدوى الطاعون برئاسة الامير ا . ب . اولدنبورغسكى . وكان من صلاحية هذه اللجنة البت فى مسألة تنظيم حج المسلمين من رعايا روسيا . كان اعضاء اللجنة يدرسون التقارير عن الحج من السفارة الروسية فى القسطنطينية والقنصليات فى جدة ومشهد وبغداد (٣٩) . والى جدة أُرسل فى مأموريات كل من الاطباء سوكولوف ودالغات وتولانوف وتاكاييف ؛ وهؤلاء ارسلوا بدورهم التقارير الى اللجنة (٤٠) .

ولكن لاجل تقييم الحج من جميع جوانبه السياسية والدينية (وبخاصة بالارتباط مع الاحداث فى انديجان) والطبية الوبائية ، كان ينبغى الحصول على معلومات شاملة وصادقة من مصدرها الاول . وفى هذا الصدد بالذات ، كما تبين مواد ارشيف الدولة العسكرى التاريخى المركزى (٤١) ، نشأت فكرة ارسال ضابط مسلم من الجيش الروسى الى مكة . وقد وقع الاختيار على عبد العزيز دولتشين ، الذى قدره وزير الحربية نفسه ا . ن . كوروباتكين رفيع التقدير . وفيما بعد سنتحدث عن شخصية دولتشين ونتائج نشاطه الاساسية . اما هنا ، فتجدر الاشارة الى ان تقريره المطبوع فى المطبعة العسكرية لهيئة الاركان العامة مع الختم «سرى» احتوى كمية كبيرة من المعلومات الموضوعية والمختارة اختيارا موقفا لاجل اتخاذ مجموعة من القرارات الصحيحة بصدد القضايا المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا . وقد حاول دولتشين ان يستبعد المخاوف القائمة ويبدد الاوهام بصدد الحج ، واوصى فى حال غياب خطر وبائى فعل ، لا بالتخلي عن جميع الموانع وحسب ، بل ايضا بتسهيل السبيل من روسيا الى مكة امام الحجاج .

ان الصيغة الاولى للونيقة التى اعدتها فى هذه المسألة وزارة الداخلية

تقيدت اجمالاً بهذا الاتجاه . وقد اعتبر الحج ظاهرة دينية محضة ، وظاهرة هامة بالنسبة للسلطات فى المقام الاول من حيث عواقبها على الصعيد الصحى الوبائى . وورد اقتراح بتقليل الرسوم على جواز السفر لاجل الحجاج . وكان من المرتأى تكليف المحافظين بتأمين الشروط لاجل مجموعات الحجاج الداهيين بغير السكة الحديدية بحيث يحصلون على الاغذية باسعار رخيصة ، والمساكن للمنام والراحة ، والاسعاف الطبى . وكان من المرتأى ايضا اقرار سعر مهاود لتذاكر السكة الحديدية من اجل الحجاج وتنظيم ايصالهم الى جدّة بواسطة سفن الشركة الروسية للملاحة والتجارة (٤٢) . وقد ادى بحث هذه الوثيقة من قبل السلطات فى الوزارات والمحافظات المعنية (٤٣) الى ظهور عدد من الصيغ فيها بصدد «التعصب الاسلامى» وبصدد تأثير الحج ، غير المرغوب فيه برأى السلطات ، فى الوضع السياسى والاجتماعى فى المناطق الاسلامية من الامبراطورية . وفى هذا المجال على الاخص انعكس فى الوثيقة المعنية موقف عدد من محافظى المناطق الاسلامية وشهادة الخبير ، عضو المداولة الخاصة فى شؤون الدين المذكور آنفا ، ف . تشيريفانسكى ؛ وهذه الشهادة نسوقها كليا بوصفها ملحقاً لهذه المطبوعة . وقد استشار الاقتراح بصدد سفر وعودة جميع الحجاج عبر مرافى البحر الاسود واسطمبول مجادلات كبيرة . فان هذا الاجراء الذى يسهل الرقابة ضد الاوبئة كان يتناقض مع مداولات معارضة دعاية الجامعة الاسلامية التى كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية مركزها . وتم شطب الاقتراح بصدد الاسعار المهاودة لتذاكر السكة الحديدية من اجل الحجاج . ولكن حتى بعد كل هذا ، تبين «القواعد الموقته بشأن حج المسلمين» والوثيقة المرافقة لها الصادرة عن وزارة الداخلية ان حج المسلمين وحج المسيحيين الارثوذكسيين الى القدس قد وُضعا من حيث الجوهر فى شروط متساوية . وان تطبيق هاتين الوثيقتين سهل كثيراً حج المسلمين من روسيا ، مما ادى الى ازدياد عدد الحجاج المسلمين الى ١٦ الف شخص فى سنة ١٩٠٢ .

ان الاهتمام بحج المسلمين باعتباره ظاهرة اجتماعية وسياسية ودينية قد استمر فى صفوف الجمهور القارى الروسى . واكبر عدد من المطبوعات فى هذا الموضوع قد ظهر بالطبع فى المجلات والجرائد الروسية الصادرة فى تركستان . وفى سنة ١٩١٠ نشرت مجلة «آسيا الوسطى» الصادرة فى طشقند ترجمة وصف مكة من الكتاب المعروف الذى وضعه سنوك خورغونيه ؛ وفى طشقند ايضا صدرت فى سنة ١٩١٣ الترجمة الروسية لكتاب ا . رالى «مكة فى اوصاف الاوروبيين» (الاصل - «المسيحيون فى

مكة . . .» . صحيح ان ميل ازدياد الحجاج من رعايا روسيا قد اخلت به الاوبئة وتعرجات السياسة الداخلية والخارجية (٤٤) ، ولكنه استمر ، على ما يبدو ، حتى الحرب العالمية الاولى والثورة في روسيا .

وختاما بضع كلمات عن حج المسلمين في عهد السلطة السوفييتية . قبل اغلاق حدود الاتحاد السوفييتي الجنوبية بصورة تامة في اوائل الثلاثينيات استدر الحج من مناطق آسيا الوسطى وما وراء القفقاس ، وان يكن قد قل على الدوام من حيث العدد . وقد جعلت سياسة ستالين المعادية للدين من المستحيل عمليا على اغلبية السكان المسلمين ، لا الحج وحسب ، بل ايضا اداء الشعائر الدينية اليومية والاسبوعية . وقامت دعاية حادة ضد الدين (٤٥) .

في سنوات الحرب العالمية الثانية ، حين تطلبت المحن الشاقة توطيد قوى المجتمع بأسره لاجل صد العدوان وحين حاول النظام الستالينى ان يكتسب مسحة اكثر حضارة في عيون المجتمع العالمى ، طورا تغير على السياسة الرسمية حيال الدين . فقد فتح من جديد قسم من الجوامع والكنائس المسيحية والبيع اليهودية ؛ وفي اوائل ١٩٤٥ استؤنف حج المسلمين من الاتحاد السوفييتي . والفريق الاول من الحجاج ترأسه المفتي ايشان باباخان . ومنذ ذاك يقوم بالحج كل سنة ٢٠-٢٥ شخصا . والفرق تشكلها مباشرة الادارات الدينية وتتألف اساسا من الائمة الخطباء ونشطاء الجوامع . وفي السنوات ٤٥ المنصرمة ، قام بالحج ٨٥٠-٩٠٠ شخص ، الامر الذى لا يتطابق ابدا مع مجمل عدد المسلمين فى اراضى الاتحاد السوفييتي (٤٦) .

ادت سياسة البيريسترويكا (التغيير ، اعادة البناء) الى اعتناق الحياة الدينية فى الاتحاد السوفييتي . تبنى وتفتتح الجوامع الجديدة والمراكز التعليمية الاسلامية (مثلا فى باكو واوفا) . ونظرا لتسهيل قواعد الخروج والدخول بصورة مبدئية ، تتكشف امكانيات جديدة لنمو عدد الحجاج المسلمين من الاتحاد السوفييتي نموا كبيرا جدا ، وقد كان الطابع غير العادى للعلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي والعربية السعودية واستحالة تحويل الروبل السوفييتي الى العملات الاجنبية بمثابة عقبة خطيرة فى هذا المجال . وقد ادى تطبيق سعر خاص للروبل بالنسبة للعمالات الصعبة القابلة للتحويل فى سنة ١٩٨٩ الى ازدياد كلفة حج المسلمين السوفييتيين من ٣٥٠٠ روبل الى ١٦ الف روبل (وهذا مبلغ يوازي زهاء خمسة مداخل سنوية متوسطة) .

رغم ذلك وصل في عام ١٩٩٠ الى جدة ١٥٢٥ حاجا من خمس مدن سوفيتية (طشقند وقازان وباكو ومينير النبي فودي وموسكو) وذلك بطائرات ارسلتها خصيصا شركة «ايروفلوت» السوفيتية . وقد ساعدت السلطات السوفيتية الحجاج في قضية شراء الاشياء الضرورية للسفرة والهدايا التذكارية. وبمساعدة السلطات الرسمية تم تذليل العديد من الصعوبات الناشئة في تنظيم الحج

ان فرح المسلمين السوفيتيين بسبب الحج الاول الحر حقا قد عكرته فاجعة هلاك العديد من اخوانهم في الدين في النفق قرب مكة المكرمة . صحيح انه لم يلحق اى اذى بالمسلمين السوفيتيين ، الا ان الحجاج واخوانهم في الوطن قد تلقوا نبالا الكارثة وكانها فاجتتهم هم انفسهم .

لا ريب في ان عدد الحجاج من الاتحاد السوفيتي سيزداد من سنة الى اخرى ؛ بيد ان التغير النوعي لن يحدث ، اغلب الظن ، الا بعد حل مسألة تحويل الروبل الى عملة صعبة ، وفي هذه الحال سيكون عدد الحجاج متناسبا مع عدد المسلمين في البلاد . ومن شأن البرامج الموجودة اليوم للمتعاون بين الهيئات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي والمنظمات الاسلامية العالمية ان تسهم بقسطها في حل القضايا القائمة .

* * *

ولد عبد العزيز دولتشين في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٦١ في عائلة ضابط في الجيش الروسي . وكانت هذه العائلة التترية المحترمة تتمتع بتأثير كبير بين ابناء قوميتها ؛ وقد شغل والد المؤلف مناصب هامة في ادارة مناطق الاورال الجنوبية في روسيا . ان انتماء الوالد الى فئة النبلاء ومهنته العسكرية لم يؤثر في روح التقوى الاسلامية السائدة في العائلة . بعد التخرج من مدرسة الامبراطور بافل العسكرية المتميزة في بطرسبورغ ، خدم عبد العزيز دولتشين خمس سنوات في قلعة دينابورغ غير بعيد عن دفينسك ، وتعلم في سنوات ١٨٨٧-١٨٩٠ في صفوف اللغات الشرقية لاجل الضباط لدى الدائرة الآسيوية في وزارة الخارجية (٤٧) . وهذه الصفوف اعطت الجيش الروسي والديبلوماسية والعلم سلسلة من المستشرقين الممارسين اللامعين :

وامام الضابط المسلم الشاب الذي امتلك في نهاية التعليم ناصية اللغات العربية والتركية والفارسية والانجليزية والفرنسية ، ناهيك عن لغته

القومية واللغة الروسية ، انفتحت آفاق رائعة للترقى فى الميدان العسكرى والديبلوماسى الروسى . ولكن دولتشين ، بحكم طبعه ، لم يسع وراء الوظائف العالية . فان هذا الضابط الهادى ، المتوازن ، الرصين ، العلى ، وحتى المتحذلق نوعا ما ، الذى لا يتميز بالغرور راح بهدوء من بطرسبورغ الى وظيفة غير كبيرة فى اعماق آسيا الوسطى ، فى ناحية قره قلعه ، غير البعيدة عن عشق آباد . واثناء اقامته هنا سبع سنوات ، تفهم جيدا جدا القضايا التى تشغل بال الناس القاطنين فى الاراضى الخاضعة لادارته ، وامتلك ناصية اللهجات المحلية ، ودرس اخلاق السكان المحليين وطبائعهم وعاداتهم وفولكلورهم . وبحكم عمله ، تقابل غير مرة مع رئيس مقاطعة ما وراء قزوین ا . ن . كوروباتكين الذى سرعان ما صار وزير الحربى . وقدّر كوروباتكين كفاءة النقيب المسلم . وهناك جملة من الوقائع توحى بانه نشأت بينهما علاقات صداقة ؛ وعندما وردت مسألة ضرورة ترشيح ضابط فى الجيش الروسى لاداء فريضة الحج وتفهم ما اذا كانت هذه الممارسة تشكل خطرا على مصالح روسيا العسكرية والسياسية فى الشرق ، تذكره كوروباتكين .

حالف الترشيح اقصى التوفيق . فبما ان دولتشين كان مسلما ، فقد اعتبر امكانية اداء فريضة الحج كمحنة من القدر ، ومهمة المأمورية كفرصة لمساعدة الآلاف من اخوانه فى الايمان ، من المسلمين من رعايا روسيا ، لمساعدة فعلية فى اداء فريضة الحج ، الامر الرئيسى على الاغلب فى الحياة الروحية لكثيرين منهم ، وادائها فى ظروف وشروط لا ثقة بالبشر . ومع ذلك ظل من رعايا الامبراطورية الاوفياء كليا ، ظل مخلصا لقسم الضابط . وعن حق وصواب اعتبر تلبية الحقوق المشروعة لابناء دينه فى اداء فريضة الحج انعكاسا لعناية الدولة برعاياها ، الامر الذى يوطد الدولة نفسها فى آخر المطاف .

تجدر الاشارة الى ان دولتشين لم يكن يعرف حاجات المسلمين البسطاء القاطنين فى اراضى روسيا وحسب . فان مضمون يومياته يدل على انه كان يعرف ايضا عددا من الشخصيات الاسلامية العائشة فى روسيا . ومن معارفه ، الشخصية المحافظة نوعا ما ، حميد الله آخون ، الذى كان يتمتع بجزيل الاحترام بين المسلمين القاطنين فى بطرسبورغ ؛ وعطالله بايازيدوف ، المذكور سابقا ، مؤلف جملة من المطبوعات تشكل بمجمعتها بيانا فريدا لمسلمى روسيا الذين يشاطرون الافكار الاصلاحية . ويذكر دولتشين بين معارفه القريبين كبار اصحاب مصانع النسيج التتر من

عائلتى اكتشورين ودبردييف ، الذين تبرعوا بمبالغ كبيرة لتلبية الحاجات الدينية ولعبوا دورا ملحوظا فى حياة روسيا السياسية ؛ والدكتور دالغات الذى خدم فى سنة ١٨٩٩ لدى القنصلية الروسية فى جدة ، والذى صار فيما بعد شخصية اسلامية هامة تقدمية الاتجاه ، واشترك فى مؤتمر مسلمى روسيا الذى انعقد فى بطرسبورغ فى حزيران (يونيو) ١٩١٤ .

فى هيئة الاركان العامة للجيش الروسى التى مضى دولتشين الى مكة بتكليف منها ، كان يوجد تقليد علمى جدى . فقد كانت دراسة بلدان الشرق الادنى تحظى باهتمام كبير . ان ازدهار النشاط العلمى المتعلق بقيام الضباط الروس بوصف مختلف مناطق الامبراطورية العثمانية كان يرتبط باسم الشخصية العسكرية ورجل الدولة البارز الليبيرالى الاتجاه ن . ن . اوبروتشيف (١٨٣٠-١٩٠٤) الذى عُيِّن فى سنة ١٨٨١ رئيسا لهيئة الاركان العامة . وبمبادرته شرعت اللجنة العسكرية العلمية لدى هيئة الاركان العامة باصدار «مجموعات المواد الجغرافية والطوبوغرافية والاحصائية عن آسيا» . ونحو بداية الحرب العالمية الاولى صدرت ٨٧ من هذه المجموعات ٨ منها (٤ ، ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٤) مكرسة للشرق الادنى (٤٨) .

واذا كانت «يوميات» دولتشين تدل على مبلغ عمق الانطباع الذى تركته فى شعوره الدينى مراسم الحج (٤٩) ، فان «تقريره» يبين الى اى حد تفهم بدقة واهتمام القضايا المطروحة امامه .

وقد استفاد دولتشين فى عمله من مصادر متنوعة باللغات العربية والتركية والاوروبية ، فضلا عن ملاحظاته ومراقباته الشخصية . وعلاوة على المعلومات المفصلة عن الحج عموما ، بما فى ذلك ترجمة آيات من القرآن تتحدث عن الحج الى مكة ، ووصف المراسم والشعائر بالتفصيل ، حلل دولتشين بدقة وعناية القضايا المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا وكذلك بالحجاج من الدول الاخرى ، وتناول الوضع الصحى الوبائى فى الحجاز ، وساق قائمة الاجراءات الصحية ، الضرورية برأيه ، واعطى وصفا مفصلا عن مكة والمدينة وسبل الحجاج . ان باب «معلومات اولية عن الحجاز» ينطوى على معلومات فى غاية التنوع - من وصف النباتات والحيوانات الى مواد تتعلق بالميزانية والتقسيم الادارى . وتضمن «التقرير» معلومات طريفة ومفيدة ذات طابع عسكرى وسياسى واثنوغرافى وتاريخى واقتصادى تتعلق بالجزيرة العربية والحج فى اواخر القرن التاسع عشر . كذلك عكس «التقرير» جملة من القضايا التى اثارت الاضطراب بين المسلمين من رعايا

روسيا . ومن هذه القضايا ، الدعاية لنزوح المسلمين من روسيا الى البلدان الاسلامية . وبتأثير هذه الدعاية ، نزح ، مثلا ، من القرم الى تركيا ، مئات الناس .

بعد العودة ، اعد دولتشين خلال بضعة اشهر «التقرير» للطبع ؛ وفي سنة ١٨٩٩ ، بحث امكانية مأمورية جديدة الى القسطنطينية لاجل مواصلة دراسة المسائل المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا (٥٠) . ولكن مهمة اخرى كانت بانتظاره . فقد ارسلوه من جديد الى آسيا الوسطى ، وهذه المرة للاطلاع على نشاط المحاكم الشعبية . فان ادراج منطقة ما وراء قزوين ، واقليم تركستان ، وكازاخستان في قوام الامبراطورية قد تطلب كذلك ادماج النظام القضائي القائم في هذه الانحاء في النظام القضائي لعامة روسيا . وقد تبدت نواقص النظام القضائي المحلي ، مثلا ، في سياق البحث عن اسباب انتفاضة انديجان وتحليل عواقب تطبيق لائحة سنة ١٨٨٦ بصدد ادارة اقليم تركستان . وقد عهد الى دولتشين ، الخبير البارع في شؤون هذا الاقليم ، بتفهم مجمل هذه القضايا في مطرحها . وهذه المرة ايضا ادى المهمة بنحو باهر ، الامر الذي يدل عليه «تقرير النقيب دولتشين عن المأمورية الى اقليم تركستان ومناطق السوب للاطلاع على نشاط المحاكم الشعبية» (سانت بطرسبورغ ، سنة ١٩٠١) ؛ وهذا التقرير لا يزال الى الآن على جانب من الاهمية بوصفه مصدرا تاريخيا فريدا (٥١) .

بعد العودة من آسيا الوسطى ، كلفوا دولتشين بوظيفة نقيب تحت تصرف رئيس هيئة الاركان العامة ، مع استمراره في دراسة قضايا تركستان . وتدل مواد ارشيف المستشرقين في فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكااديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي (المجموعة رقم ٧٠) على سعة اهتماماته . فان هذه المجموعة تحتوى تسجيلات مؤلفات فولكلورية (الملف رقم ٤٩) ووثائق تتعلق بخدمة المسلمين في الجيش الروسى (الملف رقم ٧) وبالخدمة الدينية والممارسة الادارية في المناطق الاسلامية (الملفات رقم ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٩) ومشاريع الرى في تركستان (الملف رقم ٤) وامكانيات انتاج القطن في تركستان (الملف رقم ٤٠) . وهناك عدد كبير من الترجمات ومن المقتطفات من الكتب ، ومن ملاحظات المؤلف الشخصية ، وكلها تتعلق بتاريخ الاسلام والعالم العربى الاسلامى والشعوب الاسلامية القاطنة ضمن حدود روسيا (الملفات رقم ٣٣-٣٩ ، ٤١-٤٣) . ويحلل دولتشين اعمالا تتحدث عن الاسلام (الملف رقم ٤٧) . اما باى احترام كانت الطائفة الاسلامية فى

روسيا تعامله ، فتدل عليه الرسالة التذكارية المقدمة له في يوم بلوغه الاربعين من العمر (الملف رقم ٧٩) . وهذه الرسالة ننشرها في هذا الكتاب على سبيل التبيان .

وفي حياة دولتشين مرحلة خاصة ترتبط ببناء جامع بطرسبورغ حيث كان رئيسا للجنة بنائه . وقد جرى ارساء اساس الجامع في ٣ شباط (فبراير) ١٩١٠ . ان بناية الجامع التي لا تزال اليوم من ابرز آثار الهندسة المعمارية في لينينغراد كانت محسوبة لاجل ٣٠٠٠ من المصلين . وقد اخذ دولتشين على عاتقه قسما كبيرا من العمل على تنظيم البناء وجمع الاموال من اجله ؛ وكان قد صار في هذه الاثناء عقيدا . (راجع الملف رقم ٦١-٦٤) . والى هذه الحقبة من الزمن ترقى الصورة التي يبدو فيها دولتشين مع خان خوى سيد اسفنديار والتي التقطها المصور الشهير من بطرسبورغ كارل بولا على حاجز كاتدرائية بطرس وبولس في بطرسبورغ . وبدوجب فرمان من القيصر نيقولاى الثانى ، كان دولتشين قد كوفى بوسام ستانيسلاف (الملف رقم ٨٠) ، كما ان امير بخارى منحه وسام النجمة الذهبية من الدرجة الثالثة . في سنة ١٩١٦ ، صار دولتشين برتبة لواء امين سر هيئة الاركان العامة ، وترأس العمل المتعلق بجمع الوثائق التي تهيئها هذه الدائرة البالغة الاهمية في بنية الجيش الروسى . ولكن ، بعد سنة ، في ايار (مايو) ١٩١٧ ، حل محل الفريق ماناكين في منصب رئيس القسم الاسبوى فى هيئة الاركان العامة (٥٢) . وقد بقى في هذا المنصب بعد ثورة اكتوبر ، وعلى الاقل حتى ٤ اذار (مارس) ١٩١٨ (٥٣) .

بعد ثورة اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٧ ، تعاون دولتشين بهمة ونشاط مع حكومة العمال والفلاحين ، اذ رأى في العديد من تصريحات ممثلى السلطة الجديدة امكانية تحسين حياة المسلمين في تركستان . واهتم كثيرا بمسائل الرى في تركستان ، وساعد فى شراء المطبوعات الضرورية (الملف رقم ٥٦ ، ٥٨) ، وقام بدور الخبير ، وعكف على دراسة وحل المسائل المتعلقة باصدار كتب التعليم باللغات المحلية (الملف رقم ٥٥) ، ووضع خطة من الاجراءات لمكافحة الملاريا في تركستان ، وعمد الى وضع موجز تاريخى عن القوات المسلحة البشكيرية (الملف رقم ٤٦) . وتدل الوثائق على ان دولتشين كان فى اواخر سنة ١٩١٩ يشرف على هيئة اركان القسم الشرقى الخاص لدى اكااديمية الاركان العامة (الملف رقم ٥٤) . ومن المؤسف انه لم يتسن لنا ان نعثر على مواد تتعلق بمصير عهد العزيز دولتشين لاحقا .

ملاحظات

- ١ - F. Wüstenfeld, Die Chroniken der Stadt Mekka... I—IV. Lpz. 1857—1861.
- ٢ - A. Ralli, Christians at Mecca... Illustrated, L., 1909. صحيح ان المؤلف يفسر المصادر بشكل اعتباطي ، ولكن كتابه يعطى مع ذلك تصورا واضحا من طابع وحجم المواد المتوافرة ، ويحتوى معلومات هامة .
- ٣ - "La Coplas del Alhichonte de Puey Monzon" راجع اى . يو . كراتشكوفسكى . المطبوعات الجغرافية العربية . المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .
- ٤ - راجع ف . ب . سالكوف . انتفاضة انديجان سنة ١٨٩٨ . قازان ، سنة ١٩٠١ ، ص ٩٥ . الملاحظة رقم ١ .
- ٥ - من بين اعمال المؤلفين السوفييتيين ، راجع ، مثلا ، غ . بونداريفسكى . طريق بغداد وتسرب الامبريالية الالمانية الى الشرق الادنى . طشقند ، سنة ١٩٥٥ ؛ بونداريفسكى ايضا : السياسة الانجليزية والعلاقات الدولية فى الخليج العربى . موسكو . سنة ١٩٦٨ ؛ ا . س . سيلين . توسع المانيا فى الشرق الادنى فى اواخر القرن التاسع عشر . موسكو ، سنة ١٩٧١ ؛ ل . غ . ايستيافين . التسرب الالمانى الى ايران والمواجهة الروسية الالمانية عشية الحرب العالمية الاولى . موسكو ، ١٩٧٩ ؛ يو . ا . بويك . الشرق الادنى فى سياسة فرنسا الخارجية (١٨٩٨-١٩١٤) . لمحات فى تاريخ تضال فرنسا الديبلوماسية من اجل الشرق الادنى . كييف ، سنة ١٩٦٤ .
- ٦ - راجع ا . ريزفان . السفن الروسية فى الخليج العربى (١٨٩٩-١٩٠٣) . مواد ارشيف الدولة المركزى للاسطول البحرى الحربى . موسكو ، سنة ١٩٩٠ (بالغة العربية) .
- ٧ - ارشيف سياسة روسيا الخارجية . المجموعة السياسية . الملف رقم ٩٩١ . ص ١١١-١١٥ . تتضمن رسائل ا . غلازر مواد فريدة فى تاريخ الانتفاضات ضد الاتراك فى اليمن فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وبخاصة انتفاضة سنة ١٨٩٨ . لمزيد من التفصيل عن هذه المواد راجع بونداريفسكى . الامبريالية الالمانية ، ١٠-١٠٠ .

٨ - راجع ، مثلا ، "Times of India" بتاريخ ٨-١٠-١٨٩٨ ، ١٨-٢-١٨٩٩ ، ٢٩-٤-١٨٩٩ . راجع كذلك بولنداريفسكى . الامبريالية الالمانية ، ١٠ .
٩ - مراسلات غليوم الثانى مع نيقسولاى الثانى . موسكو - بتروغراد ، ١٩٢٣ ، ٣٠ .

١٠ - راجع ادناه «التقرير» ، ص ٦٤ .

١١ - مقال الجريدة الانجليزية هذا كان صدى لمقالة «الملل المتجولون» (بيرجفى فيدوموسنى) . سانت بطرسبورغ ، العدد ٣١٢ بتاريخ ٢١-١١-١٨٧٣ . ردت الجريدة الروسية على حملات «Pall-Mall» بمقتاتين : وطلعات بريطانيا الى الجزيرة العربية والاثام الجديد ضد روسيا (العدد ٣١٩ بتاريخ ٢٨-١١-١٨٧٣) واثام روسيا بحماية الاسلام (العدد ٣٣٩ بتاريخ ١٨-١٢-١٨٧٣) .

١٢ - راجع B. G. Martin, German-Persian Diplomatic Relations, 1873-1912. Monton, 1959, 27.

١٣ - بهاء الدين فايسوف . طريقى خوجاغون (طريق الحجاج) . قازان ، ١٨٧٤ . عنان الدين فايسوف . جواهرى حكمتى درويشون . (اثمن اقوال الدراويش الحكيمه) . قازان ، ١٩٠٧ . ورقة القسم المقدسة . اصدار جمعية مسلمى فوج فايسوف الربانى . قازان ، ١٩٠٨ . المعرفة المقدسة وتصريح مفضو فوج فايسوف الربانى . قازان ، ١٩٠٨ .

١٤ - ا . ف . مولوستوفا . فوج فايسوف الربانى . عالم الاسلام . م . I ، ١٩١٢ . ١٤٩ ؛ ي . كويلوف . الكونت ل . ن . تولستوى والاسلام . بصدد مراسلات ل . ن . تولستوى مع تتر قازان . قازان ، ١٩٠٤ ؛ Chodja Muchammed Cajan Waisow. Les "weisowens" et Leon Tolstoy. —Annuaire tartar. Vilna, 1932, I, 215-221. راجع كذلك ن . ف . كابانوف . معطيات جديدة عن الشيعة الفايصوفيين . قازان ، ١٩٠٩ (ملزمة منفردة من مجلة «برافوسلافنى سوبسيدنيك» لسنة ١٩٠٩) ؛ عبد الله كيلديشوف . عنان فايسوفنى توزاغى (فخ عنان فايسوف) . قازان ، ١٩٠٨ .

١٥ - ن . ب . اوستروموف . الرسالة المسيحية . قازان ، ١٨٩٤ ، ١٥٩ .

١٦ - المرجع ذاته ، ١٥٩-١٦٢ ؛ جريدة «اورنبورغسكى ليستوك» (ورقة اورنبورغ) . اورنبورغ ، العدد ٤٢ بتاريخ ١٥-١٠-١٨٨٩ .

١٧ - راجع ، مثلا ، اى . غاسبرينسكى . الاسلام الروسى (مقتطفات من الاعداد ٤٣-٤٧ من «توريدام» لسنة ١٨٨١ مع اضافات) . سيمفيروبول ، ١٨٨١ . غاسبرينسكى ايضا : الاتفاقية الروسية الشرقية . افكار ، ملاحظات ، تمنيات . يفتشى سراى ، ١٨٩٦ ؛ بايازيدوف . الاسلام والتقدم . سانت بطرسبورغ ، ١٨٦٨ ؛

أحمد بك اغايف . المرأة بموجب الاسلام وفي الاسلام . تفليس ، ١٩٠١ ؛ دولت-كيلديف . محمد كنبيا . سانت بطرسبورغ ، ١٨٨١ ؛ سليم غيرى سلطانوف . منطقة المسلمين المقدسة في الجزيرة العربية . موسكو ، ١٩١٦ . راجع كذلك ن . اشمارين . لمحة في نشاط تتر قازان المحمديين الادبي في سنوات ١٨٨٠-١٨٩٥ . بتحرير ا . ي . كريمسكى . موسكو ، ١٩٠١ . راجع كذلك : A. Battal-Taymas Musa Garulla Bigi. Kiişilgi, fikir, hauati ve eserlery.—Kazanlı Türk Meşhurlarından. II, Istanbul, 1958. ونشرت مواد طريفة عن نشاط غاسرينسكى كذلك في مجموعة „I'atars of the Crimea: their struggle for survival. Original studies from North America, unofficial and official documents from Czarist and Soviet sources. E. Allworth, ed. Durham, 1988.

١٨ - هذه المحاضرة نشرت في روسيا بالترجمة الروسية : ارتست رينان . الاسلام والعلم . خطاب القى في اجتماع والرايطة العلمية الفرنسية (التي اسمها ليفيرييه عام ١٨٦١) في ٢٩ آذار (مارس) في مدرّج السوربون الكبير . سانت بطرسبورغ ، ١٨٨٢ .

١٩ - راجع فايزخانوف . اصلاح مدارس . قازان ، ١٨٦٦ ؛ (عبد الرؤوف فترات) . فترات البخارى . جدال مدرّس بخارى مع اوروبى في الهند وفي مدارس المناهج الجديدة (والنتيجة الحقيقية لتبادل الافكار) . الطبعة الاولى طبعت في المطبعة الاسلامية في اسطنبول) . نقلها عن الفارسية العقيد ياغيللو . لا يجوز النشر . طشقند ، ١٩١١ .

٢٠ - ن . اى . ايلمينسكى . رسائل . قازان ، ١٨٩٥ ، ١٧٤-١٧٥ .

٢١ - راجع ، مثلا ، ف . تشيريفانسكى . عالم الاسلام ويقظته . المجلد ٢-١ . سانت بطرسبورغ ، ١٩٠١ ؛ تشيريفانسكى ايضا : ملاحظة بصدد شؤون ايمان السنة . سانت بطرسبورغ ، ١٩٠٦ .

٢٢ - راجع . مثلا ، ا . كريمسكى . الاسلام ومستقبله . موسكو ، ١٨٩٩ ؛ ف . ف . بارمولد . الفكرة التيقراطية والسلطة الدنيوية في الدولة الاسلامية . سانت بطرسبورغ ، ١٩٠٣ .

٢٣ - لمحة موجزة عن الوضع الراهن ونشاط رجال الدين المسلمين وفشى ضروب الدوائر والمؤسسات التعليمية الدينية للسكان المحليين في مقاطعة سمقند مع بعض الاشارات الى ماغيها التاريخى . - مواد في الاسلام . النشرة الاولى . طشقند ، ١٨٩٨ ؛ ياروفسرافسكى . الحج الى مكة والمدينة . - مواد في الاسلام . النشرة الخامسة . طشقند ، ١٨٩٩ .

٢٤ - م . ميروبييف . الاهمية الدينية والسياسية للحج او لسفر المحمديين المشكور الى مكة لاجل الاحتفال بالعيد الدينى . قازان ، سنة ١٨٧٧ ، ٢٢٧ . راجع كذلك فينر . بصدد حج المسلمين الى مكة . الكشوف التركمانية . طشقند ، العدد ٢٩ ، سنة ١٨٩٥ .

- ٢٥ - ف . ف . بارتولد . المؤلفات . موسكو ، ١٩٦٥ ، المجلد ٢ ، ص ٣٣٦ .
- ٢٦ - ف . ف . بارتولد - الشيخ زين الله رسوليف . ١٨٣٣-١٩١٧ .
رثاء . - العالم الاسلامي . بتروغراد ، ١٩١٧ . النشرة I ، ٧٣-٧٤ .
- ٢٧ - ا . فامبيرى . رحلة فى ربوع آسيا الوسطى . سانت بطرسبورغ ، ١٨٦٥ ؛ ٢٥ ، ٦٥ ، ٧٧ .
- ٢٨ - ياروفسكى . الحج ، ١٦ . دولتشين . تقرير . ٩٠ ، ١٢٠ .
- ٢٩ - ياروفسكى . الحج ، ١٦-١٧ ، ١٨-١٩ .
- ٣٠ - المرجع ذاته ، ١٢-١٤ .
- ٣١ - المرجع ذاته ، ٢٠ .
- ٣٢ - ميروبييف . اهمية الحج الدينية والسياسية ، ١٠٠ (مع الاستشهاد بمعطيات على باى وبورغهارت وبورتون وح . دولال) .
- ٣٣ - ياروفسكى . الحج ، ٣ (مع الاستشهاد بتقارير القنصل الروسى فى جدة ليفيتسكى وكشوف قسم جدة للجنة الصحية التركية) .
- ٣٤ - دولتشين . تقرير ، ١٢٦ .
- ٣٥ - ياروفسكى . الحج ، ٤-٥ .
- ٣٦ - المرجع ذاته ، ٩-٥ .
- ٣٧ - دولتشين . تقرير ، ١٢٦ .
- ٣٨ - ارشيف الدولة المركزى للاسطول البحرى الحرى . المجموعة ٤١٧ . الملزمة I . الملف ٢٧٥٧ . ظهر ص ٧ .
- ٣٩ - راجع ، مثلا ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I . الملف ٢٨٩٢ ، ص ٩٦ وظهرها ؛ المصدر نفسه ، الملف ٢٨٨٢ ، ص ١٠٠-١٠١ .
- ٤٠ - راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة ، الملف ٢٨٨٦ . تقرير تولتوف (المرجع ذاته ص ٨-١٦) والتقارير الشهرية عن عدد الوفيات فى جدة (من سنة ١٨٩٨ الى سنة ١٩٠٠) المزودة فى غالب الاحيان بمعطيات عن عمر المتوفين ومهنتهم وائتمانهم القومى وعن اسباب وفاتهم تتسم بقدر كبير من الاهمية والفائدة . راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I ، الملف ٢٨٨٣ و٢٨٨٦ . كان الاطباء الروس فى جدة يستعملون احدث الادوية . وفى جدة مثلا حالف النجاح استعمال اللقاح الحديث المضاد

للتعاون ، الذى ابتكره معهد الطب الاختبارى فى بطرسبورغ . (راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة ، الملف ٢٨٨٣ ، ص ٢٩٠ - الظهر) .

٤١ - راجع ارشيف الدولة التاريخى العسكرى المركزى . المجموعة ٤٠٠ ، الملزمة I ، الملف ٢٢٣٩ ، ص ٧٢-١ (الظهر) .

٤٢ - راجع ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة ، الملف ٢٨٩٢ ، ص ٦٣ ؛ ارشيف الدولة المركزى للأسطول البحرى الحرى . المجموعة ٤١٧ ، الملزمة I ، الملف ٢٧٥٧ .

٤٣ - راجع ، مثلا ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ ، الملزمة I ، الملف ٢٨٩٢ ، ص ٩٦-٩٦ (الظهر) و ٩٩-٩٩ (الظهر) وكذلك وثيقة وزارة الداخلية وبصدد المصادقة على مشروع والقواعد الموقته المتعلقة بحج المسلمين» المنشورة كملحق لهذا الكتاب .

٤٤ - راجع ، مثلا ، ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٨٤ ، الملزمة ١٨٨ ، الملف ٣٥١ وبصدد اقرار رقابة حكومية صارمة فى روسيا على تجارة الكتب باللغة التترية واللغة العربية وغيرهما من اللغات الشرقية» (سنة ١٩٠١) ؛ المرجع ذاته ، الملف ١٦٠ وحول منع عملاء المؤسسات الملاحية الاجنبية من بيع التذاكر من الحجاج المسلمين لاجل السفر من روسيا الى الحجاز» (آب - اغسطس ١٩١٤) .

٤٥ - راجع مثلا ل . كليوفيتش . قربان بيرم . عيد الاضحى وحج المسلمين الى مكة . موسكو ، سنة ١٩٣٣ .

٤٦ - العمل الوحيد من حيث الجوهر عن الحج من الاتحاد السوفييتى فى الآونة الاخيرة - انما هو القصة الساخرة الوصفية بقلم فضل الدين محمد ييف وسفرة الى العالم الاخر او قصة عن الحج المبرور» (موسكو ، سنة ١٩٦٩) . المؤلف - طبيب رافق فى الستينيات الى مكة فريفا من الحجاج من الاتحاد السوفييتى .

٤٧ - راجع قائمة الخدمة لحد ايلول (سبتمبر) ١٨٩٠ للملازم الاول دولتشين الذى كان يتعلم فى سنوات ١٨٨٧-١٨٩٠ فى صفوف اللغات الشرقية لدى دائرة آسيا بوزارة الخارجية (ارشيف الدولة التاريخى العسكرى المركزى . المجموعة ٤٠٠ ، الملزمة ٢١ ، الملف ١٦٠٩ ، ص ٢٦٦-٢٦٦ ؛ المجموعة ٤٠١ ، الملزمة ٤ ، الملف ٢٩ ، الجزآن ١ و ٢ ، سنة ١٨٨٨ ؛ الملف ٢٩ ، سنة ١٨٨٩) .

٤٨ - لمزيد من التفصيل راجع ب . م . دالتسيخ . دراسة الشرق الادنى فى روسيا . موسكو ، ١٩٦٨ ، ١٤٩-١٥١ .

٤٩ - لم يكن دولتشين اول ضابط مسلم فى الجيش الروسى يزور مكة . ففي سنة ١٨٤٥ ، قام بفريضة الحج عباس قولى آغسا باقى خالوف (الاسم الادبى

المستعار - قدسي) المؤرخ والفيلسوف والشاعر الأذربيجاني البارز (١٧٩٤-١٨٤٦ ،
العقيد في الجيش الروسي . في الطريق من مكة إلى المدينة ، مات بسبب الكوليرا
ودفن في وادي فاطمة .

٥٠ - راجع أرشيف الدولة التاريخي المركزي . المجموعة ١٢١٨ ، الملزمة
I ، الملف ٢٢٨٦ ، ص ١٦٧-١٦٧ (الظهر) .

٥١ - راجع كذلك أرشيف المستشرقين في فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق
لدى أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي . المجموعة ٧٠ ، الملزمة I ، الملف
٣ . يتضمن الملف دفتين بمواد عن المأمورية ومنشورات للمؤلف في القفصة ،
ولصا مطبوعا «للتقرير» - بملاحظات خطية كثيرة . وثائق تتعلق بالنظام القضائي
في آسيا الوسطى . راجع كذلك في الملفات ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ،
٢٥ ، ٢٨ . عن مأمورية دولتشين هذه راجع أرشيف الدولة التاريخي العسكري
المركزي . المجموعة ٤٠٠ ، الملزمة I ، الملف ٢٠٨٧-٢٠٩٠ .

٥٢ - راجع أرشيف الدولة التاريخي العسكري المركزي . المجموعة ٤٠٠ ،
الملزمة I ، الملف ٤١٤٩ ، ص ٨٤ .

٥٣ - راجع المرجع ذاته ، الملف ٤١٤٩ ، ص ٧٧-٨٢ .

عبد العزيز دولتشين

**يوميات السفر الى مكة
التقرير عن المأمورية الى الحجاز**

يوميات السفر الى مكة

فى ٢٦ شباط (فبراير) ، سافرت الى اسخاباد * بناء على برقية من المحافظ ؛ وبعد عودتى فى ٢٨ شباط ، شرعت اهيب* الشؤون والكتب لاجل التسليم . وفى ٣ آذار (مارس) جاء الملازم الاول بوبلافسكى ليحل محلى ، - وهو رجل لا يفهم البتة اللغة المحلية ؛ وسيكون حاله صعبا وعلى الاخص فى البداية . وفى ٥ آذار انتهت عملى ، وفى ٦ منه ودعت عائلتى وزملائى فى الخدمة ورحت الى قيزيل ارواط . وصلت قبل انطلاق القطار بنحو ساعتين . توقفت عند براور . نقلوا الامتعة الى المحطة الحديدية على عربة يجرها يحمور . ركبت القطار وفى الطريق اخذت احدق بكآبة فى جبال كابت داغ حيث كنت اعرف كل مضيق وكل قمة ؛ وودعت بالفكر الاولات (القرى) الواقعة بمحاذاة السكة . كنت احب ابناء السهوب المتوحشين هؤلاء ، وهم ايضا كانوا دائما يعربون لى عن مودتهم . هل اراهم من جديد ! من قازانديك انبأت سلفا فيسكوفنيكوف بوصولى الى كراسنوفودسك . كل ذلك اليوم وجميع الايام السابقة بعد وصول البرقية ، شجرت باقصى الارهاق والضيق النفسى ، وفقدت الشهية ، وتملكنى الأرق . أهذا احساس مسبق ام مجرد أسف على مفارقة الاولاد لزمن طويل ؟

فى الساعة السابعة صباحا من ٧ آذار وصلنا الى كراسنوفودسك . وفى القطار تقابلت مع الملازم فى قوات القوزاق فولكوداف الذى كان فى طريقه الى منشوريا ؛ وبناء على نصيحته قررت ان اسافر فى رحلة مباشرة على باخرة للشركة الشرقية لكى اكسب يوما واحدا . فى المحطة الحديدية قابلت شيشكيفيتش . رحلت مع فولكوداف الى الرصيف . فى مقر الشركة عرفنا ان

* هكذا كانوا يسمون عشق آباد قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ . المهرور .

السفينة «ميريديان» ستنتقل في الساعة ١٢ ظهرا . بقى فولكوداف ليأمر بنقل الامتعة ، ورحت انا الى آل شيشكيفيتش حيث تقابلت مع مدفعيين قوزاقيين اثنين آخرين . تناولنا الفطور بمرح وفي بداية الساعة الثانية عشرة رحت مع شيشكيفيتش على عربة الى الرصيف ووعدت مدام شيشكيفيتش بالذهاب مع الضيوف لتوديعنا . فى الطريق تقابلنا مع شرطى ؛ وهذا الشرطى قال لى ان الباخرة ستنتقل الآن وانهم ينتظروننى وحدى . حين اقتربت من الرصيف سمعت الصفارة التالية . بفضل تطف الربان ، واساسا بفضل جهود فولكوداف انتظروننى ساعة ونصف ساعة . وقد تبين ان العميل امر بانطلاق السفينة فى الساعة ١٠ عوضا عن الساعة ١٢ . وارسل فولكوداف رجلا يفتش عنى فى كل مكان ، وارسل مرارا الرسل الى رئيس القضاء الذى كنت انوى الذهاب اليه ، ولكنى لم اذهب لأنه كان فى استخباد . ما احلى ان يكون للمرء مثل هؤلاء الرفاق .

خرجنا من كراسنوفودسك فى الساعة الحادية عشرة والنصف . الربان ومعاوناه شبان ولطيفون جدا . الثلاثة جميعهم روس . «ميريديان» باخرة مروحية شاحنة ، فى مؤخرتها عدد قليل من المقصورات لاجل الركاب . الباخرة نظيفة وجديدة . عند الرحيل قال الربان انه من المحتمل ان تهب ريح مقابلة قوية لأن البارومتر يسقط بشدة . ورحت انا . كان البحر هادئا نسبيا . استيقظت فى الساعة الثالثة ليلا بسبب موج قوى وضجة غير عادية . كانت تهب ريح غربية قوية ، وكانت الباخرة تغطس بشدة ؛ وعندما ارتفعت مؤخرتها ، احدثت المراوح ضجة منفرة جدا . كنت متمددا ؛ وكلما كنت اقوم باقل محاولة للوقوف كان يتملكنى الدوخان والغتيان . وكان فولكوداف بالذات يعتنى بجميع الذين يعانون من التمرج . حاول فولكوداف بالحاح اقناعى بأكل المزيد ؛ السيدات من المقصورة المجاورة نقلوا بعضهن الى المتن ، ونقلوا بعضهن الآخر الى مقصورة اخرى ؛ وحمل الى قشرة من الخبز الاسود ونصحنى بأكلها مع الماء ، وقال ان هذه وسيلة تركيبة مجربة ، وجاءنى ايضا باقراص النعناع .

فى ٨ آذار (مارس) استمر التمرج طوال اليوم كله ، وواصلت التمرج ، وواصل فولكوداف العناية بالجميع .

فى ٩ آذار استيقظت مع فولكوداف (فقد انزلونا فى مقصورة واحدة) فى الساعة الرابعة صباحا ؛ كان التمرج ضعيفا . وفجأة توقفت الباخرة ، فظننا ان الربان يستدل بمنارة بتروفسك ولكن تبين اننا قد دخلنا المرفأ ونقف الى حاجز الامواج . سررت جدا لنهاية الطريق البحرى . فى نحو

الساعة الثامنة رحت مع فولكوداف الى المدينة . كان البرد هنا منفرا جدا (١٥) درجة مئوية تحت الصفر بسلّم ريومور) . وعندما رحت كان اللوز قد ازهر فى قره قلعه ، اما هنا فكادت اذنى تتجمدان من البرد . رحت الى مركز البرق وارسلت برقية الى اخى فى فيتبسك طلبت فيها منه ان يذهب الى بطرسبورغ كما ارسلت برقية ثانية الى امى عن مغادرتى وثالثة الى قره قلعه عن الوصول الى پتروفسك (٢) .

فى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا سافرت فى قطار للركاب الى بسلان . فى ١٠ آذار (مارس) ، حوالى الساعة الواحدة ليلا ، انتقلت الى القطار الذهاب من فلاديفقاس الى روستوف ؛ ونظرا لارحمة انتقلت الى مقعد من الفئة الاولى دافعا بقية ثمن التذكرة حتى بطرسبورغ . بقى رفيقى الدائم فولكوداف فى مينيرالنى فودى ، وواصلت انا السفر بصحبة ٤ عقدا - آمر الفوج الثانى من الفرقة ٢٨ ، آمر ت . ب . ٢٠ (٣) ، آمر الفوج القوزاقى غ . م . ٤) ، ومهندس متقاعد . انهم اناس ودودون جدا ولبقو المعاملة ، ولا يتبجحون بمناصبهم .

فى الثانى عشر من آذار ، وصلت فى الساعة الرابعة بعد الظهر الى موسكو حيث كنت احسب ان اجد فى محطة نيقولايفسك برقية اخى من فيتبسك . ولكن بسبب تسرعى للحصول على هذه البرقية ، نقلت فى البدء امتعتى الى محطة بطرسبورغ ، ورحت الى المدينة لشراء بعض الحاجيات . بدا لى غريبا جدا ركوب العربات الزحافة التى لم ارها منذ ٧ سنوات : تكاد تجلس على الارض ، من جميع الجهات تلوح رؤوس الخيل . وهذا ، بسبب انعدام العادة ، منظر مخيف نوعا ما . عدت الى المحطة الحديدية الى اصحابى [.] فى الساعة السادسة والنصف ، ورحت اسأل عن البرقية ؛ وتبين لما فيه دهشتى ان البرقية ليست من فيتبسك بل من موسكو ؛ وقد اتضح لى فيما بعد ان اخى تلقى برقيتى حين كان ينوى الذهاب الى عيادة فى موسكو لمعالجة اخت زوجته التى ظهرت على وجهها اكزيما .

وكان من المؤسف جدا انى لم اسأل قبل ذاك عن البرقية . فى الساعة الثامنة مساء رحت بالقطار السريع الى بطرسبورغ .

فى ١٣ آذار ، الساعة ٨ والدقيقة ٥٠ صباحا وصلت الى بطرسبورغ وودعت رفاق الطريق اللطفاء واتجهت الى زاوية جادة نفسكى وشوارع كارافانايا لافتش عن غرفة صغيرة . وفى اليوم ذاته لبست معطفى العسكري ورحت اقدم نفسى لرئيس هيئة الاركان العامة واعرف متى يستقبلنى مدير

الوزارة . كان اليوم غير موفق ، لم احرز شيئا ، وارجأت الزيارة الى الغد .

فى ١٤ آذار رحى فى الساعة الحادية عشرة والنصف الى رئيس هيئة الاركان العامة . استقبلنى البواب بالقول ان المراجعات قد انتهت . رحى الى غرفة الاستقبال العامة وانا موطن العزم على احراز شيء ما . تلقيت ردا قاطعا من جانب عقيد مكلف بهذا الامر ، فانتظرت ذهاب هذا العقيد الغاضب ، وخاطبت جنرالا واوضحت له انى اريد ان اقدم نفسى اليوم حتما لرئيس هيئة الاركان العامة . اصغى الجنرال بكبير الانتباه وقادنى راسا الى الجنرال ساخاروف (٥) . وهذا الاخير اعجبنى خارق الاعجاب بمنظمره البسيط واللطيف (فى الصورة يبدو سميئا بشكل منفر) ؛ وعرفت منه ان الجنرال كوروباتكين (٦) يستقبل اليوم فى الساعة الثالثة ، ولكنه سيتأخر ، اغلب الظن ، لانه سيكون فى مجلس الدولة . نحو الساعة الثالثة رحى الى ديوان وزارة الحربية . جمهرة من الزوار اغلبهم من النساء ، ميدان غنى للمراقبة - فما اكتر ما تراه هنا من نماذج ! وبما ان الجنرال كوروباتكين قد حذر يانه سيتأخر لاستقبال الزوار ، فقد استقبل جنرال مترهل اصحاب الطلبات . والشيوخ من هذا الطراز ظهروا دفعة واحدة من مكان ما بكثرة كثيرة . اغلب الظن انه كانت هناك جلسة فى المجلس . يقى من الراغبين فى انتظار وصول كوروباتكين ٦ اشخاص . واخيرا ، حوالى الساعة الخامسة ، رن جرس ، فتحرك الجميع ، وصعد الكسى نيقولايفيتش [كوروباتكين] وراح الى مكتبه وخرج منه فى الحال نحونا فى غرفة الاستقبال . لم اره منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٧ ؛ كان اشحب بقليل من ذى قبل ، ولا غرابة نظرا لعمله الجهد . فى البدء اقترب من زائرتين ملحفتين بشكل لا يطاق ، ثم اقترب منى ؛ وسأل متى وصلت انا ؛ وقال انه لا وقت عنده الآن وطلب ان آتى غدا فى الساعة الثانية عشرة الا ربعا الى شقته . ان جميع ذوى المرتب العالية الذين نظروا الى بتعال قبل وصول الجنرال قد تغيروا كليا عند ذهابى ، لما فيه دهشتى ؛ فقد رأوا كيف استقبلنى الكسى نيقولايفيتش ، ولذا مشيت ببعض الاعتزاز امام صفهم . فى اسفل سألتنى احدى الزائرتين المذكورتين آنفا والبواب عما اذا حالف التوفيق مهمتى ؛ اجبت انى لم آت طالبا . فى المساء رحى الى السيرك . يجب اعتبار اليوم موقفا . ولكن ما عسى ان يقول الكسى نيقولايفيتش غدا ؟

فى ١٥ آذار ، نحو الساعة الثانية عشرة ، جئت الى الجنرال فى شقته ، على رصيف غاغارين ؛ دعانى مباشرة الى فطور عائلى تحدثنا خلاله عن

رحلتى المقبلة . نظرات الكسى نيقولايفيتش خارقة الطرافة . كان لطيفا ومحتفيا جدا ؛ وقال لى عند خروجى انه يأمل فى ان يرانى مرة اخرى عند رحيلى وطلب ان آتى اليه مساء بعد الساعة الثامنة ، حين يكون عادة حرا . ومن الجنرال رحت الى الكسى غيورغيفيتش غوليكونوف ، وتقابلنا كالاخوة ؛ وقد سررت جدا لأنه شفى من المرض الخطير الذى اصيب به . ينصح الاطباء بالانتقال الى الجنوب . تناولت الغداء ، كما فى الماضى البعيد ، عند ميلبريت ، ورحت مساء الى الصالة الكبرى فى الكونسرفاتوار لحضور عرض قدمته فرقة خاصة من اوبيرا موسكو ؛ كانوا يعرضون اوبيرا «فاوست» ، ولكن العرض كان ضعيفا جدا ، ولذا لم يحدث فى نفسى لحن زيبيل ولا لحن ميغيستوفل المشهور ذلك الانطباع الذى استحوذ على عند مشاهدتى الاوبيرا فى مسرح ماريينسكى .

فى ١٦ آذار رحت صباحا لتدبير بعض الامور . كنت فى جزيرة فاسيليفسكى ، واضطرت الى الذهاب فى شارع كاديتسكايا لينيا . كم وكم من الذكريات بعثتها هذه الانحاء فى نفسى ! فهنا امضيت افضل سنى حياتى : اولا سنتين فى مدرسة الامبراطور بافل التى اذكرها دائما ، على تقيض الجمناز ، بارتياح خاص ؛ وهنا كان العمل وكان النوم الآمن ، والرفاق الطيبون . ولكم استغرقنا آنذاك فى هواية المسرح والمطالعة ! بعد خمس سنوات ، تآتى لى من جديد ان اعيش فى هذه الانحاء بالذات ، مقابل مبنى المدرسة بالذات ؛ وهذه السنوات الثلاث ايضا مرت آنذاك بسعادة ، وان يكن فى اجواء مغايرة تماما . وقد حظى المدعو [ى . ٠] بقسط كبير من السعادة .

حين عدت الى منزلى نحو الساعة الثالثة ، علمت بوصول اخى ، ولكنى لم اجد : فقد انتظرنى زمنا طويلا ثم راح يتنزه . بعد فترة من الوقت عاد اخى . عاد على اللقاء بمتعة كبيرة اذ اننا لم نتقابل منذ اكثر من سبع سنوات . وكل ذلك النهار ، والمساء ، والليل مرت فى الاحاديث . الا انى غبت لوقت قصير اذ رحت الى دالغات وكوروباتكين لتوديعهما . ودعنى الكسى نيقولايفيتش كاخ ، وطلب ان اكتب له ، وعانفنى للوداع .

فى اليوم التالى ، فى السابع عشر ، استغرقت طوال الصباح كله فى امورى وتدبير شؤونى المالية . وعند العودة الى المنزل ، قدمت لآخى ٣٠٠ روبل وطلبت منه ان يقبلها كتسديد لتلك المبالغ العديدة التى غالبا ما كان يقرضنى اياها بينما كان غالبا ما يحتاج هو نفسه الى النقود . رفض اخى قطعاً . آنذاك طلبت منه ان يرسل المبلغ الى امنا اذا كان هو لا يرغب

فى اخذه . فوافق على هذا الطلب ، وقبل النقود . فى المساء رحنا الى السيرك ، ولكن السيرك لم يوفر المتعة لى ولا له ، كما يخيل الى .
فى ١٨ آذار رحنا صباحا مع اخى الى حميد الله آخون ؛ وكان على ان آخذ احتياطيا من بعض الالبسة . وطلب منى آخون اثناء الحديث ، وقد عرف انى مسافر الى مصر ، ان اقترح على الفقهاء المصريين ، المعروفين بمستواهم العلمى الرفيع ، حل مسألتين خارقتي الاهمية بنظره ، هما التاليتان . فقد قرأ فى كتاب «حوار البياح» (لربما اخطأت فى الاسم) ان من يلبس قبة ، لا يحكم الضرورة ، بل لمجرد ان يشبه الكفار ، انما هو كافر ، وان الذين يحزمون الخضر بحزام رقيق دقيق ويعلقون الصليبان (الوسمة) فى كل مناسبة هم بلا ريب كافرون . وطلب آخون ان استوضح هذه المسألة . وهذا واسع الدلالة . ومن الاسئلة علمت انه يوجد فى اوديسا آخون (ابراهيم) يحكى عنه الجميع بصورة سلبية جدا ، ويتمونه «بسلخ جلود» الداهيين الى الحج .

انقضت بقية الوقت على معاملات جواز السفر . عرجت لفترة وجيزة على بايازيدوف ، والتقيت هناك باراغانسكى ؛ يبدو انهما فتحا مطبعة بالشراسة . وقد اعطى هو ايضا تقديرا سيئا عن ابراهيم ، آخون اوديسا .
فى ذلك اليوم سافرت فى الساعة ٨ مساء مع اخى فى قطار سريع لسكة تسارسكويه سيلو : هو حتى دفينسك (٧) ، وانا بدون منقلبة الى اوديسا .

ركبنا فى مقصورة من الدرجة الاولى ، ونمنا الليل بصورة مريحة ، رغم انى نمنا قليلا جدا . وهذا يحدث لى منذ سفرى الى اسخاباد ؛ المهم ألا افقد اعصابى نهائيا !

فى ١٩ آذار وصلنا فى الساعة ٧ صباحا الى محطة بطرسبورغ فى دفينسك ؛ نزلنا انا واخى من القطار واحتسينا الشاى ثم تفارقنا . وعندما رأيت المحطة الحديدية التى سبق ان عرفتھا جيدا اثناء خدمتى مدة خمس سنوات فى اللواء الثانى فى دينابورغ (٨) ، وعندما رأيت من نافذة عربة القطار المدينة والقلعة ، تدفقت فى خاطرى طائفة من الذكريات ؛ وبجهد وصعوبة قمعت انفعالى الداخلى . حوالى الساعة الرابعة كنا فى فيلنو (٩) ، - وهى ايضا مكان اتذكره . وهنا تقابلت مع بانسوبوف فاعطانى بطاقة لقريبه الذى يملك «تكية» فى مكة المكرمة . فى هذه السنة سافرت من بطرسبورغ الى الحج ٥ عائلات تترية من مدينة قاسموف . كذلك اعطى بانسوبوف تقييما سيئا عن ابراهيم آخون ، واوصى ، عند الاقتضاء ، بحسن

خلقا (المعلم - لقب مشرف تترى - ا . ر .) . بعد فيلنو ، قلما رايت الثلج ، ولكن الضباب الشديد كان منتشرا على الدوام وظل منتشرا حتى رحيل من اوديسا . ومعى سافر من بطرسبورغ فى مقصورة واحدة حتى محطة رازدلنايا شيخ ، ملاك اقطاعى من بيسارابيا (١٠) ؛ وتبين انه محادث بشوش وودود جدا .

فى العشرين من آذار ، سرنا طوال الوقت كله ، ووصلنا فى هذه الاجواء الى اوديسا فى الساعة ٨ مساء . فى الطريق من المحطة الحديدية الى الفندق [. . .] * ، اقتنعت حقا بنظافة المدينة ، وانارتها الجيدة ، وجودة حال الطرق . الغرف فى الفندق فاحشة الغلاء . غرفة صغيرة فى جناح فى الحوش - روبل واحد و ٥٠ كوبيكا ؛ ناهيك عن ١٥ كوبيكا للنور و ٢٠ كوبيكا للسماور ، وغير ذلك .

٢١ آذار . رحنا اولاً الى ابراهيم آخون . يبدو محتالاً قديماً ومحنكاً . وليس من الصعب على امثاله ان «يسلخوا جلود» البشكير السذج والقرغيز الذين لم يغادروا يوما ديارهم . ومنه عرفت ان [تيمور] اكتشورين وزوجته وابنيه وبناته الثلاث و[عب .] دبرديف راحوا الى مكة . هذا النبا كان معزيا لى . انا اعرف من زمان الشيخ وابنه يعقوب . بناء على توجيه آخون وجدت حسن خلقا وكلفته يبضع مهام . اشتريت لباسا مدنيا ، ولبسته ، ووضعت اللباس الرسمى جانباً لارسله الى اخى . بسبب انعدام عادة ارتداء اللباس المدنى ، يبدو الحال مزعجاً جداً : فقد اشتريت قبعة (رخوة) وبياضاً . ومن جراء الضباب الكثيف لم ار او يكاد المدينة ولم اكون تصورا كاملاً عنها .

فى ٢٢ آذار انتقلت فى الساعة ٨ صباحاً الى باخرة تابعة للشركة الروسية (١١) ، متجهة رأساً الى الاسكندرية . ولحسن الحظ كانت الباخرة من اكبر (٧٨٠٠ طن) واجدد بواخر الشركة . اسم الباخرة «الامبراطور نيقولاى الثانى» . انزلونى فى مقصورة منفردة من الدرجة الاولى . زينة المقصورات وغير ذلك من الغرف فاخرة . ثمن التذكرة ٩٨ روبلا . جاء الى وداعى حسن خلقا ثم آخون . فى الساعة العاشرة تماماً ، ابتعدت الباخرة عن الرصيف وخرجت من المرفأ ببالح البطء ، واتجهت صوب البوسفور . كان التموج ضعيفاً . فى الحادية عشرة ، دعونا الى الفطور . اشتد اضطراب الموج ، ولذا راحت السيدة الوحيدة الجالسة معنا بعد تناول الصحن الاول بالذات . الفطور وفير جداً - يتألف من ٣ صحن عدا المتبلات والنقل . نحو نهاية الفطور كان تمايل الباخرة من مقدمتها الى مؤخرتها تد ازداد ؛

بصعوبة بقيت جالسا الى النهاية ؛ ثم رحت الى مقصورتى وتمددت .
 تملكنى غثيان قوى . مرة او مرتين ظننت انى سأتقيأ ، ولكن انتهى كل
 شيء بخير وسلام . لم استطع بالطبع ان انهض لتناول الغداء ؛ وفي المساء
 شربت الشاي وانا متمدد . اخذت الباخرة تهتز نوعا ما ؛ يبدو ان التموج
 خفيف . حوالى الساعة ١٠ مساء اغفيت .

٢٣ آذار . استيقظت فى الساعة ٣ صباحا . لم اشعر باضطراب الموج .
 القيت نظرة عبر الكوة . التموج كبير . خرجت الى المتن . الريح قوية ، لا
 يمكن الوقوف . اضطراب الموج ، رغم هذا ، ضعيف جدا . حوالى الساعة
 الثانية ، دخلنا البوسفور . ضفتاه وعرضه تذكر جدا بالفولغا قرب نيجنى
 (١٢) . الضفتان عاليتان بالقدر نفسه ، تليتان ، مزروعتان ، مكسوتان
 بالشجيرات وباشجار نادرة من السرو . وغالبا ما نرى بقعا رملية صفراء .
 الضفتان ، على العموم ، جميلتان جدا . تقع العين على تكتات حجرية دفاعية
 مهمة . على بعد نحو ٧ فرسعات * عن المدخل ، انشئت على الضفتين بطاريات
 ترابية من طراز جيد وموضع قوى جدا . فى هذا المكان يبلغ عرض البوسفور
 زهاء ٣٠٠ ساجين * . فى المزاغل تبدو مدافع من عيارات كبيرة ، قرابة
 ١١ بوصة . الاستحكامات متعددة الطوابق ، وتقع فى اماكن مختلفة ، ولذا
 يمكن اطلاق نيران متقاطعة . على متراس خندق كان جنود فى طرايبش حمراء
 واشرطة حمراء على السراويل . قرب احد الحصون توقفت الباخرة وانزلت
 زورقا مضى عليه الى الضفة معاون الربان وعدد من البحارة لكى يأخذوا^٢
 رخصة بالعبور لاحقا . بعد عودة الزورق ، واصلت الباخرة سيرها . ومن
 هنا الى القسطنطينية تحتفظ الضفتان بالطابع نفسه الذى تتميز به الضفة
 اليمنى من نهر الفولغا قرب نيجنى او قازان ؛ وهما مكسوتان كليا بالمبانى
 والمنشآت . الصف الادنى من المباني ينتصب قرب الماء بالذات ؛ ولكثير
 من المنشآت والابنية بوابات لاجل عبور الزوارق الى داخلها . وبين البنايات
 بنايات جميلة جدا من حيث الهندسة المعمارية . وبما انى تعودت رؤية
 هذه الصفوف المتواصلة من البنايات ، لم لاحظ كيف اقتربنا من
 القسطنطينية ؛ وقد وصلنا اليها حوالى الساعة الرابعة نهارا . الانطباع
 الاول-كثرة من اصحاب القوارب فى طرايبش حمراء ولغط رهيب . وما ان
 انزلوا السلاالم حتى تدفق جمع غفير فى الطرايبش الى المتن : من ضباط فى
 البوليس التركى وعلى صدورهم كتابة «قانون» ، وادلة ، وسواقى زوارق ،

* الفرسا=١٠٦٠ مترا . المعرب .

** الساجين=متر و١٢ سنتمترا . المعرب .

ووسطاء لمختلف الفنادق . (توقفت الباخرة عند مدخل «القرن الذهبي» على بعد نصف فرسنتا من الساحل) . كان المنظر جميلا الى حد اننى قررت عدم النزول الى الضفة اليوم ، ومشاهدة الجمهور والمدينة من البوسفور .
تقف الباخرة قرب مدخل البوسفور ؛ الى يميننا ييره (القسم الاوروبى) والى يسارنا استنبول (القسم التركى) ، والى ورائنا سكوتورى . عرض البوسفور مقابل القسطنطينية فرستا ونصف فرستا او فرستان . ومنظر ييره هو ايضا يذكر جزئيا بمنظر نيجنى من نهر الفولغا ، ولكن للمباني طابعا مغايرا تماما ؛ فهي عبارة عن بنايات عالية جدا ومنتصبة فى خطوط متوازية ضيقة ذات نتوءات وشرفات مختلفة (ومثل هذه المباني رايت فى اللوحات عن المدن الايطالية القديمة) . ان استنبول عبارة عن كثرة من منشآت اصيلة بين اشجار السرو ، وفوقها تهيمن القبة الهائلة لجامع آيا صوفيا ؛ وهى على العموم خارقة الروعة والجمال والاصالة .

حول الباخرة تغلى الحياة غليانا ؛ فان كثرة من البواخر والزوارق تنقل الجمهور الى سكوتورى وعير البوسفور . وحول باخرتنا ، يصطف اصحاب الزوارق مثل الحوذيين . ومن الباخرة يفرغون الطحين فى ٤ مراكب دفعة واحدة .

اتفقت مع رفيقى فى الباخرة على الذهاب غدا معا الى الضفة ، وعدت الى مقصورتى ونمت .

٢٤ آذار . فى الساعة ٧ صباحا ، اعتزمنا انا ورفيقي الذهاب الى المدينة ، علما باننا اتفقنا على الاستغناء عن الدليل ؛ وهذه المهمة اخذها رفيقى على عاتقه . اما انا ، فقد تعهدت بان اقوم بدور المترجم . لم ينزلوا سوى السلم الاولى من الفئة الثالثة ، وكان له درابزون من جانب واحد فقط ؛ اسرع رفيقى نزولا بجرأة وقفز الى زورق . اما انا ، فقد خفت وعسدت القهقري لأن درجات السلم رطبة ومزعجة جدا ؛ وبعيدا فى الاسفل ، تضطرب هوة البحر ناهيك عن السلم المتأرجح . رأى البحار المناوب عجزى فساعدنى على الخروج والنزول فى الزورق . وصلنا الى الضفة واذا بنا فى الجمرک ، فتفحصوا جوازى سفرنا ، الامر الذى استغرق نصف دقيقة من الوقت . خرجنا من الجمرک واذا بنا فى شارع ييره الساحلى .

لقد قرأت الكثير من اوصاف القسطنطينية ؛ وجميع الرحالة يصفونها بانها مدينة جميلة جدا من البحر ولكنها قنرة وغير جذابة فى الداخل ؛ ويكتبون عن الامتيازات التى تتمتع بها كلاب الشوارع ، وغير ذلك وهلم جرا . ونحن المسلمين من اتباع روسيا ، لا نصدق بطيبة خاطر كل ما يمس

الجوانب الرديئة فى هذه الاوصاف ، ونحن مستعدون لكى ننسب هذا الى نفور المسيحيين من الاتراك ، والخ . .

اول ما اذهلنى فى شوارع القسطنطينية ، انما هو وفرة الزباله ووفرة نوع خاص من الكلاب التى تتصرف على الارصفة كما فى بيوتها . وغالبا ما تقع العين على بيوت خشبية متعددة الطوابق . فماذا يحدث هنا اذا ما ننسب حريق فى شارع بمثل هذا العرض التافه ؟ ان ضيق الشوارع يمكن تفسيره ، ولكن كيف يجوز فيها مثل هذا القدر من الزباله ، مثل هذا القدر من الوحل ، مثل حال الطرق هذا ، مثل هذه الهندسة المعمارية المنفرة ؟ ان اى رئيس للبوليس فى اية مدينة فى روسيا يستحوذ عليه الرعب من مثل هذه الاوضاع .

صعدت مع رفيقى الى الشارع الرئيسى فى بيره ، وسرنا فى هذا الشارع ، ونزلنا الى جسر يوصل بين بيره واستنبول (ما افطع ارضية هذا الجسر الخشبية ا) ، واستاجرنا قارب الجسر حصانين للركوب بمبلغ مجيديتين ورحنا عبر استنبول كلها الى مقبرة ايوب الواقعة عاليا فى الجبل فى ناحية القرن الذهبى . المنظر من هذا المرتفع عجيب : فى اسفل ، القرن الذهبى مع كثرة من السفن ؛ فى البعيد ، بيره وغالاتا ؛ مقابر فى كل مكان ؛ ادغال اشجار السرو والسفوح الخضراء المرسوة بالمسكة باولى زهور الربيع . منظر عجيب ، فلا يرغب المرء فى الرحيل . بعد ان نزلنا من الجبل سيرا على الاقدام ، امتطينا الحصانين ورحنا اولا بمحاذاة السور البيزنطى القديم (وهو انشاء حجرى وطيد جدا مع خندق ملبس بالحجر هو ايضا) ، واجتازنا الشارع البازارى فى استنبول ونزلنا قارب السوق المسقوفة ؛ وبعد مشاهدتها رحنا الى آيا صوفيا . لقاء مشاهدة هذا الجامع ، اخذوا منا ، لما فيه دهشة رفيقى الذى كان غير مرة فى هذه الانحاء ، مجيدية واحدة فقط . من الخارج يبدو جامع آيا صوفيا غير جميل ؛ وزجاج نوافذه مدمر ؛ والمبنى مصبوغ باللون الاصفر بصورة سيئة . فى الداخل ، مبنى رائع ، جليل ، مهيب ، فيه رواق مذهل من الاعمدة وقبة بديعة . على الجدران ، دروع عليها كتابات ، الامر الذى يتنافى مع روح الصرح العامة . فى الجامع تطير الحمام ، وتوسخ بالطبع . الانطباع عميق . بعد مشاهدة الفوارات الجميلة الواقعة قرب الجامع والتركية الصنع (وغالبا ما تقع العيسن على الفوارات فى الشوارع) ، عدنا عبر الجسر نفسه الى بيره وتخلينا عن الحصانين . بعد تناول الغداء والتنزه كثيرا فى الشوارع عدنا الى الباقرة . فى شوارع القسطنطينية ، تقع العين على عدد كبير من العسكريين ،



- اسطنبول، تصدير پدافورد ۱۹۶۶.

من جنود وضباط ؛ وفى كل مكان تسير دوريات ، وفى كل مكان ، تنتصب المخافر . الجنود طويلو القامة جدا ، ولكن بدون الهيئة اللازمة ، وفى معاطف سوداء نمساوية ، وغالبا ما تكون البستهم قذرة . ولكنهم ، على ما يبدو ، يحفظون السلاح بصورة جيدة جدا . رأيت فصيلة من الخيالة - الاحصنة جيدة ؛ رأيت تدريب مفرزة - جميع الاساليب والحركات يؤدونها بنحو ممتاز وباجتهاد .

فى القسطنطينية ، يلاحظ الزائر فى الحال الاهمال والاستهتار والقذارة فى كل مكان . مثلا . ترامويات الخيل سيئة ، الاحصنة سيئة كذلك ؛ تنطلق احصنة التراموى بخيب فى شارع منتعش جدا . وقد تدهس شخصا ما ، بينما الحوذى منصرف فى هذه الاثناء ، وقد تخطى عن الازمة والكابح ، الى لف سيجارة ليدخنها . هذه هى انطباعاتى المرتكزة بالطبع على مراقبات عابرة فقط .

يجب ان اضيف ايضا انه لا يوجد فى القسطنطينية نظام تقدى معين ، وان عملات جميع البلدان قيد التداول ، وانه لا يوجد بريد معين ، وان لكل دولة يريدتها .

٢٥ آذار . منذ الصباح ، نظرا لرحيل الباخرة ، اخذ اصحاب الزوارق يتدافعون بزوارقهم ؛ وبدأ قبول يريد جميع الدول ووصول الركاب . واخيرا فى الساعة ١٠ ، رفعت الباخرة مراسيها وانطلقت الى بحر مرمرة . من بعيد تمتعنا من جديد بمشاهدة القسطنطينية والجزر . البحر هادى تماما . رأيت على المتن الراسى مسلمين يقومون بالاوليله (صلاة الظهر باللغة التترية - ا . ر .) . بعد نهاية الصلاة ، اقتربت من جماعة منهم وعرفت انهم من سكان قشغر ، وانهم ذاهبون الى مكة . سافروا فى الثانى من شعبان ، وعبروا مضائق تيريك داوان فى ١١ يوما . فى كراستوفودسك وجههم المدعو عبيدالله الى سيباستوبول . وقد تشكوا من ان المدعو صدرا والمدعو غيراى قد ابتزا الاموال منهم هناك لقاء تأمين الفيزا لجوازات سفرهم ، اذ اخذا من كل منهم ١٣ روبلا . انوى التعرف عليهما بنحو اقرب حين تسنح الفرصة .

فى الساعة ١٠ مساء عبرنا الدردنيل - عرض هذا المضيق يتراوح بين فرستا ونصف فرستا و٣ فرستات . ضفافه عالية . البحر هادى تماما . الطقس بارد دائما .

٢٦ آذار . فى الساعة ٤ صباحا وصلنا الى ازمير . الضواحي جبلية جدا ؛ الذرى تذكر بجبالنا كوبت داغ . على مسافة ٧-٨ فرستات من ازمير ،

توجد فى مكان ضيق بطارية عصرية المنظر . المدينة من البحر جميلة جدا ؛ فى الجبل المجاور ، تظهر انقاض سور قلعة تشبه كثيرا «قلا»نا ، ولكنها حجرية . المرفأ مجهز جيدا وفيه سد للامواج . ما ان توقفت الباخرة ، حتى انقض فى الحال سرب كبير من اصحاب الزوارق كانوا ، على ما يبدو ، يكبحونهم حتى تلك اللحظة ، واذا ازدحام غير عادى ، وهرج ومرج شديدان . لم اذهب الى المدينة ، واكتفيت بمشاهدتها من الباخرة . فى الساعة الرابعة اقلعنا واتجهنا الى بيرىوس فى اليونان . الطريق تقع دائما بين جزر عالية ، متناثرة بصورة كثيفة جدا فى البحر (ارخبيل) . فى ازмир (اركبوا ؟) فى مقصورات الدرجة الاولى نحو ٢٠ شخصا ؛ انهم سياح انجليز والمان ذاهبون الى آثينا ؛ بينهم عجوزان او ثلاث عجائز طاعنات جدا فى السن ؛ فماذا يدفعهن الى التسكع فى الدنيا وتحمل كل مصاعب السفر ؟ وكما فى القسطنطينية ، تقترب السفن الاجنبية فى ازмир من الساحل بالذات ، ولكن سفننا الروسية وحدها تتوقف على بعد نصف فرستا من الساحل ، - وهذا منقص كبير للركاب وللشحن والتفريغ . اليوم تحدثت طويلا مع الحجاج من قشغر . اخذوا تذاكر السفر من سيباستوبول الى القسطنطينية ، واعطوهم التذاكر من القسطنطينية الى جدة رأسا . سألت الربان عن كيفية تقلهم لاحقا . يبدو ان الشركة الروسية للملاحة والتجارة قد اتفقت مع السكك الحديدية المصرية ومع شركة ملاحة عربية . يستقبل (عملاء ؟) خاصون الحجاج فى الاسكندرية ويركبونهم فى السكة الحديدية ؛ وفى السويس ينقلونهم من جديد الى باخرة .

اليوم تحدثت طويلا مع الحجاج من قشغر ، وعلى رأسهم الحاج امين الذى يسافر للمرة الثالثة الى مكة والذى يذهب هذه المرة لكي يبقى هناك على سبيل الإقامة الدائمة . عددهم جميعا ١٣ شخصا ، اكثرهم شيوخ .. قال هذا الحاج ان نحو الفى شخص يذهبون سنويا من قشغر (اقليم) الى مكة حين لا تقيم روسيا العوائق . ونضلا عنهم يذهب عدد غير كبير نسبيا من الصينيين المسلمين (الدونغان) .

يسلك الحجاج الطرق التالية :

١ - الطريق الاغلى ، ولكن الطريق الاسرع والانسب - تيريكداوان الى اوش وسمرقند (هؤلاء الحجاج قطعوا الطريق بين اوش وسمرقند على احصنة البريد وفى السكة الحديدية الى كراسنوفودسك ، ثم الى باكو وباطوم والقسطنطينية) ، والخ . .

٢ - فى الاتجاه ذاته الى سمرقند ، ومنها عبر كابول الى بيشاوار

على ظهور الخيل ، ومن بيشاوار الى بومباي فى السكة الحديدية ، ومن ثم الى جدة على يواخر انجليزية .

٣ و ٤ - يذهبون كذلك الى كابول دون دخول اراضى روسيا ، عبر قونجوت (الطريق ٣) وباداخشا (الطريق ٤) (ليست باداخشان) (١٣) . السفر فى الطرق الثلاثة الاخيرة لا يكلف غالبا ، ما لا يزيد على ١٠٠ روبل ، ولكنها تحفل بمصاعب كبيرة وتتطلب وقتا كثيرا ؛ والذاهبون فى هذا الاتجاه يمشون عادة على خيولهم بالذات حتى بيشاوار حيث يبيعونها يربح ؛ وعادة يشتريها الامير المعظم فى كابول لاجل خيالاته . وفى البلدان التى تقع على طريق الحج ويقطنها المسلمون يلقي الحجاج من السكان الدعم المادى . والبواخر الانجليزية اكثر تكيفا لحاجات المسلمين ؛ فهناك مقصورة خاصة يستطيعون فيها ان يهيئوا بانفسهم طعامهم ، الامر الذى لا يتوفر فى يواخر الشركة الروسية ؛ وهذا ما اقتنعت به شخصيا حين سألت رؤساء الباخرة عن هذا بطلب من الحجاج .

٢٧ آذار . حوالى الساعة ٩ صباحا ، وصلنا الى بيرو (بيرايوس) . دخلت الباخرة مكلأ مغلقا . ازدحام اصحاب الزوارق وخلافهم من الناس اكبر مما فى القسطنطينية وازمير . برفقة ٣ ركاب نزلت الى الساحل ، واخذنا نحن الاربعة عربى ، ورحنا نشاهد انقراض الاكروبول . بيرو بلدة مغبرة جدا ولكنها نظيفة ؛ الطريق الى الاكروبول طريق حسن جدا ينطلق بموازاة خط للتراموى البخارى . على جانبي الطريق حقول متواصلة ؛ سنابل الشعير اخذت تظهر وتتناهى . فى كل مكان تقع العين على اشجار الزيتون . غالبا ما نرى آلات لرفع الماء ، عاملة بالاحصنة او بالبغال ؛ يبدو ان كل شئ يتطلب السقاية . المحلة تحيط بها جبال بلا حياة من طراز جبالنا فيما وراء قزوين . اذا كانت اليونان كلها هكذا ، فليست البتة بلادا زراعية .

انقراض الاكروبول على صخرة عالية تتألف من عدد من اروقة الاعمدة المرمرية تنبه المنهارة والمدمرة . الاعمدة خفيفة جدا بالفعل ؛ وخطوط الهندسة المعمارية خارقة الاناقة رغم انها مستقيمة ، ولكن كل هذا لم يثر فى نفسى كبير الاعجاب والتهليل ؛ فان آثار سمرقند ، مثلا ، تعجبني اكثر ؛ فى اسفل الصخر ، آثار مسرحين - مدرجين . المكان لاجل الاكروبول اختير برائع التوفيق ؛ اذا نظرنا من اسفل ، فلا بد ان يظهر كل هذا بشكل جميل جدا على خلفية لازورد السماء .

من الاكروبول يلوح منظر عجيب على الضواحي قرب السفح : (من الشمال) تقع آئينا التى تبدو جميع مبانيها وشوارعها كأنما على راحة الكف ،

في الجنوب ، على بعد ١٠-١٢ فرستا ، تظهر بيرة ؛ ثم تنبسط مياه الخليج الزرقاء . تبدو آثينا مدينة أنيقة ، مرتبة ، نظيفة .
عدنا نحو الساعة الواحدة الى الباخرة ؛ وقد تفضل ربان السفينة وارجا الفطور الى الساعة الواحدة (عادة في الساعة الحادية عشرة) .
اقلعنا في الساعة الثانية نهارا ، وانطلقنا من جديد بين الجزر . البحر هادئ تماما . السماء صافية . الآن يتعين اجتياز اكبر مرحلة ؛ في الليل تدخل الباخرة احد مرافق جزيرة كريت ، اغلب الظن ، لكي تتلقى البريد ، نظرا للمضاعفات المحلية (١٤) .

٢٨ آذار . في الصباح ، عبر المنام ، سمعت كيف رموا المرساة وكيف اقلعنا من جديد بعد قليل ؛ اغلب الظن اننا كنا في كريت . قمت كالعادة في الساعة السادسة صباحا . البحر هادئ تماما . نمضي بمحاذاة ساحل كريت الشمالي . الجزيرة ، او ، من الافضل القول ، السواحل التي سرنا بمحاذاتها - من الجهة الشمالية والشرقية - جبلية جدا ؛ الجبال تشبه جبال كوبت داغ ؛ وهناك قمم كثيرة لا تزال مكسوة بالثلج ؛ ارتفاعها ، كما قال الربان ، حوالي ٨٠٠٠ ارشين * ؛ الثلج يبقى حتى حزيران (يونيو) . من جديد تعادلت زمنا طويلا مع الحجاج من قشغر ، علما بانني تعلمت مراسم الحج على يد الحاج امين . يتبين من اقوال هؤلاء الحجاج ان الطريق من قشغر الى اوش يستغرق عادة ١٠ ايام ، بينما قضوا هم بسبب الفصل غير المناسب من السنة ١٧ يوما . واذا مضى الحجاج على خيولهم بالذات من قشغر الى سمرقند عبر كابول ، فانهم يقضون شهرا واحدا في الطريق ؛ ومن سمرقند الى بلخ ١٠ ايام ؛ والى كابول (من بلخ) ١٥ يوما ، وحتى بيشاور ١٥ يوما آخر . في السكة الحديدية الى بومباي - ٦ ايام . اما في الباخرة ، فقد قضى الحاج امين شهرين بكاملهما ، لانه اضطر الى البقاء في المحجر الصحي في كمران . ومن الحجاج عرفت ايضا انهم ينزلون في مكة في فنادق خاصة (تكيات) ، متجمعين حسب القوميات ؛ فهناك تكيات قشغرية ، وقرغيزية ، وكازاخية ، والنخ . .

اليوم ، البحر هادئ تماما طوال الوقت . رفاقي هم : خوروشيفيتش - الصحفي المشهور في احدى جرائد اوديسا ، تجوب كثيرا جدا ، وكس خبرة ؛ كان كذلك في ساخالين ؛ لا يزال شابا ؛ وهو محادث مستطاب جدا ؛ انه ذاهب الى فلسطين حيث سيبقى شهرا ، ومن هناك يسافر عبر ايطاليا

* الارشين يساوي ٧١ سنتمترا . المعرب .

التي يجيها خارق الحب الى اسبانيا ويبقى فيها للصيف . ستظهر مقالاته عن ساخالين في طبعة منفردة في سانت بطرسبورغ .

وكان هناك ملاك عقارى بولونى من محافظة بودوليا يقوم كل سنة برحلة فى البحر الى الاسكندرية وهو يفكر فى الذهاب هذه المرة الى دمشق وبعليبك . وقد تجوبت معه فى القسطنطينية ؛ وكان هناك جنرال فى مصلحة السكك الحديدية لا يضيع هيئته الجنرالية ، رغم انه اخذ يغير ملابسه تدريجيا ويلبس البسة مدنية . الباكون ركبوا فيما بعد ، وجميعهم حجاج . فى الوقت الحاضر يوجد ١٢ روسيا و ١٠ اجانب . مقصورات الدرجة الثالثة كلها مليئة بالحجاج الروس الذاهبين الى القدس .

٢٨ آذار . اليوم ، كما قال الريان ، اذا ناسب الطقس فلا بد ان نصل الى الاسكندرية فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ؛ وبالفعل لا يزال الطقس بديعا ؛ الحرارة تزداد ، الشمس تدفىء كما فى منطقتنا فيما وراء قزوين . ما انا لليوم الثانى اشعر بانى غير سليم تماما ، وذلك ، اغلب الظن ، من وفرة المأككل على مائدة الباخرة ؛ فيما بعد ، كما اعتقد ، لن يدللننى الطريق بهذا .

فى السنة الماضية ، فى مثل هذا الوقت ، كنت اتجوب فى جبال قطاعى ، واعكف باجتهاد على الاحصاء ، ولم يخطر البتة فى بالى انى بعد سنة ساكون بصيدا جدا عن الانحاء التى تعودت عليها جيدا فى هذه السنوات السبع لما فيه دهشتى .

حوالى الساعة الثالثة اقتربنا من الاسكندرية . منظر المدينة من البحر عملى . كثرة من السفن [. . .] * الاخرى ، و [. . .] * الانيقة . اقترب منا موظف من المرفأ ، وركض على السلم الى اعلى بقدر من المهارة والخفة بحيث ينبغي الظن انه ليس من اصل البلد بل انجليزى . رسونا رأسا الى الرصيف (وهذا للمرة الاولى بعد لوديسا) . على الرصيف كثرة من العرب فى قمصان بيضاء طويلة جدا . ما ان مدوا الجسور حتى تدفقت كثرة من الحمالين (الشىالين باللهجة المحلية) .

كنت قد تعرفت فى الباخرة على قرغيزى من جوار اورنبورغ ؛ كان لا يزال شابا ؛ وكان يعيش على الدوام فى مكة ؛ والآن يعود الى هناك بعد ان اقام فى مسقط رأسه ؛ وفى مكة عنده زوجة وحماة . هذا القرغيزى الذى يعرف اهلى اعجبنى كثيرا الى حد انى قررت ان اجعله معاونا موقتا لى . اسمه الحاج سلطان .

يبدو انه توجد فى الاسكندرية ايضا عصابة من نهايى الحجاج ؛ ومنذ

بادى* بدء وقعت فى مخالاب صاحبنا الحاج مصطفى ، المولود فى كريت . ودعت رباننا اللطيف ، وفارقت آخر شيء روسى - السفينة . وحين دبر الحاج سلطان شؤون الحجاج من قشغار مع حوذين للنقل ، رحى معه الى الجمرى ؛ وهناك اخذوا جواز سفرى ، وفتشوا الحقيبة ، وفتشونى انا ايضا بخشونة ، واطلقوا سراحي قائلين انى سأتلقى جواز السفر غدا من قنصلنا . قال الحاج مصطفى شيئا ما عن امكان الحصول على جواز السفر فى وقت اسرع ، اليوم بالذات اذا اعطيت بخشيشا ، ولكنى رفضت . رحنا الى المدينة ؛ المنظر اوروبى تماما ، الارصفة بديعة ، من البلاط ؛ عمارات متعددة الطوابق ، بينها جامع غنى فخم ، واتاما [لكل شيء ، تشال ؟] محمد على فى الساحة . اخذنى الحاج مصطفى الى فندق سيبى* يخص حسن كريدل ؛ الغرفة سيئة ولكن المفروشات على الطريقة الاوروبية . ٨ قروش فى اليوم . رحى اشاهد المدينة . كثيرون من المتنزهين (اليوم يوم الجمعة) ، فى البسة على احدث موضة ، اذهلتنى المقاهى الشاسعة مع طاولاتها الصغيرة فى الشارع ، وفيها يلعبون فى النرد وجزئيا فى الورق بكل حمية . بسد ان شبعى من المشاهدة عدت الى غرفتى فى الفندق . فى المساء رحى اتسكع من جديد . لباس النساء المحليات غريب ؛ فهن ملفوفات بكليتهن بالاسود ؛ على الجبهة خشبة صغيرة لدعم الحجاب . تسترعى الانتباه وفرة مرضى العيون والعميان . الجنود المحليون (العرب) يحافظون على النظام - البستهم حسنة مع [. . .] * على الكم ؛ جميعهم سود العيون حليقو الذقون ، فى قمصان ذات قبات ناصعة البياض . واضح ان الهيئة جيدة . رايت ايضا جنودا انجليز - فى معاطف حمراء وقبعات صغيرة ، وعصى فى الايدى ، منظر مفرط فى الالباء .

فى كل مكان نسمع النطق العربى والصيحات باللغة العربية . نمت فى الساعة العاشرة ، بعد ان تعبى جدا من المشى الطويل .

٣٠ آذار . فى الصباح رحنا الى القنصلية الروسية لآخذ التذكرة . لم يكن القنصل موجودا ؛ كان السكرتير ، وكان لا يعرف اللغة الروسية اطلاقا . المفروشات حقيرة ، ولكن صورة الامبراطور الكسندر الثالث الرخيصة تستلفت النظر . بعد قليل جاء القنصل ؛ وهو رجل لطيف جدا من الظاهر . حين علم انى بحاجة الى جواز سفرى ، ارسل معى قواسا الى الجمرى . عدت اليه مع جواز السفر وسألته بخصوص التعليمات عن العمل لاحقا . اوضح لى القنصل انه ، نظرا لمنع المسلمين من رعايا روسيا عن الحج ، كتب الى المحافظ المحلي بسحب جوازات السفر من جميع المحمدين من رعايا روسيا ، وارسالها

اليه لكى لا يسلمهم اياها بعد ذلك ولكى يتيدها الى روسيا . وهذا تدبير ساذج جدا ! اذن ، يعود الى جواز سفرى لانه لم يرد فيه ذكر مكة ! الحمد لله . ثم ، بموجب تعليمات الحاج مصطفى ايضا ، اخذت تذكرة الى جدة فى وكالة شركة المانية ؛ اخذوا منى عن تذكرة الدرجة الاولى الى السويس فى السكة الحديدية وعن التذكرة فى الباخرة ١٠ جنيهات استرلينية اى ٩٤ روبلا و ٧٠ كوبيكا ، بدون الطعام !

حوالى الساعة الرابعة انطلقنا بالسكة الحديدية من الاسكندرية . دبرت للحاج سلطان مكانا فى الدرجة الثانية . نسيت ان اذكر انى اشترت فى الاسكندرية رداين طويلين بـ ٣ جنيهات استرلينية ، وطرش وشال حريرا لاجل العمامة ، وحذاء لاجل الاحرام وقطعتين من القماش الابيض للغرض نفسه ، وزئارا لاجل النقود .

قبل حلول الظلام سرنا طوال الوقت فى ارض محروثة جيدا جدا : فى كل مكان ، اشجار البلح ؛ لا وجود لاية قطعة صغيرة فارغة . مزروعات ممتازة من الشعير الذى نضج والقمح بسبيل النضوج ؛ السواقي والمضخات لاجل رفع الماء من السواقي . المنظر يشبه نوعا ما ضواحي سمرفند ، ولكن الاشجار اقل بكثير . تقع العين على قرى ، تشبه كثيرا القرى الكردية او النهورية - البيوت الطينية نفسها ، والتراكم نفسه ، والقدر نفسه . شكل الانشاءات السكنية مقبب . كما ذكرتنى بالنهريين ادوات حراثة الارض - الزوج نفسه من الجواميس مقرون الى محراث شبيه بالمحراث التركمانى . كذلك يظهر تأثير الازمنة الحديثة - تقع العين على لوكوموبيل صغير لاجل آلات رفع الماء (القوة العادية - الجواميس) ، البنايات فى القرى ذات نوافذ واعلى . اساليب تسييل الماء رائعة - بالخرطوم الى اسفل . فى جميع القنوات الكبيرة ، كثرة من الزوارق الشراعية . وعدد السكك الحديدية يكفى . اكبر المرافىء ، وعددها خمسة ، - الاسكندرية ، روزيتا ، دمياط ، بور سعيد ، السويس - تربطها السكة الحديدية بالقاهرة .

يبدو السكان فقراء .

السكة الحديدية ذاتها تختلف كثيرا عن سككنا . العربات متعبة جدا ، ابوابها جانبية ؛ الدرجة الاولى اسوأ من درجتنا الثانية ؛ يقلع القطار دون اى صفير او جرس ؛ العوارض تشبك بدبوس كاسين مقلوبتين من الحديد الصب موصولتين فيما بينهما . البساطة [.] * (١٥) غير مفهومة بالنسبة لنا ولا تصدق : لا حراس على الخطوط ؛ للقاطرة مصباح بسيط واحد فقط لا ينير السكة اطلاقا ؛ كذلك لا وجود لمصابيح الاشارة

وللاسهم ؛ لا وجود للمكابح في العربات ؛ هيئة الخدمة تتألف بكاملها من شخص واحد لا يظهر الامرة واحدة لكى يأخذ التذكرة (وهذا حسن احيانا) ؛ ولا يعلنون اسم المحطة ووقت التوقف . خلاصة القول ان الراكب متروك كليا لشأئه . اذا كنت نائما اثناء المناقلة ، اذا تأخرت عن القطار ، فلا تلم الا نفسك . في الليل ، انتقلنا فى احدى المحطات الى قطار ذاهب من القاهرة الى السويس . واخيرا وصلنا الى السويس فى الساعة الخامسة صباحا . فى جميع المحطات ، باعة كثيرون يعرضون الماء (يصيحون : مى ، اكوا) والفواكه والبيض ، وخلافها .

٣١ آذار . السويس ، مدينة صغيرة تقع على نحو ٤ فرسات من المرفأ الموصول بالمدينة بسكة حديدية . البيوت متعددة الطوابق . الشوارع كبيرة وعريضة ومستقيمة ، بضعة متاجر جيدة . بازار محلى ، وخلاف ذلك كما يجب .

نزلنا عند الحاج على ، من مواليد بخارى . الغرفة كما فى الاسكندرية . هنا تلاقيت مع عبد الله دبرديف . اللقاء مستطاب جدا لى ! للبواخر عادة التصرف تصرفا غريبا خبيثا : فى الاسكندرية اكد لنا العميل ان الباخرة «ماغنت» ستقلع عند الظهر يوم الخميس (اول نيسان - ابريل) ؛ اما العميل المحلى ، فى السويس ، فقد قال انها ستقلع يوم السبت . نصيح دبرديف بتغيير التذكرة باخرى من شركة «الخديوية» التى ستقلع باخرتها يوم الجمعة ؛ وافقت ، واعطيت التذكرة لتغييرها . بسبب الحلل ، تجوبت فى المدينة كلها ، ورغبت فى بلوغ الهدف المنشود بأسرع وقت ! المهم ألا يخذعونا يوم الجمعة ايضا ! اليوم مساء قررت السفر الى بور سعيد لادبر شؤونى المالية واعود يوم الجمعة . يبدو ان ٣ شركات - الخديوية ، والمانية وتركية - تهتم بالتحقق من الحجاج . كثيرون ينتظرون الباخرة . رأيت بضعة اشخاص من الفرس والقفقاسيين . اليوم ، كما يقولون ، اقلعت باخرة واحدة من الشركة الخديوية وعلى متنها نائب الخديوى وحاشيته المؤلفة من ٥٠ شخصا .

اول نيسان (ابريل) . اليوم فى الساعة ١٠ صباحا ، تلقيت امتعة الحاج سلطان وسافرت بالسكة الحديدية الى بور سعيد . ضواحي السويس ، التى لم ارها عندما جئت الى هنا ، لأننا عبرناها ليلا ، صحراء لا تفرح البتة ، تشبه نوعا ما ضواحي المحطة الواقعة بين جبل وكراسنوفودسك ، ولكن بدون اية نباتات تقريبا [...] * . بين الفينة والفينة تظهر القناة (قناة السويس) . فى الساعة الواحدة نهارا وصلت الى الاسماعيلية وعرفت برعب

انه يتعين الانتظار ٣ ساعات فى هذه المحطة . بين الاسماعيلية وبور سعيد تخص السكة الحديدية شركة قناة السويس ؛ وهى سكة ضيقة الخط ، ذات عربات صغيرة جيدة ومريحة ، ومحطات غارقة فى الخضرة ولها واجهات تطل على القناة ، ومؤخرات تطل على السكة الحديدية .

انتقلت الى محطة سكة السويس وركبت عربة غير كبيرة . وفورا شعرت بان حالى اسهل ؛ ففى كل مكان فرنسيون لطفاء ولغة اعرفها . من لا يعرف العربية او الانجليزية ينزعج فى مصر وعلى الاخص عندما يرى فى جميع الاماكن الرئيسية بريطانيين متغطرسين متعجرفين . تمر السكة قليلا فى الاسماعيلية وتطل على القناة ، وتمضى طوال الوقت كله بموازاتها على بعد ٥٠ ساجينا * . وللقناة العرض نفسه تقريبا . الضفاف ملبسة بمعظمها بالحجر . فى كل مكان علامات ، سواء على الماء ام على اليابسة ؛ غالبا ما تقع العين على آلات ضخمة جدا لاغتراف الطين ؛ الطين المنتزع من القاع يوضع فى عربات صغيرة وينقل من هنا ، وذلك ، اغلب الظن ، لتعاشى زيادة الاعباء على الضفاف . من الاسماعيلية الى القنطرة ، ينطلق ماء الشرب بموازة الضفة فى انبوبين من الحديد الصب قطر الواحد منهما حوالى ٦ بوصات ؛ والى القنطرة تصل ساقية كبيرة وتنطلق طوال الوقت كله حتى بور سعيد بالذات بين السكة الحديدية والقناة ؛ تقع العين على حبسات تمرر الماء الى الجانب الآخر من السكة الحديدية . مستوى الماء فى الساقية اعلى بكثير من مستوى الماء فى القناة . لا اعرف كيف يتجنبون الرشع . على الساقية ادغال القصب . راينا سفنا كثيرة ، بخارية وشرعية ، سائرة فى القناة .

العربات الحديدية مقسومة الى مقصورات صغيرة ، كل منها لاربعة اشخاص . كانت من نصيبى رفقة طريفة : عربى لا يعرف غير اللغة العربية ، انجليزيان ، لا يعرفان هما ايضا غير لغتهما ، وانا . نادرا ما كان الانجليزيان يتحدثان ؛ كنا نسافر ونلزم الصمت . وصلت الى بور سعيد فى الساعة السابعة مساء ، وتقلنى الحوذى الى فندق الشركة الخديوية ؛ صاحبه يونانى لا يعرف غير اللغة اليونانية ، فكان لا بد من التفاهم بالايماءات والحركات اكثر مما بالكلام . اكلت فى المطعم المجاور ورحت انام فى غرفتى بالفندق . ٢ نيسان (ابريل) . منذ الصباح اخذت افتش فى المتاجر عن سريـر متنقل ولكنى لم اجد ، وهذا مفهوم ؛ فمن ذا الذى يحتاج هنا الى سريـر من هذا الطراز . تجوبت فى المدينة كلها ، ورحت الى الحى العربى ، وتسكعت

* الساجين يساوى ١,١٢ متر . المعرب .

على رصيف المرفأ ، وشاهدت المدينة المينائية مع جميع خصائصها . البيوت عالية ، حجرية ؛ الشوارع مستقيمة ؛ فى وسطها طريق مزققة لاجل العربات ؛ المقاهى كثيرة . للقسم العربى الطابع ذاته ، ولكنه اكثر تواضعا ؛ النوافذ مغلقة فى كل مكان بشعيريات خشبية كثيفة . المدينة قذرة نوعا ما . فى وسط المدينة ، جنينة صغيرة فيها تمثال نصفى لى ليسبس . من الرصيف الى المقبرة العربية ، يعمل تراموى تجره الاحصنة ، فاستفدت منه . هنا ايضا بساطة مدهشة : الحوذى وقاطع التذاكر فتيان فى الثامنة عشرة او التاسعة عشرة من العمر . دائما يقفز الى العربى سبان عرب ويطلبون نعلهم . الطلب حيث لا وجود لقامة المراقب الانجليزى الرهيبة يلبى بطيبة خاطر ومجانا .

فى آخر الرحلة ، نزلت ورحت اتسكع ؛ وفجأة لحق بى قاطع التذاكر وطلب بخشيشا ؛ سألته : لماذا ؟ ارتبك - وقفل راجعا . يا للبساطة القروية المدهشة ! نحو الساعة التاسعة ، رحت الى مكتب «كريدى ليونه» وانجزت شؤونى المالية . وحتى ذاك تاتى لى ان اتسكع ايضا فى المدينة لكسى اقضى الوقت حتى الساعة الثالثة والربع ، وقت اقلاع القطار . فى طريق العودة ، وصلت الى الاسماعيلية فى الساعة ٧ مساء ، وعرفت برعب ان القطار لن يقلع الى السويس الا فى الساعة الواحدة ليلا . حاولت ان انزل فى غرفة لاجل الركاب ، ولكن انجليزية رهيبة قالت لى بلغة رهيبة ان هذا لا يجوز ، فكان لا بد من التسكع من جديد بدون هدف ، خائفا على تقودى فى جيوبى . الاسماعيلية محلة نظيفة ، كلها بساتين وجنائن ؛ لم ار احدا من اهل البلد . فى كل مكان حول البلدة صحراء رملية . وفى آخر المطاف عثرت قرب المحطة الحديدية على رفقة طريفة من الحجاج الذاهبين الى مكة - ٣٦ شخصا بالاجمال - اقاموا بشكل مخيم بانتظار القطار . الشيوخ يجلسون بمهابة على المخدات ؛ الشبان ينغنون النار باجتهاد تحت سماوارات غير كبيرة ، ويهتمون بالنارجيلات . اقتربت ، تحادثت . فى البدء سألوا عن موعد اقلاع سفينة الشركة الخديوية الى جدة ، افرحتهم اذ قلت لهم : غدا ، مع انه خطرت فى بالى فكرة : المهم ان لا تخيب الباخرة غدا املى وأملهم . يتبين من اقوال الحجاج انهم من اماكن مختلفة : بغداد ، بلاد العجم ، وهناك حاج من خراسان (مشهد) : يتحادثون فيما بينهم بالتركية وبالفارسية - واكثر بالفارسية . الحاج من مشهد امضى فى الطريق ٦ اشهر ، الباقيون حوالى ٤ اشهر . راحوا الى القدس على ظهور الخيل ، ثم الى يافا بالسكة الحديدية . من يافا اخذوا تذاكر من الشركة المصرية

الخدوية الى جدة . نزلوا في بور سعيد ، والآن يمضون الى السويس . وصلوا بنفس القطار الذي وصلت به انا . طريقهم عبر القدس ، كما يستفاد من اقوالهم ، الطريق الرئيسى بالنسبة للحجاج الفرس ؛ كذلك يمضون عبر ازمير . وبعض يذهب برا عبر سوريا ؛ هذه السنة جاء عدد كبير جدا من الفرس . يفكرون فى العودة برا عبر سوريا (عن طريق المدينة المنورة) بالانضمام الى قافلة سلطان .

٣ نيسان (ابريل) . وصلت اليوم فى الساعة الخامسة صباحا الى السويس ؛ واهتمت صباحا بامورى ؛ ومنذ الساعة ١٢ امضيت النهار كله مع عبد الله دبرديف ؛ مع عبد الله يذهب رشيد قاضى ، ملاً (امام) محافظة توبولسك ، وهو رجل واسع الاطلاع ومحنك جدا . ناقشنا مسألة الحج الى مكة ومسألة ضرورة تنظيم الحج . الجميع يعتقدون : اذا مدت الحكومة يد المساعدة ، فان المسلمين (الروس) سيجمعون النقود بالاشتراك ؛ وهم يرون من الضرورى تأسيس «خانات للقوافل» فى كل من اوديسا وسيباستوبول والقسطنطينية ، وعلى رأسها راع محترم . والجميع يدركون ما يتعرض له الحجاج فى السفن من ظروف رهيبة منافية للاصول الصحية . وقد وافقوا على مناقشة هذه المسائل بمزيد من التفصيل بعد وصولنا الى الهدف .

سالت الحاج سلطان عن الاضطرابات فى مكة سنة ١٨٩٢ وعن الهجوم على القناصل . عرفت ما يل . انشأت الحكومة التركية فى مكة مستشفى فيه غرفة للتعميم . الا ان البدو ، اصحاب الجبال ، الذين يستاجر منهم الحجاج الجبال لاجل الذهاب الى عرفات وجدة وغيرهما استأثروا من احتمال اخضاع امتعتهم للتعميم ؛ وخوفا من انتقاص مداخيلهم هاجموا المستشفى باعداد كبيرة ودمروا المبنى . طلب الاطباء العون من الالى ، فرفض تقديم العون قبل وصول الاوامر من القسطنطينية . فى اليوم نفسه عرف البدو ان القناصل يمضون من جدة الى البساتين المجاورة ، فاتجهوا اليها ، وانفصل عن جمعهم ٤ اشخاص ، وهؤلاء دخلوا غرفة القناصل واطلقوا على كل قنصل طلقة من الفرد . لقي القنصل الانجليزى مصرعه فى الحال ، واصيب الآخرون بجراح متفاوتة الخطورة ، واصيب القنصل الروسى فى خده .

فى سنة ١٨٩٢ ، كما يروى الحاج سلطان ، تطابق وباء الكوليرا مع موسم الحج وكان رهيبا . كان الموتى ممتددين مجموعات كبيرة متراسة ، ولم يتسنّ الوقت لدفنهم . بدأت الوفيات باعداد كبيرة فى عرفات ، وبلغت اوجها فى منى . وفى تلك السنة كان تدفق الحجاج كبيرا جدا .

فى جدة ، كما يعتقد رشيد القاضى ، لم ينشب وباء الطاعون ، بسـل
نشـب مرض هـندى ما محـل غير معد .

امضى القاضى ٢٦ يوما فى المحجر الصحى فى الطور ، مات ٤ اشخاص
فقط من اصل ٨٠٠٠ .

فى المساء رحت اتنزه مع عبد الله دبرديف ، ودخلنا Hotel Europe
(فندق اوروبا) حيث كان ينزل ضابط بحرى تركى من معارف عبد الله .
وتبين ان الضابط انسان لطيف جدا وانه يعرف اللغة الروسية جيدا وتعلم
فى سانت بطرسبورغ ، وذاهب الى مكة .

والىوم رحت اصلى الجمعة فى الجامع . حاجنا تذهلهم جدا لامبالاة
المسلمين المحليين . فائناء صلاة الجمعة يبقى قسم كبير من الجمهور فى
الدكاكين وفى المقاهى . وفى الجامع يسود الهوان والتشوش . يبدو ان
المصلين ينتمون الى شيع مختلفة - ابو حنيفة ، الشافعى ، مالك - ولا
وجود للرزانة وللمهابة الاحتفالية الصارمة ، الملازمة لجوامع روسيا .

غدا تـقلع باخرة الشركة الخديوية «الرحمانية» ، وعليها يسافر دبرديف
والقاضى وشركاهما . باخرتنا «Magnet» ، كما يقولون ، تـقلع بعد غد ،
وهذا يعنى البقاء اسبوعا بكامله فى مصر بلا هدف .

٤ نيسان (ابريل) . فى الساعة ٧ صباحا رحت الى الميناء لادع
دبرديف . تقع الميناء على بعد ٥ فرسات تقريبا من المدينة . انشئت
جزيرة اصطناعية مرفقة ببضعة مكالات محجوزة بحواجز امواج . الطريق
بالسكة الحديدية تستغرق ١٥ دقيقة . تبين لى ان «الرحمانية» باخرة
متوسطة الحجم ومرتبطة جيدا . الحجاج المسافرون على هذه الباخرة لا
يحصى لهم عدد ، واغلبهم من السوريين والفرس . بعد ان شاهدت
«الرحمانية» من الرصيف فقط ، رحت اشاهد «Magnet» التى ساسافر
عليها . مشاهدة الباخرة افسدت نهارى كله ؛ فلم ار من قبل سفينة احقر
واقذر ، واقل جاذبية . على الرصيف ، القذر والتتن الى اقصى حد ، عدد
كبير جدا من الحجاج الذين ينتظرون اقلاع الباخرة ؛ وقد حل قسم منهم فى
خيام حقيقية وقسم آخر فى خيام مرتجلة . جميعهم عرب وفرس . كيف
اتسعت «Magnet» الصغيرة لهم جميعا ؟ عدت الى المدينة وعكفت على
العمل قبل ان ياتى درويش افندى ويعرقلنى . سبق ان تعرفت عليه فى
الباخرة «الامبراطور نيقولاى الثانى» . انه بنظرى تركى صرف نموذجى -
عديم الحركة ، يحب الهدوء ، متدين جدا ، قليل التطور ، ودود . ولد فى
سمسون ويقول انه حاكم هذه المدينة . قوله موضع شك !

٥ نيسان (أبريل) . اليوم رحلت منذ الصباح الى الرصيف مع الحاج سلطان ودرويش افندى . امام الباخرة جمع غفير جدا ينتظر فى الشمس اللافتة ، السماح بركوب الباخرة التى يحرس رجال الدرك المصريون الصارمون جدا الجسر اليها . حاولت الاقتراب من الجسر ، لم يسمحوا . اخيرا بعد نصف ساعة تقريبا ، امر المسؤولون بتمريرى وحدى انا . سررت جدا حين وجدت نفسى فى الظل . تبين ان المسؤولين هم باشا مصرى منظره صارم جدا ، وضابط مصرى شاب منظره لطيف وناعم جدا ، وعميل شركة الملاحة هذه ، وكائن آخر فى طربوش تبين ، من الاسئلة ، انه اخو نائب قنصلنا (فى السويس) وكاتبه فى الوقت نفسه . وعداهم ، كان بين المسؤولين صاحب الفنادق لايواء الحجاج المدعو الحاج على . طلبوا منى جواز السفر ، تهيج اخو نائب القنصل ، قال شيئا ما . اوضح الحاج على انه يجب التأشير على جواز السفر عند قنصلنا ، ولهذا الغرض اخذوا منى مجيديتين . تم التأشير بسرعة تثير الشكوك ؛ فبعد ربع ساعة اعادوا لى جواز السفر وعليه التأشير وتوقيع نائب القنصل ، فى حين ان مقر القنصلية فى المدينة !

سمحوا بصعود الركاب الى الباخرة فبدأ شىء رهيب . الباخرة ترسو على بعد نحو ٥ ساجينات عن الرصيف ويوصله بها لوحان ضيقان ؛ الجمع يدفع بقوة من الخلف ؛ يمررون الركاب واحدا واحدا ؛ فحص جواز السفر يستغرق بعض الوقت . فى الجمع اولاد ونساء . الجنود يصدون الجمع بالقوة مستعملين العصي ، رغم انى لاحظت انهم كانوا حريصين جدا على الاولاد والنساء . الركاب الذين يصعدون الى الباخرة يعمدون الى تدبير امورهم باسرع وقت ، فارشين الحصر واللباد .

«Magnet» باخرة صغيرة عتيقة جدا ، وقدرة جدا . درجتها الاولى انما هى مسخرة ، وبدون مبالغة اقول انها ليست افضل من الدرجة الثالثة فى السفينة «الامبراطور نيقولاى الثانى» . ولكن يوجد بياض حقيقى للفراش . الدرجة الاولى فى مؤخرة الباخرة ، الدرجة الثانية فى مقدمتها ، ولكن الشيطان وحده يعرف ما هذا . والواقع انهم اخذوا منى لقاء الدرجة الاولى بدون الطعام ٩٤ روبلا و٧٠ كوبيكا . فما اربح هذا الاستثمار الوقع ! استمر المشهد الفظيع ، مشهد صعود الركاب الى الباخرة ، ٣ ساعات ونصف الساعة . خرجت الى المتن قبل اقلاع الباخرة ، فتملكنى الرعب من ملء الباخرة ؛ حسبى القول انهم حشروا الركاب على جوار العنابر

والمتن ، وعلى مقصورات الدرجة الاولى والثانية وعلى سلوقية الربان وفي جميع
الجمرات ، وكذلك فى الزوارق ، - وفيها استقر العرب والفرس البارعون
فى التسلق . ولم يتسن لى ان اذهب الى الحاج سلطان فى الدرجة الثانية
الا بمصاعب لا تصدق ، وبمضايقة الناس باستمرار . هذا الموقف من
الناس ، وبخاصة من ركاب المقصورات ، لم يتسن لى يوما ان ارى نظيرا
له ! هذا مرعب ، هذا متير للغضب ! واذا كان كل شىء يتحقق على هذا
النحو ، فلا بد من الدهشة اذا لم تنشب شتى الاوبئة بين الحجاج . صاننا
الرب من البلايا ! فى كل مكان ينصبون السماورات ويشعلون النار تحتها ،
ويدخنون ، ويطبخون ، والنخ ، ؛ الانارة بالكاز .

تحدثت مع مختلف الحجاج ؛ الفرس يفضلون الطريق عبر القدس لكى
تتسنى لهم زيارة كربلاء وبغداد والقدس . وكثيرون يمضون عبر بندر
وبوشير (بوشهر) . من خراسان نحو ٥٠ شخصا .

٩ نيسان (ابريل) . حوالى الساعة ١١ صباحا وصلنا الى جدة ورسونا
فى وسط الخليج بين مدينة جدة ومحلة الرأس الاسود ؛ فى كل مكان
شعاب ، صخور بحرية . جدة مدينة جميلة من البعيد . بعد فترة وجيزة جاء
من جهة المدينة زورق وفيه تركى يرتدى معطفا ، وحافى القدمين ؛ وقد
تبين انه عضو فى لجنة الحجر الصحى ؛ سرعان ما عاد واعداد بارسال الزوارق
لنقل الركاب الى الشاطئ ؛ رفعوا على الصارية راية تشير الى استدعاء
الزوارق . ذلك اليوم امضيناه كله عبثا فى الرسو ، مع انه كان من الممكن
الاستراحة من العاصفة التى عانيناها .

١٠ نيسان (ابريل) . منذ الصباح ظهر من جانب الرأس الاسود اسطول
من الزوارق المنطلقة بالاشرة . الطقس مناسب . اقتربت الزوارق . بدأ
الهرج والمرج العادى . ظهر عضو لجنة الحجر الصحى الذى جاء امس . فى
آخر المطاف ، جاء دورنا . اقترب زورقان ، احدهما نزل فيه الركاب ،
والثانى وضعوا فيه امتعتهم . زورق الامتعة رفع الشراع وجر زورق الركاب
صوب الرأس الاسود . كان بين الركاب عدد كبير جدا من النساء من
المغرب . اخذن يغنين اغنية رخيمة جدا ، رنانة جدا ، حركت فياط قلبى
الى حد انى بكيت . كل شىء - الطقس ، والبحر ، والمحلة المحيطة - اثار
حالة من الاجلال . كانت الزوارق تتلوى طوال الوقت بين الصخور البحرية
مصطدمة فى بعض الاماكن فى القاع بالصخور التحتائية . استمر الانتقال
زهاء ساعتين . واخيرا ، على الشاطئ ، رأينا بضع عشرات من الخيام ،
وعددا كبيرا من الشقائف والجمال والحميز ، ورصيفين حقيرين مصنوعين

من الواح خشبية ومظللة من فوق بحصائر . لم تقترب الزوارق من الشاطئ* ، بل توقفت . وطلبوا من كل منا ان يدفع نصف مجيذية لاجل المحجر الصحى . رفض بعض الركاب الدفع ؛ اما انا ، فقد دفعت تجنباً للانتظار المضنى تحت اشعة الشمس الحارقة ؛ ونقلونا الى الرصيف . وهنا طلبوا مرة اخرى نصف مجيذية لاجل المحجر الصحى ، ثم اخذوا منا جوازات السفر واجبرونا على دفع النقود ايضا ، واطلقوا سراحنا . شغلنا خيمة من خيام المحجر الصحى . القبط لا يطاق . كتمة الهواء يستحيل تحملها . الخيام موزعة بغير انتظام ، بصورة ضيقة جدا ، محاطة بحواجز ، استقرت فيما وراءها سرية وخفر فى خيام ايضا . لا يسمحون بالخروج من المكان المحجوز . ثم تبين انهم لن يرسلونا الى ابعد الا غدا صباحا برفقة خفر . الانتظار الممل . اليوم ساء حالى جدا . ألم فى البطن ، وعطش لا يروى ؛ لا استطيع اطفاءه بشئ ؛ حاولت احتساء الشاي ، والقهوة والليموناضة (الفاترة) ، ولكن عبثا . الماء يستجلبونه من جدة فى شخاتير ؛ طعمه مالح . تعذبت كثيرا . فى هذه الاثناء تعرفت على متصرف تركى (؟) من اليمن ، ذاهب هو ايضا الى مكة . رجل مطلع ولطيف جدا . احتاج رفيقى المريض [. . .] * تطف جدا وارسل الى المحجر الصحى ؛ اما هنا ، فلا وجود لاي طبيب . بين الخيام بازار ؛ كثيرون يذهبون لانفسهم الخرفان بين الخيام . التربة رمل بحرى . لقضاء الحاجة يذهبون الى شاطئ البحر . بفضل الرمل ، لا يتلوث الشاطئ* .

هنا يعيش القنصل الفارسى . خيمته فخمة ، مفروشة بمفروشات جيدة ، ومنازة مساء انازة ممتازة ، تقع الخيمة خارج الحاجز وتثير انطباعا قويا ؛ فى خيمة اخرى يعيش معاونه ؛ وقد انتقل الى هنا مؤخرا من ينبع . جميع المتقنين من الحجاج الفارسيين يتجمعون عند القنصل ؛ القنصل يقدم لهم القرى ببالغ اللطف . توعكت تماما . اخاف ان لا استطيع غدا السفر . جدة يحميها الحجر الصحى ، رغم انى رأيت كثرة من تجار المسايح والشالات وغير ذلك ، وقد جاؤوا من جدة لبيع بضائعهم . الماء ايضا من جدة . والى جدة يرسلون ايضا الناس لنقل البرقيات . وقع سوء تفاهم بصدد الماء المجلوب . بعد انفاق الماء ، راح شختور الى جدة لجلب الماء . حل المساء ، ولكن الماء لم يصل . الحجاج جميعهم مع الاوعية ينتظرون على الرصيف . الساعة ٩ مساء ، طلبوا الذهاب الى المتصرف لطلب المساعدة منه . رحت . اوضح المتصرف ان الشختور تأخر بسبب انقطاع الريح ، وانه سيأتى حتما بعد ساعة . ولكن الشختور لم يات نحو منتصف الليل ، ولم يات فى صباح اليوم التالى ، فى وقت ارتحال الحجاج .

١١ نيسان (بريل) . لم اتم طوال الليل كله . آلام رهيبة فى بطنى .
بجهد كبير نهضت ووصلت الى الحمار المهيأ لى . استعجلنا انا ودرويش
افندى للسفر بأسرع وقت طالما كان الطقس ياردا نوعا ما ، وركبنا حمارين
واتجهنا اثر طابور من الحجاج ظاهر فى البعيد . ضاع الحاج سلطان . اعتقد انه
سيلحق بنا ؛ كان معه مسدسى والماء . لحقنا بالطابور ، وهو من المغاربة ؛
هؤلاء لا يعرفون كلمة من لغتنا . نمضى صامتين وراءهم . ندهش لكونهم
جميعهم يسرون بلا طرق ؛ نبدأ نخشى على مصيرنا . معى حقيبة فيها كل
رأسمالى ؛ وليس معى اى سلاح . اعرف ان الطريق خطر جدا . والمرافقون
الله وحده يعلم من هم . اخذ الافندى يبكى . بعد السير طويلا فى الجبال ،
نظل على طريق متساو ، مسطح ، ولكنه طريق غير كبير ، لأنه لا وجود
للتلغراف . افكر فى الوصول الى اول مقهى ؛ والمقاهى ، كما يقول الحاج
سلطان ، تسعة ؛ وهناك ننتظر الحاج سلطان ، ولكن لم نجد اى مقهى .
نصادف جماعات من البدو المسلحين من الرأس الى اخمص القدمين . نجاة
يطلق المرافقون النار فى الهواء ؛ مع جميعهم تقريبا بنادق رش [. . .] * .
نسير منذ ٥ ساعات ؛ انا ملتف بتوب الاحرام ، مكشوف الرأس ؛ اخذ عطش
رهيب يعذبني . جف فمى كله . لا استطيع تحريك لساني . اطلب من الافندى
الليمون الحامض او اقراص النعناع . يخاف ان يتوقف لكى يسحب هذه
الاشياء فيتأخر . الطريق يستمر بين صخور جرداء ؛ احيانا تقع العين على
ادغال عالية من الشوك . ابدأ افكر فى المجازفة والتوقف فى مكان ما تحت
دغل ؛ احذر ان الطريق الكبير الى شمالنا . فى عيني تتلاعب حلقات ضاربة
الى الاحمر . اخيرا اقنع الافندى باعطائى ليمونة ؛ وحين راح ليحلبها تنحيت
جانبا قليلا ، واذا بى ارى غير بعيد الى الشمال بناية بيضاء . اسأل .
يقولون : هذا مركز حراسة . اعد رفقتى بمجيديا اذا اخذونى الى هناك .
الجميع يستديرون . يحمل لى الافندى ليمونة ؛ ابلعها فى الحال وانتعش . بعد
ربع ساعة نصل الى البناية - مركز يحرس طريق مكة . يسرع شيخ حاملا
بندقية . وحين يعرف فحوى الامر ، يدعونى بلطف الى الجلوس فى الظل ،
ويضع سماور على النار ، ويقدم على العموم آيات الضيافة الاخوية حقا .
ننتقل الى داخل البناية المشيدة بصورة عقلانية جدا بحيث تتسع لاجل ٨
اشخاص . الجنود والشيخ جميعهم اتراك ، سببان لطفاء . نقضى هنا
ساعتين مستطابتين مع احتساء الشاي . الماء يستجلبونه من بئر على بعد ٣
فرسات . طعمه مالح نوعا ما . يروون انهم شاهدوا بام عيونهم فى الايام
الاخيرة قرب المخفر كيف نهب البدو الحجاج . يبدو ان هؤلاء الرحل يزرعون

الربح في قلوب الجميع . اخيرا وصل الحاج سلطان ؛ وبالحاج الساقية الذين لم يوافقوا البتة على الانتظار هنا حتى هبوط القبط ، مضينا الى ابعد . الآن كنا في الطريق التلغرافي الكبير الواقع طوال الوقت بين الجبال ، ولكنه متساو ومريح جدا .

بمحاذاة الطريق ، ينطلق التلغراف المركب جيدا جدا على اعمدة حديدية . الطريق مناسب تماما للحركة على العجلات . حتى المحطة التالية - البحرة - اضطررنا الى السير في اقصى القبط . كل ٣-٤ فرسات تقع بنايات مخفية . في البحرة مقر اركان الطابور . وصلت الى البحرة بالكاد حيا ، وقلت في نفسي انه لن يتسنى لي مواصلة السير . تبين ان المقهى كوخ ردى من القصب ياوى اليه الناس وحميرهم . الماء مالح نوعا ما . تقابلت مع بضعة ضباط اترك ؛ انهم اناس ودودون بسطاء . الجميع حاولوا انعاش وتعزيتي . من جديد الح الساقية على الانطلاق بأسرع وقت ، ولكن الضباط هداؤهم ببالغ السرعة . هنا سمعت بين الناس شتى الاشاعات والمخاوف عن هجوم البدو : اليوم سلبوا احد الحجاج ٥ ليرات ، وقتلوا آخر واخذوا ٤٠ ليرة . في حضوري جاء جندي وابلغ الضابط ان رفيقه الذي راح معه من جدة الى مكة قتلوه بالحجارة . نشب جدال بين الضباط بصدد من يرسلونه وراء القتل . نحو الساعة ٥ مساء ، انهضوني مع ذلك واجبروني على مواصلة السفر حتى حدة . المسافة ٧-٨ فرسات . بفضل البرودة قطعنا هذه المسافة بصورة سهلة جدا . من البعيد تبدو على حدة مظاهر البشاشة الكبيرة بدغها من ا:جار النخيل . تبين ان الماء (من الآبار) جيد . هنا استرحت ونمت للمرة الاولى نوما هادئا نوعا ما . رجلى احمرتا بشدة بسبب القبط . [السفر . . .] * كان هناك بضعة اشخاص ذاهبين من جدة الى مكة .

١٢ نيسان (ابريل) . انطلقنا اليوم في الساعة ٥ صباحا وفي الساعة ٩ اقتربنا بسلامة من مكة التي تغدو الجبال في جوارها اعلى واشد انحدارا . الوصول مفاجئ تماما . المدينة لم تظهر الا حين دخلناها تماما . الانطباع الاول - بيوت حجرية عالية ، حركة شديدة جدا في الشوارع . بعد فترة وجيزة وصلنا الى تكية قرغيزية ، ونزلنا فيها موقتا في ضيافة الحاج سلطان . منذ اللحظات الاولى بالذات ، تواجد اناس كثيرون جاؤوا لزيارة الحاج سلطان ؛ فضايق المكان كثيرا . تضخمت رجلاى كثيرا ، وخزبتا . امشى بجهد كبير . نزول الدرج عذاب . في المساء ، بعد الدعاء قمت بالطواف ثم بالسعى . الانطباع من الطواف عميق وعجيب جدا وهو من الانطباعات التي تندر معاناتها في الحياة . بعد العودة الى التكية ، خلعت ثوب الاحرام ولبست

ثيايا عربية محلية - قميصا طويلا جدا من الشاش ، وسترة ، وعباءة حريرية .
١٣ نيسان (ابريل) . امضيت اليوم كله متمددا . جاءنى حارث ، ابن احمد
عبدو وعرض ان يخدمنى طوال اقامتى هنا وفي المدينة . الشقات التسى
اعدتها غالية جدا - ٦٠ روبلا فى اسبوعين . قررت ان انتظر .

١٤ نيسان (ابريل) . جاء يزورنى تلميذى القديم يعقوب اكتشورين ،
الذى كان آنذاك صبيا والذى صار الآن شابا راشدا . جاء جميع افراد عائلته
عبر ينبع الى المدينة فى الشقادف . رحى مع يعقوب الى محل اقامتهم ؛ فقد
استأجروا شقة فى مدرسة دينية تطل نوافذها على كعبة الله وتخصى الحاج
شريف . تتألف الشقة من ٣ طوابق ويبلغ بدل ايجارها ٢٠ ليرة (٨
روبلات ، ٢٠×٦٠) . اخو يعقوب ، الذى رأيته منذ ٨ سنوات صبيبا
تستحيل معرفته لانه كبر وترجل . الشيخ لا يزال كما كان . ملاك كبير من
الخدم والشاكيردين (تلامذة المدرسة - كلمة تركية . - المؤلف) والادلة ،
وخلافهم . بالاجمال ٥٠ شخصا .

١٥ نيسان (ابريل) . اليوم صباحا انتقلت فجأة الى شقة جديدة
استأجرتها من ابن دليلنا صالح . صحيح ان الشقة بسيطة ، ولكنها رحبة ،
ومنفردة تماما . فى التكية ملئت جدا من الضيق والازدحام .
كنت عند اكتشورين وعرفت ، فيما عرفت ، انهم اعتقلوا قرب بنر
زمزم كافرا . سألت كثيرين عما سيفعلونه به ؛ اجاب الجميع بالاجماع
انهم لن يفعلوا به شيئا ، وانهم سيرسلونه الى القنصل فى جدة . كنت
اتصور تعصبا اكبر .

١٦ نيسان (ابريل) . امضيت اليوم قرب النافذة مراقبا مواكب مختلفة .
فى البدء راح الشريف والوالى الى المحامل ، ثم عادا بمهابة واحتفال . خفر
الشريف يتألف جزئيا من مشاة ، وجزئيا من جنود على الجمال ، وفرقة موسيقية
طريفة ؛ ثم جرى خروج المحمل الفلسطينى والمحمل المصرى ؛ للاول فصيل كبير
من الفرسان على [. . .] * ، و٣ مدافع جبلية . الجماعة كلها خارقة السطوع
والاصالة ؛ اعجبتنى على الاخص اغنيات العرب ومسيرتهم مع الرقص والحجل .
«وكب اهل المدينة على الهجائن والحمير اصيل هو ايضا . المحمل انما هو
هودج من الديباج على جمل واحد . المحمل الفلسطينى - حضرة عائشة ؛
المحمل المصرى - حضرة فاطمة .

١٧ نيسان (ابريل) . قبلت دعوة يعقوب اكتشورين اللطيفة وانضمت
اليه للذهاب الى عرفات . الشيخ والسيدات راحوا فى الشقادف . اما نحن ،
فقد رحنا ركوبا . المسافة الى عرفات زهاء ٢٠ فرستا ؛ فى الطريق تمضى

سلسلة متواصلة من الجبال ومن حجاجنا . الطريق تنطلق طوال الوقت كله في مضيق تارة يزداد ضيقا وطورا يتسع . مررنا بمنى والمزدلفة ووصلنا الى عرفات نحو الساعة ٨ مساء . وعرفات جبل غير عال يتألف من كتل صخرية هائلة ؛ فى اعلاه موشور ابيض غير كبير ؛ عند قدم الجبل مخيم شاسع من خيام الحجاج . التربة رملية . بصعوبة وجدنا فى هذه الفوضى خيمتنا . المساء بارد جدا (٢٠ درجة من ميزان ريومور) مع نسيم مستطاب ؛ قرب كل خيمة بيت خلاء خاص بها ، مقام بشكل خيمة هو ايضا . من بعيد تبدو مقامات المحامل المنورة ، والالعب النارية . غير بعيد ، بازار شاسع ، موقت ، يحتوى اشياء واشياء ، وعلى الاكثر الخرفان والبطيخ . الماء من مكة [. . .] من النوافذ . اسبح صيحات [. . .] معد ، كما عرفت ، لاجل قرغيزينا ومحضر من بقايا المصارين فى مكة . كثيرون يذهبون الاغنام قرب خيامهم .

١٨ نيسان (ابريل) . اليوم يصعد جميع الحجاج ، ما عدا الحنفيين ، الى جبل عرفات لاجل السجود ؛ الجبل كله مكسو بالناس . وهناك ادراج حجرية . اما نحن ، فيتعين علينا ان نبقى طوال الوقت كله فى اسفل . كثيرون يستحمون . ولهذا الغرض انشئت احواض حجرية غير عميقة تمر بها المياه السائلة الى مكة . الحر اليوم شديد جدا . فى الخيام ترتفع الحرارة الى ٣٥ درجة ريومور ، فى الشمس الى ٥٠ درجة . فى نحو الساعة الثالثة ، بعد الغداء ، بدأ الامام من اعلى الجبل تلاوة الخطبة وهو على ظهر جمل ؛ الجبل كله مغطى بالحجاج . التلاوة ذاتها غير مسموعة بالطبع . واطن ان حتى الواقفين على سفوح الجبل لا يسمعونها هم ايضا . وحين يتلو الخطيب ليبيك اللهم ليبيك ، يردد الجمهور على الجبل بصوت مدو ملوفا بالناديل ، وبموجب هذه العلامة يردد جميع الباقيين . عند الاقتراب من الجبل بالذات ، يستحيل عبور البازار بسبب الرائحة الكريهة . وقرب الخيام ايضا رائحة كريهة . قبيل مغيب الشمس ، يبدأ الجميع يرتبون امتعتهم ويستعدون للعودة لكي ينطلقوا فى النهاية الى المزدلفة . تنتهى الخطبة قبل صلاة الختام . المكان واسع ، ولكن تحرك مثل هذا الجمع من الناس والجمال فى آن واحد يسفر بالطبع عن الهرج والمرج . من عرفات الى المزدلفة نحو ٧ فرسئات ؛ الطريق تمر فى مضيق عرضه نحو ٢٠٠ ساجن ، جانباه جبال صخرية جرداء . هذه النقطة عبارة عن صف طويل من مناخد التجار والمقاهى . وهنا ينبغى ان يتقضى الحجاج الليل . والتربة هنا ايضا رملية ، ولكن لا قدر ولا زبالة هنا بفضل اقامة الجمهور

غير الطويلة . غدا يتعين اجتياز نحو ٧ فرستات في اتجاه مكة الى منى .
١٩ نيسان (ابريل) . في الصباح الباكر وصلت الى منى . وهي مقام
سكنى يتألف من شارع واحد طويل جدا وبيوت حجرية متعددة الطوابق ،
تعيش بضعة ايام فقط في السنة : عند تحرك الحجاج الى عرفات وبخاصة
لدى عودتهم حين يبقون هنا اكثر من يومين ؛ وفي بقية اوقات السنة لا
يعيش احد هنا . عرض المضيق هنا زهاء ٤٠٠ ساجين بالمتوسط ؛ في
كل مكان ، صخور عارية ؛ التربة من رمل ضخم . اكتشورين أجر بيتا
منفردا بكامله بمبلغ ٢٠ ليرة ؛ عادة ينزل الجميع في خيام منصوبة في
الشوارع وفي اماكن مطوقة خصيصا باسيجة حجرية وتخص الادلة . تعتبر
منى نقطة حارة جدا ، وهذا صحيح ، رغم ان الحرارة في الغرف لا ترتفع
الى اكثر من ٣٠ درجة رومور ، ولكن كثمة الهواء في الصباح (وقد نمنا
على الشرفة) لا تطاق . في البدء قدمنا الاضاحى ؛ وفي الحال تخاطف
المغاربة الخرفان الـ ١٢ كلها . المحلة التى يذبون فيها الاغنام تقع قرب
منى بالذات ؛ وهناك حفروا عددا من الحفر عرض الواحدة منها ٣ ساجينات
وعمقها ارشيتان . يذبون على حافة الحفرة . يقولون انهم يطعمون الزاما
جميع الاغنام المذبوحة بعد الظهر . وعموما يوجد اشراف ولكن بدون مراقبة
دائمة .

٢٠ نيسان (ابريل) . يوم الاثنين . في هذا اليوم بقى الحجاج في منى
لرمى الاحجار فى ٣ اماكن مسيجة . الاحجار المرمية سابفا تختفى ؛ اغلب
الظن ان الامطار تفرقها وتجرفها . الاحجار - رملية هشة . رحنا الى مكان
تقديم الاضاحى الذى ذكرته التوراة . قذارة مدهشة فى ازقة منى ؛ كثرة
من بقايا الحيوانات ؛ رائحة رهيبة . بيوت الخلاء مراحيض مكشوفة صغيرة ،
بدون حفر . نصلى ونركع امام حجر مفلوق . الوضع الصحى الرهيب فى
المحلة يخنق الرغبة فى الصلاة . فى المساء رحنا مع يعقوب لمشاهدة الالعاب
النارية وللإستماع الى الموسيقى . كانت الصواريخ جيدة جدا . اطلقوها
فى ٣ اماكن - قرب مقامى القافلة الشامية والقافلة المصرية وقرب موقف
الوالى . صواريخ المكانين الاولين كانت ناجحة جدا . الموسيقى - اوركسترا
عسكرية جيدة جدا ، رغم انها صغيرة القوام . موسيقى الشريف المحلية
اصيلة . والى الشريف تجوبا اليوم ركوبا فى الشارع الرئيسى برفقة
خفر اصيل . فى المساء ، يرفعون فوق مبنى المحجر الصحى المحلى مصباحا
اخضر مرثيا من بعيد . امكنة الإقامة فى المبنى ٢٠-٤٠ ؛ عدد الاطباء اثنان ،
مرسلان من القسطنطينية ، الطبيب الثالث يعمل عند والى شخصيا . وهنا

عثمان افندى ايضا ، ولكن كفرد من الافراد . عدنا فى ساعة متأخرة . الجو مرهق الى اقصى حد ؛ لربما يلعب الخيال (سبق الراى) دوره فى هذا . الماء هنا وفى المزدلفة وعرفات يأخذونه من الآبار والجاريير ؛ وهذا معمول به فى كل مكان . فى الصباح طفنا مرة اخرى لرمى الحجارة ثم عدنا الى مكة . رحت رأسا الى محل اقامتى ؛ ونحو المساء قمت بالطواف . مساء رحت الى اكتشورين . بين الحجاج انفعال قرح ملحوظ ؛ الجميع يرسلون الى الوطن برقيات عن العودة بأمان وسلام من عرفات . الحجاج يذهبون الى عرفات مفعمين بخوف عظيم ، ولذا كان فرحهم بعد العودة مفهوما . عدد الموتى فى كل وقت الذهاب الى عرفات والعودة منه ٣٠ فقط . يقولون ان هذه السنة موفقة جدا . فى منى غالبا جدا ما ينشب وباء الكوليرا ؛ وفى السنة الموفقة مات كثيرون ، وبخاصة عدد كبير من القرغيز ، الامر الذى يجب تفسيره بالزحار ، والقيظ الرهيب ، والأكل غير المعتدل ، والشرب الاقل اعتدالا ايضا ، والبنية المدينة ، وانعدام العادة طبعا . يقول عبد القادر سعيد ان الحرارة فى الخيام بلغت منذ بضع سنوات ٤٨ درجة ريومور . كان القرغيز المساكين لا يعرفون ما يفعلون . راح الجميع للقيام بالعمرة ؛ من هم اكثر يسرا يكلفون الغير بالقيام بذلك لقاء اجر . بالنيابة عنى راح حارث .

الحاج الذى لم يذهب بعد الى المدينة المنورة يتحدث عن العودة رأسا الى الوطن . يتطرقون الى اخطار الطريق من عمليات السلب والنهب . الجميع يخيفهم المحجر الصبحى فى الطور . يروون عن الفطائح فى السنة الماضية فى الطور : الاقامة الرهيبة ، الاحوال المناخية المرهقة ، الغلاء الفاحش ؛ انتزعوا من الحجاج مؤنهم ؛ وهذه المؤن بالذات باعوها منهم فيما بعد . ابقوهم ٢٧ يوما لأن التفريغ استغرق ١٢ يوما ؛ وهذه المدة ليست فى الحساب .

٢٤ نيسان (ابريل) . يوم الجمعة . زرت مع رشيد القاضى عمارة ضخمة قيد البناء عند مدخل المدينة . تبين انها مأوى لاجل الحجاج المعدمين . تبنى كلها على حساب الحكومة التركية . العمارة [. . .] (١٧) من طابقين ، حجرية ، رائعة التخطيط . غرف مشرقة ، رحبة ، عالية ، رواق مريح ، لا وجود لقطعة خشبية واحدة . يبدو انهم امعنوا الفكر سلفا فى كل شىء ، النوافذ مجهزة بحصائر ، فى الوسط فناء . كل شىء وطيد وجيد جدا ، عقلانى وجميل . كثرة من الهواء والنور . [. . .] * . تركى ، سقانا فيما بعد القهوة دون ان

يذكر الجاويش الفاره وسمح بطرح الاسئلة ببالغ اللطف [. . .] * . مثل هذه العمارة لا يرفض اغنى الحجاج النزول فيها .

بعد العودة ، دخلنا مستشفى المدينة . من وقف والدته السلطان عبد المجيد . عدد الامكنة ٣٠-٤٠ . اسرّة نظيفة نسبيا . عدد المرضى ٢٥ ، مصابون على الاغلب بابى الركب . للمستشفى صيدلية ، وجنية . المرضى من شتى القوميات . الراغبون في الحصول على الادوية كثيرون . المكان لاجل المستشفى مفرط في الانتعاش والحركة ، قرب السوق . ثم رحت مع عثمان افندى الى سوق العبيد . حوش مفتوح صغير . هناك ٦٠-٨٠ فتاة ، زنجيات على الاغلب ؛ وهناك ايضا حبشيات ، وامرأة مع طفل ، بعض [. . .] * ، زهاء ٢٠ صبيا ، حليقي الرؤوس ، محضّرين للبيع ، جالسون فئات فئات على دواوين . استقبلنا هناك عربى همّام .

البضاعة يأتون بها من السودان والحبشة . يسرقون ، ينقلون الى الساحل ؛ يشحنون خفية عن الانجليز على «سمايك» ؛ وعلى هذا الساحل يبيعونها من التجار ، وهؤلاء ينقلونها الى مكة وغير ذلك من المراكز . ثمن الفتاة الجيدة ٤٠ ليرة . ثمن الصبيان يتراوح بين ١٥ و ٢٠ و ٣٠ ليرة . الحبشيات ياخذونهن على الاكثر كزوجات ، الزنجيات كعاملات . يتفحصون الفتاة عارية مثل الماشية . الانطباع من ذلك في غاية الارهاق . والشرعية لا تسمح بهذه التجارة . استحوذت على وعلى رفاقي كآبة شديدة .

٢٥ نيسان (ابريل) . يوم السبت . قضيت اليوم كله في بحث مسألة السفر الى المدينة المنورة . الطريق ، كما يروون ، في منتهى الخطر ، رفض معظم رفاق الطريق السفر .

القافلة الشامية محروسة ، لربما آمن ، ولكن ، اثناء السير ، تهتز الجمال كثيرا ، والشقادات غير مريحة ؛ قوافل مكة خطرة جدا . بنصيحة رشيد القاضى قررنا السفر على هجان ، انا واحمد يرزين ركوبا . اخذ ادلة عمر ابراهيم من المدينة المنورة على انفسهم تدبير كل امور السفر . عند يرزين آنيته ؛ وعد ان يعطينا اياها في الخيمة . وقت السفر اسبوع . المسافة ٤٠٠-٤٥٠ فرستا .

٢٦ نيسان (ابريل) . يوم الاحد . الماليزيون او «جاوة» كما يسمونهم هنا يؤلفون ثلث او ربع السكان الدائمين في مكة . عندهم ٣-٤ آلاف تلميذ . يتميزون بالميل الى الوثام ؛ مسالمون جدا ، مجتهدون ؛ يتعاطون التجارة ؛ بدأوا يمارسون الدور الاول بين السكان المحليين . بواسطة مواطنى مراد افندى ، تعرفت على ممثلين اثنين للماليزيين .

جميعهم من اتباع الشافعى . جاؤوا الى مكة منذ ٢٠ سنة ، ولكن عددهم يتزايد سنة بعد سنة ؛ فى هذه السنة بلغ عدد الحجاج منهم زهاء ١٥ الفا . عادة يتوافد ٣٠-٤٠ الف حاج . وهم اذ يعتزمون الحج الى مكة او الذهاب منها الى المدينة المنورة ، يختارون مدبّرا خصوصيا ملزما باستئجار الجمال وتوفير المؤن ، وغير ذلك . وهم يشكلون على الدوام قوافل خاصة ، ولا يختلطون مع قوميات اخرى . وهم شعب مهذب جدا ، وهادى ومحب للمعرفة . يقولون انهم يتمتعون فى وطنهم بالحرية الدينية التامة . من جزر السوند الماليزية يأتى الى مكة على الاغلب الخشب والبضائع المستعمرية . فى مكة زهاء ٢٠ معلما ماليزيا بينهم ٣ يمارسون خصبيا الترجمة من اللغة العربية الى اللغة الماليزية . القطح النقدية الفضية المتداولة سواء هنا فى مكة ام فى المدينة المنورة وكذلك بين الرحل ، هى جميعها تقريبا «البورون» الماليزى ، الذى توازى قيمته ١١ غروما او ٨٨ كوبيكا . اليوم ودعنا آل اكتشورين ثم قمت مع حارث برحلة الى جبل قوايس . تظهر منه مكة كلها تقريبا ، الواقعة فى فج ضيق والمطوقة بوثوق بصخور قائمة اللون . منظر الضواحي خارق الصرامة . اعلى تقطعين تشغلها ثكنات . الحرم الشريف فى قاع هذا المضيق . ركعنا للمكان الذى حدثت فيه معجزة للقمر ، ونزلنا من جانبه الآخر ، وركعنا لمكان ولادة النبی ، المحول الى جامع بارد نوعا ما ، ثم عدنا . مررنا على يرزين ؛ كان مشغولا بالتوضيب . البيت يلصق الحرم الشريف ؛ فى اسفل رائحة عفنة رهيبة ؛ التكية مهمة ؛ المشرف عليها (محمد) يقبع فى السجن فى تهمة معللة جدا بسرقة النقود من يرزين . عن الاشخاص الذين عهدوا اليهم بالتكية ، - فيما عدا اثنين هما مراد ونجم الدين افندى - يروون اشياء فظيحة - منها ان اموال الحجاج الموتى تعود اليهم ، وانهم ينتظرون الاوبة وخلافها بفارغ الصبر . يجمعون من النزلاء النقود للتصليح ، ولكن لا يجرى اى تصليح ، ويؤجرون الغرف ويضعون النقود فى جيوبهم . محمد (المذكور اعلاه) ، مثلا ، يقبع فى السجن للمرة الثالثة . توجد هنا بالاجمال ٩ تكيات ، افضلها تكية دبيريبيف ، كل تكية تتسع (١٠-١٥ شخصا .

٢٧ نيسان (ابريل) . انقضى اليوم كله فى الاستعدادات للرحيل الى المدينة المنورة . لا بد من الأسف الكبير لاني لم آخذ اى احتياطي من المأكولات المحفوظات من المأكولات السائلة قيمة بخاصة هنا . احتجنا الى ١٢ جملا وحصان واحد . وهكذا ننطلق مع نفر من اهل المدينة المنورة عائدين من الحج على جمال خفيفة تسمى بالهجانن . فالهجين حيوان لطيف جدا ،

وديع ، جميل ، محب للنظافة ، خال من الرائحة المنفرة الملازمة للجمال .
واخيرا في الساعة ١٠ مساء انطلقنا الى نقطة التجمع علي بعد نحو ٦
فرسات من مكة . هنا اجتمع الركبان ؛ الاول ، الكبير ، انتخب داغستانيا
شيخا له ؛ الثاني ، ركبنا ، انتخب عباس خياري . حوالى الساعة الواحدة
ليلا ، بدأ الركب الاول يتحرك ، وحوالى الساعة الثانية ليلا ، بدأنا نحن
نتحرك .

٢٨ نيسان (ابريل) . يوم الثلاثاء . منذ هذا اليوم تبدأ حقا حياة السفر
بدون نوم تقريبا ، بدون المعيشة المألوفة ، في القبط الرهيب . اثناء
السير ، تقيد الركبان بالنظام التالى . كنا ننطلق حوالى الساعة ١٢ -
الساعة الواحدة ليلا ، ولهذا كان ينبغي النهوض قبل ساعة ، علما بانه لم
يكن يتسنى الوقت لاحتساء الشاي ؛ كنا نسير حتى الساعة ٦-٧ صباحا ،
ونتوقف للاستراحة . اثناء التوقف كان ينبغي الاسراع فى النوم ، لأن هذا
يغدو مستحيلا مع حلول القبط . ثم كنا ننطلق حوالى الساعة ١٢ - الساعة
٢ بعد الظهر ، ونسير بلا انقطاع حتى الساعة ٧-٩ مساء ، حين كنا نتوقف
للاستراحة ؛ وهكذا حتى المدينة المنورة بالذات ، دون اية وقفة فى
النهار ودون اية انحرافات . الركب الاول كان ينطلق قبل الثانى بساعتين .
كان الركب يتألف من راكبين على الهجان ، (القسم الاكبر) على الحمير ،
وعشرة احصنة و٣ [. . .] . اثناء السير ، كان يسير فى المقدمة فريق
على الحمير والاحصنة ، وفى الورا فريق على الهجان . فى النهار كان الركب
يستطيل ، ولكن عند حلول العتمة كان يتجمع ويتراص ويسير باحتراس .
وعند الانطلاق ، كان الجميع يصلون بصوت واحد طالبين من الله سلامة
السفر وسلامة الشيخ ؛ وعند الاقتراب من الموقف ، كانوا يغنون بصوت
واحد اغنية مشجعة ومتناسقة جدا . كانت سرعة السير متكيفة لسرعة الهجان
التي تسير عادة بخطوات واسعة ، وبوسعها ان تسير خبيا بطيئا ، الامر الذى كنا
نستغله لفترة قصيرة فى الصباح ونحو المساء . الجميع يتنهمرون من
عدم هطول المطر فى الشتاء الماضى وبالتالى من نحول الجمال ؛ ومن جراء
ذلك ، تعين تطويل مدة السفر من ٤-٥ ايام الى ٧-٨ ايام . كانوا يطعمون
الجمال الاعشاب المجففة ولا يسقونها الا نهارا على حدة فى المواقف .

٢٨ نيسان (ابريل) . حوالى الساعة ٧ وصلنا الى نبع يقع فى مجرى
مضيق وادى فاطمة العريض . النبع تتساقط مياهه فى طاحونة غير كبيرة
وتروى بستانا من البلح . التربة ، سواء فى الطريق ام هنا ، من الرمل
الخشن ؛ فى كل مكان صخور قائمة غس عالية . الطريق مريح ، صالح لاجل

العربات حتى رابع بالذات . الوقود متوفر في كل مكان من الطريق بصورة اشجار صغيرة ، شائكة ، قرنية ، مسماة بالشوك وبصورة ضرب من ephedra «إيفردر» مسماة «العُشْر» (١٨) وتأكلها الجمال . هناك ضرب من عشب مجفف قاس تتلقفه الجمال اثناء السير . في مراكز التوقف يبيعون الاعشاب المجففة الجاهزة في حزم . في الساعة الثانية نهارا ، استأنفنا السير . الطقس حار جدا . ولكن بعد الساعة الثالثة ، اخذت الحرارة تهبط بشكل ملحوظ . ومع حلول الظلام سرنا باحتراس خاص ، موزعين رجالنا على جانبي الطريق . التنادى دائم بين الركبين . واخيرا في الساعة ٩ مساء توقفنا لمبيت الليل ، ومعنا الماء . كان النهار مضنبا جدا .

٢٩ نيسان (ابريل) . انطلقنا في الساعة النانية ليلا . وصلنا الى اسفان في الساعة ٦ صباحا . القرية تتألف من اخصاص من القصب ؛ من اجل العابرين توجد سقائف خاصة مبنية من الاغصان والعشب الجاف . قبل القرية ، مزروعات شاسعة من الذرة الصفراء والقرع . الماء في بثرين [. . .] جيد جدا .

استأنفنا السير الى ابعد في الساعة الواحدة نهارا ، الفرستات الاربعة ، الاولى من الطريق صعبة جدا ؛ بين الحجارة والجبال تقع ساحات شاسعة منطقة من الحصى والحجارة لاجل المزروعات البعلية . وصلنا الى خليص في الساعة ٧ مساء . توقفنا بعيدا عن القرية والماء معنا .

٣٠ نيسان (ابريل) . يوم الخميس . انطلقنا في الساعة الواحدة ليلا . الطريق في الفرستات الـ ١٠ الاولى صعبة من جراء الرمل ، ثم تصبح متساوية ، صلبة ؛ نشعر بقرب البحر . الريح باردة نوعا ما ؛ من بعيد نرى الاشرعة . وصلنا الى قضيمة في الساعة ٧ صباحا . الماء مالح نوعا ما . هناك مزروعات من القرع . تجدر الاشارة الى ان البطيخ والشمام في الجزيرة العربية ينموان طوال السنة كلها ؛ ولكن نادرا جدا ما يكونان من نوع جيد ؛ الاحجام في المعتاد صغيرة وبلا طعم .

انطلقنا في الساعة الثانية نهارا ، وتوقفنا بدون ماء في الساعة ٨ مساء . الطريق بعد قضيمة بـ ١٠-١٥ فرستا ، حتى رابع بديعة : متساوية ، صلبة (رمل بحري كبير متراس) ، بدون غبار .

اول ايار (مايو) . يوم الجمعة . انطلقنا في الساعة ١٢ صباحا . وهكذا قطعنا نصف الطريق دون مصاعب شديدة ، ودون معاناة القيقظ الشديد ، ودون التعرض لخطر جسيم ، وهذا يعني اننا قطعنا نصف الطريق . وكيف سيكون النصف الثاني ؟ ان رابع ضرب من مركز قضاء . الابنية نسخة عن

بيوت النهوريين عندنا . هناك قلعة فيها حامية تركية وبازار وبساتين شاسعة من البلح . الماء في البئر مالح نوعا ما ؛ يشربون ماء المطر من صهريج ؛ يبيعون الكثير من الاسماك والصدف . تناطي* البحر منبسط ، متساو ؛ الجبال على بعد ٧-١٠ فرسات . هنا تنقسم الطرق . انسيها ، «السلطانية» ، تنطلق على شاطئ* البحر عبر مستور ؛ اما فرق وغاير فتتفصلان عنها الى اليمين . قرر قادتنا اختيار غاير باعتبارها الطريق الاقصر . عادة يتحاشون هذا الاتجاه بسبب منغصات المعبر عبر غاير . في هذا الطريق وقعت الهجرة منذ ١٣١٥ سنة ، ولذا تزداد اهميتها .

انطلقنا في الساعة الثانية نهارا . سرنا في اتجاه الجبال نحو ساعتين ، دخلنا الجبال . الطريق حجري مع ارتفاعات وانحدارات كثيرة وغير كبيرة . في الساعة ٧ ، ارتفاع حجري مزعج جدا وانحدار صغير شعشتعت عند قدمه انوار الركب الاول . وقفة بدون ماء .

٢ ايار (مايو) . يوم السبت . انطلقنا في الساعة الواحدة ليلا ، وسرعان ما دخلنا فجأ مشجرا (بالمفهوم المحلي) غير عريض وصلنا فيه ، صعدا على الدوام ، حتى غاير تقريبا . الطريق مريح ؛ الرمل نادر . الاشجار كثيرة . حوالى الساعة ٧ صباحا وصلنا الى الآبار . الماء ليس عذبا تماما . فى نحو الساعة ١٠ صار القيظ لا يطاق ؛ هبت ريح حارقة لم اعرف من قبل نظيرا لها . لففت وجهي بالعباءة ، فشعرت ببعض اليسر (بدون كتمة الهواء) . حديد السرير فى الخيمة توهج . انطلقنا فى الساعة الواحدة نهارا . السير نحو المساء اسهل على كل حال من التمدد فى الخيمة . انا واحمد سبقنا ركبنا وسرنا فى طليعة الركب الاول وسرعان ما وصلنا فى الساعة الخامسة والنصف [الى آبار مبارك] (١٩) . وجدنا هنا بستانا من اشجار البلح والماء السائل . جلسنا قرب النبع بفرح انتظار الشاي حين تصل الجمال . كانت خيبة املنا مرة جدا حين تبين لنا ان الماء غير لذيز الى حد ان الشاي فقد مذاقه . ونظرا لحالة الماء هذه قررنا مواصلة السير بعد راحة قصيرة .

انطلقنا فى الساعة ١١ مساء . انهكنى الحصان المتهيج ، ناهيك بان سلسلة الشكيمة انقطعت ، فاخذ الحصان يندفع ، ويرفس ، ويعض ، ولا يتيح الاقتراب من احد . اخيرا ، تقدمنا كيفما اتفق ؛ ركبنا من الحمير والاحصنة على بعد ٥٠٠ خطوة تقريبا امام الهجان . وفجأة ، حوالى الساعة الثانية ليلا ، حين اخذ النعاس يسيطر بقوة ، دوت على التوالى بضع طلقات فى الركب الخلفى . قلت فى نفسى : اخيرا وقع تبادل النار . توقفت ، سحبت المسدس ، اردت ان اعرف ما سيحصل . ولكن شيئا لم يحصل . اقتربت

الهجانن التى انطلقت من موقفها الطلقات ، وعلمنا انه تراهى لاحد الحجاج ان بدويا يقتطع من اجرته اشياء ، فصاح ، فاطلقوا انذارا ، وركضوا الى الحاج المذنب ، ولكن وجدوا كل شىء فى محله . يبدو ان اسلوب السرقة هذا يمارس هنا على نطاق واسع . يتمدد البدوى على الرمل ؛ وحين يقترب الجمل منه ، يقفز (الجدال المحلية لا تعرف الخوف اطلاقا) ، ويستغل واقع ان راكب الجمل لا يرى ما يجرى تحت الجمل بسبب الاجربة ، فيبتر الاجربة ويسحب الاشياء .

تبدد النوم ، وتمدد الركب وواصل السير على انشاد الحادى . ودائما كنت انظر بحسد الى اصحاب الحمير . يؤجر كل منهم حمارين او ثلاثة ، ويمضى هو نفسه فى المؤخرة على حمار احتياطى ؛ وهم دائما مرحون ، ودائما يضحكون ، جالسين بصورة جانبية على حميرهم ، لابسين على الرأس عمامة جميلة ، وعلى الجسم قميصا ازرق طويلا مزنرا وحسب . وطوال الطريق كله يثرثرون مع رفاقهم بلا كلل ، وغالبا ما يدخنون سيجارة واحدة معا لكل ٥- ٦ اشخاص . كل منهم شاب ممشوق القامة ، رشيق القوام . كثيرون منهم مسلحون بالمسدسات . هذه المرحلة كانت مضيئة : النهار القاطن السابق ، الماء الردى ، ليل الارق ، - كل هذا فعل فعله . توعكت بشدة ؛ شرب الماء غير المغلى محفوف بالمخاطر . قمى جاف بشكل رهيب .

٣ ايار (مايو) . يوم الاحد . فى الساعة السادسة صباحا ، وصلنا الى بئر وتوقفنا للاستراحة . توقف الركب الاول قرب بئر اخرى على بعد نحو ١٠ فرسات . الماء عذب تقريبا . نحن فى املاك القبيلة الاشد لصوصية وشقاوة بين القبائل العربية - قبيلة Lehaba . ومستور كذلك من ارضها . جاء متوسلوا وباعتها . عيونهم منفرة جدا . اخذ صبيانهم يركضون بيننا وينشملون ما يستطيعون . وقد اختطفوا من فقير سائر معنا مظلة ؛ فتش عنها المسكين طويلا الى ان وجدها . احدث فى نفسى انطبعا مرهقا بانع باع اشياء حاج ما من الاكيد انه مقتول ؛ فى عداد هذه الاشياء ، كان ثوب الاحرام ومسندس وساعة فضية ، وبندقية والبسة كانت فى جيوبها اوراق ايضا . سنل البائع عما اذا كان قتل الحاج ، فاكتفى بالضحك . لم يعد احد الى شراء هذه الاشياء .

انطلقنا فى الساعة ١٢ نهارا ؛ وقرب بئر [رصفة] *** (٢٠) حيث توقف الركب الاول ، سقينا الخيل وحشدنا الركب كله ، وواصلنا السير باحتراس خاص ، وكانت لنا طليعة ومؤخرة ، ودوريات على الجانبين ؛ وكان شيخنا على حصانه حاضرا فى كل مكان ، متسلحا ببندقية جاهزة ، وهكذا

اجتازنا نحو ٥-٦ فرستات . بعد ان قطعنا معبرا غير عال عرفنا ان ارض قبيلة لحابه قد انتهت وانتهى خطر السرقة والسلب . وعرفت انا ان ابناء القبيلة قتلوا في السنة الماضية في هذا المعبر اتنين من المدينة المنورة ، عندما كان هذان في طريقهما الى مكة ، ومنذ ذلك يوجد دم بين اهل المدينة المنورة وابناء القبيلة وتحاسى اهل المدينة المنورة تكرار قصة السنة الماضية .

نحو الساعة السابعة مساء ، رأينا نيران الركب الاول ، ولكن تبين ان رجالنا الذين كانوا في الطليعة قد مضوا الى ابعد ، وتبين علينا ان نمضي ساعة ونصف ساعة ايضا الى ان توقفنا قرب الماء ، في جوار مرتفع . ٤ ايار (مايو) . يوم الاثنين . انطلقنا في الساعة الثانية ليلا . بدا مرتفع حجري معتدل في قاع المضيق ؛ بعد ساعة ونصف ساعة تقريبا ، ازداد المرتفع وعورة وصعوبة ، وازدادت الحجارة حجما . الجميع ترجلوا ، وهكذا مشينا ساعة ونصف ساعة ، الى ان بلغنا المعبر . المرتفع ليس صعبا على العموم ؛ واذا قامت اعمال ما ، فانه يصبح صالحا للعربات ايضا . في اعلى ، ساحات افقية كثيرة منظمة من الحجارة ، وخزانات لاجل جمع مياه المطر ؛ النزول معتدل جدا ، بالكاد نلاحظ. فجا في القاع ، واسعا ، غير عميق ، مكسوا [باشواك] *** (٢١) كبيرة . بعد النزول نحو ٧ فرستات ، توقفنا للاستراحة وارسلنا لجلب ماء المطر .

رايت كيف يطعم العرب خرفانهم . تمشى امرأة حاملة عصا طويلة ، وراءها نحو ٣٠ خروفا ، تسقط السنقات من الاشجار ، فتندفع الخرفان الى التهامها . الشكوى عامة من غياب المطر في هذه السنة .

تبرعنا انا ويززين بليرة واحدة لشراء الخرفان من اجل الشيخ والفقراء . في الساعة الثانية نهارا ، استأنفنا السير ؛ الطريق تمر باستمرار في مضيق عريض فيه خمائل . سبقنا انا ويززين ركبنا وانضمنا الى الركب الاول ؛ وحين حل الظلام تماما ، ارتفعت اشارة انذار قوى الى الامام ، ولم نستطع ان اعرف ما اذا كان هذا هجوما ام انذارا كاذبا . توقفنا في الساعة الثامنة والنصف مساء .

٥ ايار (مايو) - يوم الثلاثاء . انطلقنا في الساعة ١٢ ليلا . كان من الصعب جدا التحرك في الظلام . في الساعة ٨ صباحا ، وصلنا الى بساتين متاخمة للمدينة المنورة . بصورة اصيلة [. . .] جدا ، يستحصلون على الماء . ما استخرجه البدوى تسنى للحجاج القادمين ومواشيهم ان يشربوه . ظل الاعرابى يعمل بدون تدمر . حوالى الساعة ٩ صباحا ، توقفنا في جامع

يز على . فى هذا اليوم لا يدخل الحجاج من اهل المدينة المنورة الى مدينتهم ؛ يتوقعون على بعد نحو ٤ فرسئات عنها ، حيث يستقبلونهم بالنقل ، ويقضون الليل مع اقاربهم فى الخيام ؛ ولكننا نحن تعبنا كثيرا جدا من الطريق ، واستأذنا ، واكلنا نحو الساعة ٤ ووصلنا الى المدينة المنورة فى الساعة ٦ مساء ، ونزلنا فى بيت عمر الدليل . المدينة تقع وسط سهل عريض ؛ بساتين البلح تنطلق بشكل شعاعى ؛ السهل تتخلله التلال ؛ المدينة مطوقة بسور حجرى متين مع بوابات محمية . فى احد ابراج الزاوية توجد بطاريات مدفعية ، وفى السهل توجد هنا وهناك نقاط حراسة ترابط فيها عساكر تركية .

دخلنا من البوابة المصرية . فى البدء شارع عريض تنيره المصابيح ، ثم بوابة اخرى امامها بازار ومقهى شاسع . بعد عبور البوابة - شوارع ضيقة مبلطة بصفائح حجرية مرصوفة ، ودكاكين مرتبة ؛ فى احد الازقة الجانبية كان بيت عمر . واخيرا نحن فى البيت .

اعدوا عشاء وفيرا استغرقنا بعده فى النوم .

٦ ايار (مايو) . يوم الاربعاء . فى الصباح الباكر استأجرنا حميرا ورحنا نستقبل رفاقنا . كان الركب قد دخل البوابة الاولى حين انضمنا اليه ، وسرنا مع الاغانى وطلقات النار ؛ والصبيان الذين جاؤوا الى مكة للمرة الاولى كانوا راكبين ظهور المواشى ، وفى البسة فاخرة . رحنا راسا الى باب السلام حيث تفرق الركب .

رغم قصر المدة ، تسنى لى ان اعتاد على الركب ، وان اعرف الكثيرين شخصيا ، بدءا من الشيخ ، وان اقدر تماما بساطة موقفهم منا نحن الرحالة الغرباء بالنسبة لهم ؛ فى الاماكن الخطرة تمتعنا جميعا بعناية خاصة ، وكل هذا كان يجرى ببالح اللطف والتهديب ؛ وفى المدينة المنورة ، غالبا ما كنت اتلاقى فى الشوارع مع رفاق قدماء فى الطريق ، واحيهم ورحب بهم بفرح كبير .

اليوم ركعنا امام قبر النبى ؛ الحرم الشريف هنا مبنى حسب احدث منجزات علم الهندسة ، ويحدث انطبعا عميقا . الاضرحة محاطة بشعيرية حديدية كثيفة ؛ والمدافن نفسها مغطاة بديباج غال . فى وسط جنيئة الحضرة صغيرة ، وبقر بها بثر فاطمة . الشحاذون الذين يتسللون اثناء الصلاة ويقسدون المزاج يثيرون الملل الرهيب . المدينة تطوق الحرم الشريف لصقا . لاجل النساء مكان خاص مسيج .

٧ ايار (مايو) . زارنا كثيرون من مواطنينا ؛ وعددهم مع طالبى العلم

هنا حوالي ١٠٠ شخص . بعض منهم شيوخ جاؤوا يموتون هنا ؛ وآخرون هاجروا الى هنا لظروف معيشية مختلفة ، قسم منهم يتعلم ، قسم آخر يتاجر . من المؤسف جدا انه يصعب على اولادهم ان يتأقلموا هنا ؛ كثيرون يموتون .

اليوم تناولنا الغداء عند مواطننا من محافظة بنزا ، عريف . البيت مفروش بنظافة ؛ الطعام قومي . من المؤسف ايضا ان مواطنينا يشكلون معسكرين ويتعادون بلا هوادة .

٨ ايار (مايو) . يوم الجمعة . اليوم شاهدت مع رشيد افندي مدرسة قازان الدينية المبنية حديثا وزرنا [.] * التعليمي . للمدرسة حوش صغير جدا ، حجراته في طابقين ؛ اعتقد ان الجو فيها حار جدا . المسجد غير كبير ؛ هناك بيوت لاجل الشيخ ، والمدرّس ، والامام ، والناظر ، وخلافهم - وهي بيوت الاوقاف ؛ والدخل منها ينبغي انفاقه في صالح المدرسة الدينية ؛ وهناك مكتبة غير كبيرة . كل شيء يبدو جديدا ، ونظيفا جدا . مواطني متادبون ومجاملون جدا معي .

اثناء صلاة الجمعة ، تستلقت الخطبة الانتباه . الخطيب يخاطب المصلين ، يتصرف بكل طلاقة ويلقى موعظة . انها خطبة حقا !

اليوم ؛ قبيل المساء ، زرنا مدرسة دينية معروفة ، واسعة الشعبية بين مواطنينا . السيد على ناظر المدرسة . وهو رجل كهل ، ذو وجه ذكي وطرائق كطرائق المثقفين . كان خارق اللطف ، وتذكر وطننا بكلمات طيبة ؛ فقد زاره منذ اربع سنوات ، واستقبلوه هناك بكل احترام واجلال .

٩ ايار (مايو) . يوم السبت . اليوم الاول من شهر محرم . اليوم صباحا رحنا نركع امام مختلف النصب في مسجد القبة . هنا يوجد المكان الذي توقف فيه جمل النبي لدن وصوله للمرة الاولى الى المدينة المنورة ، المكان الذي رأى منه مكة ، وغير ذلك .

جاء ملاّ نعمان وجلب مؤلفه .

مساء زرنا مواطننا ، الطبيب في مستشفى الاوقاف المحلي ، عطالله افندي . انه من اهل قازان ، هاجر صبيا ، وتخرج من مدرسة طبية تركية . عمره الآن حوالي ٥٠ سنة . يتسع المستشفى ١٥١ (حتى ٣٠) شخصا ، وهو وقف من والدته السلطان عبد المجيد . وعد بعرضه على . فضلا عن ذلك يوجد هنا ما يسمى بمحجر صحي يعمل فيه على الدوام طبيب واحد . المحجر الصحي يمكن ان يتحول موقتا الى مستشفى يفتح ابوابه اذا نشب وباء . ومع الطبيب يوجد صيدلي مناوب .

منذ الصباح رحنا اليوم نحو ٥ فرستات الى قبر حمزه ؛ وهو من انصار النبي ، وقد لقي مصرعه في هذا المكان حين شن المكيون الكفار هجوما . هنا بقينا الى المساء في ضيافة عمر الذي هو هنا في قوام الركب القديم منذ امس . عدنا في ساعة متأخرة .

١١ ايار (مايو) . نهرا تناولنا الغداء عند السيد علي . الغداء فاخر ، من مآكلنا القومية . رب البيت لا يجلس معنا ؛ وهذا من قواعد الآداب العربية . يرافقنا الى البوابة . البيت الذي يشغله ، كما يقولون ، من خيرة البيوت ؛ هنا تغدينا في حجرة السرداب ؛ الجو هنا بارد جدا بالفعل . في كل مكان نظافة خارقة . يبنى بالتبرعات مدرسة دينية قرب الحرم الشريف بالذات .

قبيل المساء زرنا المقبرة المحلية «جنة الباقي» . هنا رفات عثمان وكثيرين من انصار النبي الآخرين . المقبرة غير كبيرة ، زهاء ٤ ديسياتينات * ، يدفنون في القبور القديمة .

بعد صلاة الختام زرنا مواطننا صالح بيغاف ؛ هرب المسكين من السكر . رجل لطيف جدا ، اسطى في جميع المهن . يصلح الساعات وماكنات الخياطة ، - وهي كثيرة جدا هنا - يصنع الصابون ، وغير ذلك . يعيش في بيت يخصه . ليساعده الرب !

١٢ ايار (مايو) . يوم الثلاثاء . في الصباح زرنا علي بعد ٦-٧ فرستات مسجد القبلتين ومسجدا آخر بنيا حيث كانت خيام النبي والائمة .

رحنا لتناول الغداء بدعوة من عز الدين افندي . عاش زمنا طويلا في ستيرليتاماك . والآن يشرف هنا على تكيات الاوقاف . وعلى العموم توجد هنا ٦ او ٧ تكيات تترية للاوقاف ؛ وجميع التكيات التي رأيتها صغيرة جدا .

١٣ ايار (مايو) . اليوم تستحيل معرفة المدينة . في الشوارع جموع كبيرة من الناس . على الاغلب من المصريين ومن العرب الافارقة ؛ وجموع من التجار الجدد في الحرم الشريف . الضيق . امس مساء وصلت ٣ قسوافل من مكة . الساحة امام [. . .] * البوابة مليئة بالشقادات والجمال . القوافل سارت مدة ١٤ يوما . وصلت بسلامة . يقولون ان ١٥ قرغيزيا وصلوا ، بينهم ٣ مرضى . قبيل المساء زرنا قبر والد النبي وبضعة جوامع قديمة .

عند العودة ، رأينا سرايا من الجراد تطير في الجو في اتجاهات مختلفة

* الديسياتينات = ١٠٠٩٢ هكتار . المهرب .

وباعداد هائلة . عرفت ان العرب يأكلون الجراد ويعتبرونه مأكلا لذيذا .
فى المدينة المنورة عدد كبير جدا من القادمين من مختلف القوميات ، وبخاصة
من السرت (٢٢) ؛ ويقولون ان هؤلاء زحزحوا جزئيا العبيد كخدم .

١٤ ايار (مايو) . يوم الخميس . اليوم صباحا جاء رسييد افندى .
تحدثت معه زمنا طويلا عن العرب . حسب مراقباته خلال سنوات عديدة ،
يندثر العرب ، ويفسر ذلك جزئيا بالسيادة التركية . يرى التجديد فى نزوح
البدو الى المدن . سلطة الشريف دينية ، روحية ، وجزئيا الوساطة بين
القبائل .

رحنا معا الى مكتبة شيخ الاسلام التابعة للاوقاف . تشغل المكتبة
عمارة ممتازة لمدرسة جيدة ، سجاجيد غالية ؛ مناخذ مريحة . فرش رخوة
لاجل الجلوس . فى اعلى العمارة شقة لاجل المدير . يوضع الكاتالوج بصورة
جيدة جدا . على العموم يوجد حوالى ٧٠٠٠ مجلد . وهناك نسخ نادرة جدا ،
بينها تفسير كشاف . الدخول حر ومجانى للجميع . ومن هنا عرّجنا على
مكتبة مدرسة محمود الدينية . الوضع نفسه . الكاتالوج حسب النظام
القديم ، ولكن سرعان ما وجد المدير الكتاب الضرورى لنا . تطل نوافذ
المكتبة على الحرم الشريف .

زرت مدرسة الشفاء الدينية التابعة للاوقاف والتي تبرع ببنائها اترك
من القسطنطينية ؛ التلامذة يتقاضون مجدية واحدة فى الشهر ومؤونة
بالمبلغ نفسه تقريبا . هناك بالاجمال ١٢ غرفة ؛ فى الوسط جنينة ؛
طابق واحد .

عدد جميع تلامذتنا فى المدارس الدينية التى لا تخصصنا حوالى ٢٠ ،
والعدد نفسه فى مدرسة قازان الدينية ، حيث يوجد متسع لاربعين تلميذا .
جميع الحموديين-الحميديين يتقاضى الواحد منهم ليرة واحدة فى الشهر .
منزل ضياء الذى زرته فى الشفاء . ثبث بشكل مريح ومناسب جدا ، ونظيف
وانيق . قبيل المساء ، رحت مع حارث الى مقهى فيما وراء البوابة الاولى حيث
تلاقيت مع بعض من مواطنينا . الساحة ملأى بالجمال والشقايف . فى كل
مكان يتحرك الباعة ذهابا وايابا بسرعة ، صائحين باسعار البضائع التى
يريدون بيعها . وعلمت انهم يصيحون باعلى سعر من بين الاسعار التى
يعرضها احد ما . الشارى يزد ، البائع يمضى الى ابعد ؛ واذا لم يعرض
احد سعرا اعلى ، فانه يبيع من الشارى الاول . وهذا اشبه بمزاد علنى .
رووا لى قصة محزنة مع الاشارة الى احد البيوت الكبيرة . صاحبه السيد
قتله البدو بالسيف عندما كان فى البستان بجوار المدينة ؛ بقيت ابنته

الوحيدة ، واعلنت انها ستتزوج ممن ينتقم لها لدم والدها . تواجد فتى شجاع ، وقتل احد المذنبين وتزوج من الفتاة ، ولكنه سرعان ما جن ومات لخوفه الدائم من الانتقام . اثناء صلاة الختام بحثت مع يرزين مسألة الرحيل . قررنا ان ننتظر القافلة النانية : المصريون ينطلقون غدا مساء . نحو الساعة ٩ مساء رحنا مع عبد الملك الى اجتماع دراويش الرفاعي ، ولكن موسيقاهم التي لا تطاق والتي تتألف من دفوف كبيرة اجبرتنا على الفرار في الساعة العاشرة والنصف . عرضوا علينا جامهم والادوات التي يضربون بها انفسهم . يقولون ان هذا يجرى صباحا . ابراهيم افندي ، معاون الشيخ ، الشيخ في القسطنطينية موقتا . بعد صلاة الختام جاءني بضعة شكيردين وعلى راسهم عز الدين افندي . دار حديث شيق جدا عن واجب الهجرة . عز الدين افندي نصير عاقل ورزين جدا لهذه الفكرة ؛ قال انه راجع لحل هذه المسألة مفتيا مشهورا فأعرب هذا عن رأيه واصدر فتوى سلبية المال [.] ** بشكل قسري عندها . لم يجد عز الدين افندي اي امر سيئ في عمليات مسلمينا في الحرب ضد مسلمين آخرين . مسألة طريقة جدا (٢٣) .

١٥ ايار (مايو) . منذ بضعة ايام نعتزم انا ورشيد افندي زيارة التكية المصرية حيث يوزعون الطعام مجانا على الحجاج الفقراء . واليوم ايضا لم نصل اذ علقنا في مدرسة قازان الدينية عند رشيد الشكيردي . ومن جديد اقتنع بانه لا بد من ان يكون الجو حارا للغاية في الحجيرات . غرفة رشيد مفروشة بغنى نسبي : كثرة من الكتب ، مفروشات لا بأس بها . تحدثت مع ظريف حلغا عن النسبة الكبيرة من الوفيات بين اولاد مهاجريننا ، وتبين ان التلقيح ضد الجدري غير وارد ، في حين يموت من هذا المرض كثيرون . حكوا بمزيد من التفصيل عن ايقاف قافلة في السنة الماضية ، مؤلفة من ٣٥ جملا ، في غضون ٤٥ يوما ، من قبل البدو في جوار مستور . وعن القول المأثور - من جهة دينغيز ، من جهة اخرى دونغوز (٢٤) ، لأن البدو يصطادون و[.] * لقاء ٥ ليرات .

١٦ ايار (مايو) . يوم السبت . اليوم روى عبد الرشيد افندي تفاصيل عن الحجر الصحي في السنة الماضية في الطور . انزلوا خلال ١٢ يوما ، ولكن هذه الايام لم تدخل في حساب الايام ١٥ من الحجر الصحي . الطعام رديء ؛ المحلة مرعبة ؛ حريق الامتعة بدون تعويض ؛ الالبسة القذرة عند تعقيم البسة الشخص المعنى ؛ لاعقلانية الحجر الصحي التامة ؛ امكانية التمرير . افادوا التفاصيل عن الهجوم على [.] * ؛ وقع فعلا ، ولكن انتهى بكامل السلامة بالنسبة للآثارك ؛ من البدو لقي واحد مصرعه . اليوم ،

بعد الظهر ، اختفى المصريون ؛ فان قافلته انطلقت ؛ وامتلات المدينة المنورة بالسوريين . وصل [. . . .] * مع القافلة . غدا يجب ادخال المحمل فى الحرم الشريف .

بقدر ما اسمع من الاحاديث ، بقدر ما ازداد احترامنا لعثمان باشا من ابناء المدينة . هذا الرجل الجدير والشخصية البارزة كان الجميع يحبونه ويحترمونه ويخافونه بالقدر نفسه . وقد رغبت شديد الرغبة فى الاعراب له عن تقديرى فى القسطنطينية .

تتوارد عن الحجر الصحى معلومات فى غاية التباين - معلومات جميعها ذات طابع اكثر مدعاة للهدوء - اقل من ٢٤ ساعة بالاجمال . اليوم وصلت قافلة كبيرة جدا من الشرق موسوقة بالحبوب والسمنة . سعر السمنة هبط حتى ٥ روبلات للبود * . احيانا يبلغ سعره ثلاثة اضعاف . السمنة ، كما يقولون ، نقية جدا ؛ لتنقيتها ، كما يقولون ، يضعون بضع حبات من البلج . بعد صلاة الختام رحنا نحتسى الشاي ونتحدث مع عز الدين وضياء . وعدت ضياء باستعلام قضيته والكتابة بصدها . كلاهما لطيف . عموما يجب الاعتراف بسماحة لطيفة مشتركة بين جميع التلامذة - المودة ، التهذيب ، البشاشة ، غياب التعصب الاعمى . يتحدثون عن تحريض الانجليز اليهينيين ضد حكومتهم الشرعية ، يقولون ان الانجليز يبيعون باسعار بخسة جدا بصادق سريعة الطلقات . هنا الجميع يكرهون ابناء البيون (انجلترا) واعتقد ان السبب هو مصر . وحالة المحمل البائسة ينسبونها ايضا الى الانجليز . يسترعى نمو المدينة الكبير فى الآونة الاخيرة الانتباه ؛ الامكنة يتسابقون على شرائها ؛ وهناك انشاءات كثيرة بادئة ؛ البيوت غلا سعرها ؛ ينسبون هذا الى تدفق الناس من بلدان اخرى ، ويعتبرونه (دليلا على) اقتراب نهاية الدنيا . وهناك حكاية طريفة عن احدة مكة - عن [. . .] * آخون دجان . هذا الرجل الفاضل سمع بظهور المهدي فى السودان فطلق زوجته وراح الى السودان ، رغم تقدمه فى السن ، ليعرف ما اذا كان هو المهدي فعلا . عاد بعد نحو ٥ سنوات على اقتناع بان الرجل ليس المهدي الحقيقى ، بل قديس . سمعت نكتة . فى القسطنطينية ، اثناء صلاة الجمعة ، صاح احدهم انه المهدي المنتظر ، فاعتقلوه واوصلوه الى القاضى ؛ سأل القاضى عما تعنيه صيحاته وكيف يتظاهر بانه المهدي ، اجاب : امكتوب فى كتبكم انه سيظهر ، قبل المهدي الحقيقى ، بضعة مهديين كاذبين . «اجل ، ورد هذا فى الكتاب» . انا احد هؤلاء المهديين الكاذبين . ذلك كان الجواب .

* البود=١٦,٢٨ كيلوغراما . المهرب .

١٧ ايار (مايو) . يوم الاحد . اليوم وصلت اخيرا القافلة من مكة ،
ووصل ايضا مواطنونا . بقيت القافلة في الطريق ١٦ يوما ووصلت في
الطريق الفرعى . في وادى فاطمة دفنوا الحاج صابر من قازان ، ودفنوا ٣
قرغيزيين ، وجميعهم غادروا مكة مرضى . وقعت قرابة عشر حالات نهب قام
بها البدو ببث الذعر في نفوس الحجاج ؛ وفي احدى الحالات جن احد
المنكودين . نقلوا الى هنا قرغيزيا مصابا بعرض خطير جدا ، فهل ابناء
سهوبنا المساكين هؤلاء مصابون بالتيفوس ؟ ! ولا داعى الى التحدث عن
كمية الاتشاء الضائعة .

في شوارع المدينة ، وفي الحرم الشريف ضيق رهيب ؛ يستحيل
المروء ، والغبار كثير جدا . هناك نقلوا اليوم المحمل صباحا الى الحرم
الشريف ونصبوه بمصاحبة طلقات المدافع تحت صف الاعمدة .

اليوم زرنا مدرسة قور-باش الدينية ويسمونها قره باش . اردت ان
ارى فخر الاسلام ، ولكننا لم نجده ، ثم رحنا الى صاحبنا ظريف من
ستيرليتاماك . الغرفة رحبة نسبيا ؛ للطعام يعتمدون مجيدية واحدة ، والمبلغ
نفسه تقريبا للقمح . في طريق العودة رأيت ايضا فناء خاصا يكسسون فيه
القمح المعد للتوزيع . كثيرون يفضلون الحصول عليه في ينبع ، لأن كلفة
النقل على حساب الحاصل . في قره باش يعيش ايضا شيخ من ستيرليتاماك
اواخر ايامه . البيت يتسع لـ ٢٥ شخصا ، وهو من طابقين .

وكما في جميع المدارس الدينية ، يأخذون النزلاء في المدارس المحلية ،
لا من عداد الشبان التلامذة وحسب ، بل ايضا من عداد الشيوخ الذين
يتوافدون الى هنا لقضاء اواخر ايامهم . وهم يستفيدون ايضا من الاعانة
المقررة . لأن هدف المدارس الدينية هو الصلاة في صالح واهب الوقف .
الجميع ينتظرون باهتمام خارق الانباء عن الحجر الصحى ، عن حالة الطرق في ينبع .

١٨ ايار (مايو) . يوم الاثنين . مع قافلة البارحة ، وصل حوالى ٦٠
قرغيزيا وحوالى ٢٥ تتريا ، بينهم ٤ من بطرسبورغ (بينهم سيدة) . الجميع
منهوكون للغاية ، بطون جميعهم [. . .] ؛ بذعر يحكون عن الطريق .
مسيرتنا كانت سهلة وآمنة جدا وسريعة ورخيصة بالمقارنة مع مسيرتهم .
دفع كل منهم لقاء الجمل مع البخشيش زهاء ٨ ليرات . الجميع يتشكون من
صفاقة سواقى الجمال ونحول الجمال في هذه السنة .

بعد الظهر ، تناولنا الغداء عند دليلنا عمر ؛ في المساء ، بعد صلاة
الختام زرنا بيغايف ؛ حل عنده ضيفا مجاور شرف الدين [.] ***
من مكة ؛ تقابلت مع المدعو مرزا ، وهو ايضا عبد الله ، الفار ؛ اضجرنى

بقصصه السخيفة - كيف كاد يحمل نائبا لاسقف ارثوذكسى على اعتناق الاسلام ؛ والقسيس افتدى نفسه بالنقود ؛ وخلاف ذلك من السخافات . وجدت فى البيت احد مهاجرين الشبان ، المدعو مصطفى . جاء الى مكة مع وائده وامه واخيه ؛ بعد فترة وجيزة حل وباء الكوليرا ، فقد اخاه ، انتقلوا الى المدينة ؛ بسبب الفقر سافر الوالد الى روسيا سعيا وراء البذل ؛ بعد بضعة ايام ماتت الوالدة ؛ بقى الصبى وحده فى مدينة غريبة ، دون ان يكون له احد . بعد مجاعة طويلة ، ساعده احد المواطنين . الآن يملك دكانا ، يطعم الوالد وزوجة الوالد ؛ تزوج . الوالد كان عريفا فى فصيل تشيستوبول المحلى ، وكان ايضا مدير مزرعة . الآن يخدم ويقود مواطنيه الحجاج .

عاد الوالد والابن من مكة مع قافلة البارحة . النسبة الكبيرة من الاصابات بالامراض بين القرغيز يعزوها مصطفى الى ماكلهم غير العقلانية (المآكل المدهنة ، الكازى ، الكروت) والبخل الخارق اى حرمان النفس من الضرورى .

يكون عن عمليات النهب والسرقة التى يقوم بها البدو فى رايغ فى وضوح النهار . تقدم قرغيزى بشكوى ضد سائق جمل من المسؤول فى رايغ ، ولكن عبنا ؛ واثناء التحقيق ، باع لص شهير من المسؤول الاشياء المسروقة بواحد من عشرين من ثمنها .

ما اروع ما يحبون الابقار والمواضع المحلية المتواجدة بكثرة فى الساحة بين [. . . .] *** .

ما ان يخف [القيظ] حتى يتدفق جميع السكان الرجال الى هنا ويقضون الوقت حتى ساعة متأخرة من المساء . وهنا يعرفون جميع الاخبار . ادلتنا قضا هنا اياما بكاملها . يقدمون القهوة فى فناجين صغيرة ، والشاي فى كؤوس صغيرة (الشاي الاسود والشاي الاخضر وكذلك النرجيلة حتما) . يرشون الماء فى كل مكان ، ولذا تسود البرودة . يروى قدماء السكان ان احتساء الشاي لم ينتشر الا فى الآونة الاخيرة . وغالبا ما اخذت تقع العين عند العرب على السماورات الروسية وآنية الشاي الروسية التى يستعملونها على الاغلب لتزيين الرفوف فى تجاويف الغرف . رأيت سماورات جيدة جدا مطلية بالنيكل . روى احدهم انه عندما كان يتعلم هنا منذ ١٨ سنة ، كانت السماورات معدودة - ٦ سماورات ؛ وآنذاك ، كان الضيف العربى ، اذا عرضوا عليه كأسا من الشاي ، لا يشربها الى النهاية ، ويؤكد ان بطنه انتفخ من الشاي ؛ اما الآن فيشربون الشاي على طريقتنا تماما ويحبون شاي

موسكو . وحين تعرض الشاي ، غالبا ما يسألونك عن نوعه ، ويقبلون الدعوة بفرح حين يكون الشاي روسيا . عدا الشاي والآنية والكاكاز ، لم ار اى شىء روسى .

١٩ ايار (مايو) . يوم الثلاثاء . السريان اليومى وقضاء الوقت دخلا نوعا

ما فى مجرى معين . :

اعيش كما من قبل عند الدليل عمر شاغلا غرفة غير كبيرة فى الطابق الثانى ؛ الغرفة السفلى - الانبوب يشغلها يرزين . هربت من هناك . هناك رائحة قوية من المرحاض . النافذة-الشرفة تطل على زقاق ضيق جدا فيه حركة كبيرة ، ولذا يكون الغبار شديدا فى النهار ، خصوصا وان الزقاق مغلق قرب البيت بالذات وان المدخل بصورة البوابة فى اسفل فقط . الحرارة صباحا ٢٢-٢٣ درجة ريومور ؛ اقصى الحرارة ٢٦-٢٧ درجة ؛ واكثر من ذلك لم ترتفع . حارث رقيقى وخادمى الدائم ؛ وقد تكشف عنه موهبة كبيرة ؛ فهو يجيد تقليد كثيرين من الناس .

اثناء صلاة الفجر العامة (فى الساعة الرابعة صباحا) فى الحرم الشريف ، تقترب خطيئة النوم (لأن هذا افضل وابرد وقت) . اوقف. حارث فى الساعة الخامسة الا ربعا او فى الساعة الخامسة ، وتتوضأ وتصلى . بعد الصلاة اغفو ساعة ايضا ، بينما يغلى حارث الحليب ويهيى* السماور . فى الساعة السادسة نشرب الشاي . (بصعوبة وجدنا الشاي الروسى واشترينا رطلين من احد المواطنين) . بعد الشاي اعمل عادة ، ويهتم حارث بالشؤون المنزلية . عند الظهرا ، بعد الصلاة نلتهم الغداء الذى حضره حارث والذى يتألف عادة من مأكلا واحد - الحساء . بعد الغداء ، الراحة حتى الساعة الثالثة ، ثم الشاي ، وبعده نخرج من البيت لنجلس فى المقهى . يتجمع ٥-٦ اشخاص من مواطنينا الذين نعرفهم ومن العرب ، ونشرب القهوة ، وادفع لمنها قرشا واحدا (٨ كوبيكات) ويعطوننى على سبيل الردة بضع قطع نقدية معدنية محلية .

لا استطيع بعد ان اعتاد على شرب القهوة المحلية ؛ اتنازل عن فنجانى لشخص ما آخر ؛ الجمع المتنوع هو اكثر ما يهمنى . فيه تقع العين على مسلمين من شتى انحاء الدنيا ، وبينهم يتميز ، بلا ريب ، باكبر قدر من الذكاء ، العرب «البلديون» ، سواء من حيث مظهرهم والبستهم ام من حيث ادبهم ومجاملتهم . البدو فى قمصان مقلمة سوداء (عباءات) ، مدججون بالسلاح ؛ على رؤوسهم المناديل (العقالات) ؛ حفاة [. . .] *** يشبون مشية خفيفة خاصة . جميعهم بلون ضارب الى البنى ، بلون الحجر المحلى ؛ وجوههم صغيرة ؛ عيونهم حية جدا ؛ الجميع سمر ؛ الشعر قليل . كثيرون من الزوج

ممن كانوا او لا يزالون عبيدا للبدو ، يرتدون البسة البدو . شيوخ البدو ، والملتزمون بتقديم الجمال لاجل الحج يجلسون بمهابة في المقاهي . اليوم يوجد ايضا عدد كبير من السوريين - وهم تنعب طويل القامة في عباة مقلمة ومناديل سوداء (عقالات) على الرأس ، ملفوفة في لفتين صوفيتين سوداوين ؛ وقسم منهم شقر . ومنهم يتألف خفر المحمل الشامي . الخفر من الفرسان . قرابة ٥٠٠ رجل على الخيل . وهم حسنو السلاح واللبسة . وهناك ايضا مصريون متأخرون (اي تأخروا عن رفاقهم في الطريق - ا. ر.) مع نسائهم . وجميعهم خرق ، طويلو القامة ، نحيلون ، في شمالات سوداء طويلة من قماش خفيف . على وجوه الرجال والنساء وبرة من الوشم . وهناك ماليزيون سبق ان كتبت عنهم . وهناك عدد كبير من الاتراك ، اغلبهم من ابناء الاناضول . وهم جميلون ، طويلو القامة ، ذوو البسة انيقة ظريفة .

وهناك ايضا كثيرون من الفرس . وهم بمعظمهم يعودون من هنا عبر السهب الى البصرة وكربلاء . ينقلهم بدو تلك الانحاء ، الذين هم ايضا من الشيعة . يروون انه توجد بين الفرس امرأة فائقة الغنى يتبعها ٤٠٠ جمل مرسوق بشتى الاشياء بينها ٧٥ جملا موسوقا بالفحم لاجل السماورات والنارجيلات . الفرس من الشيعة يشتركون في الصلاة العمومية في الحرم الشريف ، سائرين وراء الامام ، ولكن يقولون انهم غالبا ما يهينون القبرين المقدسين لخليفتهما الاولين ابي بكر وعمر ، تاركين قريهما الاقدار ، ويصقون في ثغرات الابواب . واذا رأوهم في الحرم المشهود ضربوهم . واليه يوجهون تهمة تدنيس الحجر الاسود وركن اليمن . وعلى كل حال ، يشيح الشيعة بوجههم اثناء الطواف عن هذه الاشياء التي يجلبها السنيون . وعندهم ادلتهم وتكياتهم ونظامهم ، وخلاف ذلك .

لقرغيزينا ، لسبب ما ، اتعس هيئة . الضيق الرهيب ، والازدحام . والضجة ، والغوغاء ، واللغة المجهولة ، والحرارة غير المألوفة - كل هذا يفعل فعله فيهم بلا ريب بشكل رهق . بدانتهم زالت ؛ منظرهم منقبض ، كتيب . وعدد ابناء الهند وجنوب افريقيا وزنجبار والسر والافغانستان وقشغار قليل جدا . لا تقع العين البتة على صينيين . نحو صلاة الختام نذهب الى الحرم الشريف ، وبعد الصلاة نعود الى البيت حيث يعمد حارث الى تحضير سماورنا الضخم الذي يتسع لماء اربعة دلاء . يتجمع لشرب الشاي بضعة افراد فقط ، اغلبهم من التلامذة المحليين . وهم شعب لطيف جدا ومرح . ثم نذهب جميعنا معا الى الحرم الشريف لصلاة المساء ؛ ومن هناك

يمضى الشكيريديون الى بيوتهم لأن الباب يُغلق عندهم فى الساعة ٩ مساءً ، وليس من اللائق طرق الباب . يختل هذا النظام بسبب الدعوات الموجهة اليها لتناول الغداء او لاحتساء الشاي فى مكان ما .

اليوم ، بعد صلاة الختام ، رحنا انا ورشيد القاضى الى بيت مثقف محلى . وهو البيت الثانى الذى يرضى بالظروف الصحية الخارجية حتى فى كاتشا (عال ، ونظيف جدا) ، يخلو من كل رائحة (فى البيت الاول يعيش السيد على تكير) . ظهر سماور روسى صغير والشاي وكؤوس صغيرة . بصعوبة شربت كاسا . حكى رشيد القاضى بكآبة عن فشله فى عقد الصلح بين معسكرين متعاضدين من مواطنينا ؛ ثم اقام حفلة غداء مع تلاوة «المولود النبوى» ودعا الجانبين . ولكن الجانب الاقوى الذى قبض على زمام السلطة (عبد الستار) رفض ان يحضر الغداء اذا حضره الخصوم . هذا سيىء جدا . وهذه سمئنا القومية المزمنة .

المدينة وضواحيها يديرها ممثل خاص للحكومة التركية ، هو العامل ؛ وهذا المنصب يشغله الآن عثمان برتبة لا تقل عن رتبة الجنرال ؛ وهو شركسى الاصل . غالبا ما ارى كيف يعود فى الساعة الخامسة مساء برفقة خفره فى عربة من مبنى الادارة الى شقته . وبين الشخصيات الكبيرة الاخرى تستلفت الانتباه شخصية غازى باشا ، ابن شميل (٢٥) ؛ ويقولون انه هنا بسبب النفى ؛ وهو حدو عامل المدينة ؛ ويقولون انه يتقاضى ١٢٠ ليرة كل شهر على سبيل المعاش ، وينفق الكثير على اعمال الخير . وهناك ايضا اخوه سازى باشا ، وهو شاب نسبيا . فى الظاهر لا يوجد احد تعتمد عليه السلطة ، رغم انى رايت مرة واحدة موظفا بوليسيا يسير فى الشارع . فى الايام الاخيرة - حرس عسكري موقت فى الساحة . اعتاد الشعب على مراعاة النظام بنفسه .

بين الاشخاص ذوى الالقاب شبه الدينية ، شيخ الحرم ، المشرف على الحرم المحلى ؛ وهو ضابط تركى سابق ، اشترك فى الحرب الاخيرة ضد الروس ، وكان مع عثمان باشا فى الاسر .

امس ، بعد صلاة الختام زرنا احد مواطنينا ، واسمه شريب . منذ ١٦ سنة غادر مسقط رأسه مدينة ترويتسك (محافظة اورنبورغ) ، بسبب تولعه فى الاسفار ، وراح الى تركستان ، وكان فى الصين وافغانستان والهند ، وذهب الى مكة المكرمة عبر بومباي ، ومنها الى المدينة المنورة ، حيث استقر وتزوج من ارملة عجوز تركية استثار عشقها ، كما يقولون ، مازحا ، بأغانيه (يفنى ببراعة) ، واخذ بفضل هذا الزواج بيتا وعبدة ؛ والآن يعيش

بيسر ، مشتغلا بلا كلل على آلة . زار مكة ٦ مرات ، علما بأن وباء الكوليرا لم يكن منتشرا مرتين فقط . تذكر وقائع فظيعة . يتبين من مراقباته التي تؤكد افادات اشخاص آخرين ايضا ، ان كل شيء ينتهي بسلامة اذا كان الطقس في منى صحوا في ايام تجمع الحجاج هناك ، وان المصائب تقع اذا تعتم الجو نوعا ما بسبب الغيوم واذا اخذت السماء تزد . ذات مرة ، نشب الكوليرا في القافلة التي كان ينطلق معها من هنا الى المدينة المنورة ؛ وصلوا الى مكة وسمحوا لهم بدخولها بدون عائق ، لانه بقي وقت قليل جدا حتى الحج ولأن اصابات بالمرض كانت في مكة ؛ في مرة اخرى ، اخذوا يموتون في طريق العودة ، ولم يسمحوا للحجاج بدخول المدينة الا للركوع امام القبر المقدس ؛ وبعد يوم انطلقت القافلة في اتجاه ينبع . كانت نسبة الاصابات بالمرض رهيبية .

لم يستطع ان يتذكر السنوات جيدا . وهناك واقع غريب آخر من ميدان آخر . هنا يوجد كثيرون من الخصيان المنفيين من قصر السلطان والعائشين هنا بمعاش يكون احيانا ، كما يقولون ، كبيرا جدا ، مثلا ، ٣٠ ليرة . وتبين ان كثيرين منهم يتزوجون ؛ وظننت انهم يفعلون ذلك لاجل الخدمات البيئية فقط . ولكن كلا ، فلهذا الغرض توجد عبيدات ؛ اما الزوجات فلا يفعلن شيئا غير ارتداء وتغيير الملابس الفاخرة . ولم يحدث مرة ، كما يقولون ، ان تدمرت امرأة تزوجت من مخصى من مصيرها ورغبت في الطلاق .

النساء ، كما سبق ان قلت ، يتمتعن هنا بقدر من الحرية اكبر بكثير مما عندنا ، نحن التتر ؛ وهن يشتركن في الصلاة في الجوامع ، ويتاجرن بحرية ، ويقمن بامور اخرى ، وينتظرن من زيارة الى زيارة ، وغير ذلك . النقل الاول للضيقة القادمة هو النارجيلة التي يدخنها الجميع بلا استثناء ثم فنجان القهوة .

تحدثت مع عز الدين افندي عن مهاجرين المحليين . يستفاد من اقواله ان الذنب الرئيسي الذي اقترفه اتباع عبد الستار انما هو استملاك اموال المواطنين الذين يموتون هنا واهمال مشيئتهم الاخيرة . الاموال اما لا يعرضونها البتة على السلطات التركية ، واما لا يعرضون غير قسم منها يطلبونه بالحاح من الورثة في صالحهم ؛ والوصايا لا تنفذ ؛ وقد روى حارث ان تلميذا قرغيزيا قد اوصى قبل وفاته بما يملكه [. . .] * في صالح رفاقه الشكيرديين ولكن هؤلاء ، وكان بينهم آنذاك حارث ، لم يحصلوا على شيء . وبالروح نفسه يحكي كثيرون جدا عن مسلك عبد الستار وناظره ، فلا بد من التصديق سواء شاء المرء ام ابى . ولكن هذا الرجل يحظى بمكانة كبيرة

عندنا في روسيا . في السنة الاخيرة خاف ان يذهب بنفسه لجمع النقود فارسل حسين الملا وعبد الرحمن الشيخ وصدّيق الناظر .

٢١ ايار (مايو) . يوم الخميس . اليوم ، مات عدد كبير جدا من الناس . المدينة المنورة منفصلة لموت المدرّس المعروف عبد الندير الذي توفي فجأة ؛ ومات قرغيزى بارز من مقاطعة سيميپالاتينسك ، كان نائبا في حفلة التتويج ، ومزيّنا بالالوسمة ، ورجلا محترما وقاضلا . مرضى في مكة ، نقلوه الى هنا مريضا ؛ في الطريق التي استغرقت ١٦ يوما لم ياكل شيئا ؛ واخيرا توفي هنا . ومن عداد الذين مرضوا في مكة ، توفي في الطريق قرغيزيان وتترى من قازان . كذلك دفنوا اربعة جنود .

هنا تقع العين على كثرة كثيرة من البنادق التي تشحن من مؤخرة السبطانة ، ومزلاجها يشبه مزلاج بنادقنا القصيرة من طراز بردان رقم ٢ ؛ وهي من العيار نفسه تقريبا . يقولون ان الجيش اليوناني كان مسلحا بهذه البنادق .

جميع البدو مسلحون حصرا باسلحة قديمة ؛ اما سكان المدن فعندهم اسلحة كثيرة من انظمة محسنة ؛ وهذه الاسلحة يستعملونها احيانا لاجل اجراءات القمع . يروون ان عبدة قتلت سيدتها منذ عشر سنوات تقريبا . فحكمت المحكمة التركية عليها بالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة ؛ ولكن السكان طالبوا شاهري السلاح باعدامها ؛ وكاد يحدث اصطدام بين العساكر والسكان ؛ واضطرت السلطات الى التنازل ، واعدموا المجرمة علنا ، امام الملا .

٢١ ايار (مايو) . اليوم تدور جميع الاحاديث حول الرحيل ، ولكن القوافل لا ترتحل بعد ، بانتظار الاخبار من ينبع : ايسمح البدو للقوافل بالعبور ام يمنعونها عند عبور مضائق الجديدة ؟ لتأمين الحجاج نوعا ما ، تأخذ السلطات التركية من كل قبيلة رهائن وتحفظ بهم في السجن حتى لحظة معينة . اليوم ، في الصباح الباكر ، جاءت من مكة قافلة الماليزيين الذين يملأون الآن كل المدينة المقدسة غير الكبيرة والحرم الشريف . يتحدث مهاجرونا كثيرا عن انعام الحكومة التركية على رئيسهم عبد الستار بمدالية لقاء تبرعه بعشرين ليرة في صالح الحكومة لمناسبة الحرب ضد اليونان .

اليوم قمت بصلاة الجمعة ٣ مرات [. . . .] *** .

مساء كنا عند تاجر محل من مواطنينا ؛ رأيت هناك صدّيق ، ولى امر مدرسة قازان الدينية ؛ انه يشغل احد بيوت الاوقاف ؛ في الايام الاخيرة كنت في جامع قازاني . انهم يقلدون العرب في التجويد .

خادمى ورفيقى حارث مريض منذ البارحة ؛ يبدو انه مصاب بالحمى .
حرارته عالية جدا . يهذى . نعالجه بالكينا .
اليوم ارتحلت الى مكة قافلة الهنود .

ما من امة من الامم تعرض باجتهاد علائم الشعور الدينى مثل الفرس ؛
فهم ينوحون ، وينحبون ، ويبكون ، ويبوسون عتبات الباب ، ومقابض
البوابة ، وغير ذلك .

بفارغ الصبر ينتظر الجميع البريد من مكة ؛ وكان لا بد ان يصل يوم
الاربعاء ولكنه لم يصل بعد . جميع رفاق الطريق ينتظرون جوابا من قنصلنا
عن رسالتى بصدد الحجر الصحى الذى يخافونه خوفهم من النار ؛ فهو شر
لا يبرره بالفعل اى مبرر ، وشر لا لزوم له ، ومزعج الى اقصى حد ، ولا
يعود باى نفع .

٢٢ ايار (مايو) . يوم الجمعة . شىء ما عن تجارة المدينة المنورة .
الضواحي لا تنتج شيئا تقريبا . كل شىء مستجلب .

القمح والشعير يستجلبونهما من جهة بغداد ومن مصر عبر ينبع ، والرز
من البصرة والهند ومصر ، ومن [. . .] ، عبر ينبع ، البضائع
المستعمرية والصناعية ؛ والبقالة عبر ينبع . الخضراوات وبعض الاشياء
الاخري تنبت فى الضواحي . البن والملح يستجلبونهما من اليمن . المادة
الوحيدة للبيع هى البلح الذى يشتريه الحجاج ويرسلونه هدية من هنا الى
مختلف الافراد فى روسيا والقسطنطينية . وهنا يوجد ١٣ نوعا من البلح
وافضلها الجلابى . يجب اعتبار كمية البلح المباع زهاء ٥٠ الف بود . السمنة
من حليب الابقار يستجلبونها من جهة البصرة . لحم الغنم يستجلبونه من
مخيمات البدو الرحل المجاورة . الكاز اميركى ومن باكو . يحدث ان تقطع
القبائل البدوية العاصية الطريق الى ينبع ، فيصبح الوضع فى المدينة
المنورة صعبا ، وترتفع كل الاسعار كثيرا . ويشرف المحاسب مباشرة على
البازار وعلى النظام فى ساحة البازار ؛ وتحت تصرفه دورية عسكرية .
الخرداوات يشتريها تجار الجملة فى القسطنطينية . التجارة المحلية تشتد
مع وصول الحجاج وتهدأ بعد رحيلهم .

٢٣ ايار (مايو) . يوم السبت . اليوم افادنا ادلتنا ان رحيلنا الى ينبع
غدا ، او بعد غد على الاكثر . استقبل جميع الحجاج الخبر بفرح كبير لأن
الحياة هنا بالنسبة للكثيرين ممن اعتادوا على الرعب والسعة مرهقة غاية
الارهاق . ادوا جميع الطقوس والمراسم ، فليقبلها الله ؛ والآن آن اوان
العودة .

٢٤ ايار (مايو) - يوم الاحد . ارجى رحيلنا الى اجل غير مسمى ؛ تروج اشاعات مقلقة جدا .

في الحديث مع مختلف الافراد من غير العرب عن العرب ، عرفت بضع سمات طريفة من طبعهم . كل قادم يقدمون له القهوة في الحال ؛ والامتناع عن شرب هذه القهوة ، رفضها ، يعتبر اهانة مؤلمة خطيرة قد تعطي ذريعة لعداء لا نهاية لها . مثلا . يأتى الوسطاء الشيوخ الى محلى قبيلة ما ، ويطلبون اما تمرير القافلة واما اعادة الاموال المنهوبة ، وما الى ذلك ؛ يقدمون للقادمين القهوة ؛ هؤلاء لا يشربونها كأنما لم يروها ؛ القهوة تبرد ، ويستعضون عنها مرارا بقهوة جديدة ، ساخنة ؛ الضيوف لا يشربون ؛ اخيرا يطلب المضيفون تذوق قهوتهم ؛ الضيوف يرفضون بحجة عدم تلبية مطلبهم ؛ عادة تنتهى المشكلة حيبا ؛ وفي النهاية يشربون القهوة ، عربون المصالحة . اثناء السفر ، لاحظت كيف يهين البدو القهوة لانفسهم . البن المحمص يطحنونه في هاون زمنا طويلا جدا ؛ ولا يدقون كيفما اتفق ، بل بايقاع وانقطاعات مختلفة ؛ ثم يسكبون الماء الغالى على البن ، ويضعونه على النار ، ولكن لا يدعونه يغلي من جديد . وحين تصبح القهوة جاهزة ، يبدأ تقديمها لجميع الحاضرين بلا استثناء . القهوة يشربونها ساخنة جدا ؛ ولهذا لا يسكبون في الفنجان اكثر من جرعتين او ثلاث . القهوة من تحضير البدو مشروب ثقيل ومر جدا يستحيل شربه بدون الاعتياد عليه .

٢٥ ايار (مايو) . يوم الاثنين . في الحديث مع ثابت ، سمعت منه قصة طريفة عن سفره للسنة الثالثة من ينبع الى جدة . بما ان موعد سفر الباخرة لم يكن متوقعا عما قريب ، فقد سافر مع قرابة ٧٠ شخصا على متن زورق شراعى . (الزورق من هذا الطراز يسمونه «سمبك» ، وهو بلا متن وله شارع واحد . حمولته زهاء ٣٠٠٠ بود ، ويأخذ كذلك ركابا باجر قدره بورون واحد (الريال=٨٨ كوبيكا) بين المدينتين المذكورتين . تنطلق الزوارق بمحاذاة الشاطئ ، وترسو ليلا على البر) .

قرب رابغ اصطدم الزورق بصخرة تحت الماء وجنح كثيرا . رأى البدو من الشاطئ سوء احوال السميك ، فاقربوا باعداد كبيرة على زوارقهم الصغيرة ، ولكن شرعوا يساومون غير مستعجلين للاتقاذ . طفق احد الركاب ، وهو شينخ جليل ، مصرى ، يحاول اقناع الرجل بنقلهم الى الشاطئ معلنا ان كل ما معهم يصبح ملكا لهم ، شرط ان ينقذوا حياتهم . وافق البدو على نقلهم جميعا ، لا الى الشاطئ حيث كانوا يخافون من ان يسلبهم ابناء قبيلتهم ، بل الى جزيرة صغيرة ، وتركوهم فيها وعكفوا على

ان يستخرجوا لانفسهم من الماء اكياس القمح التى كانت فى الزورق الذى غرق فور اقلاعه . دام هذا العمل طوال الليل كله . واخيرا جاء البدو فى الصباح الى الجزيرة حيث الركاب المنقذين . وهنا من جديد ، اصغوا الى وعود المصرى المذكور ووافقوا على نقلهم جميعا الى جدة باجر قدره مجيدية واحدة عن كل شخص . اركبهم ، كل ٣ او ٤ ، فى زوارقهم الصغيرة ، واوصلوهم بسرعة الى المقصد ؛ واستبقوا لانفسهم جميع امتعة الركاب . يخيل الى ان البدو هم فى المقام الاول متوحشون ذوو ميول بربرية لا شك فيها ، وذوو مفاهيم فريدة بصدد حقوق الملكية ولكنهم يملكون قدرا معينا من حضور الضمير والوجدان ، ويتأثرون بالمنزل الطيب . وهم على العموم متوحشون تعوزهم التربية .

٢٦ ايار (مايو) . يوم الثلاثاء . تقرر ان تاتى القافلة اليوم مساء وتبيت الليل قرب البوابة الانبارية للمدينة . فكرت فيما اذا كنت اسافر الآن مع هذه القافلة الاخيرة ام ابقى ، وقررت ان اسافر . البقاء ، حين يكون الحج قد انتهى ، قلما يتسم بالاهمية والطرافة ؛ واذا بقيت ، تعين على ان ابقى حتى كانون الاول (ديسمبر) او كانون الثانى (يناير) ، لأنه لم يكن متوقعا وصول قافلة اخرى ، ولأنه لم يكن من الممكن ان تتسنى لى زيارة المراكز الهامة التى تمر بها حركة الحجاج . اذن ، لنذهب ، وان يكن يخوفونى كثيرا بالسفر الى ينبع اذ يقولون ان البدو لا يمررون . امرت حارث بالاستعداد للرحيل . وعلى كل حال قررت ان آخذ معى ، كمرافق ومدبر فى الطريق ، دليلنا اللطيف ابراهيم ، رغم ان هذا سيكون مبلغا من النقود لا يستهان به . اراد ابراهيم ان يأخذ معه ابنه عبد الملك الذى يحظى بعطف الجميع لاستعداده لتقديم الخدمات ومرحه المتواصل . استعداداتنا تتألف من شراء زوج من الشقاف وسجادة لاجل التغطية من فوق ، والمؤن . وعد فخر الاسلام باعداد الشقاف اى بتغطيتها بالقماش ، وما الى ذلك . الشقاف والجمال لا يجيزون ادخالها الى المدينة ، من جراء الضيق ، ولذا كانت نقطة الانطلاق ضاحية المناخ .

بعد الغداء زارنا كثيرون من مواطنينا بحجة تمنى السفر الميمون ؛ ولكن الهدف الحقيقى كان الحصول على شىء ما ؛ القسم الباقي منهم رافقنا للهدف نفسه الى المناخ . فكان لا بد من توزيع قدر لا يستهان به من النقود . واخيرا ، حوالى الساعة ٥ مساء ، دفعنا للدليل عمر اتمابه ، وحملنا الامتعة على [. .] ، وغادرونا البيت المضيف والادلة ، واتجهنا الى المناخ . كانت الشقاف معدة ببالح الاجتهاد . طرح فخر الاسلام فى اعلى سجادة ، كما خاط

جيويا واعشاشا لاجل جرار الماء . وحين انتهى التحميل ، اتجهت الجمال الى البوابة الانبارية ، ورحنا وراءها برفقة جمع غفير من مواطنينا . خروج الجمال يجرى باذن خطى من العامل .

ما ان خرجنا من المدينة حتى توقفنا لمبيت الليل ؛ والى هنا توافدت تدريجيا جميع القوافل .

٢٧ ايار (مايو) . يوم الاربعاء . اليوم ، فى الساعة الخامسة والنصف صباحا انطلقنا فى اتجاه ينبع . قافلنا تتألف من قسمين برئاسة مقومين . مقومنا محيسن المشهور . القسم الثالث المؤلف من الحجاج الفرس لا ينطلق اليوم ، لأن مفاوضاتهم لم تنته بعد بصدد دفع فدية للبدو ؛ القافلستان الاوليان تتألفان بمعظمهما من المصريين والمغاربة والسوريين والأتراك ومسلمينا . الاقسام الثلاثة جميعها تتألف من ١٥٠٠ جل تقريبا يحمل ثلثها الشقائف . للمرة الاولى تعين على تسلق هذه الاداة البدائية لاجل الركوب . ركبنا انا وحارث ، وانطلقت قافلنا تدريجيا فى خطوط .

كان الوداع مع عمر وديا للغاية . فى الصباح تسنى لرشيد القاضى ايضا ان يأتى لتوديعنا ؛ انه يفكر فى الذهاب الى جدة بعد عيد المولد النبوى . يرى حارث ان مشية جملنا ناعمة ، رغم انه كان لى رأى مغاير تماما . وبما انه توجد قرب المدينة المنورة كثرة من المرتفعات والمنحدرات ، فانه يتعين ، لاجل الاحتفاظ بالتوازن ، التحرك تارة الى الامام وطورا الى الخلف . وفى آخر الامر ، كنت استوى بنحو او آخر ؛ وواقع انه اصبح من الممكن التمدد كان بعد ذاته فرجا كبيرا .

كان حدة جمالنا من البدو ؛ رشيد ، وهو اكثرهم همة ، واوفرهم نشاطا ومبادرة ، يتكلم قليلا بالتركية ؛ ابراهيم ، او كما يسمونه ابراهيم ، يمشى دائما برأس مكشوف ؛ انه شخص متوان ، وكائن حقير جدا ؛ واخيرا ، الزنجى سعيد ، العبد السابق لمحيسن الذى اعتقه ، وزوجه ؛ وتبناه ؛ وسعيد قصير القامة ولكنه قوى البنية ؛ وهو يسوق مفرزتنا . ان الاحتفاظ على الدوام بالتوازن فى الشقائف ، وخاصة اذا كان احد الراكبين اقل من الآخر ، امر صعب جدا ؛ ودائما كنت اسبح ، وبخاصة فى البداية ، صيحة البدو «حاجى متاعك» او «قدام» او «وراء» . بفضل الشقائف الجيد والوزن الواحد مع حارث ، لم يتسن لى ان اسبح هذه التعليقات .

على بعد نحو ٦ فرسعات من المدينة المنورة ، تدخل الطريق فى مضيق عريض ذى جانبين منحدرين تدريجيا ، نهضى فيه حتى الحمرا . والطريق على طول امتداده هذا ملائم لاجل التحرك ، متساو ومنبسط تماما ، وذو تربة

وملية صلبة ، وكمية كافية من الماء والوقود . ففى هذا اليوم سرنا فى اوج
الفيظ حتى ساعة متأخرة من المساء ، ٨١/٧ ساعات ، وبالأجمال سرنا ١٤
ساعة ، وتوقفنا لمبيت الليل عند بئر درويش ، بينما سبقنا القسم الامامى
من القافلة شوطا وتوقف عند بئر الشهداء .
فى الليل ، دفنا شيخا من مواطنينا ! كان مريضا فى المدينة المنورة ،
ومريضا سافر . وعند الرحيل طلب عمر بالحاح من الشيخ ان يبقى قائلا له
انه لن يتحمل مشقة الطريق ، ولكن المسكين كان يريد العودة الى الوطن
بأسرع وقت ، فلم يبق ، ومات فى الشقذف بعد الرحيل بساعتين ؛ كذلك
ماتت امرأة من المغاربة . فى القسم الامامى كانت ايضا بضع وفيات .
٢٨ ايار (مايو) . يوم الخميس . اليوم قطعنا مرحلة غير كبيرة من
الساعة ١١١/٧ صباحا الى الساعة ٧١/٧ مساء ، بانتظار القافلة الفارسية لأن
الطريق لاحقا محفوف بمخاطر كبيرة ؛ ومقومونا لا يتجرؤون على السير
وحدهم .

مكان قضاء الليل عند بئر اخرى . من الصعب ان يتصور المرء مبلغ
صعوبة الانطلاق والسير فى اوج الفيظ ! فى الليلة السابقة قتلوا فى القسم
الامامى ، بهدف السلب ، حاجين اثنين تخلفا لقضاء حاجة . لا تزال نسير
فى اراضى قبيلة مقومينا ، ولهذا لا نخشى الهجوم السافر .
قدم ابراهيم وابنه عبد الملك خدمات تفوق التقدير ، اذ يتخذان جميع
التدابير لضمان سلامة سفرنا ناهيك عن شتى الاجراءات الاقتصادية . وبنا
اننا نصل فى الليل الى مكان المبيت ، فلا يسمحان لنا بالنزول قبل ائارة
المحلة بالمشاعل اذ ان حوادث التل والنهب تقع على الاغلب فى هذا الهرج
والمرج ؛ واذا راح شخص ما الى قضاء حاجته ، فان الاب او الابن يراقبانه من
المرتفع الاقرب . وعنهما احفظ اطيب الذكريات .

ملاحظات

١ - المادة المنشورة للمرة الأولى ترد في المجموعة رقم ٧٠ (الملف رقم ١ في أرشيف المستشرقين بفرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي ، «يوميات» ١ . دولتشين - وهو عبارة عن دفتريين (٢١٠×١٧٠) لكل منهما غلاف اسود من الجلد الاصطناعي . قسم من الصفحات في الدفتريين مقصوص من الكعب . على الغلافين اوراق ملصوقة مكتوبة عليها كلمات من قواميس باللغات الاجنبية . النص مكتوب بالحبر الاسود ، ما عدا الصفحات الاخيرة حيث استعمل الحبر الازرق . في الدفتر رقم واحد ، يشغل النص الصفحة كلها ؛ في الدفتر رقم ٢ يشكل ٦٠ ميليمترا مربعا الهوامش التي اشير فيها الى تواريخ الكتابة . وهذا ما يفسر اختلاف كبر النص المطبوع بكل صفحة في القسمين الاول والثاني من «اليوميات» .

ان صعوبة نشر هذه المواد تتلخص في كون دولتشين قد كتب اليوميات انطلاقا من انه سيكون قارئها الوحيد . النص مكتوب بخط سريع ، ويتضمن تاخيصات ، ومختصرات من اختراعه بالذات ، لا يمكن تفسيرها في بعض الاحوال ، مثلها مثل بعض الكلمات . في بعض المقاطع ، ترك المؤلف في النص فراغات كان يخطط املاؤها بعد الحصول على معلومات اضافية او بعد التحقق من صحة المعلومات المتوفرة ، الامر الذي يتعلق في المقام الاول بالاسماء الجغرافية . وحين تستحيل قراءة كلمة بمفردها بعد هلالين مربعين مع عدة نقاط وضعنا العلامة * ؛ واذا استحالت قراءة بضع كلمات وضعنا العلامة ** ؛ واخيرا اذا ورد في النص فراغ ، وضعنا العلامة *** .

٢ - بتروفسك بورت - مدينة (١٨٥٧-١٩٢٢) . مرفأ على بحر قزوين . حاليا - محج قلعة ، عاصمة جمهورية داغستان .

٣ - ٢٠ ت . ب . - اللواء التركستاني (الكتيبة التركستانية ؟) .

- ٤- غ . م . - مختصر غير مفهوم .
- ٥- ساخاروف ف . ف . (من مواليد عام ١٨٤٨) - منذ سنة ١٨٩٨ رئيس الاركان العامة .
- ٦- كوروباتكين ا . ن . (١٨٤٨-١٩٢٥) . فى سنوات ١٨٩٠-١٨٩٧ - رئيس مقاطعة قزوين . منذ سنة ١٨٩٨ وزير الحربية .
- ٧- دفينسك - مدينة على نهر داوغافا . اُسْمِيت بهذا الاسم من سنة ١٨٩٣ الى سنة ١٩١٧ . حاليا ، داوغافيلس (جمهورية لاتفيا) .
- ٨ - دينابورغ - قلعة فى دفينسك (داوغافيلس) ، من نقاط الاستحكام على الحدود الغربية لروسيا .
- ٩- فيلنو - حتى سنة ١٩٣٩ اسم مدينة فيلنوس . حاليا عاصمة جمهورية ليتوانيا .
- ١٠- بيسارابيا - منطقة تاريخية بين نهري الدنيستر وبروت .
- ١١- شركة الملاحة والتجارة فى روسيا .
- ١٢ - نيجنى نوفغورود (من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٩٠ مدينة غوركي) - مدينة عند انصباب نهر اوكا فى نهر الفولغا . حاليا مركز مقاطعة نيجنى نوفغورود فى جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية .
- ١٣- كتابة غير مفهومة . فى التقرير على ص ١٢٠ ، اشير الى باداخشان .
- ١٤ - المقصود هنا انتفاضة كريت (١٨٩٦-١٨٩٧) تحت شعار «الانضمام الى اليونان» . ادت الى نشوب الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ . اسفرت هذه الحرب عن حصول كريت على الحكم الذاتى الادارى فى ظل سيادة السلطان (سنة ١٨٩٨) .
- ١٥- هنا فى المخطوطة رسم كاسين من الحديد الصب وعارضة .
- ١٦ - نهاية الدفتر الاول . نواصل ترفيم الصفحات . فى الدفتر الثانى ، ترقيم جديد للصفحات .
- ١٧ - هنا رسم غير كبير فى المخطوطة .

١٨ - الاسماء المهملة عند دولتشين ترد هنا حسب النص المطبوع «للتقرير» .

١٩ - فى المخطوطة فراغ جرى املؤه بموجب النص المطبوع «للتقرير» .

٢٠ - فى المخطوطة فراغ جرى املؤه بموجب النص المطبوع «للتقرير» .

٢١ - فى المخطوطة فراغ جرى املؤه بموجب النص المطبوع «للتقرير» .

٢٢ - السرت . القسم المتحضر من الاوزبكيين من قديم الزمان . قبل

سنة ١٩١٧ ، كان القسم المترجل على الاغلب من الاوزبكيين والكازاخيين يضيف الاسم العرقى «السرت» الى الاوزبكيين المتحضرين واحيانا الى الطاجيكيين من سكان السهول . فى عدد من الانحاء (طشقند ، فرغانة ، خوارزم) - التسمية الذاتية للاوزبكيين المتحضرين .

٢٣ - هذه المسألة كانت موضع نقاش واسع فى الصحافة الاسلامية فى روسيا ، وبخاصة قبل الحرب العالمية الاولى وفى بدايتها . راجع س . ت . الكين . «رسالة الى جريدة «كازانسكى تلغراف» بتاريخ ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ ، العدد ٦٤١٧ ، ص ٢ ؛ اصحاب الغاموكى . مقالة فى جريدة «فى عالم الاسلام» ، بتروغراد ، ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١١ ، العدد ٢٩ ، ص ٢ ؛ نداء مفتى اورنبورغ الى المسلمين - جريدة «كوياش» ، قازان ، ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ ، العدد ٥٤١ ، ص ١ .

٢٤ - من جهة ، البحر ، من جهة اخرى ، الخنزير .

٢٥ - شميل (١٧٩٩-١٨٧١) - الامام الثالث لداغستان وشاشان (١٨٣٤-١٨٥٩) . قائد النضال التحريرى الذى خاضه جيليو القفقاس ضد المستعمرين القيصريين تحت شعارات «المريديّة» . فى ٢٦ آب (اغسطس) ١٨٥٩ اسرته العساكر الروسية . توفى فى المدينة المنورة فى طريقه الى مكة المكرمة .

سرى

تقرير
النقيب دولتشين
عن المأمورية الى الحجاز

(سانت بطرسبورغ . المطبعة العسكرية (فى مبنى الاركان العامة)

سنة ١٨٩٩

الفصل الاول

معلومات تمهيدية موجزة عن الحجاز

الحدود

الحجاز الذى تتجه اليه حركة حجاج المسلمين انما هو جزء من الجزيرة العربية يمتد شريطا ضيقا بمحاذاة ساحل البحر الاحمر ويبلغ طوله زهاء ١٥٠٠ فرستا ، ويتراوح عرضه بين ١٥٠ فرستا و ٣٠٠ فرستا . الحجاز تحده فى الشمال فلسطين ، وفى الشرق نجد ، وفى الجنوب اليمن وفى الغرب البحر الاحمر . واسم «الحجاز» من فعل «حجز» ، أطلق ، حسب تفسير العرب ، نظرا لوجود هذه المنطقة بين نجد والبحر الاحمر . وبالنسبة لنا لا يتسم باهمية غير القسم الجنوبي (١/٣) من الحجاز حيث تقع مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة المقدستان بنظر المسلمين وحيث فى زمن الحج تبلغ حركة الحجاج اوجها .

طوبوغرافية السطح

الحجاز بلد جبلى جدا . سلاسل الجبال المؤلفة من كتل حجرية عارية ، وغير العالية نسبيا (١٠٠٠-٣٠٠٠ قدم) ، تمتد بدوابة ساحل البحر ، متشعبة بكثرة من الذيول الجبلية الفرعية ، النازلة الى الغرب نحو البحر والى الشرق نحو سهل نجد . واحيانا ، تتواجد بين الجبال ، وبخاصة على مقربة من البحر ، صخور مميزة حادة الاطراف . والى الشرق من مكة ، تبلى سلسلة الجبال المسماة هناك «السراة» ارتفاعها الاعلى ، - زهاء ٦٥٠٠ قدم فى جبل القرى .

والجبال تتقطعها فجاج رملية خالية من الماء يسدهون الواحد منها هنا «وادي» ، واهمها تتجه نحو البحر . وفى قاع هذه الفجاج فقط توجد ينابيع .

الماء النادرة في الحجاز . فليس البتة في الحجاز لا نهر ولا حتى نهير . وماء
الينابيع الذي يسيل هنا وهناك في قاع الوادي ينفقونسه في الحال لرى
البساتين ومباقل الخضراوات . والسكان الرحل يستعملون في المعتاد الآبار
والصهاريج التي تمتلئ* بالماء السائل من الجبال اثناء الامطار الغزيرة .
واغنى الفجاج بالماء ومظاهر السيول * هي وادي فاطمة ، وادي
الليثون ، السيل الكبير قرب مكة ، وادي الصفراء غربى المدينة المنورة .
ان منظر الحجاز هو على العموم واحد - كثيب وصارم ومرهق بقحله
وانعدام الحياة فيه ؛ ففي كل مكان تلال حجرية ، عارية ، خالية من اى
نبات ، وصخور متراكمة بوثوق وبلا نظام ، مكسوة دائما بعتمة رمادية ما ،
واودية ضيقة ذات جوانب معلقة تقريبا ؛ اما الخلفية العامة للوحة ، فرمل
اصفر في كل مكان يشكل قاع الفجاج ويملا الفجوات بين الصخور وغالبا
ما يبدو بصورة انهياالات قرب ذرى الجبال بالذات .
بين الجبال والبحر يمتد شريط ساحلى منخفض ، متساو ، عرضه ٥-١٠
فرسئات ، اسمه «تهامة» ، وتتشكل تربته من رمل بحرى مكثف جدا . ومن
جاء تسرب ماء البحر ، كانت مياه جميع الآبار في تهامة مالحة نوعا ما ؛
وسكان الساحل يستخدمون في المعتاد الصهاريج .

النباتات والحيوانات

الحجاز فقير جدا بالنباتات من جراء القبط الخارق وتقص الرطوبة . ومن
عداد النباتات الخشبية رأيت في جميع الفجاج شجرة شائكة جدا من نوع
الطلح (الاقاصيا) اسمها «الشوك» ، وتبلغ مقاييس كبيرة وتشكل الصنف
الوحيد من المحروقات . في اوائل نيسان (ابريل) ، في طريقى الى مكة ، كانت
هذه الشجرة لا تزال تحمل اوراقا ، ولكن في حزيران (يونيو) لم يبق على
الفصوص سوى قرون ناضجة قوسية الشكل . وهذه القرون تباع في البازارات
لاجل علف الجمال وغيرها من الدواشى ؛ والرحل يعلقون بها ايضا قطعانهم من
الماعز والغنم ؛ ولهذا الغرض يسقط الراعى القرون بعضى طويلة ، وسرعان
ما تتلقفها الماشية السائرة وراءه .

* كلمة «سيل» (سيول) - اسم محلى مستعمل ، مثلا ، في تركستان
ايضا للاشارة الى سيول ماء المطر العاصفة المتدفقة من الجبال . ملاحظة هيئة
التحرير .

وبصورة اندر تقع العين على اصناف اخرى من النباتات ومنها ام غيلان والسنط . واقرب الى البحر تقع العين على مجوعات كبيرة من نبات يشبه الايندرا كثيرا ، ولكن مقاييسه كبيرة ويسمى العُشْر .
 فى الشتاء ، حين تتساقط الامطار تظهر اعشاب ما يتسنى للبدو ان يخزنوا منها كمية ما من الهشيم .
 فى ضواحي مكة ينمو باعداد كبيرة السنا المكى ؛ واوراقه معروفة فى البيع باسم «الورق الاسكندري» .
 الحجاز الفقير بالنباتات فقير ايضا بالحيوانات . ومن عالم الحيوان ، رايت شخصا ، بالشكل البرى ، نوعا صغيرا من القروء ، والثعالب ، ورايت من الطيور الحمام والغراب ، والقناير الكبيرة والحدآن . يقولون انه توجد ايضا ذئاب وضباع وطيءاء ، ومن الطيور اللقلق والهدهد ، وغيرهما . حياة الحشرات لا تتكشف الا فى وقت ابرد من السنة : فى اوائل نيسان (ابريل) ، ليلا ، على نور المصباح ، تطير من كل حذب وصوب اعداد غير كبيرة من الفراشات والجمالان . فيما بعد لم ار اية حشرة . يؤكدون ان حتى البراغيث ذاتها تختفى فى الوقت الحار من السنة . ومما له دلالة انه يوجد فى بعض جبال الحجاز ، رغم هذه الطبيعة الشحيحة ، نوع محل من النحل الاصفر البرى الصغير جدا ؛ وعسل هذا النحل يقطفه البدو من الصخور ، ويظهر احيانا للبيع فى السوق فى مكة والمدينة المنورة .
 وفى الحجاز اصناف متنوعة وكثيرة جدا من الافاعي والعقارب والعناكب السامة . وبين هذه العناكب يوجد فى مضيق وادى فاطمة نوع يسمى «اللادغ» وتعتبر لدغته مميتة حتما .
 خلافا لليابسة ، يتميز البحر الاحمر بتنوع وغنى خارقين فى الحياة العضوية ؛ فعدا مختلف انواع الاسماك ذات الصفات غير الرفيعة جدا ، يعج بشتى النقايات وغيرها من العضويات الدنيا .

المناخ

مناخ الحجاز ، وبخاصة فى قسمه الجنوبى الواقع تحت خط الاستواء ، هو بلا ريب من احر المناخات فى الدنيا . الكتل الحجرية فى الجبال المتلاصقة بوثوق ، والتربة الرملية ، التى تتأجج بشدة تحت الشمس الاستوائية ، وغياب النباتات — كل هذا يجعل الحجاز احر من البلدان المجاورة ، ومنها اليمن ونجد . الحرارة على ساحل البحر ادنى نوعا ما ، ولكن التبخر الشديد

ورطوبة الجو الخارقة يخلقان هنا جوا منافيا جدا للصحة .
وبما ان زراعة بعض النباتات ، ومنها مثلا ، البطيخ والشمام ، تجري طوال السنة كلها ، ويحالفها النجاح حتى في احرّ اوقات السنة ، وبما ان الزهور تنمو حتى تحت الشمس المحرقة على سطوح البيوت ، فانه يخيّل الى ان مناخ الحجاز خارق الرطوبة في اقسامه الداخلية ايضا وانه من الصعب بالتالى على الناس غير المعتادين عليه احتماله .
تقلبات الحرارة ، بقدر ما استطعت ان اراقب ، ليست كبيرة في سياق اليوم الواحد .

في الطريق من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، في النصف الاول من ايار (مايو) ، اسفرت المراقبات عن نتائج متنوعة ، تبعا للمحلة ؛ وكانت الحرارة بالمعتدل في الخيمة ٣٥ درجة ريومور فوق الصفر كحد اقصى و٢٨ درجة فوق الصفر كحد ادنى .

وتسنى لى ان اراقب اعلى درجات الحرارة في اوائل تموز (يوليو) بين المدينة المنورة وينبع ، قرب بير السيّد ، حيث اثار ميزان الحرارة الى ٤٤ درجة ريومور فوق الصفر في الظل ؛ ولكن لم يتسن وضع ميزان الحرارة في الشمس نظرا لقلة طول مقياس الحرارة .
ان ما هو رهيب بخاصة على الانسان في الحجاز ليس الحرارة العالية ، بل الرياح الحارقة التي تهب في حزيران وتموز (يونيو ويوليو) في عموم الحجاز والتي تسمى هنا السام . وهذه الرياح ليس لها اتجاه معين . والرياح التي اضطرت الى معاناتها كانت تتجه من الجنوب الغربى ؛ وهى لا تتسم بطابع زوبعة ما ، ولكن وجودها يتبدى دائما بشعور مؤلم مرهق تحدثه في الجسم البشرى . وحين كانت تهب السام ، كانت نظاراتى تتأجج الى حد انه كان يتعين عليّ نزعه ؛ والماء النازل عن غير قصد على الجسم يثير في حال التبخر الما روماتزميا قويا .

يعرف البدو كيف يميزون السام الخالصة عن السام المختلطة مع رياح اخرى ، وكيف يميزون الريح الضارة جدا عن ريح اقل ضررا ، ويتنبأون ببداية الريح ؛ والاسم الرهيب «السام» لا يطلقونه على جميع الرياح الحارة التي تهب في الاوقات الحارة من السنة .

هذه الظاهرة ليست رهيبة على الغرباء وحدهم ؛ فان بدويينا سواقى الجمال قد عانوا هم ايضا من شعور القلق حين هبت السام ، ودسوا في مناخرهم وآذانهم النوم ، وتدثروا بكل عناية . والاسلوب الاخير ، اى التدثر من الرأس بالذات هو الوسيلة الوحيدة ، كما اقتنعت ، للتخفيف بعض الشيء

من العذاب حين تهب السام . ويروون حوادث فتكت فيها السام بعدد كبير من الناس ؛ وفي المرة الاخيرة ، في سنة ١٨٩٥ ، اخذ الحجاج في المدينة المنورة يعتزمون الذهاب الى مكة ، ونقلوا امتعتهم الى ضواحي المدينة ، واذا سأم تهب ؛ وبعد بضع ساعات ، لمّا عشت الدوتى فى الشارع . ويقول الاطباء ان نسبة الوفيات فى مكة والمدينة المنورة تزداد كثيرا حين تهب السام . ولكن العرب يعتقدون ان هذه الريح ضرورية لاجل نضج البلح .

وللحجاز فصلان فى السنة : الشتاء البارد نسبيا ، من منتصف تشرين الثانى (نوفمبر) الى منتصف شباط (فبراير) ، حين تتساقط الامطار بين الفينة والفينة ويظهر العشب هنا وهناك ، والصيف الحار الذى يحل ذورا محل الشتاء . ان الانتقال من البرد الى القىظ يكون حادا جدا فى المدينة المنورة حيث الحرارة الصيفية ادنى نوعا ما مما فى مكة ، نظرا لوقوعها ابعد الى الشمال وفى ارض عالية ، ولكن فى الشتاء ، كما يقولون ، يكون البرد احيانا قارصا جدا .

السكان (خارج المدن)

يتألف سكان الحجاز من مختلف قبائل البدو ، او كما يسمونهم هناك ، «الاعراب» (العرب الذين يعيشون فى المدن يسمونهم «بلدى») وهم ، حسب اسطورتهم ، اخلاف مباشرين لاسماعيل ، ابن ابراهيم . وبين البدو يوجد ايضا كثيرون من الزوج والاحباش الذين صاروا بينهم بوصفهم عبيدا . وهؤلاء يشكلون طبقة دنيا خاصة ولا يختلطون مع السكان الاصليين .

مجموع عدد السكان فى الحجاز يقدر بـ ٧٠٠-٨٠٠ الف نسمة (حسب المعلومات الرسمية التركية ٥ ملايين) . ينقسم البدو الى كثرة من القبائل التى يشرف على كل منها شيخها والتى تشغل كل منها منطقة معينة للترحل . وهناك قبائل غالبا جدا ما تتعاضد فيما بينها ، وتهاجم بعضها بعضا ، ولها حسابات دائمة بصدد الدم .

البدو الرحل يربون الماشية ، ويتعاطون الزراعة ايضا اذا سمحت الظروف . اثناء اشهر الحج الاربعة او الخمسة ، ينصرف كثيرون منهم بوجه الحصر الى نقل الحجاج وامتعتهم . وسكان السواحل ، بوصفهم بحارة ماهرين ، يمارسون النقل الساحلى على زوارقهم الشراعية التى لا متن لها ، والمسمى

الواحد منها «سمبك» ، كما يمارسون صيد السمك ، واستخراج المرجان والؤلؤ والصدف والمحار ، وما الى ذلك من قاع البحر .

والبدو الذين تسنى لى مراقبتهم ، متوسطو القامة ، نحيلون خارق النحول ، وقسمات وجوههم متناسقة ، ولون جلدهم يرونزى قاتم ، وقلما يختلف عن لون الحجارة التى يعيشون فى وسطها ؛ وارجلهم خالية تماما من بطات السيقان ؛ مشيتهم رشيقة اصيلة . ولكن اول ما يستلفت النظر عند رؤية البدو ، هو انهم اقوياء بدنيا ، وجلودون وليقون جدا .

البسة البدوى بسيطة جدا - قميص حتى الركبة ، واسعة الكمين ؛ على الرأس دائما منديل قطنى كبير مثبت بحزام خاص مسمى «عقال» ؛ وبهذا المنديل يغطى اذنيه ، وكذلك انفه فى غالب الاحيان . فوق القميص يلقى عباءة صوفية سوداء عريضة باشرطة بيضاء نادرة .

يحمل البدو دائما الاسلحة - فى اليدين بندقية شطف (بقداحة) او بندقية بفتيل او رمح ؛ على الكتف او على الظهر يتدلى سيف ذو حد واحد او سيف ذو حدين ؛ على حزام جلدى فرد وخنجر ، ولوازم معدنية مختلفة لحفظ البارود والرصاص .

ترتدى المرأة قميصا اسود طويلا ، ومنديلا على الرأس من اللون نفسه . وتغطى وجهها ادنى من خط العينين بقطعة من القماش الاسود . كل لباس الاولاد يتألف من حزام ذى هدب جلدى من نوع الهدب الذى يستعمله التركمان لحماية عيني الحصان من الذباب .

ومسكن البدو عبارة عن نموذج خفيف جدا من خيمة من نفس القماش الاسود الذى يخطون منه العباءة . مفروشات الخيام فقيرة جدا - الأنية المنزلية الضرورية ، رحل الجمل ، جلود غنم مدبوغة ومصبوغة لاجل المفرش ، قربة لاجل الماء . وكل شئ يدل على ان متطلبات هؤلاء الرحل اقل بكثير من متطلبات القرغيز ، مثلا ، او التركمان فى بلادنا . والخيام تكون منصوبة مجموعات صغيرة جدا .

المواد الغذائية الرئيسية هى منتجات تربية المواشى والبلح ، وعند عرب السواحل السمك . الغذاء الاكثر استعمالا اللين (الحليب الرائب) ؛ الطعام اللذيذ هو التمر مع السمينة ؛ يبدأ العرب اكل البلح عندما لا يزال اخضر تماما [. . .] «زحف» [؟] ؛ وحين يكتسب التمر لونا اصفر نوعا ما ، - «الرطب» - يظهر كذلك فى الاسواق لاجل البيع .

وحيث توجد مزروعات الذرة الصفراء والدخن ، يصنعون منهما ارغفة مثل الارغفة التركمانية . والقهوة المقدمة عند الاغنياء او عند حضور الضيوف

يعتبرها البدو مشروباً لذيذاً . واغلبية البدو تدخن التبغ ، ولهذا الغرض يستعملون غلايين طويلة الشبق .

والبدو ، بوصفهم رحلا ، يربون المواضع والاغنام والجمال .
المواضع يستعملونها على الاغلب لاجل الحليب ، وثمان الواحد منها بنقودنا زهاء روبلين . ويربون الاغنام لاجل الحليب واللحم ، وثمان الواحد منها بنقودنا زهاء ٤ روبلات . لحم الاغنام والمواضع المحلية جاسىٌ جدا وغير لذيذ . الجمال نوعان . نوع اثقل واقوى مستعمل لنقل الاثقال - «الابل» - ثمن الواحد منها بنقودنا زهاء ٦٠ روبلا ، وجمال خفيفة ، دقيقة القوائم ، صغيرة الرأس ، صوفها اكثر اشراقا - «الهاجان» ؛ وهى مستعملة حصرا لاجل الركوب ، وثمان الواحد منها زهاء ١٠٠ روبل . علاوة على الصفات المشتركة الملازمة للجمال يتميز هذا النوع وذاك بالوداعة الرائعة وغياب الرائحة الكريهة الملازمة لهذه المواشى . عدد الجمال عند البدو المترحلين بين مكة والمدينة المنورة يقدرُ تقريبا بـ ١٥٠٠٠ رأس .

وهم ، كزراع ، يزرعون فى موسم الامطار ، فى مرحلة الشتاء من السنة ، نوعا خاصا من الدخن ؛ ولهذا الغرض ينظفون من الحجارة رفعا غير كبيرة من الارض ويقيمون اسوارا سائدة لحفظ الماء ؛ وحيث يمكن الرى يزرعون على الاغلب البطيخ والذرة الصفراء - «الذرة» - والخضراوات (البصل ، البندورة ، والفول وما الى ذلك) ؛ وفى مثل هذه المحال ، يزرعون كذلك فى المعتاد البساتين المؤلفة بصورة رئيسية من اشجار النخيل ؛ وتقع العين ايضا على اشجار الليمون التى تعطى ثمارا حلوة صغيرة جدا ، وعلى شجيرات البلسان التى يصنعون من عصيرها صبغ الحنئ وشجيرة «الفلسك» التى تعطى بلسمًا قيما جدا بالنسبة للحجاج .

بدو الحجاز مسلمون سنيون جميعهم ، ولكن يوجد بين الرحل فى الطرف الشرقى وهآبيون وكذلك بعض المتشيعيين ، ومنهم ، مثلا ، الزيديون ، والاسماعيليون ؛ واكثر المذاهب السنية انتشارا هو المذهب الشافعى ، ثم الحنفى ؛ وكثيرون من البدو ينتمون الى مختلف مدارس النساك وبخاصة الى التيار «الرفاعى» .

لا يتميز العرب الرحل البتة بالتدين الشديد ؛ وهم يخلطون الدين بكثير من العادات والاساطير والاقوال المأثورة التى تتناقض تماما مع تعاليم الاسلام ونادرا ما تتوافق فيما بينها .

ان حب الحرية التى يتمتعون بها من سحيق الازمنة والجهل المطبق يحملان البدو على اعتبار انفسهم اسما من جميع الامم الاخرى ، وينظرون من

اعلى حتى الى اخوانهم المقيمين فى المدن تحت الحكم التركى . واعمال السلب والنهب والقتل ضد الغرباء ظاهرة عادية تماما ؛ وهم كل سنة يقتلون عشرات الحجاج لاجل النهب ؛ والحصول على الاموال بهذه الطريقة لا يعتبره احد امرا غير جائز . والكذب والقسم امر عادى تماما . ومن جهة اخرى تحظى الضيافة التقليدية باحترام مقدس ؛ ولحماية الضيف يضحى المضيف بنفسه دون تردد ؛ والسماح بنهب او بقتل الشخص الذى اخذه المضيف تحت حمايته عار لا يضاهيه عار ؛ الامر الذى تنتقم له القبيلة كلها .

يجرى ارسال مبالغ ضخمة من النقود فى الحجاز بواسطة البدو ، نظرا لعدم وجود دائرة حكومية معنية ؛ ويقولون ان هذه الارساليات لا تضيع ابدا ولا يستملكها البدو اطلاقا .

وعند البدو حكماؤهم واطباؤهم العرافون . وهم يلجأون اليهم فى حال العرض . واوسع الوسائل انتشارا القصد ، والمحاجم ، والكي بالحديد المسمى . وبعد الولادة على الفور ، تعمد القابلة الى شق ثلاثة شقوق بالسكين على صدغى الطفل وظهره وغير ذلك من اجزاء الجسم لتخاضى الامراض المقبلة ؛ وآثار هذه الشقوق تبقى طوال العمر كله ؛ وفى جميع الامراض تقريبا ، يلجأ العرب الى فصد الدم او يستعملون المحاجم لاستخراج الدم ؛ وهم يعتقدون ان هذا يخلص الانسان من الدوخان والضعف الناجمين عن الحرارة العالية ؛ وحتى الجمال لا تتجنب هذه العمليات المكررة دوريا . والكي ، بوصفه وسيلة للصرف عن الالم ، يجرى باسلوب بربرى تماما ، ويترك آثارا عميقة . فى احد المواقف اسرع من قرية مجاورة السى سواق جمالنا ولداه ؛ احدهما صبي فى نحو الخامسة من العمر ، كان جرح كبير فاغرا قرب عينه بالذات ؛ وقد اوضح الوالد ، جوابا عن سؤالى ، ان احدى عينى الصبي قد انفلقت ، وانه (اى الوالد) قام بعملية الكى بيده ، وان حالة ولده افضل الآن .

وعند البدو اساليب اصيلة جدا لمعالجة عواقب السأم ؛ فالمرضى يطعمونه السمنة ، ويدثرونه بشدة وكثافة ، وطوال نحو ساعتين لا يدعونه يشرب ؛ وفى حالات اشد ارهاقا ، يحفرون حفرة بقامة الانسان ، ويشعلون فيها موقدا ثم يجعلون الموقد يبرد نوعا ما ، ويضعون فيها المريض ويطمرونه تاركين رأسه فقط طليقا ، وييقونه فى هذه الحال اطول مدة ممكنة ، ثم يسحبونه ويدثرونه ويدهنون جسده بالسمنة ، ولا يدعونه يشرب طوال نحو ثلاث ساعات .

وعلى العموم يشكل نمط حياة البدو خليطا من عادات بربرية تماما وبعض

سمات الفروسية والنبيل . وهذا الشعب لا يزال بدائيا تماما ولم يتعرض البتة لتأثير الزمن .

صحيح ان كلا من القبائل تشغل ارضا معينة ، ولكن مناطق بعض القبائل لا تشكل رفعا واحدة متواصلة ، بل هي متوزعة في عموم الحجاز ؛ وبعض القبائل التي كانت تقطن من قبل في الحجاز استقرت في بلدان مجاورة . وفي الوقت الحاضر تقيم في الثلث الجنوبي من الحجاز القبائل التالية من البدو (راجع الجدول على ص ١١٨) .

التجارة والصناعة عند السكان الرحل

للتجارة والصناعة عند البدو ، سواء بسواء ، مقاييس تافهة للغاية وذات طابع محلي فقط . سكان السواحل يبيعون من التجار الكمية التافهة من اللؤلؤ والمرجان والصدف وعظم السلاحف وما الى ذلك ، التي يستخرجونها من البحر . واصحاب البساتين الواقعة على طرق الحج الكبيرة يتعاطون ببيع الحنّاء وبلسم «الفلسنك» والتمر من الحجاج . والتجارة الباقية كلها تتلخص في تزويد المدن بالمحروقات والخضراوات والمؤن وغير ذلك .

في الانحاء التي تتواجد فيها البساتين يجدلون ببالح التفنن من اوراق النخيل الحصائر والمراوح والحبال ؛ وحيث تربية المواشي اكثر تطورا ، يصنعون اقمشة صوفية سميكة لاجل المعاطف والخيام والاكياس ، ويحيكون رحالا كبيرة مزدانة بكثرة من الشراريب لاجل الهواجن . وهناك حرفيون حاذقون يصنعون الاسلحة وشتى الحل الفضية . ولجميع هذه الاشياء تصريف محلي حصرا .

الوضع السياسي في الحجاز

دخل الحجاز في قوام الامبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليم ، عام ١٥١٧ ؛ وفي اواخر القرن الماضي وفي اوائل القرن الحالي ، كان الوهابيون من نجد يملكون ويحكمون هذا القطر ؛ وهم اتباع محمد ابن عبد الوهاب الذي دعا في سنوات ١٧٤٠-١٧٥٠ في نجد الى مذهب جديد فسي الاسلام يرتكز على القرآن الكريم وحده . وفي سنة ١٧٩٩ احتل الوهابيون مكة ؛ وفي سنتي ١٨٠٣-١٨٠٤ استولوا على المدينة المنورة ولكن ابراهيم باشا المعروف طردهم وانزل بهم يضاع هزائم بين سنتي ١٨١٠ و ١٨٢٠ ؛ وفي سنة ١٨١٧ تسرب الى وسط نجد بالذات واستولى على عاصمتهم الدرعية .

اسم القبيلة	عدد الانفس	امكنة الترحل
بنى هاشم	٥٠ الفا	ضواحي مكة والمدينة المنورة وينبع النخلة وينبع البحر
عنزي	٣٥٠ الفا	القسم الاكبر على حدود فلسطين ؛ عشيرة تالوح بين مكة والمدينة المنورة
جهينة	٥٠ الفا	ضواحي ينبع النخلة وينبع البحر والى الشمال منهما على ساحل البحر
حشيم	الفان	ضواحي المدينة المنورة
نحاوله	١٢ الفا	ضواحي المدينة المنورة . بستانيون على الاغلب الى الغرب والجنوب من المدينة المنورة
حرب او بنى حرب	٧٠ الفا	ضواحي المدينة المنورة
مطير	٤٠ الفا	على الطريق الشرقى ، بين مكة والمدينة المنورة
بنى سليم	الفان	ضواحي الطائف
عتيبة	٢٠ الفا	فى جوار مكة . فيما مضى قبيلة جبارة منها
قريش	الفان	تحدث النبي محمد (صلعم) . من جراء الحروب المتواصلة فى القرون الاولى من الاسلام ، تشتتوا
هذيل	١٠ آلاف	جبل القرى
تقيف	٢٥ الفا	ضواحي الطائف
عدوان	الفان	جنوبى الطائف
ابى الحارث	٣ آلاف	شرقى الطائف
بنى لحيان	١٠ الف	بين مكة وجدة
بنى جحادله	١٠ آلاف	وادي الللم ، جنوبى لحيان
عوف	٥ آلاف	بين المدينة المنورة ورابغ*

* كتاب « جزيرة العرب » .

ان سلطة الحكومة العثمانية لم تتركز من قبل ولا تتركز في الوقت الحاضر الا على القوة المسلحة ، ولا تتبدى الا في النقاط التي ترابط فيها القوات المسلحة . وهذا يعنى ان الاتراك لا يملكون غير المدن وكذلك ، بنحو ما ، الطريق بين مكة وجدة ، التي تحميها مخافر متعددة ، ولكن سلطتهم في هذه النقاط ايضا لا تحظى بالمكانة اللازمة ، الامر الذي تبيّنه الاحداث التي وقعت مؤخرا ؛ فمنذ زهاء عشر سنوات قتلت عبدة في المدينة المنورة سيدتها ؛ وحكمت المحكمة التركية على القاتلة بالسجن ، ولكن سكان المدينة طالبوا باعدامها فورا ، مهددين بالهجوم المسلح اذا لم يلَب طلبهم . تراجعت السلطات ، وتم اعدام القاتلة على الفور . وفي سنة ١٨٩٥ جرى في مكة امام عيون السلطات هدم بناية يكرها السكان ومعدة للاستعمال كمحجر صحي .

في غضون اربعة قرون من امتلاك الحجاز لم يقم الاتراك اية صلات بينهم وبين السكان المحليين ولم يستطيعوا ان يهدوهم ولم يكن لهم عليهم اى تأثير ثقافى . والعلاقات بين الطرفين لا تزال علاقات عدا و عدم ثقة ؛ فان الاتراك يعتبرون البدو كلابا ؛ في حين ان البدو يعتبرون الاتراك كفارا غير مؤمنين . وجميع الاتراك الذين تسنى لى ان اتحدث معهم كانوا يضمرون خوفا وكرها خاصا حيال البدو ، وكانوا يحذروننى في كل حال من انه يجب التخوف جدا من هؤلاء البرابرة . وعندما رحلت الطواير العثمانية الرابطة في مكة الى اليمن ، قال الجنود بشماعة كبيرة انهم يذهبون لضرب العرب . كانت السلطات الادارية تتميز في اغلبية الاحوال باعمال الابتزاز والاضطهاد ؛ اما اعمال العساكر ، فقد كانت على الدوام فى منتهى الميوعة والتردد ، ولذا لا يكتن البدو حيالها ما يلزم من الخوف والاحترام . وبين حوادث السنة الجارية (١٨٩٨) ، يمكن التنويه بالهجوم فى شهر ايار (مايو) من قبل عدد غير كبير نسبيا من البدو على قسم من الرديف من ٨٠٠ فرد كان فى طريقه من المدينة المنورة الى ينبع ، وبالهجوم فى تموز (يوليو) على خفر قوى كان يرافق قافلة فى الطريق بين مكة والطائف ، علما بان ضابطين و١٦ جنديا لقوا مصرعهم . والاحداث من هذا النوع ، كما يقولون ، تحدث على الدوام ، ولا تثير دهشة احد ، ولا تستتبع اية تحقيقات وعقوبات . ولكن ، فى السنتين الاخيرتين ، كما يقول الجميع ، تفاقمت كثيرا اعمال النهب والسلب والاغتصاب من كل شاكلة وطراز ؛ ومرد ذلك ، كما يفسرون ، من جهة ، الوضع الاقتصادى الشاق الذى يعاينه الرحل من جراء انعدام المطر ، ومن جهة اخرى ، عدم دفع السلطات المحلية لبعض من اشد

القبائل اضطرابا وازعاجا الاعانات المالية المتفق عليها . ولتأمين سلامة حركة القوافل في ربوع الحجاز لجأت الحكومة التركية من قبل الى بسط الحماية المسلحة على الطرق الكبيرة في اخطر الانحاء والى مرافقة القوافل بخفر قوى . ولكن منذ سنة ١٨٦٤ لم يبق هذا الاجراء سارى المفعول الا فى طريق اشد انتعاشا ، هو طريق مكة - جدة ؛ وعلى العموم تم تطبيق نظام آخر عنيت به دفع اعانات مالية لبعض القبائل لكى تمرر القوافل بلا عائق فى اراضيها . فى عهد بعض من الحكام الاتراك هذا الحجاز نوعا ما وساده نظام نسبى ؛ وقد ترك عثمان باشا الذى حكم هذه الولاية من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٨٨٧ ذكرى طيبة خاصة . فان هذا الادارى المحترم قد ساق الماء الى جدة وبني خطوط الاتصال البرقى بين هذا المرفأ ومكة ، واشاع بعض النظام فى شوارع مكة ، واصلاح مجارىر الماء المتعطلة من زمان فى مكة ، وحسن الحالة الصحية فى منى ، وما الى ذلك . وفى عهده ، كما يروى سكان المدينة ، كان بوسع السكان ان يسافروا بجرأة بين مكة والمدينة المنورة على جملين او ثلاثة دون ان يتجرأ احد على مسهم . «كان البدوى على استعداد لذبح جملة الاخير فى حال وصول عثمان باشا» ، «كان والدنا» . هكذا يقول الرجل . ولكن هذا الرجل الذى كان يحترمه الجميع بالقدر نفسه والذى تميز بطبع صلب واستقامة رفيعة ، لم يتخذ اية تدابير قمعية لاجل بسط السكينة والهدوء بين البدو المشاغبيين ؛ فقد كان يكتفى بأن يدفع لهم بدون اية مداولة الاعانات المالية المتفق عليها ، وكان لا يتحيز لاي طرف ، وكان يلقي مسؤولية الأمن على شيوخ القبائل التى تشغل المنطقة المعنية .

الا ان عثمان باشا الذى برهن ان البدو ليسوا شعبا رهيبا كما كان الاتراك يصورونهم دائما ، لم يستطع ان يتعايش مع شريف مكة ؛ وبعد دسائس عديدة ، اقبل من منصبه .

التقسيم الادارى

كان الحجاز فى الازمنة الاولى من احتلاله من قبل الاتراك تابعا لمصر على الصعيد الادارى ، وكان حاكمه المسمى بك جدة ، يقيم فى جدة . منذ سنة ١٥٥٤ ، صار الحجاز تابعا لليمن ، وصار حاكمه يسمى البيلار- بك الحينى وبك جدة .

منذ سنة ١٦٥٥ بدأ الوالى الحبشى يحكم الحجاز من سواكن . فى السنة التالية انتقل مقر حاكم الحجاز من جديد الى جدة ، واخذ

يتسمى حيناً بوالى جدّة وحيناً آخر ببك جدّة ، وفى الوقت نفسه بشيخ الحرم اى انه صار يشرف ايضا على المسجد الكبير فى مكة حيث توجد الكعبة . منذ سنة ١٨٦٤ صارت مكة مركز الولاية الادارى الرئيسى ؛ وفى مكة يعيش حاكم هذا الاقليم ، والى الحجاز الذى هو ايضا شيخ الحرم * . وفى الوقت الحاضر ينقسم الحجاز على الصعيد الادارى الى ثلاثة سناجق - سنجق مكة الذى يديره والى ؛ سنجق جدّة الذى يديره القائمقام ؛ سنجق المدينة الذى يديره العامل .

على رأس ادارة الولاية ، يوجد الى جانب والى الذى يعينه السلطان العثماني ، الشريف الذى يخضع له جميع سكان الحجاز . فى السنة الاولى من التاريخ الاسلامى ، عين النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) لاجل ادارة مكة شخصا مميزا بلقب «الامير» . وكان الامراء يعيّنون ايضا فى زمن الخلفاء الراشدين ؛ ومنذ القرن الخامس الهجرى اخذوا يسمونهم بالشرفاء ؛ وهذه الوظيفة المتواجدة بلا انقطاع حتى الوقت الحاضر صارت امتيازا وراثيا لقبيلة قريش . وللشريف مقر فى مكة . وعادة كان من النادر ان يتعايش والى والشريف بسلام ووثام نظرا لتسابك وتشوش وظائفهما وصلحياتهما .

القوات المسلحة

تحتفظ الحكومة التركية لدعم سلطتها فى الحجاز بالاعداد التالية من القوات المسلحة :

طابوران من الجنود النظامية (فى الطابور ٨٠٠ فرد)	} فى مكة
٣ طوابير من الضبطية الخيالة (الدرك)	
١ طابور من الضبطية المشاة	
٣ طوابير من الجنود النظامية	} فى المدينة المنورة
١ طابور من الضبطية الخيالة	
١ طابور من الضبطية المشاة	
$\frac{1}{4}$ طابور من الجنود النظامية	فى الطائف
$\frac{1}{4}$ طابور من الجنود النظامية	فى جدة
$\frac{1}{4}$ طابور من الجنود النظامية	فى رابغ
$\frac{1}{4}$ طابور من الجنود النظامية	فى ينبع

* كتاب والحجاز .

وفضلا عن ذلك ، يرايط فى النقاط المذكورة اعلاه فوج من مدفعية القلاع وفوج من المدفعية الجبلية . وفى منى رأيت بطارية ميدانية من اربعة مدافع . وفى البحر الاحمر توجد ست بواخر حربية * .

القوات المسلحة المرابطة فى الحجاز تدخل فى قوام القليل السابح الذى تتواجد اركانه فى اليمن (مدينة صنعاء) .

ان مد الوحدات العسكرية المرابطة فى الحجاز بالرجال يجرى على الاغلب من الاناضول . ومدة الخدمة ، نظرا للظروف المناخية الخارقة المشقة ، سنتان فقط ، رغم ان التسريح الى الرديف (الاحتياطى) ، كما سمعت ، لا يجرى فى حينه ، ولذا يخدم كثيرون ثلاث سنوات .

سلك الضباط ، من الاتراك والاكراد على الاغلب ؛ ولم اتلاق الا مع ضابط واحد من مواليد الجزيرة العربية . وبين الضباط من الرتب الدنيا ، عدد كبير جدا من الشيوخ ترفوا من رتبة الجنود العاديين .

بندقية «مارتينى» تشكل سلاح الرجال . المدافع فى البطاريات الجبلية نحاسية ، وتحشى من الخزنة ، وفى بطاريات الميدان ، فولاذية ؛ وفى القلاع مدافع قديمة من شتى الانظمة والعيارات .

وقد اضيفت الى تجهيز الرجال مناديل قطنية بيضاء سمكية ، مساحتها ١١/٢ ارشين * * مربع يلقون بها الرأس فوق الطربوش فى القيط .

طعام الجنود ، كما سمعت ، مرضى ؛ واقول بالمناسبة انه تظهر فى بازارات مكة والمدينة المنورة اعداد كبيرة من ارغفة الجنود المخبوزة جيدا من طحين شبه ابيض ويشترىها الحجاج بطيبة خاطر .

اثناء اقامتى ، وزعت القوات المسلحة كما يلى : فى الرأس الاسود والبحرة ، حيث الطواير ترابط موقتا حتى نهاية حركة الحجاج ، فى خيام سيئة جدا ؛ فى مكة ، ترابط العساكر فى ثكنات فى قلعتين صغيرتين ؛ فى رابغ ترابط فى منشآت ضمن القلعة ؛ وفى المدينة المنورة ، ترابط فى ثكنات حسنة المنظر ولكنها قذرة جدا فى الداخل كما رووا لى ؛ واخيرا ، فى ينبع ، تعيش فى الخيام .

نسبة الامراض ونسبة الوفيات بين الجنود ، كما يقول الجميع ، كبيرتان جدا ؛ فان المناخ غير المألوف يمارس تأثيرا فتاكا . ورأيت فى مكة والمدينة المنورة وجدة (فى خارج المدينة) مستشفيات عسكرية لعلاج المرضى .

* كتاب والحجاز .

* * الارشين= ٧١ سنتمرا . المترجم .

وقد سمعت من السكان المحليين شكاوى من السرقات الصغيرة التى يقتربها الجنود من الدكاكين ومن المحال التجارية الاخرى . وقد فسّر السكان ذلك قائلين : «لا يعطونهم ما ينبغي ولذا يسرقون» .

والجنود لا يتحلون ابدا بهيئة عسكرية جيدة ، الامر الذى يفسره ضباطهم الذين تسنى لى ان اتحدث معهم بقصر مدة الخدمة وبالمناخ الحار الذى لا يتيح تدريبهم كفاية .

فى الطريق من الرأس الاسود الى مكة ، عرّجت على احد المخافر الواقعة على هذه الطريق والحديثة البناء . يشغل المخفر برجا مستديرا واحدا فقط قطره وعلوه زهاء ٨ ارشيمات . المدخل يسده باب خشبي سميك ؛ فى الجدران مزاجل ضيقة اى نوافذ يمكن استعمالها بشكل مريح ومناسب ، بالوقوف على الواح خشبية للنوم مبسوطة بمحاذاة الجدران . وداخل البرج يوجد مخرج الى سطح منبسط ينتصب عليه جدار ارتفاعه نحو ارشيتين - وله ثغرات لاجل اطلاق النار . وعلى السطح منصة وسقيفة لاجل الحارس . هذا الانشاء لاجل المخفر بدا لى عقلانيا جدا نظرا للظروف المحلية . كان فى المخفر ٨ جنود (عادة ١٠-١٢) بامرة ضابط صف (جاويش) . وتبين من حديث هذا الجاويش الذى يخدم هنا للسنة الثالثة ان نهب المارة يجرى على الدوام ، واحيانا حتى على مرأى من المخفر . ونظرا لقلّة الرجال ليس دائما يستطيع المخفر ان يهب الى النجدة . واحيانا تجرى عمليات الهجوم والنهب بدرجة من السرعة بحيث انه قبل ان يفلح رجال المخفر فى تقديم المساعدة يكون الاشقياء قد تواروا فى الجبال ؛ وليس للمخفر اية وسائل للملاحقة .

ميزانية الحجاز

من "اصح ان الحجاز من افقر الولايات العثمانية ، وانه لا يتسم بجانب من الاهمية الا لأن المدينتين المقدستين بنظر المسلمين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - تقعان فيه .

فى الطبعة الاخيرة لحولية «الحجاز» لعام ١٣٠٦ هجرى ، تبلغ الواردات لسنة ١٣٠٤ فى الولاية ١٥٥٩٨١٥ قرشا ، منها :

٢٥٠٢٠٠	قرش	رسم الانتاج
٣٠.٠٠٠	"	رسم الوزن
٥٦.٠٠٠	"	من استثمارات صيد السمك
٩٨٦٦٢٩	"	رسم الدخول
١٣٩.٤٥	"	الزكاة
٣٩٥٠٠	"	رسم النقل
٣٦٣٠٠	"	رسم المرافق*
٢٢١٣١	"	واردات مختلفة

النفقات في السنة ذاتها :

٥٧١٧٤٢٢	قرشا	الشؤون الداخلية
٤٣٣٩٧٥١	"	المالية
١٣٩١٦	"	المدنية
٥٢٧٦٨	"	التعليم العام
٧٦٧٠٠	"	التدابير الصحية
٢١٦٤٠	"	البريد والبرق
٦٩٦٣٤٥٠	"	القوات المسلحة
٥٥٥٧٤٧٧	"	الدرك
٧٦٥٢٠٨	"	البواخر الحربية

الحاصل ٢٣٥٠٨٣٣٢ قرشا

الفصل الثانى

اساليب وسبل حركة الحج فى الحجاز

خصائص ظروف المواصلات

نظرا لمخاطر الطرق فى الحجاز ، تجرى المواصلات هنا فى ظروف خاصة . الطريق بين مكة وجدة هى الطريق الوحيدة التى من الممكن عبورها فى اى وقت من السنة وجماعات غير كبيرة ، وان يكن ببعض الخطر ، ومرد ذلك الى حمايتها ؛ اما الطرق الاخرى ، فان حركة السير عليها لا تجرى الا بجماعات كبيرة وفى وقت معين من السنة وبتدابير احتراس خاصة .

القافلة والركب

لاجل النقل يستعملون فى المعتاد بعيرا - اما بعيرا للنقل (جملا) ، وفى هذه الحالة يشدون الى ظهره سلتين (قفتين) لهما ، لاجل التظليل ، ضرب من خصين ، ويسميان بالرحل ، واما بعيرا خفيفا (هجيناً) يشدون على ظهره سرجاً فقط . وعدا الرحال يوجد ايضا ما يسمى «التختروان» - اى اكشاك معلقة بين عريشين طويلين . وتختروان يتطلب جملين للنقل غالبا ما يستبدلونهما نظرا لثقل هذه المنشأة الكبير ، ولذا يكلف النقل عليهما غالبا جدا ، الامر الذى لا يستطيعه سوى كبار الاغنياء .

ومن الجمال يؤلفون قوافل كبيرة نوعا ما بقيادة «المقومين» (قافلة باشى) ؛ اما الهجائن ، فيشكلون منها ركبا يقوده على طول الطريق كله شيخ ينتخبه المسافرون انفسهم عند الانطلاق .

ونظرا لمخاطر الطريق ، تسير القوافل عادة فى النهار ، وتنطلق فى الصباح الباكر وتتوقف تبعا لطول المرحلة . وتشكل جمال كل مقوم مجموعة منفردة تصطف وفقا لعرض الطريق ، فى ثلاثة او اربعة خطوط متوازية . وتسير المجموعات بحيث لا تكون بعيدة بعضها عن بعض . والمقوم نفسه يمضى عادة على ظهر هجين ، اما سواقو الجمال ، فانهم يمضون دائما سيرا

على الاقدام مهما كان الطريق طويلا ، لأن الرحال (الشقادف) التي تشغل مكانا كبيرا من حيث العرض غالبا ما تتصادم ، فلا يندر ان يتعرض الجالسون فيها لانتقالات غير مستطابة ابدا . وفي اوقات القِيظ من السنة ينطلق الركب بحكم الضرورة ليلا وذلك فى الساعة الواحدة او الثانية ، ويتوقف حوالى الساعة السابعة ، ثم ينهض حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ويسير حتى الساعة ٨ او ٩ مساء .

وكما فى القوافل ، كذلك فى الاركب لا يطلقون الجمال للرعى اثناء الوقفة ، بل يقعدونها فى الحال ويقدمون لها العلف ، وذلك حوالى ١٥ رطلا فقط فى اليوم الواحد بكل جمل موزعة على ٣ مرات ؛ ويسقونها حسب الامكان مرتين فى اليوم .

السير على الهجانن يجرى بسرعة نسبية - ٥٠ - ٨٠ فرستا فى اليوم ، ولكن السفر عليها متعب للغاية ، ولا يجرى الا بين مكة والمدينة المنورة ، ومن المدينة المنورة باتجاه بغداد والبصرة ؛ اما سفر القوافل ، وان يكن بطيئا جدا - ٣ - ٣١/٤ فرستا فى الساعة ، ناهيك بان قطع المرحلة يدوم احيانا ٢٠ - ٢٥ ساعة ، فهو على العكس اسهل اذ ان الشقادف تعتبر مكيفات مريحة نسبيا يمكن ان تتوفر فيها الحماية من الشمس او ان يتمدد فيها المرء تماما .

عادة تجرى حركة القوافل والركب فى غضون ٤-٥ اشهر من الحج وفى شهر رجب حين يقوم سكان مكة بالحج الى المدينة المنورة ؛ اما فى الوقت الباقي ، فيتوقف كل اتصال .

حين تنطلق قافلة من مكة او من المدينة المنورة او من ينبع ، فان السلطات التركية تأخذ احيانا من المقومين رهائن خاصة تبقى قيد الاعتقال الى ان يأتى نبا عن وصول القافلة الى مقصدها ، ثم يطلقون سراحهم بصرف النظر عما اذا كانت قد حدثت فى الطريق حوادث نهب وسلب فريدة ام لا .

البدو وعمليات النهب والاعتداء

خطر السفر يتلخص اما فى عمليات النهب الصغيرة التى يقوم بها البدو ، واما فى اعتدائهم السافر على القوافل ، واما فى المقاومة المسلحة التى تبديها بعض القبائل لمرور القافلة فى اراضيها .

فى الطريق بين مكة وجدة ، حيث الحركة دائمة ، تشكلت من شتى الاوباش عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب وتسلب على الدوام رغم وجود

المخافر . امّا فى الطرق بين مكة والمدينة المنورة وينبع ، فان هذا الشر يتطور اثناء حركة الحجاج ؛ فان قبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب ، دون ان تعتبر البتة ذلك جريمة ، وتبيع علنا وبكل حرية ما تحصل عليه من الاشياء بهذه الطريقة . واثناء احدى الوقفات فى الطريق بين مكة والمدينة المنورة ، ظهر بدوى من بطن لحابة واخذ يتنقل على الركب كله عارضا بيع سلاح وحزام والبسة حج وغير ذلك ، وبدلة حاج قتله قبل ذاك ، الامر الذى اعترف به بنفسه على المكشوف . ورغم السعر التافه الذى طلبه ، لم يعمد احد من الركب الى شراء المعروض . لقد اصبح نهب الحجاج حرفة مفيدة ؛ وكما كان التكنيون * يقولون فى الازمنة الغابرة لدائنيهم : - «انتظر قليلا ، ساذهب الى بلاد الفرس لاجل نهب المال وادفع ديني» ، كذلك البدو يطمثون دائنيهم قائلين : «اصبر حتى وصول الحجاج ، انهب احدا منهم وادفع ديني» .

ان البدو الذين يتعاطون النهب والسلب يتتبعون القافلة كما تتتبع الذئاب الجائعة القطيع ، متخفين نهارا فى مكان ما فى الجوار ، ملاحظين المسافرين المتخلفين ، وخارجين الى القيام بعملهم عند هبوط الليل . وحين تتوقف القافلة فى الظلام لاجل الراحة ، ويحدث فى هذه الحال الهرج والمرج العادى ، يتسنى لهؤلاء الضواري ان يختلطوا مع اهل القافلة ويقطعوا الزناير التى تحفظ فيها النقود عادة ، صاعقين مسبقا بضعة اشخاص بضربات على القفا بالهراوة ، الامر الذى غالبا جدا ما يسفر عن الموت . وعندما تكون القافلة قد وقفت وهذا الهرج والمرج ، واضيئت المحلة بالمشاعل ، يترصد هؤلاء الاشرار المسافرين الذين يتنحون لقضاء حاجتهم ويبتعدون بدون احتراس ، ونادرا ما يعودون . وفيما بعد ، حين تفقس القافلة ، يعمد هؤلاء البدو الى السرقة ، متسللين خفية ، ويسلبون كل ما تقع عليه ايديهم . وهناك كثيرون يعتقدون ، وليس دون مبرر ، ان مقترفى اعمال النهب والسلب هم سواقو جمال القافلة بالذات الذين ، كما يقال ، يعرفون جيدا جدا الاشرار ، ويعطونهم التعليمات بصدد من ينهبون وكيف ، وما الى ذلك ؛ ولهذا يحاول المسافرون بجميع الوسائل ان يستميلوا سواقى الجمال فى قافلتهم ، باعطائهم يوميا البخشيش ، وبقايا الطعام ، وما شاكل . والاتراك هم ، لسبب ما ، اكثر من يعانون من عمليات السلب والنهب هذه ؛ وفى هذه السنة ، بلغ عدد القتلى من الحجاج ، اثناء سير قافلة من

* احدى القبائل التركمانية الكبيرة . الفناهير .

الحجاج من المدينة المنورة الى مكة المكرمة زهاء ٥٠ شخصا ، وبلغ في طريق العودة ١٠ اشخاص ، والقتل جميعهم تقريبا من الاتراك . ومرد ذلك ، كما يفسرون ، الى ان الاتراك المسلحين دائما يتنحون بلا احتراس عن القافلة آملين في سلاحهم ، ويرفضون التكرم بالبخشيش على سواقي الجمال في قافلتهم ، ويحملون ، لما فيه اغراء البدو ، زناير ضخمة جدا ؛ ولكن كره العرب العام للاتراك يلعب هو ايضا ، اغلب الظن ، دورا معيناً في هذا المجال .

في هذه السنة ، لم يتضرر سوى مسلم واحد من رعايا روسيا ؛ ففي الليل ضربوه بحجر اثناء الوقفة في جوار رابغ . ولكنه اصيب بخدش بسيط فقط ؛ وفي الليل نفسه سرقوا منه كيسا كان فيه كل ما يملكه . وقد عرفت بهذه الحادثة في الطريق من المدينة المنورة الى ينبع ؛ صحيح ان المتضرر تقدم من القائمقام بشكوى عند وصوله الى ينبع ، ولكن الشكوى لم تلق قبولا لأنها لم ترد في الوقت المناسب . وهذا الحاج اكمل الطريق الباقي باموال مواطنيه . وعمليات نهب المسلمين من رعايا روسيا نادرة جدا على العموم ، وذلك جزئيا بفضل المقوم العجوز محيسن الذي يقوم منذ اكثر من ٤٠ سنة بنقل الحجاج الروس ويعرف كيف يردع بدوييه ؛ ولربما ايضا بفضل سحر الاسم الروسى .

وهناك امثلة على الاعتداءات السافرة على القوافل . وهذا ما يحدث عندما يمرّ المقوم عبر منطقة القبيلة المعادية له . وفي مثل هذه الاحوال تتلخص مهمة المقوم ، اما في عقد الصلح او في شق طريق له بالسلاح عبر الارض المعادية . وفي شهر نيسان (ابريل) من السنة الجارية وقع في جوار رابغ اعتداء من هذا النوع على قافلة محيسن المذكور اعلاه ؛ وقد تسنى لرجاله المتفوقين عددا صد الاعتداء . ولم يسمع الحجاج غير صغير الرصاص ؛ وكان تصيبهم الخوف وحسب . وفي سنة ١٨٩٥ ، وقع اعتداء مماثل ؛ ولكن بعد تبادل اطلاق النار زمنا طويلا ، تجمع المتعادون فسي حلقة وعقدوا الصلح .

وهناك ظاهرة اخطر ، هي حجز جميع القوافل بسبب عدم دفع الاعانة المالية التي وعدت بها الحكومة التركية لبعض القبائل المشاغبة التي تشغل الطريق بين المدينة المنورة وينبع . ان البدو ، كما سبق ان اشرنا ، يعتبرون انفسهم الاسياد الحقيقيين لمناطقهم ، ويستقدون على هذا الاساس انه يحق لهم ان يجيزوا او يمنعوا ان تمر في اراضيهم القوافل التي للسلطات مصلحة بهذا النحو او ذاك في سلامتها . وفي هذه الاحوال يرسلون لاجل

التفاوض وسطاء من ممثلي القبائل المجاورة المحترمين ، ولكن ليس دائما
يبلغ هؤلاء الهدف المنشود . وفي سنة ١٨٩٧ ، ابقى بنو حرب الطريق بين
ينبع والمدينة المنورة مغلقة طوال ثمانية اشهر ، فارتفعت اسعار جميع
سلع الضرورية الاولى - الشاي ، السكر ، الطحين ، الكاز ، وخلافها -
بضع مرات في المدينة المنورة .

ويعتبر العرب انفسهم ان الشريف الحالى ووالى الحجاز الحالى مسؤولان
عن الاساءات المذكورة اعلاه ، اذ انهما لا يعطيان البدو ما يحصلان عليه
لاجلهم ولا يتخذان اجراءات اخرى اشد فعالية لوضع حد لنزواتهم .

المحملان السوري والمصرى

نظرا لمخاطر الطريق ، يلجأون من سحيق الزمان الى ارسال قوافل .
الحجاج كل سنة الى مكة والمدينة المنورة لمناسبة زمن الحج ، بحيث تكون
قوافل كبيرة جدا ، ويحميها خفر قوى ، ويسير على رأسها محمل . وباسم
المحمل كان يسمى من قبل البعير الذى كانت اسرة النبی (صلعم) تقوم عليه
بفريضة الحج من المدينة المنورة الى مكة المكرمة ؛ وفيما بعده ، اخذوا
يطلقون هذا الاسم على خيام مزينة ببالغ الغنى محمولة باحتفال خاص على
جمال معدة خصيصا لها .

احد المحامل - المحمل السوري - ينطلق من دمشق ، حيث يتجمع قبيل
انطلاقه عند كبير من الحجاج ، سواء من سوريا ذاتها ام من الاناضول وبلاد
نارس المجاورتين . وتخصص لحماية القافلة فصيلة خاصة تألفت في سنة
١٨٩٨ من ٥٥٠ شخصا من الخيالة بينهم ١٥٠ شخصا على الهجانين و٢٠٠
من الضبطية الخيالة ، بصحبة مدفعين جبليين ، وبرئاسة باشا خاص يعهد
اليه بان ينقل الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، عدا مختلف الاشياء لاجل
الحرمين فى هاتين المدينتين ، مبالغ مالية لكل نفقة الولاية
السنية . وعادة يقطع المحمل السوري الطريق الى المدينة المنورة فى
غضون ٢٧-٣٠ يوما ، ومن المدينة الى مكة فى غضون ١٢ يوما ؛ وبعد
انتهاء المراسم ، يعود فى الحال الى دمشق بالطريق ذاته .

المحمل الآخر - المصرى - ينطلق من القاهرة . قبل ان يحتل الانجليز
القطر المصرى ، كان المحمل ينطلق فى طريق البر عبر السويس والعقبة
والوجه وينبع ورايح الى مكة ويعود بالطريق ذاته ، معرجا على المدينة
المنورة . اما الآن فينقلون المحمل المصرى من السويس الى جدة بالباخرة ،

ويعيدونه عبر المدينة المنورة الى الوجه حيث تنتظره باخرة خاصة . ومع المحمل المصرى ينقلون «الكسوة» المهيثة كل سنة في القاهرة ، وهي غطاء حريرى اسود لاجل الكعبة . وفى سنة ١٨٩٨ وصل المحمل المصرى الى جدة ودون اية حماية لأن الانجليز ، كما شاع ، لم يوافقوا على اعطاء العساكر ؛ ولذا خفرتة فصيلة تركية فى ربوع الحجاز .

فى القرن العاشر الهجرى كان ينطلق محمل آخر من مدينة حيس (١) فى اليمن ، ولكنه توقف فيما بعد .

قبل تطور الملاحة بالبوخر وشق قناة السويس كانت المحامل تتسم باهمية هائلة بالنسبة للحج . فآنذاك كانت دمشق والقاهرة تشكلان نقطتى التجمع الرئيسيتين بالنسبة لجميع الذاهبين الى الحجاز من الشمال ومن الغرب ؛ ولكن اذا كان المحمل قد احتفظ فى الوقت الحاضر ببعض الاهمية ، فهو المحمل السورى فقط .

سبل الحجاج فى الحجاز

ان السبل فى الحجاز هى بوجه الحصر دروب لمطايا الحمل ؛ اما الحركة على العجلات ، حتى ولو توفرت المركبات ، فيحول دونها الرمل الواسع فى بعض الانحاء واحيانا انهيايات الحجارة . والسبيل الوحيد الممكن لاجل حركة العجلات هو السبيل بين جدة ومكة ومنها حتى عرفات ؛ وفى هذا الاتجاه ينطلق الشريف والوالى اللذان يملكان وحدهما المركبات فى الحجاز ويسافران بالعربات المكشوفة .

تربة جميع الطرق رمل خشن جدا ، مكثف فى المعتاد ، ونادرا ما يكون وعسا جدا . والطرق فى كل مكان ، بجوار الجبال ، تتناثر فيها احجار متفاوتة الكبر ؛ اما الفجاج الضيقة والمعابر ، فتعترضها كسور من الصخور تصعب الحركة كثيرا .

وعلى الاغلب يستعملون فى الطريق ماء الآبار ؛ والآبار تختلف كثيرا من حيث العمق - من ٥ ساجينات الى ١٥ ساجينا ؛ وهى اسطوانية الشكل ، وقطرها كبير ٣-٢١/٢ ارشينات ، وجميعها ملبسة جيدا بالحجارة ومزودة فى غالب الاحيان بمزاريب من المادة نفسها لاجل السقاية . ويستقون الماء بقرب جلدية كبيرة يعلقونها بالجبال ، علما بان عرض الآبار يتيح لبضعة اشخاص العمل فى آن واحد . ونادرا ما تقع العين على ادوات من نوع البكرات الخشبية .

وبحكم العادة عند البدو ، يستطيع جميع المارة ان يستقوا الماء من الآبار بلا عائق ومجانا ؛ اما الماء من الصهاريج ، فلا يمكن الحصول عليه الا بالشراء ، بدفع النمن .

وقد تسنى لى شخصيا ان اسافر من الرأس الاسود (وتقع على ساحل البحر جنوبى جدّة على بعد زهاء ٢٠ فرستا) الى مكة ومنها الى عرفات ثم من مكة فى طريق غاير الى المدينة ومنها الى ينبع . اما الطرق الاخرى ، فكنت استفيد بصددتها من المواصفات التى وضعها محمد صادق باشا الذى قاد مرارا المحمل المصرى والذى عبر جميع الطرق الرئيسية فى الحجاز .

الطريق من جدّة الى مكة ومنها الى عرفات

الطريق بين جدّة ومكة هو اكثر السبل انتعاشا وانسبها فى الحجاز ؛ طوله زهاء ٧٠ فرستا ؛ وتحرسه على كل امتداده مخافر يضم كل منها ١٠-١٢ رجلا ، ويبعد الواحد منها عن الآخر ٥ فرسات تقريبا . وفى النقاط التى يتوفر فيها الماء ، توجد سقائف من القصب ، وهى ضرب من خانات قهوة اى مقاه يمكن الحصول فيها على القهوة والشاي . وعلى طول الطريق ، يستخرجون الماء من الآبار ؛ وطعم الماء فى النصف الاول من الطريق حتى حدة غير مستطاب فى كل مكان . وبمحاذاة الطريق ينطلق الخط التلغرافى الواصل حتى مكة على اعمدة جيدة من الحديد الصلب ، ومنها عبر عرفات الى مدينة الطائف على اعمدة خشبية .

من جدّة الى البحرة ، تتجه الطريق شرقا ، وتتصاعد بصورة غير ملحوظة ، وتعبر قاعا منبسطا لواد عريض محاط بجبال غير عالية ، مغطاة هنا وهناك باجمات من العشب القاسى والشجيرات الشائكة «الشوك» ؛ والتربة صلبة فى كل مكان . وعلى بعد ٦ فرسات تقريبا عن نقطة الانطلاق ، تقع اول قهوة فى الرأس القائم ، وتقع «القهوة» التالية فى رغامه ، على بعد ٤ فرسات تقريبا ، ثم ، على البعد ذاته ، قهوة جراده ، ثم على بعدين متساوين ، زهاء ٢١/٢ فرستا ، قهوة فرقاد وقهوة عوض ؛ وعلى بعد ٦ فرسات تقريبا من عوض يدخل الطريق وادى فاطمة العريض وينعطف الى الشمال الشرقى ، متواجدا دائما فى وسط الوادى المذكور . وعلى بعد ١٥ فرستا من عوض تنع بلدة البحرة العربية ، فى وسط الطريق الى مكة تقريبا ؛ وفيها مقر الطابور الذى يحرس الطريق . ويحتفظ الطريق بالاتجاه الشمال الشرقى ، فى وادى فاطمة ويصل على بعد ٧ فرسات عن البحرة الى

حدّة ، - وهذه اول بلدة فيها بساتين . صحيح ان الماء فى حدّة عذب نسبيا ، ولكنه يعج بحشرات ما . وعلى بعد ٢ فرستا تقريبا عن هذه النقطة الاخيرة ، يمضى الطريق فى الرمال ثم ينعطف من الوادى صوب الشرق ، ويحتفظ عموما بهذا الاتجاه حتى مكة بالذات ، ويتلوى بين الجبال ، متحاشيا المرتفعات والمنحدرات ؛ وبدءا من حدّة ، تتزايد الجبال علوا بصورة تدريجية ، وتتزايد الفجاج ضيقا ، ويصبح الماء اعذب . وعلى بعد ٤ فرستات تقريبا عن حدّة ، تقع سالم ، ثم على بعد ٩ فرستات ، تقع شميسى ؛ وبين هاتين النقطتين توجد علامة بصورة اعمدة مركبة من الحجارة تشير الى حدود الحرم . ثم تأتى مقتله على بعد ٤ فرستات ، ثم على بعد ٣ فرستات تأتى بستان ، وعنها تبعد مكة زهاء ٥ فرستات ؛ فى المرحلة الاخيرة يتميز قاع الفجاج ، الذى تمر به الطريق بتعرجات كبيرة لا يمهدها الماء ؛ ومرد ذلك الى ان التربة صخور بصخور . وفى مثل هذه الاماكن ، نحت الناس من قديم الزمان على كل عرض المضيق درجات عريضة تصعب التحرك على العجلات ولا تسهل التحرك على مطايا الحمل ايضا ؛ وعلى مثل هذه الدرجات تقع العين فى كثير من الطرق فى ضواحي مكة والمدينة المنورة .

المسافة بين جدّة ومكة تقطعها القوافل عادة فى غضون يومين ، مع وقفة لمبيت الليل فى البحرة او فى حدّة ؛ اما المسافرون على ظهور الحمير فانه يتسنى لهم قطع المسافة فى يوم واحد .

وبعد مكة ، تنطلق الطريق ، مع احتفاظها بالاتجاه السابق ، ولكن مع تميزها بارتفاع اكبر ، فى قاع فج عميق وضيق ، هو وادى المنى ؛ الجبال المحيطة ، التى تبلغ علوا كبيرا ، تغلو من اية نباتات ، وتتألف حصرا من كتل صخرية . وعلى بعد زهاء ٧ فرستات من مكة ، يضيق الفج كثيرا (حتى ٢٠-٣٠ ساجينا) ، ثم يبدأ يتسع من جديد تدريجيا بشكل قنينة ؛ وفى هذا الموقع المحصور بين جبال عالية ، تقع بلدة منى المؤلفة من زهاء ٢٠٠ بيت غير كبير ، لا يسكنها الناس الا فى غضون ٣ ايام من السنة ، اثناء الحج .

ومن منى يتسع الفج ، ويقل ارتفاع الجبال ؛ ويستمر طابع المحلة هذا زهاء ٦ فرستات حتى المزدلفة التى لا تتميز الا بمسجد وحيد لا شأن له الا فى زمن الحج . وعلى بعد زهاء فرستا اثنتين من النقطة الاخيرة ، يضيق الفج من جديد حتى ٤٠-٥٠ ساجينا ، وتمتد الطريق زهاء ثلاثة فرستات بين جدارين جبليين متوازيين وتخرج على وهدة رملية شاسعة ينتصب على طرفها الشمالى الشرقى جبل عرفات . والتربة على امتداد الطريق كله رملية ،



- قافلة من الحجاج بين جدة ومكة المكرمة.

وتغدو واعسة بدءا من منى . ويستعملون الماء من مجرور مكة الذى يمتد فى هذا الفج .

ان طريق الحج تنتهى فعلا عند عرفات ولكن الدرب الذى لا يجيز غير تحرك الحمير يستمر الى ابعد ، حتى مدينة الطائف ، عابرا جبل القرى فى محلة على علو ٥٨٢٠ قدما . وهذا الدرب هو فى الصيف اقصر السبل واكثرها انتعاشا بين مكة والطائف .

السبل بين مكة والمدينة المنورة

بين مكة المكرمة والمدينة المنورة توجد اربع طرق ، احداها تتلوى حول جبال الحجاز من الشرق ، والاخرى من الغرب . واختيار هذه الطريق او تلك عند الانطلاق من مكة يجرى عادة باشارة من الشريف الذى يعرف العلاقات بين مختلف القبائل كما يعرف على العموم وضع الامور بين البدو . وهناك طريقا خامسة هى السبيل البحرى ولكن نظرا للمصاعب المذكورة اعلاه فى المواصلات بين ينبع والمدينة ، لا يستفاد فى السنوات الاخيرة من هذا الاتجاه مع انه اسهل .

فيما يلى اسوق اسماء النقاط التى تجد فيها القوافل المواقف فى المعتاد ؛ ولكن لا بد من الاشارة الى ان البدو الذين يملكون ما يكفى من القرب لاجل الماء ليس دائما يمضون فى هذه المسيرة ، وغالبا جدا ما يأخذون احتياطيا من الماء ويتوقفون ايضا ، حسب الظروف ، فى اماكن خالية تماما من الماء .

ان الطريق السلطاني هو بين الطرق الثلاثة الغربية انسبها واسهلها . جميع القوافل والركب التى تنطلق الى المدينة المنورة تجتمع قرب جامع عمر الواقع على نحو خمسة فرسات الى الشمال الغربى من مكة المكرمة .

المرحلة الاولى حتى وادى فاطمة ؛ حوالى ٢٥ فرستا من مكة . يتجه الطريق الى الشمال الغربى بين كثبان الرمال التى تتخللها مرتفعات ومنحدرات طفيفة ، ويدخل قبل النقطة النهائية بزهاء فرستا اثنين الى مضيق وادى فاطمة الواسع الذى يتواجد قرب طرفه الغربى نبع كبير ذو ماء عذب وبساتين بالاسم نفسه تتوقف القوافل قربها .

المرحلة الثانية ، حوالى ٥٠ فرستا ، حتى آبار وبلدة اسفان وبئر الطفلة . التربة فى هذه المرحلة رمل وعس فى كثير من الاحيان ؛ والجبال الصخرية العالية التى تحيط بالطريق غالبا ما تفتقر وتشكل سهولا رملية عريضة . وهناك كثرة من الاشجار ، واعشاب قاسية ، والسنا المكى . وقبل

اسفان توجد مزروعات شاسعة من الذرة الصفراء والقرعيات . الماء فى الآبار ممتاز ، ووفير . وفى القرية يمكن شراء البيض والحليب والخبز . وهناك اكواخ بناها السكان من الاغصان والعشب الجاف يؤجرونها من عابرى السبيل لقاء مبلغ معين .

المرحلة الثالثة ، حوالى ٣٥ فرستا ، حتى نبع خليص . الطريق فسى
الفرستات الاربعة الاولى صعبة جدا ، وتمر فى شق ضيق جدا تسده الحجارة مع تربة رملية وعسة . على السفوح المجاورة تظهر ساحات كبيرة من قطاعات مطهرة من الحجارة ومعدة لاجل الزرع والسقاية بماء السماء . ثم يتجه الطريق بين مجموعات متفرقة من الجبال . التربة فى كل مكان رملية جدا ؛ النباتات ،كنيرة . فى خليص مزارع من النخيل والقرعيات .^١

المرحلة الرابعة ، حوالى ٣٥ فرستا ، حتى بئر وبلدة قضيمة . الطريق
من خليص تنحرف ابعد الى الشمال ، وتتجه فى الفرستات الـ ١٠ الاولى فى رمال وعسة . الجبال اقل ارتفاعا واكثر تفرقا . ثم يخرج الدرب الى شريط ساحلى مسطح ، متساو (تهامة) ، ويتجه بموازاة ساحل البحر ، بعيدا عنه زهاء ٦-٧ فرستات . التربة فى تهامة مناسبة جدا فى كل مكان لاجل الحركة - رمل بحرى مرصوص دون تتوءات ووهاد واوقات وما الى ذلك . غالبا ما تقع العين على شجيرات العُشُر والاعشاب . قبل الوصول الى البلدة ، تنبسط مزارع القرعيات على جانبى الطريق . الماء فى الآبار مالح نوعا ما . وفى البلدة ، كما فى اسفان توجد اكواخ لاجل عابرى السبيل .

المرحلة الخامسة ، حوالى ٦٠ فرستا ، حتى بلدة رايغ . تنطلق الطريق
دائما على ساحل البحر ؛ وهى مستوية تماما ومناسبة جدا لاجل الحركة . رايغ بلدة غير كبيرة تقع على بعد نحو فرستا اثنين من ساحل البحر . نظرا لموقعها فى عقدة طرق بين مكة والمدينة المنورة ، ونظرا لوجود اكثر البدو ميلا للشغب والتمرد بين الرحل ، واكثرهم تعديا وسلبا لقوافل الحجاج ، تعلق السلطات التركية عليها اهمية خاصة وتحفظ هنا على الدوام بنصف طاوور من القوات المسلحة المرابطة فى قلعة خاصة . وفى هذه البلدة ٣٦٩ نسمة و١١٦ بيتا مبنية من الطوب الاخضر . انشاء تحرك قوافل الحجاج يفتحون هنا زهاء ٦٠ دكانة تتاجر على الاغلب بالمؤونة . وفى البلدة سبع آبار ذات ماء مالح نوعا ما ؛ ولذا يستقون الماء عادة من الصهاريج المقامة خارج البلدة . القوافل التى تعبر رايغ تتوقف عادة فى خارجها . من الجانب الشمالى والغربى تقع بلصق البلدة مزارع شاسعة من النخيل .

المرحلة السادسة ، حوالى ٢٥ فرستا . حتى بئر مستوره . تنطلق

الطريق باستمرار على شاطئ البحر ؛ وهي ملائمة جدا لاجل الحركة . بين آبار مستوره بئر واحدة فقط يصلح ماؤها للشرب .

المرحلة السابعة ، حوالى ٤٠ فرستا . حتى آبار بير الشيخ . تستمر الطريق على شاطئ البحر ، وتنعطف الى الشمال قبل الوصول الى الآبار المذكورة ، وتدخل الجبال . ماء الآبار عذب .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٤٥ فرستا . حتى بلدة الصفراء . تنعطف الطريق صوب الشمال الشرقى وتستمر صعودا في مضيق وادى الصفراء . فى هذه البلدة زهاء ٥٠٠ نسمة ؛ وبفضل الينابيع توجد بساتين ومزارع ، وعلى الاغلب من النخيل ومن اشجار الليمون والحناء والفلسنك .

المرحلة التاسعة حتى آبار بير العباس ؛ حوالى ٤٠ فرستا . تنطلق الطريق فى الفج نفسه الذى يزداد ضيقا بعد الصفراء . على بعد زهاء ١٠ فرستات من نقطة البداية تقع بلدة سبيهة ببلدة الصفراء ؛ اسمها الحمراء وهي بلدة ذات بساتين وماء عذب . على البعد نفسه عن النقطة الاخيرة ، بلدة الجنديدة - وهي عبارة عن مجموعة من البيوت من الطوب الأخضر ، ولها نبع ذو ماء غير لذيذ وغير صحى ، ويضع مزارع من النخيل . قرب هذه النقطة يضيق الفج كثيرا ، حتى ٧ ساجينات فى بعض الاماكن ، مع صخور عالية راسية تقريبا ؛ واحد هذه الافاجيج يقع ادنى من البلدة بقليل ويسمى «بوغاز الجنديدة» ، ويحظى بسمعة سيئة جدا من جراء قيام رجال قبيلة بنى حرب باعتراض طريق القوافل العابرة هنا . والبلدات الثلاث المذكورة آنفا تسترعى الانتباه بواقع انه يوجد بين اصحاب البساتين عدد كبير من الزوج ، العبيد السابقين . وقرب بير العباس تشكل الجبال سهلا عريضا توجد فى وسطه البئر ؛ وقرب البئر تنتصب قلعة مهمة كانت ترابط فيها فيما مضى حامية تركية لاجل حماية القوافل العابرة . وتوجد قلاع مماثلة فى النقاط السابقة - الحمراء - الجديدة ، الصفراء . الماء فى البئر جيد .

المرحلة العاشرة ، حوالى ٤٠ فرستا ، حتى آبار الشهداء . على بعد نحو فرستا واحد من بير العباس تدخل الطريق من جديد فى مضيق ، هو هنا اقل عمقا ، واعرض ؛ ثم تتصاعد بشكل ملحوظ وتمر قرب آبار بير الراحة العذبة الماء الواقعة تقريبا فى منتصف هذه المرحلة ، وتصل الى آبار الشهداء .

المرحلة الحادية عشرة ، حوالى ١٥ فرستا ، حتى آبار بير الشربوفى . تحتفظ المحلة بالطابع نفسه . الماء فى الآبار عذب .

المرحلة الثانية عشرة حتى المدينة المنورة ؛ حوالى ٥٠ فرستا . منذ منتصف الطريق يتوارى المضيق ، وتتلوى الطريق بين جبال غير عالية . قبل

المدينة بنحو ١٠ فرستات ، تدخل الطريق من جديد في مضيق واسع تظهر لمحاذاة آبار في جوارها بساتين . ومجموعة من هذه الآبار تقع على بعد نحو ٥ فرستات من المدينة المنورة وتسمى بيار العلى ، وتشكل مكانا لاجل جمع القوافل المنطلقة من المدينة المنورة الى مكة او الى ينبع . النصف الثانى من الطريق المذكور اعلاه شحيح النبات ، باستثناء الساحل . ونادرا ما تقع العين على اشجار الشوك ، ومنها يقطع سواقو الجمال العيدان لاجل الوقود اثناء الوقفات .

يبلغ الطريق السلطاني زهاء ٤٦٠ فرستا ، وهو ملائم لاجل حركة القوافل لخلوه من المرتفعات والمنحدرات الشديدة ، ولوفرة الماء الجيد فى الآبار ولكن غالبا ما يقع الاختيار على سبيل آخر اقصر ولكنه اصعب ، هو الطريق الفرعى ، تخوفا من ان يمنع رجال قبيلة بنى حرب من اجتياز الطريق السلطاني عبر بوغاز الجديدة .

ان الطريق الفرعى ينفصل عن الطريق السلطاني فى رابع ، متجها الى اليمين صوب الشمال الشرقى ، ويدخل فى الجبال على بعد نحو ١٥ فرستا ؛ ثم يتجه بمحاذاة مضيق خرشان ويتصاعد حتى آبار رضوان (ذات الماء العذب) . طول هذه المرحلة السادسة ، اذا حسبنا بدءا من مكة ، حوالى ٥٠ فرستا . **المرحلة السابعة** ، حوالى ٣٠ فرستا ، حتى بلدة ابو دباغ حيث يوجد نبع ومزارع من النخيل ؛ الطريق فى هذه المرحلة ضيق جدا بين الجبال ويجتاز افاجيح ضيقة .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٢٥ فرستا ، حتى بلدة الريان حيث يوجد نبع وبساتين . فى هذه المرحلة توجد كثرة من الينابيع تجاورها مزارع النخيل وبلدات صغيرة للبدو من قبيلة عوف .

المرحلة التاسعة ، حتى مضيق وادى الغدير العريض والغالى من الماء ؛ حوالى ٢٥ فرستا ؛ من الريان يزداد الانحراف بروزا . على بعد ١٥ فرستا تقريبا مرتفع ضيق وصعب فى معبر رى الهيف ثم منحدر معتدل حتى الغدير . **المرحلة العاشرة** ، حتى بئر الوايا ، حوالى ٣٥ فرستا . الطريق يتحاشى الجبال ، ينعطف بحدة صوب الشمال الغربى ، ثم يتجه شمالا بعد نحو ١٠ فرستات قرب بئر العظم ، حتى نهاية المرحلة .

المرحلة العادية عشرة ، حوالى ٥٥ فرستا ؛ حتى المدينة المنورة . من الوايا يتجه الطريق الى الشرق حتى نقطة بئر الماشى الواقعة وسط سهل عريض تنتصب فيه قلعة تركية كبيرة مهجورة توجد فى جوارها بئر عذبة الماء . من هنا تنطلق الطريق بمحاذاة وقط عريض ، وتنعطف تدريجيا صوب

الشرق وتصل الى آبار بيار العلى حيث يتحد الطريق الفرعى مع الطريق السلطاني .

طول الطريق الفرعى زهاء ٤٢٥ فرستا ؛ والطريق غنى بالماء فى السفح الغربى من الجبال . بفضل كثرة القرى تتوفر كثرة من احتياطات العلف . قبيلة عوف التى يمر هذا الطريق فى اراضيها اكثر مسالمة من قبيلة بنى حرب ، ولكن المرتفع من جهة رابغ جبرى جدا وعسير جدا .

الطريق الثالث اقصر ايضا بعض الشيء ، ولكن نظرا للمعبر الصعب لا يصلح للحركة الا على ظهور الهجان الخفيفة - اسم هذا الطريق طريق الغاير ، وهو ينفصل عن الطريق السلطاني ، مثل الطريق الفرعى ، فى رابغ .

المرحلة السادسة ، حوالى ٤٥ فرستا ؛ حتى آبار مبيترك . على امتداد ٨ فرستات تقريبا ، يتجه الطريق صوب الشمال الشرقى ويجتاز شريطا ساحليا ، مستويا ، ثم يدخل تلالا سفحية ، ويعبر افاجيج صغيرة ، ويدخل واديا عريضا دون ان يصل الى الآبار . فى هذه المرحلة تتواجد نتوءات حجرية غير ملائمة للعبور . الماء عذب تقريبا .

المرحلة السابعة ، حوالى ٤٥ فرستا ؛ حتى آبار الرصفة . الطريق يمر دائما فى مضيق متصاعد ذى انحدار طفيف . الماء غير لذيذ اطلاقا .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٢٥ فرستا ؛ حتى اسافل جبال الغاير . الطريق يتجنب الفج الى اليمين ، وينحرف الى الشمال ويعبر بضعة نتوءات عالية ؛ وقبل زهاء خمسة فرستات من وصوله الى الجبال ، ينحدر الى سهل عريض رملى يتاخم الغاير ، ويمتد فى هذا السهل ، وينعطف بمحاذاة الجبال صوب الشمال الغربى . لا ماء .

المرحلة التاسعة ، حوالى ٧٠ فرستا ، حتى بئر الماشى . يبدأ صعود الجبال فى الاتجاه الشمالى الشرقى بمحاذاة مضيق غير كبير ؛ طول الصعود زهاء ١٠ فرستات ؛ الطريق فى البدء ينحدر تدريجيا ، ثم ، فى الفرستات الستة الاخيرة ، يشتد انحداره ، ويتلوى بين كتل كبيرة من الحجارة . الصعوبة الكبرى لا تشكلها المنحدرات الكبيرة (لا تربو على الخمس) ، بل تشكلها هذه الحجارة المتراكمة فى بعض الاماكن بصورة حيود ، والتى تترك فى اماكن اخرى ممرا ضيقا جدا بحيث ان الجمل ينقل قوائمه بصعوبة . ولا يمكن الصعود الا بالترجل ، سيرا على الاقدام . والمعبر نفسه بصورة نتوء يفترق من جانبيه فجان ؛ وفى المعبر ، آبار عميقة محفورة فى الصخر لاجل تكديس ماء المطر . النزول فى المضيق الواسع معتدل جدا ؛ وهناك كثرة كثيرة من اجمات اشجار الشوك الكبيرة ، وكذلك كثرة من الساحات الافقية

المحضرة بواسطة جدران داعمة والمعدة لاجل المزروعات . اثناء الوقفة ، تستعمل الركب ماء المطر من الخزانات القائمة على بعد نحو فرستا اثنين من الطريق . في بئر الماشى تلتقى طريق الغاير مع الطريق الفرعى .

المرحلة العاشرة ، حوالى ١٥ فرستا ؛ حتى المدينة المنورة . طول طريق الغاير زهاء ٤٠٠ فرستا . والطريق - عدا الصعود الصعب فى المعبر من جهة رايغ وبعض النتوءات الحجرية عند دخول الجبال - مناسب جدا لاجل الحركة على كل امتداده الباقي . الجانب المطل على البحر غنى باجمات الشوك ؛ اما الماء فقليل ، وسيء جدا . وهذا اقصر طريق بين مكة والمدينة المنورة ، ويمكن اجتيازه بدون صعوبة خاصة على الهجان فى غضون خمسة ايام . يقولون انه يمكن فى الحالات الاستثنائية قطع هذه المسافة على الهجان ذاتها فى يومين . الغاير طريق تاريخى ؛ فعليها هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) فى سنة ٦٢٢ من مكة الى المدينة المنورة .

الطريق الرابع بين مكة والمدينة المنورة يدور حول الجبال من طرفها الشرقى ويمتد على الحدود بين الحجاز ونجد ؛ وهو يسمى الطريق الشرقى . **المرحلة الاولى ،** حتى بلدة وادى الليمون ، حوالى ٣٥ فرستا . الطريق يمتد بين جبال عالية فى الاتجاه الشمالى الشرقى . ولهذا الوادى ، كما لوادى فاطمة ، ماء جار بفضلله يتعاطى البدو المحليون زراعة الخضراوات والقرعيات ، مزودين مكة بالبطيخ والخضراوات .

المرحلة الثانية ، حوالى ٣٠ فرستا ، حتى بئر المضيق ذات الماء المالح نوعا ما .

المرحلة الثالثة ، حوالى ٥٠ فرستا ، حتى وادى البركة . على بعد زهاء ١٥ فرستا عن البئر السابقة ، عند الخروج من الجبال ، توجد حفرة يتجمع فيها ماء المطر ، اسمها الحقائق ومنها تأخذ القوافل احتياطات الماء لاجل مواصلة الطريق ، لانه لا وجود للماء فى البركة .

المرحلة الرابعة ، حوالى ٥٠ فرستا ، حتى بئر الحاضه الطريق ينعطف صوب الشمال بدءا من النقطة السابقة ؛ وبما ان الحاضه تقع فى الجبال ، فان الطريق ينعطف صوب الشمال الغربى ويصل الى هذه الآبار ذات الماء العذب .

المرحلة الخامسة ، حوالى ٦٠ فرستا ، حتى الآبار ذات الماء العذب فى سفيان . يخرج الطريق من جديد الى طرف الجبال ويتجه شمالا .

المرحلة السادسة ، حوالى ٧٥ فرستا ، حتى آبار الحجرية .

المرحلة السابعة ، حوالى ٣٠ فرستا ، حتى آبار غراده ؛ لماء هذه

الآبار رائحة الكبريت ، ولكنه يتواجد فى كل مكان على عمق غير كبير - مقدار ارشين او ارشينين .

المرحلة الثامنة ، حوالى ٦٠ فرستا ، حتى حفرة «حنك» او «غدير» ، التى يتجمع فيها ماء المطر . فى هذه المرحلة يتجه الطريق صوب الشمال الغربى .

المرحلة التاسعة ، حوالى ٣٥ فرستا ، حتى المدينة المنورة . ينعطف الطريق الى الغرب ، ويدخل الجبال ، ويمضى فيها حتى المدينة المنورة بالذات .

الطريق الشرقى البالغ طوله زهاء ٤٠٠ فرستا يمر فى محلة اكثر خلوا من الماء ، ولذا يستعملونه بصورة نادرة نسبيا ، وذلك حين تكون الطرق الاخرى فادحة الخطورة بسبب اعتداءات البدو ، رغم انه توجد فى هذا الطريق ، كما يقولون ، كثرة من الاعشاب لاجل الجمال ، ورغم ان الحر هنا فى الصيف اخف .

الطريق بين المدينة المنورة وينبع

بين المدينة المنورة وينبع يوجد طريق كبير للقوافل يتطابق اتجاهه حتى بلدة الحمراء مع اتجاه الطريق السلطانى .

على بعد زهاء ٣ فرستات عن الحمراء ، تخرج الطريق من مضيق وادى الصفراء وتنحرف الى الشمال الغربى وتمضى فى هذا الاتجاه حتى بئر السيد ، وغالبا ما تقطع نتوءات حجرية غير عالية . من الحمراء الى بئر السيد حوالى ٣٥ فرستا ، الماء فى الآبار جيد .

من البئر المذكورة آنفا تمتد الطريق فى الاتجاه ذاته وبطابع المحلة ذاته زهاء ٣٠ فرستا ، وتخرج على شريط ساحلى مستو ، ثم تتصل بالسبيل المنطلق بمحاذاة شاطئ البحر وتنعطف فى الاتجاه الشمالى الغربى بموازاة الشاطئ ، وتصل على هذا النحو الى ينبع بالذات . طول هذه المرحلة الاخيرة زهاء ٧٥ فرستا .

طول الطريق كله من المدينة المنورة الى ينبع زهاء ٢٣٠ فرستا . والقوافل تقطعه عادة فى خمسة ايام ؛ وكما سبق ان قلنا ، غالبا ما يقطع رجال قبيلة بنى حرب هذا الطريق فى افاجيج الجديدة ، ولهذا يفضل الحجاج فى بعض السنين العودة من المدينة المنورة الى مكة لكى يغادروا الحجاز عبر جدة . وان احتياطى الحبوب الذى ارسلته الحكومة المصرية لاجل «التكية» فى المدينة المنورة قد تم تفريغه فى خريف هذه السنة (١٨٩٨) فى جدة ، ومنها نقلوه على ظهور الجمال الى المكان المقصود .

مسيرة المحمل السوري

عدد ساعات السير لاجل الجمال	اسم مكان الوقفة	٨٨ وقفة على التوالي
—	دمشق	٠
ساعة ١	الكسوة	١
ساعة ٢	الكتيبة	٢
ساعة ٣	المضاريه	٣
ساعة ٥	الرمه	٤
ساعة ١٠	المفرق	٥
ساعة ١٣	الزرقاء	٦
ساعة ١٦	اللقاء	٧
ساعة ١٤	الكسنا	٨
ساعة ١٣	الحسا	٩
ساعة ١٣	عتيزه	١٠
ساعة ١٩	مصان	١١
ساعة ١٨	مدورة	١٢
ساعة ١٨	العقبه	١٣
ساعة ٨	زياد الحج	١٤
ساعة ١٣	قاع الصغير	١٥
ساعة ١٢	آسى حرمه	١٦
ساعة ١٨	الاخضر	١٧
ساعة ١٤	معلم	١٨
ساعة ١٦	دار الحمراء	١٩
ساعة ١٨	مدائن صالح	٢٠
ساعة ١٠	بيار الغنم	٢١
ساعة ١٦	بئر الزمرد	٢٢
ساعة ٨	بئر الجديد	٢٣
ساعة ١٨	حضيته	٢٤
ساعة ١٨	فحل التين (ملاح)	٢٥
ساعة ١٠	بيار ناصيف (دايني)	٢٦
ساعة ١٠	المدينة المنورة	٢٧
ساعة ٣٣٤		٢٧

مسيرة المحمل المصرى
(من المدينة المنورة الى الوجه)

٨ ساعة	فقير	٦	١٠ ساعة	المدينة المنورة	٠
١٣ ساعة	عقاله	٧	١٠ ساعة	داينى	١
١٥ ساعة	مطير	٨	١٠ ساعة	ملالغ	٢
٨ ساعة	حوسيله	٩	١٢ ساعة	شحيوه	٣
١٥ ساعة	ام حرز	١٠	١٠ ساعة	آبار الحلوه	٤
٩ ساعة	الوجه	١١	١٠ ساعة	حفاير	٥

- موكب المحمل في القاهرة - أواخر القرن التاسع عشر.



الفصل الثالث

مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما من النقاط الآهلة فى الحجاز وأهميتها من حيث الحج

مكة المكرمة

مكة أو بكة ، أو كما يسمونها عند المسلمين ، خارج الحجاز ، مكة المكرمة ، تضم مقدسات الاسلام الرئيسية ؛ وهى الآن المركز الادارى والتجارى الرئيسى فى الحجاز .

موقع المدينة

تقع المدينة على بعد ٧٠ فرستا تقريبا شرقى جدة ، فى محلة تحفل كثيرا بالجبال الصخرية ، ضمن فج ضيق ، متشعبة فى تفرعاته ، متصاعدة الى السفوح المجاورة حيث يتيح انحدارها . ومكة غير مطوقة بسور مثل سائر مدن الحجاز ، ولكن تنتصب فى مرتفعين مهمين قلعتان غير كبيرتين تشغلها الحامية التركية .

البيوت

البيوت فى مكة مبنية فى المعتاد من ثلاثة طوابق ، مع انه توجد كذلك بيوت من ٤ او ٥ طوابق . الهندسة المعمارية اصيلة جدا . جميع الجدران تحفل بصفوف من خوافذ ناتئة تسمى «مشرية» . اما مادة البناء فهى الحجر والأجر المحروق ، المرصوصان فى الاغلب على الطين ؛ وكذلك الخشب ، المستورد على الاغلب من جزر الزوند ، والخشب الروسى (الالواح) المستورد من القسطنطينية . والبيوت مبنية الواحد بلصق الآخر ، دون فجوات ، سواء من حيث الواجهة ام من حيث الجانب الخلفى ، دون ان تترك اى فناء .

- الحرم الشريف ومكة المكرمة، أواخر القرن التاسع عشر -



الطابق الاسفل ليس معدا في المعتاد للسكن ، ويقوم جزئيا مقام الفناء ويستعملونه لاجل ايداع الاشياء الضخمة ؛ والطوابق العليا تتشكل من شقات غير كبيرة ، كل شقة من غرفتين او ثلاث ومعزولة تماما عن الشقات الاخرى ، ومزودة بالمرافق اللازمة . فوق السقف تنتصب الجدران نحو ثلاثة ارشينات مشكلة بالتالي طابقا مكشوبا آخر ، يستعملونه للراحة الليلية . ولاجل مجرى الهواء يتركون في هذه الجدران فتحات عديدة فيها شبكة من آجر محروق ملون بارز بسطوع على خلفية الجدران البيضاء ، والسلالم ، وكذلك الارضية في بعض الاماكن مغطاة باسمنت خاص مجبول من الكلس والرماد والرمل ، ويتميز بقدر كبير من الصلابة . ومن هذه المادة يبنون في بعض البيوت خزانات لاجل المياه ايضا .

الخاصة الرئيسية التي تختص بها البيوت المكية الغنية الى هذا الحد او ذاك انما هي المشربيات المبنية على طول الجدار الواجبي . هذه النوافذ تقام في الاطراف النائية لعوارض الارضية وتشكل بالتالي ضربا من شرفات مغلقة تبرز من وراء جدران المبنى مقدار ارشين ونصف ارشين تقريبا ، وتغلقها صفوف من حصائر صاعدة ونازلة . والمشربيات تزينها من الخارج نقوش بديعة الرقة والاناقة احيانا . وتتوء المشربيات يضعون في داخله دواوين واطئة ومخدات ؛ وبما انه ابرد مكان في الغرفة فانه يشكل زاوية مفضلة . وفي بيوت اقل غنى ، يصنعون مشربيات صغيرة او نوافذ بسيطة ؛ وفي مكة لا يعرفون زجاج النوافذ .

المباني العامة

بين المباني العامة ، عدا الحرم الشريف الذي سنحكي عنه في الفصل التالي ، يبرز مبنى السراي الكبير ، الوحيد الطابق ، اى مبنى ادارة الولاية ، يهندسته المعمارية الاوروبية الجميلة . والى جانبه ينتصب مبنى التكية المصرية الشاسع حيث يقدمون ، من مال الاوقاف الواصل سنويا من مصر ، وقدره ١٦٠٩١٢ قرشا * (حوالى ١٦ الف روبل) ، اثناء الحج ، في كل صباح ، للحجاج المعدمين ، طعاما مؤلفا من رغيفين غير كبيرين ومن الحساء . وابعد قليلا ، توجد مؤسسة خيرية دينية ماثلة تمولها الاوقاف

* كتاب «دليل الحج» .

التركية . ولكن خير مبنى فى مكة انما هو ، بلا ريب ، المبنى الضخم من طابقين المنتصب عند المخرج ، والمكتدل بزينة ، والمعد ، كما اوضح لنا بانيه ، لاجل ايواء الحجاج الذين لا مأوى لهم ؛ وهذا المبنى مربع الشكل ، وفى داخله حوش ، وطول واجهته زهاء ٧٠ ساجينا ؛ وهو بالفعل مبنى متين جدا فيه قاعات عالية شاسعة ، وسلالم مريحة ، وحمامات ، وخلاف ذلك . ونظرا لموقعه فى طرف المدينة وترتيب الغرف المطلة على رواق مشترك ، يمكن ان يقوم بدور مستشفى ممتاز . اما الحجاج الفقراء ، فهو بالنسبة لهم بذخ مفرط ؛ ونظرا للبعد عن الحرم حيث يتوفر لهم الغذاء والمبيت ، من المشكوك فيه ان يذهبوا اليه طوعا واختيارا . ويستفاد من اقوال الباني ان الحكومة التركية اعتمدت للبناء ٤٥ الف ليرة (حوالى ٣٨٠٠٠٠ روبل) ؛ ولكن نظرا للتأخير فى تقديم التسليف ، يدوم البناء للسنة السادسة .

بين مجموعة البيوت الخاصة فى مكة ، توجد ايضا كثرة من بيوت الاوقاف تبرع بها الحجاج الاغنياء لاستعمالها بصفة مدارس دينية او على الارجح ، بصفة «تكيات» اى بصفة مساكن فى زمن الحج للحجاج من ابناء القومية التى ينتسب اليها المتبرع . وهكذا توجد تكيات هندية وماليزية وقشغرية وافغانية وقازانية وقرغيزية والنح . .

الشوارع

لا تتميز شوارع مكة ، لا باستقامة التخطيط ولا بدقته . الشوارع الرئيسية على ما يكفى من العرض بوجه عام ، ٦-٨ ساجينات بالمتوسط . ولكن البيوت تتقدم تارة ، وتتأخر طورا عن الخط العام ولذلك يختلف عرض الشارع الواحد ذاته فى مختلف الاماكن . وعدا هذا ، تنتصب فى الشوارع اكشاك خشبية ملتصقة بالمباني ويحولونها فى زمن الحج الى دكاكين ؛ وحيانا تحفل الشوارع بشقائف لا عد لها تابعة للقوافل القادمة ؛ كذلك يصف هنا التجار طاولاتهم ، ولذا تبدو الشوارع اضيق ، ونظرا لعدم وجود الاحواش والافنية يرمون كل الزباله والنفايات فى الشارع راسا . وللسبب ذاته ، يحفظون هنا كل النواجن ؛ وهنا ايضا يحلبون الابقار والعنزات . والشوارع هنا ، كما فى القسطنطينية ، هى مرتع اسراب كبيرة من الكلاب الشاردة . ولا وجود فى مكة للشوارع المرصوفة ؛ ولا وجود للرش ؛ وللانارة ، يعلق السكان انفسهم هنا وهناك مصابيح الكاز .

السكان

تحسب السلطات التركية ان عدد السكان يتراوح بين ١١٠ و ١٢٠ ألف نسمة ، بينما يحسب السكان انفسهم ان عددهم يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ ألف نسمة ؛ وهذا الرقم الاخير يبدو لي اقرب الى الحقيقة .

ان سكان المدينة الدائمين هم خليط مبرقش من ابناء جميع القوميات التي تدين بالاسلام ؛ وعدا السكان المحليين العرب الذين يؤلفون زهاء ثلاثة اخماس عدد السكان الاجمالي ، يوجد هنا عدد كبير من الماليزيين والزنوج والاحباش والمصريين والهنود والعرب الافارقة والأتراك وكذلك السرت والفرس والتتر والقرغيز وغيرهم . ومن بين العرب المحليين ، كما اوضحوا لي ، ينتمى قليلون الى سكان البلد الاصليين ؛ فهم بمعظمهم قادمون من الخارج ، واستعربوا كليا مع مر الزمن ولذلك تتنوع قسما وجوهم ، وبشرتهم من جميع التلاوين بدءا من الابيض تماما كما عند الاوروبيين حتى الداكن البرونزي كما عند الاحباش . والشريف واولاده وكثيرون من الاسياد الذين يعتبرون انفسهم عربا يسيل في عروقهم دم عربي اصيل تماما انما لون وجوهم ابيض تقى لا عيب فيه . ولا ريب في ان المحظيات من شعوب القفقاس يلعبن دورا كبيرا في هذا المجال .

احدث عرب مكة في نفسى على العموم انطباعا جيدا جدا ؛ فهم اذكياء ، لطفاء جدا في التعاشر والتخاطب ، متادبون ومجاملون مع مسحة من بعض الاعتزاز ، مضيافون ، انيسون ، مع احتفاظهم دائما بشعور الكرامة الشخصية ؛ وهم منعّمون كبار ، يطيب لهم ان يرددوا النياب الفاخرة ، ويفرشوا بيوتهم بالمقروشات الجيدة ، ويأكلوا جيدا ، ويستقبلوا الضيوف ويحلوا ضيوفا في احيان كثيرة .

تتألف البسة العرب من قميص تيلي طويل وضيق ، ذي طوق قائم يرتدون فوقه صدرية حريرية يزررونها بكثرة من الازرار الصغيرة ؛ وفوق الصدرية يلبسون ما يشبه البشمت (العنترى) وعلى الرأس طاقية بيضاء مستدقة . وحين يغادرون البيت ، يشدون العنترى بزوار حريري ؛ وفوق الالبسة يرتدون رداء ضيقا او «الجبة» ، ويستعوضون عن الطاقية بعمامة غير كبيرة ملفوفة حول التاج ؛ وفي الاقدام يلبسون احذية خفيفة فوق الكلسات .

بدلة الطبقة الفقيرة من نفس التفصيل ، ولكن بدون جبة وعنترى . يفرشون الغرف في البيوت بتخوت واطنة ومخدات لاجل الجلوس ؛ الارضية يغطونها كليا بالسجاجيد والحصائر ؛ زينة الجدران تتألف من آنية

مختلفة - ، من اليورسلين والمعدن ، والسماورات الروسية الجديدة
الموضوعة فى فجوات خاصة او على رفوف - ومن مرايا معلقة عديدة ، ومن
مختلف الاقوال الماثورة المكتوبة على ورق ملون ومركبة فى اطر .
لوازم النوم يخفونها بعناية فى غرف خاصة ، لانهم يعتبرون عرضها
تبذلا كبيرا .

والمطبخ هو فى المعتاد عبارة عن غرفة من الغرف الامامية يضعون فيها
المناقل لتحضير الاطعمة ؛ وقد اذهلتنى كثيرا وفرة الطعام الدهنى ، المؤلف
ابدا ودائما من الرز الدحمر مع اللحم والتوابل ومن المأككل اللحمية
الثقيلة الاخرى ، علما بان العرب يقبلون على هذا الطعام الدهنى ، رغم
المناخ الحار ، مرتين فى اليوم ، - حوالى الظهر ، وفى المساء ، بعد غياب
الشمس ؛ والماء ، المبرد فى اباريق وجرار مسامية موضوعة فى مجارى
الهواء فى المشربيات هو المشروب العادى . وفى ساعات معينة من اليوم او
فى حال مجيء الضيوف ، يقدمون القهوة المحضرة على الطريقة الشرقية . وفى
الآونة الاخيرة ، بدأوا يستعملون الشاي (الاسود) كثيرا الذى يشربه العرب ،
مثل الفرس ، ثقيل جدا وحلوا جدا ، وبمقادير صغيرة جدا . والجميع
تقريبا يدخنون التبغ ، وعلى الاغلب بالنارجيلة .

والنساء عند العرب ، كما عند الشعوب الاسلامية الاخرى ، يرتدين
الحجاب ، ولكنهن يتمتعن بقدر من الحرية اكبر بكثير ، مثلا ، مما عند
التر . وهن يترددن على الجوامع على قدم المساواة مع الرجال ، ويشغلن
فيها مكانا مخصصا لهن ، ويذهبن وحدهن الى السوق لشراء الحاجيات ؛
وهناك نساء عديدات يتعاطين فى الشوارع التجارة بالمفرق ، وغالبا ما
تقع العين عليهن فى المحكمة امام القاضى ، حاملات الشكاوى احيانا على
ازواجهن .

الحياة الفكرية عند هذا الشعب "تدبر" واللطف لم تتقدم منذ ذلك العهد
المجيد الذى كان فيه العرب يسرون فى طليعة الحضارة ، وليس هذا
وحسب ، بل على العكس تراجعت ايضا ؛ وتلك العلوم التى ابتدعوها وطوروها
فيما مضى لفها النسيان تماما فى الوقت الحاضر . بل ان التعليم الاول
البسيط - مجرد القراءة والكتابة - محصور ضمن حلقة ضيقة جدا ؛
واشراف مكة الذين يقوون بدور قادة الحجاج اثناء القيام بمراسم الحج لا
يعرفون باغليبيتهم الساحقة لا القراءة ولا الكتابة . وفى المدارس الدينية
المحلية ، كما فى جميع المدارس الدينية فى اى مكان آخر ، يعلمون العلوم
الرتيبة الدينية ذاتها بتفاصيلها الدقيقة جدا وغير الضرورية ، مزدريين

المواد الضرورية كالحساب والجغرافية مثلا . ولكن المدارس الدينية ايضا تحفل بالناس القادمين ، غير المحليين ، بينما المحليون استثناء فيها .

يرد الى مكة عدد قافه جدا من الجرائد المصرية وعدد اقل من الجرائد التركية ؛ وفى الحال يصبح مضمونها معروفا فى المدينة كلها ، نظرا لشدة تحرقها الى الانباء وبالغ اهتمامها بالحياة السياسية للشعوب الاخرى .

عرب مكة سنّيون جميعهم ، واغلبهم من انصار الشافعى ، ولا يتميزون كثيرا بالتقوى والتدين . ويترددون على المساجد بحماسة وغيره طالما الحجاج لم يعودوا الى ديارهم . واذا ذاك ، يبدؤون يفضلون المقاهى وغير ذلك من الاجتماعات . وكثيرون منهم ينتسبون الى مختلف تنوع النساك ، وبخاصة الى انصار الرفاعى ؛ وما يجتذبهم الى هذه الشيع ، بقدر ما استطعت ان لاحظ ، ليس الشعور الدينى بل احتمال الاشتراك ، انشاء حقبة السكون ، اى بعد رحيل الحجاج ، فى مختلف المواقب والاجتماعات وما الى ذلك . وبما ان سكان مكة الاصليين ليسوا مفرطين فى التدين والتقوى ، فهم كذلك براء من التعصب ؛ وان دورا كبيرا فى ذلك ، وايضا فى تطورهم الفكرى العام ، يعود ، كما يخيّل الى ، الى اسفار اغلبية سكان هذه المدينة الى البلدان الاخرى ؛ فبعد رحيل الحجاج ، يقومون برحلات الى جميع البلدان التى يعيش فيها المسلمون لكى يتناولوا «البذل» اى التكاليف بالقيام بفرائض الحج بالنيابة عن احد ما لقاء مكافأة معينة ؛ وبما انهم شعب محب للمعرفة والاستطلاع وحساس جدا ، فانهم يهتمون بكل شئ ويتفحصون كل شئ ، واحاديثهم عن الامم الاخرى غالبا ما تكون صحيحة وصائبة ودقيقة جدا .

يبقى ان اقول ان العرب حرفيون ممتازون فى الشغل على الحجر وعلى الخشب ، ويملكون ذوقا رفيعا جدا . ومباني الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة تتميز بعمل بارع جدا . والمباني بالاسلوب الاوروبى مبنية جميعها بايادى الاساطين العرب .

المرتبة الثانية من حيث العدد يشغلها فى مكة الماليزيون او «جاوه» كما يسمونهم هنا نقلا عن اسم جزيرة جاوه . وهم يبرزون جدا بلامعهم المتميزة ، ولذا من الممكن معرفتهم من النظرة الاولى رغم انهم باغليبيتهم يرتدون الالبسة العربية . ويقدرّون عدد الماليزيين بخمس عدد السكان الاجمالى فى مكة اى قرابة ١٤-١٦ الف نسمة ؛ وقد علمت من الاحاديث

ان «جاوه» شرعوا يتوافدون الى مكة فى السنوات العشرين الاخيرة على الاخص بعضهم بدافع الشعور الدينى وبعضهم الآخر بدافع المصالح التجارية . ويبلغ عدد الماليزيين الشبان الذين يتعلمون هنا قرابة الفين ؛ وهناك بضع عشرات من المعلمين الماليزيين يتعاطى ثلاثة منهم خصيصا ترجمة الكتب العربية الى لغتهم . ويتصف الماليزيون بسمه مميزة ، هى الطبع الهادى ، المسالم ، الذى دخل هنا فى الحديث العادى ، اذ يقولون «طيب ومسالم مثل جاوه» ، وكذلك التضامن المذهل فيما بينهم ؛ فان الجاوه المحليين يعيشون جميعهم مشاعيات كبيرة ، باشراف مديريسيّد مشترك واحد منتخب لكل الجالية . ابناء القوميات الاخرى ، وبخاصة العرب ، يعاملون الماليزيين ببعض التعالى .

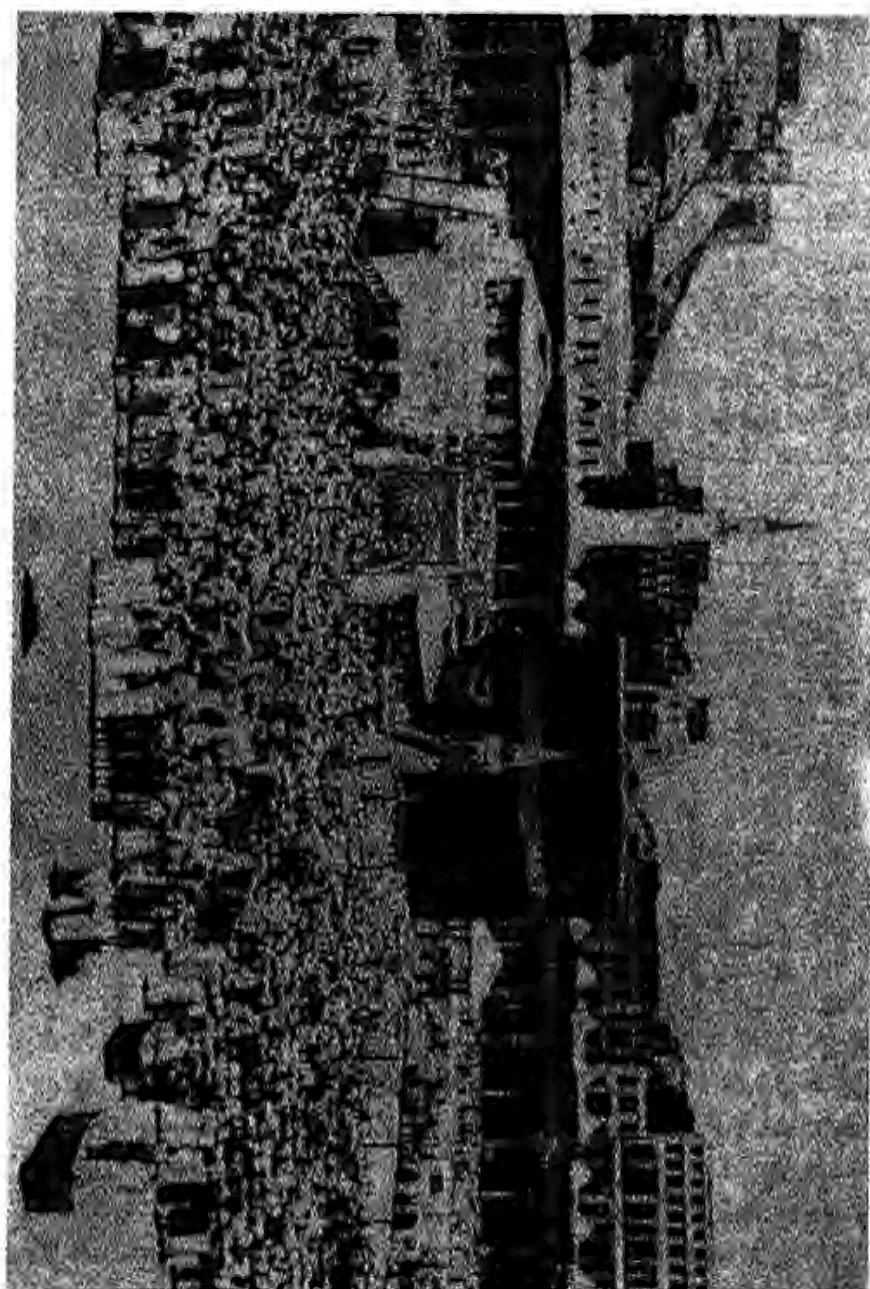
والا تراك هم على الاغلب مستخدمون فى مختلف المؤسسات الخيرية والتعليمية التى تتشكل بمعظمها من الاوقاف التركية ولا تقبل السكان المحليين .

ابناء القوميات الاخرى هم بوجه الحصر تجار او نظار فى تكيات قومياتهم ؛ ومن عداد المسلمين من رعايا روسيا الذين يعيشون دائما هنا ويشرفون على التكيات ثمانى عائلات تترية ، وعائلتان من القرغيز وسبعة تلامذة فى مدرسة دينية .

اشغال سكان مكة

يمكن وصف اشغال سكان مكة بايجاز بالغ - يعيشون على الحجاج وقبل الاسلام ايضا ، كانت مكة مركزا تجاريا لعموم الجزيرة العربية ، وكان زمن الحج فى الوقت نفسه زمن السوق التجارية السنوية . وهذا الطابع بقى حتى الآن ؛ واثناء توافد الحجاج ، تتحول المدينة الى بازار هائل ينتشر من ابواب الحرم بالذات فى جميع الشوارع والازقة .

علاوة على استيراد كمية كبيرة من المنتجات المعيشية ، لتلبية حاجات جدوع الحجاج البالغ عددها اكثر من مائة الف ، يستجلبون الى هنا كمية كبيرة من شتى البضائع من القسطنطينية ومصر والبلدان المجاورة فى آسيا ، وذلك مع قوافل الحجاج او بالبواخر الى جدة . والقسطنطينية هى الوسيط الرئيسى فى تجارة البضائع الاوروبية ؛ ومنها تحصل مكة على كل الاحتياطي من الاقمشة القطنية والصوفية والاحذية والخردوات والبقالة والطحين الروسى وكاز باكو وخلافها .



تجمع

مصر تقدم على الاغلب المنتوجات المعيشية : الحنطة ، الفول ، الشعير ،
الذرة الصفراء ، العدس ، الرز ، السكر ، زيت الزيتون ، وما الى ذلك .
سوريا ترسل مع الدحمل الدمشقي وبحرا ، عبر بيروت ، كمية كبيرة
من البضائع الحريرية ، والالبسة الحريرية الجاهزة ، والمناديل المطرزة
بالحرير ، والفواكه المجففة ، والفالوذة .
بغداد والبصرة ترسلان مع قوافل الحجاج البضائع الحريرية والصوفية ،
والرز ، والسمنة البقرية والسمنة الغنمية .
بلاد فارس ترسل السجاد والحصائر والعباءات وغير ذلك من البضائع
الصوفية .

الهند ترسل البضائع المستعمرية ، والآنية من النحاس والبورسلين ،
والمطبوعات والدرجان والمواد العلاجية والمواد العطرية ، وخلافها .
اليمن ترسل البن ، وعين الشمس ، والعقيق .
جزر الهند ترسل الكندر .

فى مكة ينتجون كمية تافهة جدا من الاشياء التى يجرى تصريفها بين
الحجاج القادمين ؛ والمقصود هنا المسابح المخروطة من الصدف وغير
ذلك من المواد ، والخواتم الفضية المرصعة باحجار عين الشمس اليمنى :
كذلك يصنعون الخواتم من الزخارف الفضية المنتزعة كل سنة
من الحرم ، كما يصنعون آنية من الصفيح لاجل نقل مياه زمزم ، وما
الى ذلك .

ثم ان سكان مكة يكسبون مبلغا كبيرا من النقود بتأجير الحجاج الغرف
والشققات وقيامهم بمراسم الحج بتكليف من الحجاج او بالنيابة عن اقاربهم
الفائبين ، وقيامهم بدور المرتدين فى حال اداء الفرائض والمراسم ، وتأجير
الحمير التى تحظى دائما بطلب كبير نظرا لعدم وجود عربات الحوذيين ،
وما الى ذلك .

اثناء الحج ، لا يتعاطى السكان المحليون وحدهم التجارة ، بل يتعاطاها
كذلك تجار قادمون كثيرون . وهناك تجارة اكبر ، كما قالوا لى ، فى ايدى
الهنود ؛ ولم يتسن لى ان اعرف مقدار التبادل التجارى . من الممكن بصورة
تقديرية جدا تخمين المبلغ الذى يخلفه الحجاج سنويا فى مكة بين ٥ و ٨
ملايين روبل .

اسعار السلع المعيشية اثناء تجمع الحجاج تتقلب كثيرا تبعا لحركة
الاستيراد وعدد القادمين ، مثلا :

في سنة ١٨٩٨ ، سعر رطل واحد من		في سنة ١٨٩٨ ، سعر رطل واحد من		في سنة ١٨٩٨ ، سعر رطل واحد من	
اثناء الحج		اثناء الحج		اثناء الحج	
في الوقت العادي		في الوقت العادي		في الوقت العادي	
بالكوبيكات		بالكوبيكات		بالكوبيكات	
١٠٠	١٠٠	١٨	١٢	١٨	١٢
١٨	١٧	٢٧	٢٥	٢٧	٢٥
٢٥	٢٦	٣٥	٤٠	٣٥	٤٠
٦	٦	٥٠	٥٥	٥٠	٥٥
٦	٦	١٨	١٥	١٨	١٥
		٧٠	٧٠	٧٠	٧٠

النظام النقدي

جميع العمليات التجارية في الحجاز تجرى عدا ونقدا ؛ والليرة التركية الذهبية هي الوحدة النقدية الاساسية ، وتبلغ قيمتها حسب نقدنا ٨ روبلات و ٥٠ كوبيكا ؛ ولكن اقيم هنا لاجل الحسابات الصغيرة نظام نقدي معقد ومشوش الى حد ان التجار والصرفاء انفسهم يرتبكون ، ولا يستغنون عن القلم والورق عند اجراء الحسابات . فان الليرة تتألف من ١١٠ قروش كاملة ، ولكن يوجد ايضا الى جانبها قرش ناقص تحتوى الليرة منه ١٤٩ قرشا . سعر الليرة يتغير باستمرار ، ويختلف باختلاف النقاط في الحجاز . وليس في كل مكان يقبلون النقود النحاسية التركية .

عدا النقود التركية ، يشمل التداول هنا النقود الذهبية والفضية ، لا من البلدان التي جاء منها الحجاج وحسب ، بل ايضا من دول لا وجود فيها لاي مسلم ، مثلا ، الين الياباني . واوسع النقود استعمالا ، القرش الفضي الهولندي والقرش الفضي المكسيكي او ، كما يسمونهما هنا «الريال» او «البورون» ؛ وقيمة كل منهما هنا ١٠-١١ قرشا كاملا تركيا .

لا يقبل البدو غير هذه النقود ، ويرفضون الذهب ، ولذا تحسب بدلات ايجار الجمال ، وكذلك جميع الاثمان غير الكبيرة في البازار بالريالات بوجه الحصر .

كذلك توجد قيد التداول سندائنا المالية التي تحظى هنا بالثقة الكبيرة والتقدير الرفيع ؛ فيمقابل مائة روبل من السندات المالية تقاضيت هنا زهاء ٩٠ روبلا ذهبيا . وسعر العملات ، كما سبق ان قلت ، يتقلب دائما . في سنة ١٨٩٨ تواجدت الارقام المتوسطة التالية :

النقود الذهبية	اثناء تجمع الحجاج		النقود الفضية	اثناء تجمع الحجاج	
	(بالقروش الكاملة)			(بالقروش الكاملة)	
الليرة التركية الجنيه الاسترليني نصف الامبريال النابليون الذهبي	١١٠	١١٠	المجيدية	٢٠	٢٠
	١٢٠	١٢٠	الريال الهولندي	١١	١١
	٩٦	٩٦	والمكسيكي		
	٩٦	٩٦	الروبل الفضي الروسي	١٢	١٣

تجارة الرقيق

يوجد في الحجاز نوع آخر من التجارة ، نادر في الوقت الحاضر ، وينتشر كثيرا اثناء تجمع الحجاج ، هو تجارة الرقيق (النخاسة) .
الارقاء الذين يباعون في الحجاز ينتمون بوجه الحصر الى قوميتين :
الزنج السود تماما من السودان الذين يعتبرونهم في الحجاز افضل الكادحين ،
والذين يشترونهم ، سواء منهم الرجال ام النساء ، لاجل العمل فقط ، ثم
الاحباش ، وهم اقل سوادا ؛ ويشتررون النساء منهم كمحظيات .
يستجلبون الارقاء من الساحل الافريقي للبحر الاحمر ؛ وهناك ، اغلب
الظن ، نظام متكامل لا يصلهم الى السوق الرئيسية في مكة . والارقاء الحاليون
هم بمعظمهم اولاد مخطوفون يشتريهم في محالهم تجار محتكرون يجلبونهم الى
الساحل ثم ينقلونهم بحرا وخفية على سمابك الى سواحل الجزيرة العربية ،
حيث يشتريهم بسعر يتراوح للواحد منهم بين ٥ و ١٠ ليرات تركية وسطاء
يتعاطون ثقلهم لاحقا .

لم استطع الحصول على معلومات دقيقة نوعا ما عن مقادير هذه التجارة ،
ولكن يقال ان عدد الارقاء المباعين في السنوات المؤتية حين يحالف التوفيق

اعمال السرقة ، ولا تعترض السلطات في مرفأ سواكن مجموعاتهم في الطريق ، يبلغ زهاء ٢٠٠٠ شخص . سعر الفتاة الزنجية الراشدة حوالى ٢٠ ليرة ، وسعر الفتاة الحبشية الراشدة ٣٠-٤٠ ليرة ؛ وسعر الكادح الجيد الزنجى او الحبشى ٣٠-٤٠ ليرة ايضا ؛ وسعر الاولاد ذكورا واناثا ١٠-١٥ ليرة . اما الشراة فهم ، على العموم ، سكان الجزيرة العربية ، وبخاصة سكان الحجاز ، سواء منهم السكان الاصليون ام القائمون هناك مؤقتا . وفي مكة والمدينة لا يوجد اى بيت ليس فيه عبد وعبدة يقومان بجميع الاعمال البيتية ، ومنها جلب الماء ، وتحضير الطعام ، وغسيل البياض ، والعناية بالاطفال ، وما الى ذلك . كذلك الرحل يعهدون الى الارقاء بعمل اصعب . ومعاملة الارقاء حيث تسنى لى ان اراقبها ، طيبة ، انسانية .

كذلك يشتري الحجاج العبيد لى يعتقوهم ، لى يعيدوا اليهم الحرية ، لان اعتناق العبد يعتبر ، بموجب تعاليم الاسلام ، من اكثر انواع الاحسان ارضاء للرب . وفى جميع مدن الحجاز وفى جميع القبائل البدوية يوجد عدد كبير من الارقاء السابقين الذين اعتقهم اسيادهم او اقتداهم الحجاج ؛ وبلدة خيبر الكبيرة الواقعة فى جوار المدينة المنورة تتألف حصرا من الارقاء السابقين . والاعتناق ترافقه وثيقة خطية خاصة ينظمها القاضى المحلى ؛ واذا كان الرقيق المعتق قاصرا ، فيوضع تحت وصاية شخص ما حتى بلوغه سن الرشد .

وعلى طرق القوافل يجرى ، اغلب الظن ، توريد الامات الى البلدان المجاورة . وفيما يخص السبل البحرية ، تسنى لى ان اسمع ان هذه العملية نادرا ما يحالفها النجاح اذ ان السلطات الانجليزية او المصرية تنتزع الأمة بموجب تصريحها الاول . وبالفعل ، شاهدت فى الطور امرأة مسافرة مع مغربى ؛ واذا بها ، بعد انتهاء الحجر الصحى ، تعلن ان هذا المغربى اشتراها فى مكة وانه يقودها الآن بالعنف ؛ ورغم جميع احتجاجات سيدها وزعمه انه قد تزوج منها ، انتزعوها منه . (

يشغل سوق النخاسة فى مكة حوشا مفتوحا غير كبير ، تطل عليه ابواب غرف يجلسون فيها المباعين لقضاء الليل . وعندما زرت هذا السوق ، كان هناك زهاء ٨٠ شخصا معظمهم شبابت حبشيات مع اثنتين او ثلاث منهن اطفال رضع ، وجميعهن مزيّنات ومصفوفات فرقا على دواوين طويلة ؛ وكان هناك مقعدان يجلس عليهما كادحون راشدون من الزوج ، لابسون بعناية ومقصوصو الشعر ؛ والباقون كانوا اولادا من ذكور واناث يلعبون بمرح وهناء فى اماكنهم . اشرف على البيع تاجر عربى نشيط راح يمدح بصوت مدو مزايا

بضاعته . اختار بعض الشراة من البدو النساء ، وتفحصوا عيونهن وافواههن ،
واجبروهن على خلع ملابسهن . وقد تركت زيارة هذا السوق فى نفسى انطباعا
كثيبا ومرهقا جدا .

ان الشريعة ، كما هو معلوم ، لا تجيز الا استعباد اسرى الحرب ، ولذا
ليس لهذا النوع من امتلاك العبيد الموجود فى الحجاز ، اى مبرر على الاطلاق
من وجهة نظر الشريعة ايضا ؛ والدرائع التى يسوقها السكان المحليون
للدفاع عن انفسهم - ، ومفادها ان الناس المباعين هم من ذرية عبيد
سابقين ، وانهم يبيعونهم كعبيد ، وان الشارى لا يعرف باى طريقة تم
الحصول على هؤلاء العبيد - انما هى تناقض فى منتهى الجلاء . ولكن
الحجازيين انفسهم يشكون ، على ما يبدو ، فى شرعية حقوقهم ؛ وبما انهم لا
يملكون القوى والشجاعة للتخلى كليا عن هذا الكدح الرخيص ، فانهم يعتقدون
بعد مرور عدد معين من السنين الارقاء الذين اشتروهم ، ويعقدون عقود
الزواج مع النساء تخوفا من لاشريعة المعاشرة .

ذات مرة ، قامت الحكومة التركية بمحاولة لاغلاق سوق النخاسة ، فصدر ،
اثر ذلك ، فى سنة ١٨٥٥ ، فرمان سلطاني خاص ؛ ولكن هذا فرمان
استنار انتفاضة فى عموم الحجاز . وفى سنة ١٨٥٨ قتلوا فى جدة جميع
الاوروبيين الذين كانوا يعتبرونهم عن حـق وصواب مسؤولين عن صدور
القانون الجديد ، كما قتلوا القنصل الفرنسى فى جدة ؛ وفى السنة التالية ،
١٨٥٩ ، اُلغى فرمان وبقي امتلاك العبيد قائما على اسسه السابقة .

الظروف الصحية فى مكة . الماء

تستعمل مكة الماء من نوعية جيدة وبكمية كافية . ولا يحدث نقص فى
الماء حتى اذا كان تجمع الحجاج كبيرا .

والماء يساق من على بعد ٧٠ فرستا ، من نبع عين [. . .] يقع فى التلال
السفحية من جبل القرى ، ثم يلتقى مجروره مع ساقية تنطلق من وادى
النعمان ، فيطلق عليه اسم عين الزبيدة ، باسم زوجة خليفة بغداد الشهير
هارون الرشيد التى سيق الماء للمرة الاولى فى عام ٨٢٧ بفضل اموالها حتى
جبل عرفات ؛ وفى عام ١٥١٩ ، فى عهد السلطان سليمان القانونى ، تم
تمديد مجرور الماء حتى مكة ، ولكن الامطار الوايلة كانت تفسده دائما ،
ولذا كان يتعطل فى غالب الاحيان . وللمرة الاخيرة جرى اصلاحه باموال

مكة المكرمة وتبدو الكعبة إلى يسار الصورة / أواخر القرن التاسع عشر



مجموعة من الحجاج وتبرع بها مختلف الناس في عهد والى الحجاز عثمان باشا ؛ وبهذا النحو لا يزال يؤدي وظيفته في الوقت الحاضر .

يتألف مجرور الماء من انبوب واسع مركب من احجار مشدودة بالكلس وممدود على القطاع الاكثر انخفاضا في فج وادى منى ، بمعاذة الطريق المتطلقة من مكة الى الطائف ؛ وفي بعض الاماكن ، يمتد الانبوب بصورة غير عميقة جدا بحيث تظهر قبتة العليا ؛ ولكن متوسط العمق يتراوح بين ساجين وساجينين ؛ وفي بعض الاماكن انشأوا منافذ هواء بصورة آبار مكشوفة مبلطة بالحجر ويستفاد منها في الوقت نفسه لاستخراج الماء .

وعند جبل عرفات يمر الماء عبر بضعة احواض مكشوفة طويلة مبنية لاجل استحمام الحجاج . ولاستعمال الماء ضمن حدود المدينة ، انشئت احواض خاصة بشكل حفر واسعة مبلطة بحجر منحوت يتراوح عمقها بين ساجين و٣ ساجينات ، ومزودة بسلالم حجرية عريضة وبارضية مفروشة بالبلاط . يمر الماء عبر مزارب منحوت من الحجر ، ممدود قرب احد جدران الحفرة على علو ارشين واحد تقريبا من الارضية ؛ يستقون الماء من هذا المزارب ببواط مربعة الزوايا من الصفيح لان اى شكل آخر للبناء لا يصلح نظرا لان علو سيل الماء تافه . وعدا ذلك ، انشئت في اعلى في الجدران بضع آبار ذات بكرات معدنية لاجل استقاء الماء بالدلاء ، دون النزول الى اسفل ، الى المزارب . عدد جميع نقاط استقاء الماء في مكة ٤٠ . يجرى توزيع الماء على البيوت في قرب كبيرة ؛ وهذا العمل المرهق يقوم به الارقاء ، الحقيقيون او المعتقون ، الذين يكسبون رزقهم بهذه الطريقة . وفي البيوت يحفظون الماء في قلال طينية خاصة تتسع كل منها لزهاء ١٠ دلاء .

حالة البيوت

البيوت في مكة نظيفة جدا ؛ الجدران مبيضة دائما من الداخل ومن الخارج ؛ الغرف والسلالم مكنسة بعناية ؛ بيوت الخلاء الواقعة في السلالم او في احدى الغرف الامامية لها دائما ارضية من الاسمنت ، وتتصف ببالح النظافة ، ولكن بنيان ونظام تنظيف البالوعات رهيبان للغاية ؛ فقرب جميع البيوت توجد في الشوارع خنادق ذات مقاييس متنوعة ، مفروشة بالحجر ومسدودة من فوق باحكام ؛ والى الخندق يتجه الغائط من جميع بيوت الخلاء في البيت واليه تنسكب ايضا عبر بيوت الخلاء ذاتها كل الغسالة ؛ ومرة في السنة ، وعادة بعد رحيل الحجاج ، يجرى تنظيفها ؛ ولهذا الغرض

يستأجرون الزوج ؛ وهؤلاء يحفرون سلفا على مقربة فى الشارع حفرة جديدة ، وينقلون اليها كل مضمون البالوعات ثم يطمرونها ؛ وليس من المتبع استعمال الكلس او وسائل معقمة اخرى . فى البيوت الخاصة ، لا يحس المرء فى بيوت الخلاء برائحة شديدة ، ومرد ذلك على الارجح ، الى ان الناس لا يسكنون فى الطوابق السفلى القريبة من الحفرة . ولكن بيوت الخلاء العامة تطلق رائحة كريهة رهيبة ، فلا يمكن المرور بقربها دون سد الانف .

حالة الشوارع والبازارات

الشوارع ، كما قيل اعلاه ، تشكل مكانا لرمى كل ضرب من الزبالة ونفايات المطابخ ؛ وفى الحال تنقض الكلاب المتشردة والموازع على كل ما يصلح للاكل منها . مرة فى اليوم يكتسبون الشوارع الرئيسية ، ولكن الزبالة تتكوم فى الازقة طوال اشهر ، وتهترئ الحيوانات الميتة ، ويعتبر السكان كل هذا امرا طبيعيا تماما ، ولا يرتبكون البتة من الرائحة الكريهة ؛ وفى هذه السنة بقى جمل ميت ٦ ايام فى احد الشوارع الرئيسية ، قرب قصر الشريف ، ورفعوه ونقلوه حين جف كليا تقريبا . ومفهوم ان تكون الشوارع مغبرة جدا من جراء الحركة الكبيرة ومن جراء عدم رشها ابدا ، ولانها غير مزفتة وغير مبلمطة . وعن البازارات ينبغى ان نقول الشئ نفسه ؛ فهى فى كل مكان قلرة ، ومغبرة جدا .

المسلخ

يقوم المسلخ خارج المدينة ؛ وهو قذر جدا ، كما كان يصح ان اتوقع . وطمر البقايا يجرى ببالح الاهمال ويرمى شريحة طفيفة من التراب .

المقبرتان

توجد فى مكة مقبرتان غير كبيرتين ، تقعان على طرف المدينة . وبما ان المحلة لا تتيح توسيع المساحة التى تشغلها المقبرتان ، فانهم يحفرون مدقنا فوق آخر ، ويستخرجون عظام المدفونين سابقا ويجمعونها فى حفر

ترابية مهياة خصيصة تسمى الواحدة منها «مخزن» . واذا اخذنا بالحسبان النسبة الكبيرة على العموم من الوفيات بين الحجاج والابوثة المتكررة ، فلا يد من الافتراض ان عدد المدفونين هنا يبلغ رقما ضخما جدا . واداء لمراسم الجنائز ، يحملون الموتى الى الكعبة ، ثم ينقلونهم بعد مرور بضع دقائق الى المقبرة حيث توجد دائما بضع حفر جاهزة لاجل الدفن . عمق الحفرة حتى صدر الانسان . ولا وجود البتة لنقل الموتى من خارج المدينة ، ولا حتى من اماكن قريبة مثل منى (٦-٧ فرستات) .

الظروف المناخية في مكة

المناخ الحار في الحجاز تشتد وطاته في مكة من جراء انحصار المحلة بشدة بين الجبال ، وتزاحم البيوت ، وعدم استقامة الشوارع ، والغبار الدائم ، رغم ان مناخ هذه المدينة يعتبر صحيا بالنسبة لمن اعتادوا عليه . وحسب مراقباتي ، كان متوسط الحرارة في مكة (علوها ٩٣٠ قدما فوق سطح البحر الاحمر) في نيسان (ابريل) واول ايار (مايو) ، في غرفة من طابق متوسط محمي جيدا من الشمس ٣٠ درجة ريوهور فوق الصفر وكانت ترتفع نهارا الى ٣٢-٣٣ درجة ، وتهبط قبيل الصباح الى ٢٧-٢٨ درجة ؛ وفي تموز (يوليو) ، كما افادوني ، بلغت الحرارة في النهار هناك ٣٧ درجة ريوهور فوق الصفر .

ويستفاد من المعلومات الواردة في كتاب «الحجاز» ان متوسط الحرارة في مكة هو التالي : كانون الثاني (يناير) ١٨ درجة فوق الصفر ، شباط (فبراير) ٢٠ درجة ، آذار (مارس) ٢٣ درجة ، نيسان (ابريل) ٢٤ درجة ، ايار (مايو) ٢٧ درجة ، حزيران (يونيو) ٢٩ درجة ، تموز (يوليو) ٢٩ درجة ، آب (اغسطس) ٣٠ درجة ، ايلول (سبتمبر) ٢٨ درجة ، تشرين الاول (اكتوبر) ٢٥ درجة ، تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٤ درجة ، كانون الاول (ديسمبر) ٢٠ درجة .

ويستفاد من احاديث الطبيب عثمان افندي الذي تسنى لي ان اتحدث معه احيانا كثيرة ان المرض الاكثر انتشارا في زمن القيظ ، وبخاصة بين الحجاج القادمين من الشمال هو «ابو الركب» وهو ضرب من الانفلوانزا (اصلها انف العنزة) وكذلك اختلال في اعضاء الجهاز الهضمي يتخذ احيانا شكل الزحار (الدوسنطاريا) ؛ وسبب المرض الاخير الذي ذكره الطبيب قد اعاده جزئيا الى استهلاك الماء من بئر زمزم بدون اعتدال والى الطعام

النقىل الذى ىستجلبه الحجاج معهم من اوطانهم ؛ وغالبا جدا ما ىحدث مرضى الحصوة ؛ وفى الشتاء غالبا ما تصاب اعضاء التنفس .

المستشفى والصىدلىات

لتوفىر العلاج فى المستشفى والمستوصفات لاجل الطبقة الفقيرة ، وتوزىع الادوية مجانا ، ىوجد مستشفى من ٣٠ سرىرا ، ىعمل فیه طبقىان وصىدلى واحد على حساب اموال الاوقاف التى تبرعت بها والدة السلطان عبد المجىد . ىقع المستشفى فى وسط المدينة فى مبنى خاص به ؛ ومفروشاتة جىدة نسبىا ؛ فتحت تصرف المرضى اسرّة ملائمة ، ولوازم فراش نظىفة وطعام جىد ؛ ىلقون عناية جىدة . وحقن زرت المستشفى كانت جمىع الاماكن مشغولة . وكان المرضى ىعانون باغلبىتهم من امراض التهاب المعدة . وقد قال الطبقى ان هذه المؤسسة العلاجىة تستطىع فى اقصى الضرورة ان تقبل حتى ٦٠ مرضىا .

وتوجد فى المدينة صىدلىتان خاصتان صغىرتان جدا وفقىرتان وصىدلىة حكومىة واحدة ؛ وهذه الصىدلىات لا تملك غىر الادوية الاكثر استعمالا .

السلطات الادارىة والقضائىة فى المدينة

المدينة ىحكمها مباشرة الوالى والشرفى ، ولا توجد البتة اىة سلطات مدينىة (بلدىة) حقا . ولاجل حل الخلافات والدعاوى ، ىوجد ضرب من قاض مدينى (بلدى) هو «المحتسب» . وللنظر فى القضایا الشرعىة ، ىرسلون كل سنة من القسطنطنىىة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة قضاة خاصىن ؛ وفضلا عن ذلك ، ىوجد اربعة مفاتى ، اى مفتى واحد بكل من المذاهب السننىة . ولحفظ النظام فى الشوارع لم ار سوى دورىة عسكرىة واحدة ، قرب الحرم . اما فى الاماكن الاخرى ، فان امر المراقبة على النظام متروك للسكان انفسهم ؛ والسكان ىقومون بالفعل جزئىا مقام رجال الشرطة ؛ ففى حال الشجار ، الامر الذى غالبا ما ىحدث بىن صبىان الشوارع العرب ، ىتراكض التجار من الدكاكن المجاورة او ىتراكض المارة ، ىفرون فورا بىن المتشاجرىن ؛ واذا ما تهاوى جمل فى الشارع ، او اذا ما حدثت سرقة ما ، - وهذه ظاهرة نادرة نسبىا هنا رغم تقاطر الناس من كل شاكلة وطراز باعداد كبرىة - ىحرص الناس انفسهم على انهاض الجمل ، وعلى اعتقال

السارق وايصاله الى السلطات . اما النظم التي تتطلب الرقابة الدائمة ، فلا وجود لها هنا ؛ مثلا . لا ضبط ولا تنظيم لحركة القوافل في الشوارع ؛ ومن جراء ذلك تتوقف الحركة ساعات وساعات ، وتمتلئ الشوارع بالجمال ، دون ان تترك مكانا حتى لسير المشاة .

البريد والبرق

توجد في مكة مؤسسة للبريد والبرق تحفل دائما بالعمل اثناء تجمع الحجاج . والبريد المحلى لا يقبل الطرود ولا الارساليات النقدية ، ولا حتى الرسائل المسجلة ؛ واثناء الحج يقتصر عمله كله فى قبول وتسليم الرسائل البسيطة فقط . ونقل البريد على ظهور الحمير الى جدة فى اتجاه ، وإلى الطائف فى اتجاه آخر ، يقوم به احد السكان المحليين . اما النقل الى المدينة المنورة ، فيقوم به البدو على الهجائن . وغالبا ما سمعت الشكاوى من ان الرسائل البسيطة ، وبخاصة فى زمن الحج ، تضيع بكثرة .

ومكة موصولة بخط برقى (تلفرافى) مع جدة والطائف . واثناء اقامة الحجاج فى منى يفتتحون فيها محطة مؤقتة . وجدة تعمل بكبل يمتد الى سواكن - وهى بلدة مصرية على الساحل المقابل من البحر الاحمر . وختاما للكلام عن هذه المسألة ، يبقى ان اقول انه لا توجد فى الحجاز مؤسسات للبريد والبرق الا فى النقاط الثلاث المذكورة اعلاه - مكة ، وجدة ، والطائف . وفى المدينة المنورة لا يوجد سوى مركز برىدى يقبل الرسائل البسيطة والمسجلة فقط ، ويعمل بصورة غير منتظمة ؛ فان الرسائل تصل من مكة تارة مرة فى الاسبوع ، وطورا مرة فى كل اسبوعين ؛ ولا وجود للاتصال المباشر مع ينبع حيث توجد ايضا مؤسسة بريدية . ونقل البريد فى البحر الاحمر تقوم به شركة الملاحة الخديوية السابقة التى تدخل سفنها فى الوقت الحاضر كل اسبوع الى مرفأ جدة ، ومرتين فى الاسبوع الى مرفأ ينبع . وفى غضون ٣-٤ اشهر فى السنة ، حين يعبرى نقل الحجاج من ينبع الى اوطانهم ، لا تدخل سفن البريد الى هذا المرفأ اطلاقا نظرا لمضايقات الحجر الصحى .

مدينة الطائف

ان القبط الذى لا يطاق صيفا فى مكة يجبر سكانها على الذهاب الى مدينة الطائف الواقعة على بعد ٧٠-٨٠ فرستا تقريبا الى الشرق من مكة .
تقول اسطورة عربية ان ابراهيم خاطب الله حين بنى الكعبة قائلا : «يا الله ! بامرك بنيت مذبحا واسست مدينة ، فبماذا سيتغذى سكانها من الآن وصاعدا ؟» . آنذاك ارسل الله رئيس الملائكة جبرائيل الى سوريا ودار دورة (قام بالطواف) حول قطعة كبيرة من الارض وحملها الى الطائف . ولذا ، كما يقول العرب ، كان المناخ فى الطائف والنبات ايضا سوريين حقا . وبالفعل تختلف مدينة الطائف وضواحيها ، بفضل موقعها العالى (على ارتفاع ٥١٥٠ قدما فوق سطح البحر) ، اختلافا شديدا عن سائر انحاء الحجاز ، وتتميز بمناخ اكثر اعتدالا ، وبغياب رياح السموم ، وبوفرة الماء الجارى ، وبطول الامطار احيانا كثيرة نسبيا ؛ ولذا تتواجد تبعا للظروف المذكورة اعلاه ، نباتات مغايرة تماما ؛ فهنا توجد الكروم وبساتين الموز والبرتقال والدراق والمشمش والرمان وغير ذلك . والطائف تزود مكة بخضراوات لا تنبت فى انحاء الحجاز الاخرى .

تقع مدينة الطائف فى محلة مكشوفة ، على السفح الشرقى من جبل القرى ، وتحيط بها بساتين كثيرة يخص قسم منها سكان المدينة وقسم آخر بدو الضواحي . والطائف تشبه مكة من حيث الشوارع والبازارات ومعمارية البيوت . وحول الطائف ينتصب سور حجرى له ٣ بوابات يفلقونها ليلا وعدد السكان الدائمين فى الطائف الف وخمسمئة .

المدينة المنورة

المدينة المنورة او مدينة النبی هي المدينة الثانية من حيث الكبر فى الحجاز ومن حيث الاهمية فى العالم الاسلامى .
تقع المدينة على بعد حوالى ٣٥٠ فرستا بخط مباشر الى الشمال من انقاض مدينة يترب القديمة ، وسط سهل عريض يحيطه جبل ا'خد من الشمال وجبل خيبر من الجنوب ويضيق السهل الى الغرب وينفتح الى الشرق . والمدينة مطوقة بسور حجرى تنتصب ابراج فى زواياه ، وقرب بواباته الاربع ؛ وقد بنى السور فى عام ١٥٣٥ وتم تجديده عند انتهاء حركة الوهابيين . والمدينة بالذات تشغل رقعة صغيرة جدا من الارض ، حوالى فرستا مربع واحد ؛ من الجهة الغربية تلتصق بها ضاحية «مناخة» التى نسأت

فى الآونة الحديثة والمسيجة بدورها بسياج يلتصق فى اطرافه بسور المدينة المنورة .

الشوارع

إذا دخلنا عبر البوابة الغربية للضاحية المسماة «الانبارية» ، التى لا يجيزون الا عبرها دخول وخروج القوافل والركب ، فان العين تقع على شارع عريض ، مخطط باستقامة ، وتنتصب فيه اعمدة للمصابيح من كلا الجانبين وبيوت كبيرة . من الجانب الايسر فى هذا الشارع ، قرب البوابة بالذات ، يقوم المبنى الشاسع للتكية المصرية التى تتفق وظيفتها مع وظيفة التكية الماثلة فى مكة ؛ من الجانب الايمن ، مقابل التكية ، تقوم ثكنات كبيرة ، وبقرها مستشفى عسكرى ، والى ابعد ، دار الحاكم المحلي - المحافظ . ينتهي الشارع بساحة شاسعة تتوقف فيها القوافل وتقوم فيها اسواق الحبوب والحب والماشية . وضاحية مناخية تتصل بالمدينة عبر بوابتين ، اهمهما البوابة السورية التى تؤدى الى شارع ضيق لا يربو عرضه على ٤-٥ ساجينات ، ولكنه اكثر شوارع المدينة المنورة انتعاشا وحركة ؛ وهو يعبر المدينة كلها وينتهى عند بوابة الحرم . وهناك شارع رئيسى آخر ، اوسع بقليل وتقوم فيه افضل البيوت فى المدينة المنورة ؛ وهو يتجه شمالا ، بموازة الشارع الاول ، وينتهى الى بوابة اخرى من الحرم . القسم الباقي من المدينة تنتطعه فى اتجاهات مختلفة ازقة ضيقة موزعة بشكل شبكة مشوشة خارق التشوش .

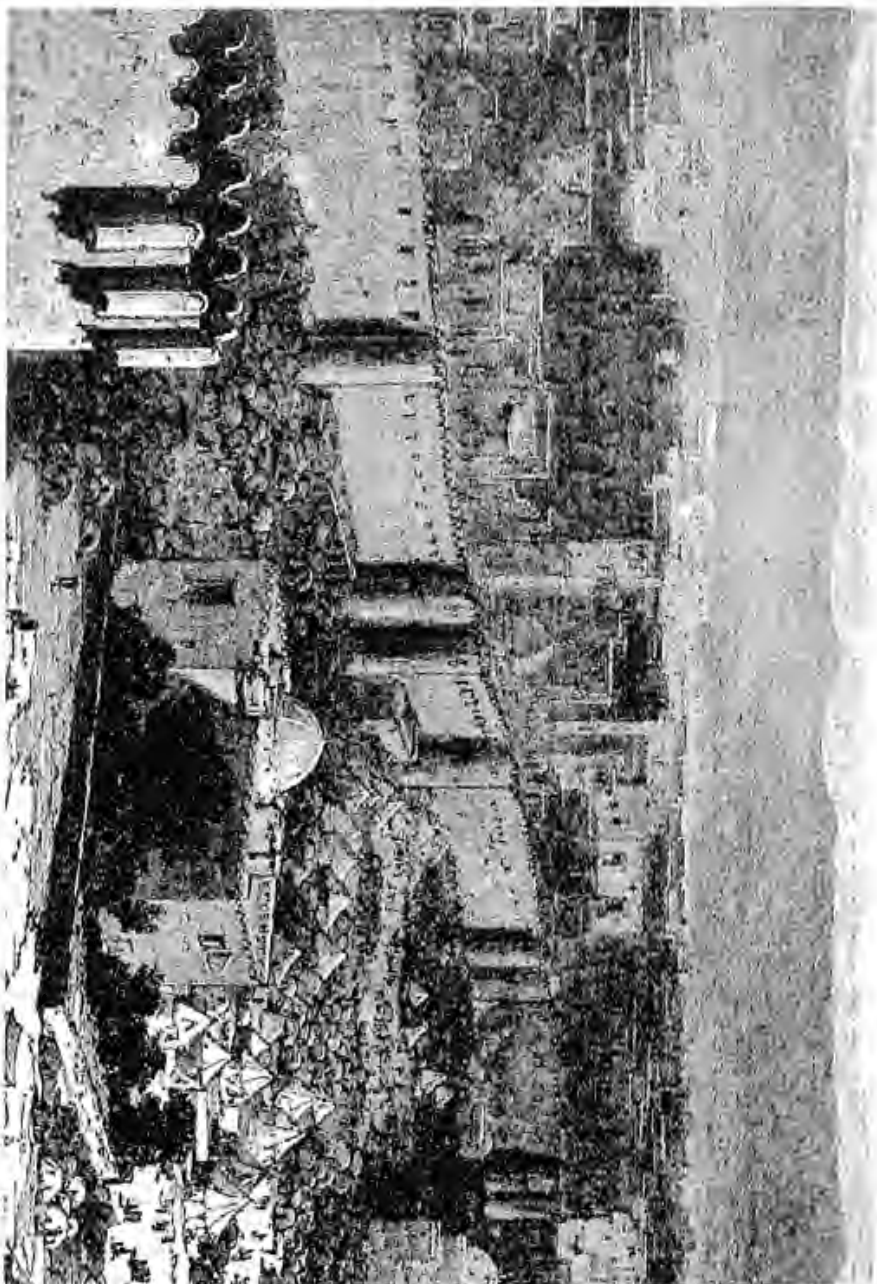
البيوت

الحجر هو مادة بناء البيوت هنا كما فى مكة . كذلك يستعملون الحمم (السائل البركاني) المتجمدة التى تغطى كل السهل فى جوار المدينة المنورة . ومعمارية البيوت كما فى مكة ، ولكن يبنون ايضا فى الطوابق السفلى غرفة خاصة بدون نوافذ مزودة بمدخنة عريضة متصاعدة الى اعلى ، وتجاوز جميع الطوابق العليا . هذه الغرفة المسماة «القاعة» هى غرفة الاستقبال عند اهل المدينة لانها ابرد من غيرها . وفى الطوابق العليا يبنون مشربيات ؛ وعلى السطح يوجد مكان لاجل راحة الليل صيفا والتدفؤ فى الشمس شتاء .

سكان المدينة واشغالهم

بموجب المعطيات التركيبية الرسمية ، يبلغ عدد السكان الدائمين فى المدينة المنورة ٨٠٠٠٠ نسمة ، ولكنه ، نظرا لابعاد المدينة ، بالكاد يربو

- منظر بانورامي للمدينة المنورة (حفر من صورة معدسة محمد صادق) سنة ١٨٨٨.



على نصف هذا العدد . والسكان انفسهم يعتبرون هم ايضا ان عددهم يبلغ زهاء ٤٠٠٠٠ نسمة .

يتألف السكان من عناصر متنوعة كما في مكة . وسكان الحجاز الاصليون هم هنا ، في المدينة المنورة ، اقل ايضا مما في مكة ؛ وجميع الافراد الذين يقولون عن انفسهم انهم عرب ، فيما عدا استثناء طفيف ، غرباء تجنسوا من زمان بالجنسية الحجازية . ويتألف نصف السكان من قادمين من زمن غير بعيد - من اترك وجزايريين وتونسيين ومصريين وسريين وتتر وغيرهم . وقد بدا لي عرب المدينة المنورة الطف من سكان مكة ؛ فهم يشوشون جدا ، مضيافون ، ودودون ، مستعدون دائما لمد يد العون عند الاقتضاء ، رفاق ممتازون في الطريق ؛ وسكان الحجاز الآخرون يفسرون على طريقتهم هذه السمات من طبع اهل المدينة المنورة قائلين ان بركة النبي لا تزال تشملهم لانهم كرموه بعد الهجرة من مكة .

في عداد السكان القادمين يوجد بضع مئات من السرت ؛ وهم هنا على الاغلب فعلة عاديون ، غير ماهرين ، ينافسون الارقاء بنجاح . والأتراك والمصريون وغيرهم يلعبون هنا نفس الدور الذي يلعبونه في مكة .

وفي المدينة تعيش ٣١ عائلة من التتر من رعايا روسيا ، هاجرت الى هنا في ازمان مختلفة ولاسباب مختلفة ، واحبت هذه المدينة وشكلت هنا جالية صغيرة في ضاحية مناخة . وهذه الجالية يرأسها عبد الستار ، الذي استقر هنا منذ ٤٠ سنة والذي نزح من محافظة استراخان .

والتتر المحليون نزحوا باغليبيتهم من روسيا بعد الاضطرابات التي نشبت بينهم في سنة ١٨٩٢ ؛ وقسم منهم حرفيون وتساء جاؤوا يبحثون عن السعادة ؛ وهناك بينهم ايضا تلامذة في المدارس الدينية المحلية تزوجوا واستقروا هنا للقامة الدائمة . واعضاء هذه الجالية يكسبون جميع موارد رزقهم من الحجاج من ابناء قوميتهم ؛ فهم يستقبلون القوافل القادمة من جهة ينبع ويحاولون ان ينزلوا الحجاج في بيوتهم ، ويقدمون لهم الطعام ويحاولون ان يستحصلوا على «بدل» ؛ وحين تعتزم القوافل مواصلة السير ، يتجمع جميع اعضاء الجالية لتوديع القوافل لكي يحصلوا من مواطنيهم على صدقة هي عادة في مثل هذه الاحوال ؛ وان من يفلحون في الحصول على بدل ، يذهبون مع الحجاج لاجل اداء فرائض الحج في مكة ؛ ومن مكة يعودون مع حجاج آخرين ، وينزلونهم في البيوت ويودعونهم بموجب النظام نفسه . وعند انتهاء الحج ، يذهب بعض من التتر المحليين الى روسيا لزيارة اقربائهم ، والاهم ، لجمع الصدقات التي يقدمونها لهم بطيبة خاطر بوصفهم من سكان المدينة المقدسة ، وللحصول

على بدل اذا سنحت الفرصة . وقد رأيت بين المهاجرين المحليين واحدا فقط كان فيما مضى تاجرا ميسورا وفر الى المدينة المنورة بسبب ادمان الخمر ، وهو الوحيد الذى لا يهتم بالحجاج ، ويكسب رزقه بعمله . ومنذ حوالى ٢٩ سنة ، بدأ عبد الستار المذكور اعلاء يجمع فى روسيا النقود لبناء مدرسة دينية ومسجد فى المدينة المنورة . ولجمع التبرعات سافر اولا بنفسه ؛ وعندما منعه من دخول روسيا ، شرع يرسل اقرب معاونيه مع الرسائل ؛ وعلى هذا النحو ، كما يقال ، تم جمع ٥٠ الف روبل تقريبا . وبهذا المبلغ بنوا مدرسة دينية مرفقة باربعين منسكا ضيقا جدا ينزلون فيها ايضا ، فى زمن الحج ، بعضا من الحجاج ، كما بنوا مسجدا غير كبير وستة بيوت يعيش فيها جامعو النقود انفسهم . وفى الوقت الحاضر يستمر جمع النقود وتشبيد المباني .

وقد تسنى لى ان اسمع مرارا من افراد مختلفين انه اذا توفى حاج توقف عند عبد الستار او عند انصاره الستة او السبعة او فى المدرسة الدينية ، فان امواله ونقوده تختفى باوقع شكل ، بلا ذمة ولا ضمير ؛ كذلك يتصرفون باموال التلامذة فى المدرسة الدينية ، ويتخاطفون ويسرقون امتعتهم ، ويستبدلون كتب الاوقاف بكتبهم ؛ وبعد ذاك فقط يعلمون السلطات بموت التلميذ .

ان عبد الستار واقرب اعوانه ، سعيوا منهم الى نشر نفوذهم وزيادة عدد اتباعهم حولهم ، يحاولون بجميع الوسائل ان يوحوا لمواطنيهم العاشقين فى روسيا بان «الهجرة» الى النزوح الى دولة اسلامية هى من اهم واجبات كل مؤمن . وفى سنة ١٨٩٧ وضع الشيخ عبد القادر الذى كان يتمتع بالشهرة فى المدينة المنورة (المتوفى حاليا) ، بتكليف منهم ، كراسا خاصا يحتوى جميع آيات القرآن المتعلقة بتلك المرحلة من نضال النبي ضد الوثنيين المكيبين التى طلب فيها من اتباعه النادرين آنذاك من عدد سكان مكة اللحاق به . وكان من المرتأى ، بعد طبع الكراس فى القاهرة ، ارسال ١٠٠٠ نسخة الى روسيا حيث كان من الممكن ، باعتبار اننا تركّز على القرآن التكرير وحسب ، ان تستثير الاضطراب والغليان وسط قسم معين من السكان المسلمين . وحين غادرت القاهرة فى شهر كانون الثانى (يناير) من السنة الجارية ، لم يكن الكراس قد طبع بعد ، نظرا لمرض الشخص الذى عهد اليه بطبعه .

ومع ذلك لا يتزايد عدد التتر فى المدينة المنورة من جراء الظروف المناخية المرهقة ومن جراء النسبة الكبيرة من الوفيات . واذا ماتت الزوجة ، راح الارمل للتزوج من جديد الى روسيا ؛ ومنها يحاول ان يجلب ايضا زوجات لاولاده الراشدين واخوته وغيرهم ، متجنبيا بكل اجتهاد القران

بالعربيات المحلية اذ يجد انهن مفرطات في تطلباتهن ومتطلبات الاهواء .
 اشغال السكان في المدينة المنورة تشبه اشغال السكان التي رايناها
 في مكة - جزئيا التجارة ؛ واساسا مختلف موارد الرزق من خدمة الحجاج .
 البازارات في المدينة المنورة عبارة عن نسخة غير كبيرة عن بازار مكة ،
 وهي تتاجر بالبضائع ذاتها تماما ، ولكنها تباع بأسعار اقل بكثير ونادرا ما
 تطرا عليها التقلبات ، نظرا لان استجلاب البضائع اصعب ولأن العرض غير
 كبير . وبدرجة كبيرة جدا ترتفع اسعار مواد الضرورة الاولى المستجلبة من
 ينابيع ومنها مثلا الشاي والسكر . اما القمح والرز فان المدينة المنورة تحصل
 عليهما جزئيا بفضل القوافل القادمة من منطقة ما بين النهرين ؛ بينما ترد
 سمينة البقر والضأن والدهن من نجد . وفي سنة ١٨٩٨ ، تشكس الناس
 بخاصة من غلاء اسعار المنتجات المعيشية المحلية ، الناجم عن انقطاع المطر
 في الشتاء السابق والنقص العام في العلف . وكانت اسعار سلع الضرورة
 الاولى بالمتوسط للطل الواحد كما يلي :

في زمن تجمع الحجاج	في الوقت العادي		في زمن تجمع الحجاج	في الوقت العادي	
(بالكويكات)	(بالكويكات)		(بالكويكات)	(بالكويكات)	
١٠٠	١٠٠	الشاي الاخضر	٦	٥	لحم الضأن
١٨	١٩	السكر	١٢	١٤	الطحين المحلى
٢٧	٢٧	الشمع الستيريئي	٣٥	٣٥	السمنة البقرية
٧	٨	الكاز	٥٠	٥٥	زيت الزيتون
٧	١٠	الخبز شبه الاسمر	١٣	١٣	الدهن
			٧٠	٧٠	الشاي الاسود

الظروف الصحية في المدينة المنورة

الظروف الصحية في المدينة المنورة افضل مما في مكة ، بفضل توفر
 بعض المرافق العامة ، والاهم بفضل عدم تجمع الحجاج في آن واحد باعداد
 كبيرة .

الماء

حصلت المدينة المنورة على الماء في سنة ١٥٩٠ وذلك من آبار عين الزرقة الواقعة على بعد زهاء خمسة فرسئات عن المدينة ، قرب جامع القبّة . ونظام توزيع مجاريير الماء كما في مكة . الانبوب الحجرى يمتد على عمق زهاء ساجينين وله كنرة من منافذ الهواء - الآبار المرفوعة كثيرا تخوفا من ظاهرات السيول فوق سطح الارض . ولاستعمال الماء توجد احواض مبلطة بالحجر ، ولكن الناس لا يستقون الماء من المزراب ، بل يمررونه بواسطة حنفيات نحاسية عبر خراطيم خاصة الى القرب مباشرة . ونقل الماء وتوزيعه على البيوت وحفظه كما في مكة . وهذا الماء لا يستعملونه في المدينة المنورة الا لاجل الشرب والطعام ؛ اما الحاجات الاخرى فتلبىها الآبار القائمة في كل بيت . والماء في المدينة المنورة جيد ، ولا نقص فيه .

حالة البيوت

تتصف البيوت ببالغ النظافة والترتيب ، ولكن بيوت الغلاء كما في مكة ؛ وفي بعض البيوت تفوح رائحة كريهة في الطوابق السفلى ، وبخاصة اذا كان عدد السكان كبيرا . وتنظيف البالوعات يجرى على الاغلب مرة واحدة في السنة . وبعض اصحاب البيوت لا يقومون بهذه العملية الا مرة واحدة كل سنتين او ثلاث . ومحتوى البالوعة ينقلونه الى خارج المدينة .

حالة الشوارع

المدينة نفسها تقع ضمن سور وفي رقعة اضيق مما في مكة ؛ والشوارع الافضل الذى ينطلق من باب الشام وتشغله كليا الدكاكين من جانبيه لا يبلغ عرضه اكثر من ٤-٥ ساجينات . والازقة خارقة الضيق ، وعرض بعضها ارشينان ونصف ارشين فقط . وهناك عمارات تطل على الشوارع لكسب مكان ، تاركة في اسفل ممرا غير عال ، الامر الذى يعيق كثيرا ، بالطبع ، حركة الهواء . وترتيب البيوت في ضاحية مناخة ارحب بكثير رغم انه لا وجود هنا للاحواش ورغم ان المباني تلتصق بعضها ببعض على الشوارع وفي العمق . والشوارع تشكل مكانا لرمى الزباله والنفايات من كل شاكلة ، ويجرى تكتيسها مرة واحدة في اليوم .



- المحفل في المدينة المنورة.

ولكن الشارعين الرئيسيين فى المدينة المنورة مرصوفان بالبلاطات الحجرية ؛ ورش الشوارع يقوم به فى كل مكان تقريبا اصحاب البيوت انفسهم . اما السبب الرئيسى لكون شوارع المدينة المنورة انظف ، هو ان المدينة ذاتها لا تجيز دخول الجمال وسائر الحيوانات ، فتتوقف القوافل العابرة خارج المدينة او فى ساحة بمناخة ؛ وجميع الحمير والاحصنة التى تخص السكان يزربونها هى ايضا فى هذه الضاحية .

المسلخ

يقع المسلخ خارج المدينة ، على مقربة من سورها ؛ وهو قدر جدا .

المقبرة

للمدينة المنورة مقبرة صغيرة واحدة تقع وراء سور المدينة بالذات ، ويطوقها سور غير عال . اسلوب دفن الموتى هنا كما فى مكة : يحفرون حفرا عميقة كفاية ، لا اقل من ارشين ونصف ارشين ، وفى المدافن القديمة نظرا لضيق المكان . كذلك لا وجود هنا لعادة جلب الموتى من غير اهل المدينة .

الظروف المناخية

تقع المدينة المنورة ابعد الى الشمال وفى محلة مكشوفة ، ولذا تتمتع بحرارة ادنى بعض الشيء فى فصل الصيف ؛ وفى الشتاء يكون البرد ، كما يقولون ، محسوسا جدا . وحسب مراقباتى فى شهرى ايار (مايو) وحزيران (يونيو) ، كان متوسط الحرارة فى اليوم فى غرفة غير كبيرة ، ولكنها محمية جيدا من الشمس ، ٢٧ درجة ريو مور فوق الصفر ، ولكنها كانت ترتفع فى النهار الى ٢٩ درجة وتهبط فى الليل الى ٢٥ درجة . وفى الشتاء تهبط الحرارة فى الغرفة ذاتها ، كما قالوا لى ، الى ١٣ درجة فوق الصفر .

ولربما بسبب الفرق الكبير بين حرارة الصيف وحرارة الشتاء ، او بسبب وفرة وقرب المياه الجوفية المتواجدة فى كل مكان على عمق ساجينين او ثلاثة ، او بسبب انشاء الآبار فى البيوت بالذات ، تتخذ الملاريا فى المدينة المنورة شكلا خطيرا جدا ، فاتكة بكثيرين من المرضى . وعدا ذلك ،

توجد ، وان اندر مما فى مكة ، امراض مختلفة لاعضاء جهاز الهضم . ونسبة الوفيات ، وبخاصة بين السكان الدخلاء ، كبيرة جدا ؛ ويموت على الاخص عدد كبير من الاولاد . وعند التتر المقيمين هنا ، كما يقولون ، لا يعيش سوى عدد تافه من المواليد الجدد . كذلك نسبة الوفيات كبيرة بين المساكين .

المستشفى

لا صيدلية فى المدينة المنورة ؛ ولكن المرضى يحصلون على الادوية مجانا من المستشفى الدبنى على نفس الاسس كما فى مكة ، باموال الاوقاف التى كانت تتبرع بها والده السلطان عبد المجيد ؛ وهذا المستشفى يشغل مبنى رحبا جدا من ثلاثة طوابق عند بوابة الحرم بالذات ويملك ثلاثين سريرا دائما . ويعمل فى المستشفى طبيب واحد وصيدلى واحد .

المدارس الدينية فى المدينة المنورة

تسنى لى ان اطلع بمزيد من التفصيل على المدارس الدينية فى المدينة المنورة ، حيث الدروس لا تتوقف حتى فى زمن تجمع الحجاج . وكل ما ا قوله هنا عن هذا النوع من المدارس يصح كذلك على المؤسسة التعليمية من هذا الطراز فى مكة ، التى لا تختلف الا من حيث قوام التلامذة ؛ ففى مكة يشكل الماليزيون الاغلبية ، وفى المدينة المنورة الاتراك والسوريون والتتر وغيرهم .

فى المدينة المنورة ١٧ مدرسة دينية تضم قرابة ٢٥٠ تلميذا . وجميع المدارس الدينية تشكل اوقافا تركية بوجه الحصر ، ويؤمن لها دخل معين يجرى انفاقه على المعلمين وعلى منح التلامذة النقود لاجل الطعام . واغنى المدارس الدينية مدرسة المحمودية حيث يتقاضى التلميذ ليرة تركية واحدة فى الشهر ؛ وفى المدارس الباقية ينال التلميذ بالمتوسط فى كل شهر مجيديتين (حوالى ٣ روبلات و ٥٠ كويكا) . اما العائشون فى مدرسة قازان ، فيعيشون على حسابهم .

جميع مباني المدارس الدينية مبنية حسب طراز واحد - عمارة مربعة الزوايا من طابق او من طابقين مع حوش فى الوسط تطل عليه جميع ابواب غرف غير كبيرة - اى مناسك معد كل منها لايواء شخص واحد . وعدد هذه

الغرف لا يربو عادة على ١٠-١٥ ؛ وعددها في المحمودية ٢٦ ، وفي مدرسة قازان ٤٠ ؛ وفي مدارس دينية اغنى تبلغ مساحة الغرفة حوالي ٢٠ ارشينا مربعا ؛ وفي كل من الغرف توجد نافذة غير كبيرة ؛ اما في مدرسة قازان فان مساحة الغرف ١٢ ارشينا ، والنوافذ موجودة في غرف الزوايا فقط . وفي المدارس الدينية جميعها تقريبا توجد مكتبات وغرفة اوسع هي صالة للمحاضرات . ولكل مدرسة دينية ناظرها ؛ وهو يعين وفقا لمشيتة صاحب الوقف ، كما انه يشرف على قبول وصرف التلامذة واعطائهم النقود الواجبة ، والتقييد بالنظام ، وخلاف ذلك . وعدا الناظر ، ينبغي ان يكون ثمة معلم ، اى مدرس يعين كذلك باشارة من صاحب الوقف او ورثته .

في عداد التلامذة يقبلون ابناء جميع القوميات ما عدا السكان المحليين ، ومن جميع الاعمار ، وفقا لعدد الغرف الفارغة ، دون السؤال عن المعارف التى يملكها طالب العلم . وعدد سننى الاقامة فى المدرسة غير محدد . وهناك من يعيشون فيها ٢٠ سنة . ولا تتخذ اية تدابير للاجبار او الحث او التشجيع فى الدراسة او للتحقق من النجاحات . ولا يصرف التلامذة خلافا لارادتهم الا فى حال اقترافهم اعمالا غير لائقة جدا ، - وليس ثمة تقريبا مثال على ذلك - وكذلك فى حال زواجهم . ونظرا لهذه النظم ، يعيش على الدوام فى المدارس الدينية عدد عديد من شتى الافراد الذين لا مأوى لهم والذين لا علاقة لهم البتة بشؤون الدراسة ، وذلك لمجرد الرغبة فى الانتفاع من الشقة الباهظة والنقود للعيش . وفى كل مدرسة دينية تقبض العين على بضعة شيوخ هرمين جاؤوا الى المدينة المنورة لكى يقضوا هنا اواخر ايامهم ولكى يدفنوهم على مقربة من قبر نبيهم .

تبدأ الدروس فى المدرسة فور صلاة الصبح ، مع طلوع الشمس ؛ وجميع التلامذة والعائشين فى المدرسة ملزمون بالاستماع الى محاضرة واحدة من مدرّسهم ، ثم يتصرفون بوقتهم كما يطيب لهم ، دون اية رقابة . وعادة ، يذهب الراغبون فى تحصيل العلم الى الحرم حيث يلقي ائمة المدينة المنورة ، الواسعو الشهرة ، الخطب فى ساعات معينة من النهار ، وكل منهم فى موضوعه ؛ ويتجمع حوله عدد كبير من المستمعين . وحين يجد التلميذ انه يملك ما يكفى من المعارف فى الموضوع المعنى ، ينتقل الى امام آخر ، وهكذا دواليك .

ومن عداد مواضيع الدراسة ، باستثناء العلوم الدينية المدروسة فى جميع المدارس الاسلامية ، اشتهر ائمة المدينة المنورة بتفسير القرآن الكريم وبخاصة تفسير الاحاديث النبوية . وكنيرون من التلامذة يتوافدون الى

المدينة المنورة لسنة او لسنتين خصيصا لتحصيل هذه العلوم من معلمها .
ولكل من يعيش فى المدرسة الدينية مفروشات ولوازم منزلية بسيطة ؛
وهو يهتم شخصا باعداد الطعام لنفسه . وحوالى الساعة ٩ مساء تقفل
المدرسة ابوابها ؛ وقبل ذاك يعود الجميع فى المعتاد الى غرفهم .
حين كنت فى المدينة المنورة كان فيها ٤٢ تلميذا تقريبا من رعايا
روسيا موزعين فى مدارس دينية مختلفة ، ولكن اغليبتهم كانت فى مدرسة
قازان لانه يوجد دائما هناك عدد كبير من الغرف الفارغة . وعدد هؤلاء
الشبان ازداد كثيرا فى السنوات الاخيرة بالانتقال الى هنا من المدارس
الدينية فى القاهرة والقسطنطينية (فى اواخر سنة ١٨٩٧ بقى فى القاهرة
٧ اشخاص وفى القسطنطينية ١٥ شخصا من السفط (٢) من رعايا روسيا)
وذلك جزئيا بدافع الرغبة فى الاستماع الى خطب ائمة المدينة
المنورة ، وبصورة رئيسية ، بامكان العيش بصورة اقل حقارة وفقرا ،
بفضل امكانية جمع الصدقة والاحسان من الحجاج من ابناء الوطن والحصول
احيانا على ابدال مفيدة .

وقد اقتنعت بان تلامذتنا هنا يتميزون بصورة ايجابية عن زملائهم فى
مدارس بخارى ؛ فلا يلحظ المرء فيهم ذلك التعصب الاعى المتطرف وذلك
الازدراء الجاهل بكل ما لا يدخل فى اطار الشريعة وبجميع من لا يسرون بكل
دقة فى طريقها المرسوم ؛ ويتميز ارباء المدينة المنورة بافق اوسع بكثير ،
ونظرات اصح ؛ ويهتمون بكل شيء . وقد بدا لى ان سبب ذلك ، بصورة
رئيسية ، هو روح سكان المدينة المنورة الاصليين ، وهى روح مغايرة
تماما ، اوفر حرية الى ما لا قياس له ؛ وانه يجب ان ننسب جزئيا هذا
التاثير الى السفرة الطويلة التى تحمل الى الشبان الصحو وصفاء الذهن ؛
وجزئيا الى تفوذ العالم الدينى السيد على الزاهر الواسع الشعبية فى الحجاز ؛
وهو رجل لا ريب فى انه ذكى جدا ورأى الكثير فى دهره ، وذو وجهة
ليبيرالية نادرة جدا بين العلماء . وهذا العالم يلقي تفسيرات للاحاديث
النبوية ؛ ومحاضراته فى الحرم تجتذب دائما عددا كبيرا من الناس . ان
التفسيرات التى يعطيها عن اقوال النبى تتميز عن تفسيرات العلماء
الآخرين ؛ فهو يرى فى كل شيء مغزى داخليا اوسع . وقد تسنى لى ان
حضرت احدى المحاضرات فى تفسير الاحاديث المتعلقة بالهجرة (اى عن
النزوح من دولة غير اسلامية الى دولة اسلامية) ؛ وقد قال السيد على ان
واجب كل مسلم ان يحب الوطن الذى يعيش فيه ، وان يحترم السلطة القائمة
هناك ، ايا كانت العقائد هناك ، وانه لا مبرر للنزوح لا فى القرآن ولا فى



- مسجد الخيف في المدينة المنورة (تصوير إبراهيم ربح) سنة ١٩٠٨.

الاحاديث ، اذا كان الايمان لا يتعرض للعنف . وهذا العالم المحترم هو من كبار انصار روسيا ؛ وغالبا ما يحكى لزواره العديدين من الحجاج من جميع البلدان ، عن زيارته لموسكو حيث شاهد بالتفصيل جميع الطوائف ، ويمدح كثيرا نظمنا واوضاعنا ؛ وهو يقول : «ايماننا صحيح ، ولا شك في هذا ، ولكن العدالة غائبة في الدول الاسلامية ؛ ويجب البحث عنها عند الروس» .

المكتبات

عدا المكتبات غير الكبيرة الموجودة في كل مدرسة دينية توجد فى المدينة المنورة مكتبتان عامتان غنيتان نسبيا : مكتبة شيخ الاسلام ومكتبة المحمودية ، وفى كل منهما قرابة ٦٠٠٠ مجلد ، اغلبها كتب مخطوطة دينية المضمون ، وبينها نسخ نادرة جدا . والمكتبات ، مثلها مثل المباني التى تقوم فيها ، تمولها الاوقاف ؛ ومن اموال الاوقاف يتقاضى قىمو المكتبات رواتبهم .

سلطات المدينة

ادارة المدينة يرأسها العامل ، اى حاكم سنجق المدينة المنورة ، وللبت فى الدعاوى القضائية يوجد قاض تجرى الاستعاضة عنه سنويا من القسطنطينية ، ومحتسب . وهناك مفتيان لاجل المذهب الحنفى والمذهب الشافعى . ولحفظ النظام تقام فى زمن اقامة قوافل الحجاج دورية عسكرية خاصة فى ساحة ضاحية مناخة . اما فى الوقت الباقي فلا يظهر فى الشوارع اى من حراس الامن والنظام . وجميع بوابات المدينة يحرسها حراس ؛ وفى الليل يغلقونها ؛ ولا يسمحون بالخروج لقوافل الحجاج الا نهارا وشرط ان يقدم البدو ترخيصا خطيا من العامل .

البساتين فى ضواحي المدينة المنورة

ضواحي المدينة عبارة عن سهل رملى عريض ، تتخلله الحجارة والسائل البركاني المتجمد ، ويكسوه السباح . ولا وجود البتة للماء الجارى ، ولكن الشريحة المنطوية على الماء تمتد على عمق غير كبير جدا ، على عمق ساجينين

او ثلاثة ، ومن جراء ذلك تكثر البساتين واحواض الخضراوات فى ضواحي المدينة المنورة ، وبخاصة فى جانبها الشرقى ؛ وهى تنص البدو جزئيا ، وجزئيا الطبقة الميسورة من سكان المدينة . تتألف البساتين بوجه الحصر تقريبا من اشجار النخيل ؛ وتمر المدينة المنورة يعتبرونه ، من حيث وفرة السكر فيه ، افضل تمر فى العالم ، ويشكل المادة الوحيدة للتصدير من هذه المنطقة ؛ والى شراء التمر يتوافدون من ابعد انحاء الحجاز ؛ كذلك يبيعونه فى محله او عبر مكة من الحجاج . وتبلغ الصادرات قرابة ٥٠٠٠٠ بود * . وسعر خيرة الاصناف ، حين يشتريها الحجاج ، زهاء ١٠ كوبيكات للرطل الواحد . وهنا يحسبون انه يوجد اكثر من ٧٠ نوعا من اشجار النخيل المختلفة من حيث صفات ثمارها . تعيش شجرة النخيل حوالى مائة سنة ، وتبلغ اقصى مردودها حين يتراوح عمرها بين ٥٠ و ٦٠ سنة ، ثم تبدأ تشيخ تدريجيا ؛ وحين تقل كمية الثمار كثيرا ، يقطعون الشجرة من جذعها ويستعضون عنها بشجرة فتية . تعطى شجرة النخيل فى موسم جيد وفى افضل اوقاتها زهاء ٣٠٠ رطل من التمر ؛ ويجنون بالمتوسط من كل شجرة زهاء ١٨٠ رطلا . ويعتبرون ان خيرة الانواع هى : الجاليابى ، الحلوه ، البرنى ، الحتلايه ، الجادى ، البيض ، اللبانه ، العجوة . السقاية تجرى ببالح الوفرة ؛ واثناء فصول النمار تجرى احيانا كثيرة جدا - مرة كل ٥ او ٦ ايام ، بل اكثر من ذلك اذا توفرت الامكانيات . يستخرجون الماء من الآبار بقرب كبيرة خاصة وبمساعدة دواب الجر . فتحات الآبار واسعة جدا ، قطر كل منها ساجين ونصف ساجين او ساجينان ؛ من طرف ينتصب عمودان حجريان بينهما يضعون بكرات خشبية على درجتين . القرية المليئة بالماء يرفعونها بواسطة حبلين موصولين بطرفى القرية ، وممردين عبر البكرات الخشبية . حين ينسبط الطرف المفتوح من القرية على البكرة الدنيا ، يواصل الطرف المقابل الصعود ويجعل القرية فى وضع عمودى ، فينسكب الماء كله منها . وعادة تعمل قربتان بصورة متوازية ، يرفعونهما بواسطة دابتين ، وعلى الاغلب بواسطة جمال فتية تدور الى الورا والى الامام فى ساحة منحنية قرب البئر . بهذا الاسلوب يستخرجون بالمتوسط زهاء ليتر واحد فى النانية .

عدا اشجار النخيل يتعاطون فى البساتين زراعة نوع صغير من اشجار الليمون الحامض ، والكروم والحناء والفلسنك وغير ذلك . والفسحات الحرة بين الاشجار يزرعونها بالفصفصة . ومن الخضراوات يزرعون ،

* البود - ١٦,٣٨٠ كيلو غراما . المترجم .

فيما يزرعون ، البطاطا . وبعض من سكان المدينة المنورة ينتقلون الى البساتين لقضاء الصيف كله اذا توفرت لهم الاسباب لعدم التخوف من اعتداءات البدو . اما بالنسبة للآخرين ، فان البساتين تشكل مكانا للنزهة ؛ فيأتون جماعات كبيرة ، ويختارون بستانا ما حرا ، علما بان صاحبه لا يحول ابدا ، بحكم العادة ، دون دخول الغرباء الى بستانه ، فيبقون لبضعة ايام ، مستفيدين كذلك من النمار مجانا .

المدينة المنورة بوصفها منفى

المدينة المنورة ، مثلها جزئيا مثل مكة والطائف ، تشكل في عهد السلطان العثماني الحالي منفى للأشخاص المستبعدين لاسباب سياسية ، وللنساء والخصيان المطرودين من الباب العالي . وبين الأشخاص من الفئة الاولى ، يمكن ذكر غازي محمد باشا ، وهو من ابناء الامام شميل المعروف .

ينبع . موقع المدينة والبيوت

مدينة ينبع او ، كما يسمونها تمييزا لها عن ينبع اخرى واقعة على بعد ٢٥ فرستا تقريبا في الجبال ، ينبع البحر ، هي اقرب مرفأ الى المدينة المنورة . تقع ينبع على بعد ٢٠٠ فرستا تقريبا ، اذا حسبنا بالخط المباشر ، الى الجنوب الغربي والغرب من المدينة المنورة ، وعلى بعد ١٩٠ فرستا تقريبا الى الشمال من جدة ؛ تنتصب ينبع على ساحل رملي مستو من البحر الاحمر ، ويحيط بها من جهة البر سور حجري ذو بوابتين . بيوت ينبع من الهندسة المعمارية المتواجدة في مكة ، ولكن مع فارق وحيد هو ان جميع الطوايق السفلى في ينبع مأهولة كذلك وان حطام الشعب المرجانية التي تقوم عليها المدينة تشكل مادة لاجل البناء ايضا . والبيوت متزاحمة في الجانب الجنوبي من المحلة المحاطة بالسور حيث يوجد شارع واحد وبازار وبضعة ازقة . اما في القسم الشمالي من المدينة فان المباني موزعة على نطاق واسع ودون اى نظام ؛ وفي الطرف الشرقي تقوم بنايات غير سكنية يستعملونها لجمع الماء وحفظه .

السكان واشغالهم

في ينبع يعيش ٥٠٠٠ نسمة من السكان الدائمين ؛ وهم اساسا من السكان المحليين ، الاصليين . وشغلهم في زمن الحج ، ممارسة التجارة ؛

اما في الوقت العادي ، فيتعاطون صيد السمك والملاحة الساحلية ، وما الى ذلك . والتجار القادمون من مصر وجدة والمدينة المنورة في زمن تدفق الحجاج هم تجار اكبر من تجار ينبع . سلح التجارة هي كالتى في المدن المذكورة ، ولكن بمقادير اقل بكثير . ومن سلح التصدير الثمر المستجلب الى هنا من ينبع النخلة والصفراء والحمراء وكذلك الصدف على انواعها والسلاحف ، وغير ذلك من المواد المستخرجة من البحر .

وهناك ملاحة اكثر انتعاشا على السنايك - وهي زوارق شرعية غير كبيرة بلا متون يصنعونها في جدة - تجرى في اتجاه هذه المدينة . واثناء اقامتى في ينبع كان يأتى اليها ويغادرها كل يوم بضعة سنايك ناقلة الركاب وتلك البضائع التى تفرغها البواخر في جدة لانها لا تعرج على ينبع . تمضى السنايك بمحاذاة الساحل ؛ ونظرا لمخاطر الملاحة بسبب الشعب التحتمائية ، تتوقف ليلا ويستغرق الطريق بين المينائين المذكورين يومين او ثلاثة ايام اذا جرت «الرياح بما تشتهى السفن» . كذلك ينطلق سكان ينبع الى مرفأ البحر الاحمر الاخرى بما فيها السويس والحديدة ضمنا . ويوجد فى ينبع مكلا صغير ولكنه محمى جيدا من جميع الرياح ؛ والمكلا عميق الى حد ان السفن ترسو على بضعة ساجينات فقط من الشاطئ . ولكن الدخول الى المكلا الذى تتخلله الشعب والذى لا يملك اثارة ، غير ممكن الا نهارا .

الظروف الصحية في ينبع

الظروف الصحية في ينبع اسوأ مما فى جميع النقاط الاخرى فى الحجاز . ينقصها الضرورى جدا فى المناخ الحار اى الماء الجيد . وهنا يستعملون ماء المطر ؛ ولأجل جمعه يبنى السكان ضمن حدود المدينة اقبية غير كبيرة من الحجر سعة الواحد منها ٥-٨ ساجينات مكعبة ، مع مبني فى اعلى القبو بشكل عنبر . فى احد جدران العنبر ، يتركون قرب سطح الارض فتحة ينسكب منها فى القبو ماء المطر السائل فى الشوارع . وللعنبر باب يخلقونه بالقفل . ولاخذ الماء يدخلون الى العنبر ويستقون الماء بالدلو . خارج سور المدينة ، على بعد نصف فرستا تقريبا ، تقع صهاريج عامة مقاييسها اكبر . فضلا عن ذلك يستجلب البدو من خزاناتهم الماء على ظهور الجمال لبيعه .

منذ ٤ سنوات هطل الوابل الاخير الذى ملا جميع صهاريج ينبع وضواحيها ؛ ولذا كانت جميع الاقبية فى المدينة اثناء اقامتى فيها فارغة من

زمان . وبعد فترة وجيزة شرب الحجاج كل مضنون الصهاريج العامة ايضا . كما نفذ احتياطي الماء عند البدو ، ولذا شرعوا بحكم الضرورة يستجلبون الماء من على بعد ٢٥ فرستا من منابع ينبع النخلة ويبيعونه بـ ٦٠ كوبيكا للدلو الواحد . وكان ماء الصهاريج كثيفا ، وغير مستطاب الطعم ، وكان يباع بنحو ٥٠ كوبيكا للدلو الواحد .

وبسبب رداءة الماء القصوى اغلب الظن لم ار اثناء اقامتى مدة اسبوع فى ينبع انسانا واحدا لم يتذمر من ألم فى البطن ومن انحطاط القوى العام . وكان عدد الوفيات كبيرا . وكانوا كل يوم يدفنون ٥-٦ اشخاص من الحجاج البالغ عددهم حوالى ٣٠٠٠ .

وفى المدينة يسود قدر فظيع وعلى الأقل فى زمن تجمع الحجاج . ونظرا لقلّة البيوت يعيش الحجاج فى الاراضى الخالية والساحات على مقربة من البحر . وهنا بالذات يرمون كل النفايات . والاماكن المخفية المعزولة الى هذا الحد او ذاك والمضحل العريض تستعمل لقضاء الحاجة . والمضحل يغطيه الماء على عمق تافه اثناء المد ويتعري اثناء الجزر فتفوح منه اذذاك رائحة كريهة رهيبة . ولم يتسنّ لى ان أرى فى اى مكان وزمان مثل هذه الكثرة من الذباب كما فى ينبع . وهنا لا يمكن السير فى الشوارع ، ناهيك عن البازار القذر ، دون ان يكون فى اليد شئ ما لطرد الذباب على الدوام ؛ وفى النهار يستحيل كليا الجلوس للأكل ؛ وفى البازار لا يمكن ايجاد اى شئ من المأكّل لم يترك عليه الذباب آثاره .

الظروف المناخية

المناخ فى ينبع ابرد قليلا مما فى المدينة المنورة بفضل تأثير البحر والرياح الشمالية المتكررة ؛ ولكن التبخرات الخارقة الوفرة من البحر تخلق رطوبة غير مستطابة اطلاقا ؛ ففي الصباح ينهض المرء من الفراش كأنما مبلل بالماء ؛ وجميع الالبسة وسائر الاشياء لا تجف ابدا ؛ والتربة تترطب فى الليل كما بعد مطر قوى . والرياح من البحر ، وان تكن باردة نوعا ما ، لا تمارس فعلا منعشا وتحمل رائحة ما ثقيلة وكريهة ناجمة ، اغلب الظن ، عن تفسخ البقايا العضوية .

ومن جراء هذا المناخ الرطب غالبا جدا ما تقع اصابات الحمى فى ينبع .

الاسعاف الطبي

فى ينبع حيث يتكدس احيانا ، بانتظار القوافل او البواخر ، زهاء عشرة آلاف حاج ؛ لا مستشفى ، ولا صيدلية ولا طبيب خاص لاجل الحجاج .

سلطات المدينة

تدخل ينبع فى قوام سنجق المدينة المنورة ويديرها قائمقام خاص .

جدة

جدة اهم مرفأ على ساحل البحر الاحمر ؛ وعبره تمر حركة الحجاج الرئيسية ، سواء عند نزولهم على ساحل الجزيرة العربية ام فى طريق العودة الى الوطن . ولم أرَ شخصا جدة الا من البعيد ، لأنها كانت مغلقة بسبب الحجر الصحى لدن ذهابى الى مكة ؛ اما فى طريق العودة من الحجاز ، فقد رحت عبر ميناء آخر هو ميناء ينبع ، ولذا كانت المعلومات المساقة ادناه عبارة عن اجوبة عن اسئلة طرحتها على الناس . تشبه جدة مكة شبيها كبيرا من حيث طابع عماراتها ومواقع الشوارع والبازارات والحالة الصحية .

يعتبرون ان عدد السكان يبلغ زهاء ٣٠٠٠٠ نسمة ، بينهم زهاء ٥٠ اوروبيا . يتعاطى السكان على الاغلب التجارة ثم صيد السمك واستخراج اللآلى والمرجانات من البحر ، والملاحة الساحلية ، وبناء السفن ، والقيام بوظائف المرشدين ، والنح . .

يعتبر مناخ جدة سيئا جدا ، غير صحى ، من جراء التبخرات الشديدة من البحر . والحمى هى المرض السائد .

فى الوقت الحاضر تستعمل جدة مياه نبع مجرورة الى المدينة من الجبال القريبة ، ولكن المياه لا تتميز بطعم مستطاب .

مرفأ جدة خطر جدا على السفن بسبب كثرة الشعب التحتائية ، ولذا لا تدخله البواخر وتخرج منه الا نهارا ، وترسو على بعد ٤-٥ فرسقات تقريبا من الشاطئ ؛ وتجرى الاتصالات معه بواسطة زوارق شراعية كبيرة . على مقربة من جدة يعرضون مدفن جدتنا الاولى ، حواء ؛ واليه يمضى كثيرون من الحجاج للسجود والصلاة .

الفصل الرابع عن الحج عموما

ما هو الحج

الحج هو زيارة مكة المكرمة لاداء الفرائض التى تنص عليها الشريعة وادائها فى وقت معين .
والحج مرة فى العمر واجب من الواجبات الرئيسية الخمسة (الايمان - التشهد ، الصلاة خمس مرات فى اليوم ؛ الصوم ؛ الزكاة اى تخصيص قسم معين من الاموال فى السنة فى صالح الفقراء ؛ الحج) المترتبة على كل مسلم ذى اهلية ، سواء من الذكور ام من الاناث ، ولكن شرط كفاية المال لاجل السفر ولاجل تأمين العائلة حتى العودة ، وشرط أمن الطريق . والامتناع عن الحج فى حال توفر الشروط المذكورة ، تهدده الشريعة بعقوبات شديدة جدا فى الآخرة وتجعل المزددين بهذا الواجب فى مستوى الكفار ؛ اما الذين يقومون بالحج ، فانها تعدهم ، على العكس ، بغفران جميع الخطايا المقترفة قبل ذاك . ومن لا يملك الامكانية البدنية بهذه السفرة يُسمح له بارسال اشخاص آخرين بالنيابة عنه ويسمى هذا «البدل» . يجرى الحج لكى يؤدى المؤمن واجبا من اهم الواجبات من وجهة نظر الاسلام . وفريضة الحج الرئيسية يؤديها المؤمنون فى مسجد مكة الكبير ، المسجد الحرام ، او الحرم الشريف كما يسمونه عادة ، الذى توجد فيه اكبر المقدسات الاسلامية ، الكعبة .

المسجد الكبير فى مكة

حرم مكة الواقع فى قاع الوادى وفى وسط المدينة تقريبا مبنى بنفس التصميم الذى بنيت به جميع المساجد القديمة فى دمشق والقاهرة ؛ وهو عبارة عن ساحة شباسعة مربعة مخططة ، محاطة من جميع الجهات برواق

مسقوف ؛ ولكن هناك فرق واحد ، هو ان الوجه الموجه الى مكة فى المساجد العادية يكون اوسع ، ويقام فيه محراب ومنبر ؛ اما فى الحرم ، فان جميع الجهات متساوية من حيث العرض ، والمحراب تحل محله الكعبة ، والمنبر مقام فى مكان مكشوف فى وسط المسجد . الرواق الذى يحيط بالمسجد يتألف من اعمدة اغلبيتها منتصبة فى ثلاثة صفوف ، وموصولة بعضها ببعض بالاقواس ومغطاة بقبب غير كبيرة مخروطية الشكل . ارضية الرواق مرصوفة بصفائح حجرية ؛ اما القسم المكشوف منه ، فهو مغطى بالرمل فقط . فى الزوايا الاربع ، وفوق الوجه الشمالى والوجه الشرقى ، تنتصب سبع مآذن مبنية فى ازمان مختلفة وباساليب هندسية معمارية مختلفة . وللدخول الى المسجد توجد اربعة ابواب كبيرة - من الواجهة الشرقية باب السلام ؛ ومن الواجهة الجنوبية باب الصفا ، من الواجهة الغربية باب ابراهيم ، من الواجهة الشمالية باب الزنده ؛ وعدها ، يوجد ١٨ مدخلا صغيرا . الرقعة التى يشغلها المسجد ادنى من سطح الشوارع المحيطة ، ولهذا يجب النزول بضع درجات مبنية تحت الابواب لاجل الدخول الى الحرم .

فى وسط الحرم تقريبا ، تنتصب الكعبة ، او كعبة الله ، او بيت الله . ويستفاد من اقوال العرب ان الكعبة - ومعناها فى اللغة العربية القديمة «المربع» - قد بناها جدنا الاول آدم بصفة محراب لاجل الصلاة ، ثم بناها النبى شيت ثم ابراهيم . ويستفاد من اساطير اخرى ان ابراهيم هو اول من بنى هذا المعبد . ان الكعبة التى كانت من قبل ايضا معبد العرب فى مرحلتهم الوثنية ، اى الجاهلية ، قد اعيد بناؤها غير مرة ، وبقيت حتى ايامنا بالصورة التى جدها بها منذ ٣٠٠ سنة السلطان العثماني مراد الرابع . والكعبة فى الوقت الحاضر موشور سداسى عال (حوالى ٧ ساجينات) ذو اوجه متوازية السطوح غير صحيح الشكل تماما ، مبنى من احجار ضخمة منحوتة من الغرانيت ، وله بابان متواجهان على علو ساجين واحد تقريبا عن سطح الارض .

فى الزاوية الجنوبية من الكعبة ، من الخارج ، على علو ارشينين تقريبا عن سطح الارض يوجد حجر يكرمه المسلمون تكريما خاصا هو الحجر الاسود . ويستفاد من الاسطورة ان رئيس الملائكة جبرائيل هو الذى حمل هذا الحجر الى ابراهيم عندما بنى الكعبة . فى سنة ٩٢٩ نقلوا الحجر الاسود الى اليمن وفى سنة ٩٥١ اعادوه من جديد الى مكة ؛ وفى سنة ١٨٧٣ وضعوه فى اطار فضى ضخم مستدير وثبتوه فى الجدار فى المكان المذكور اعلاه * . القسم * كتاب «الحج» .

المنظور من الحجر يبلغ قطره زهاء نصف ارشين ، ولونه قائم مع تلوين ضارب الى الاحمر ، وعليه آثار شقوق ، ونقر في الوسط . سطح الحجر مملس جدا من جراء لمسه من قبل الحجاج على مر القرون .

في الزاوية الغربية ، وعلى العلو ذاته ، يوجد حجر مثبت آخر يكرمه المسلمون هو ايضا ، ويسمى باسم هذه الزاوية - ركن اليمن .

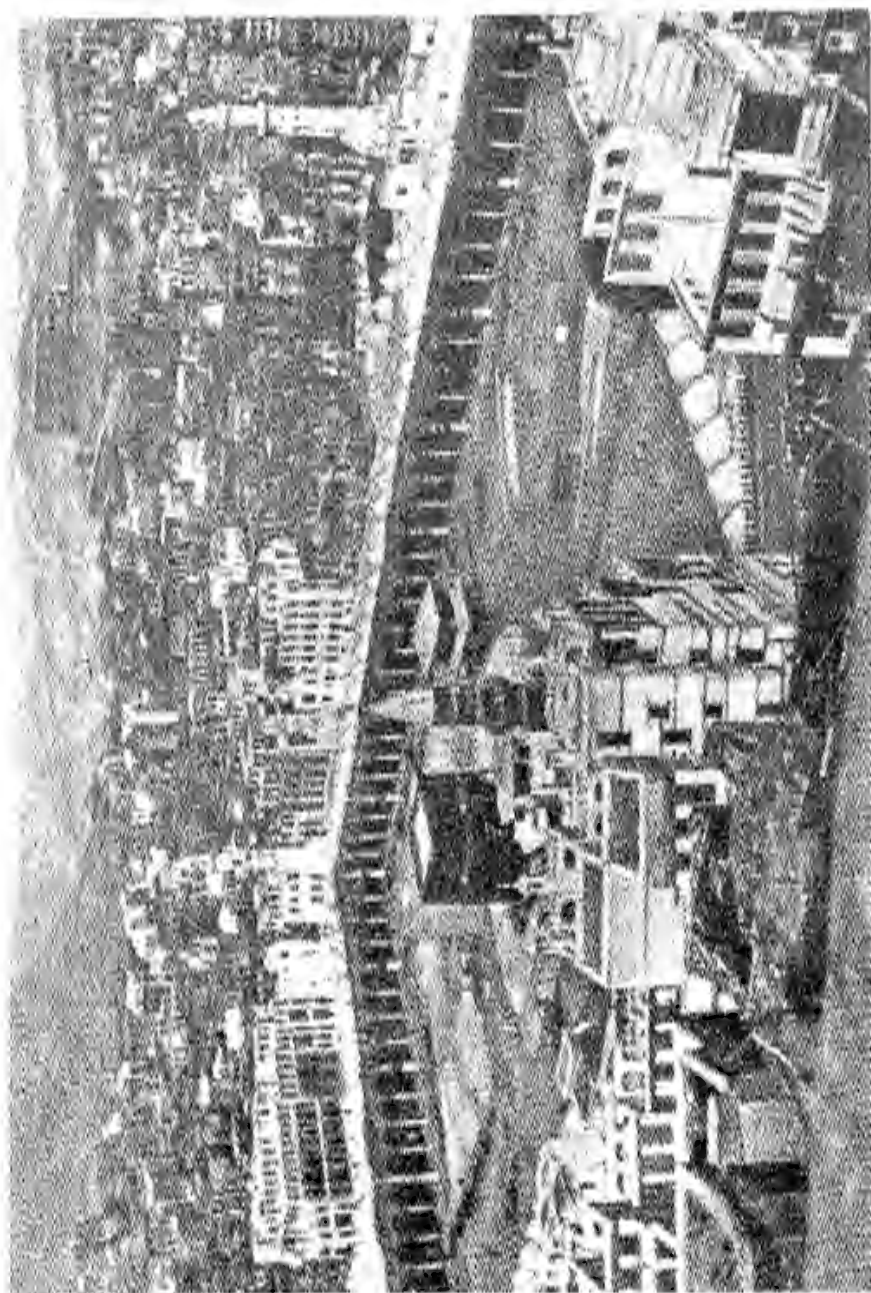
جدران الكعبة مكسوة من الخارج على كل علوها بقماش اسود يسمى الكسوة او كسوة السعادة . وللمرة الاولى أخذ احد حكام اليمن ، ابو كرب اسعد ، يغطي جدران المعبد دليلا على الاجلال والتكريم الخاص . وفي عهد خليفة بغداد المشهور ، المأمون ، كانوا يغيرون هذه الكسوة المصنوعة آنذاك من قماش فاتح اللون ثلاث مرات في السنة ؛ ولكن الملك المصري الصالح اسماعيل شرع في سنة ١٣٤٩ يرسل الكسوة من قماش اسود ويغيرها مرة واحدة فقط في السنة ؛ وهذه العادة بقيت حتى الوقت الحاضر * .

والكسوة عبارة عن قماش اسود حريري سميك جدا مخطط من ٨ قطع ومطوق ثلثها الاعلى بآيات من القرآن الكريم موشاة بالذهب . وهذا القماش يصنونه كل سنة في مصر بمبلغ خاص من اموال الاوقاف قدره ٤٥٠٠ ليرة مصرية (حوالي ٤٥٠٠٠ روبل) ، ويرسلونه الى مكة المكرمة مع الحمل . وكل سنة يجرى تغيير الكسوة في اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ؛ وتوضع الكسوة القديمة تحت تصرف نظار الكعبة ، فيبيعها هؤلاء قطعاً من الصجاج ؛ اما الكتابات بخيوط الذهب ، فتوضع تحت تصرف الشريف ؛ وفي السنوات التي يصادف فيها اليوم العاشر من شهر ذى الحجة يوم الجمعة ، يرسلون الكسوة الى السلطان في القسطنطينية .

من بابى الكعبة ، يفتحون الباب الشرقي المزين بوفرة من الفضة ، في ايام معينة ، عشر مرات في السنة ؛ واذا ذاك يسمحون بالدخول الى داخل المعبد لجميع من يرغبون في الصلاة هناك . وداخل الكعبة عبارة عن قاعة بسيطة ، خالية من اى زخرف وزينة ، وجدرانها مكسوة بقماش حريري يرسله السلاطين الاتراك عند صعودهم الى العرش .

من الوجه الشمالى ، يلتصق بمبنى الكعبة حاجز غير عال ، بشكل حدوة ، يطوق مكانا للصلاة يسمى الحطيم . والكعبة والحطيم مطوقان على بعد ٧ ساجينات تقريبا بدرايزين اهليلجى الشكل ؛ وعبر هذه الفسحة

* كتاب «الحجاز» .



- منظر عام مكة المكرمة، ويبدو الحرم الشريف.

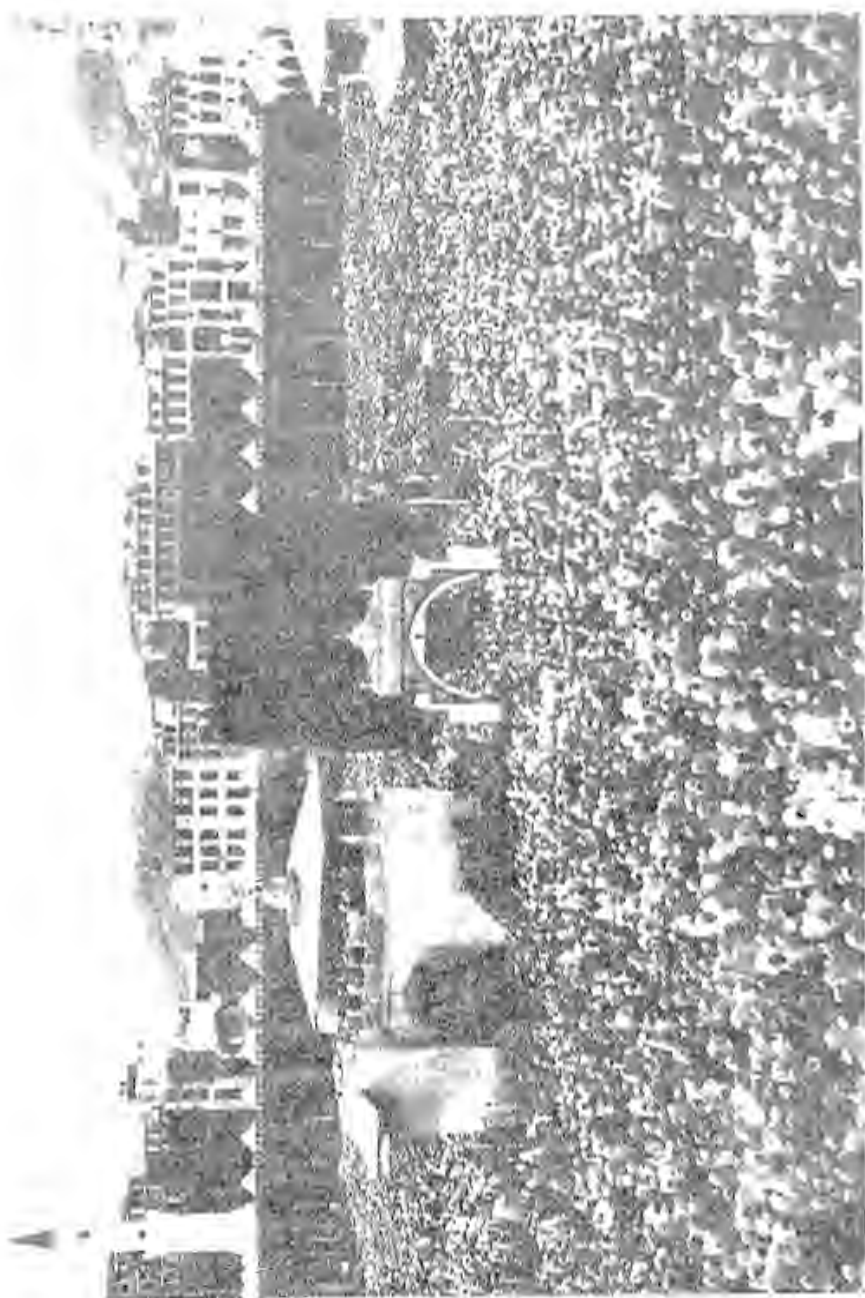
المبلطة ببلاطات من المرمر يطوف الحجاج سبع مرات حول الحرم ، قائمين بفريضة الطواف . من الجهة الشرقية ، يوجد في الدرايزين المذكور باب الشبية . واذا دخل المرء عبر هذا الباب الى مكان الطواف ، فانه يجد الى اليمين ، في خط الدرايزين ، مقام ابراهيم - وهو عبارة عن هيكل من مصبّع برونزى كثيف في داخله ، ضمن صندوق حديدى مكسو بقماش حريرى مطرز بالذهب ، مرسل من مصر مع الكسوة ، حجر بقامة الانسان ، كان سقالة لابراهيم عند بناء الكعبة ، كما تقول الاسطورة ، وبمقدوره ، حسب رغبة البانى ، ان يزداد ويقل علوا . والى جانب مقام ابراهيم ، منبر من المرمر من صنع اليد يلقى الامام من عليه الخطبة اثناء صلاة الظهر فى ايام الجمعة .

الى شمال الباب ، توجد تحت عمارة خاصة بئر زمزم المقدسة . فعندما ضل اسماعيل وامه هاجر متضورين من العطش وباحثين عن الماء ، كما تقول الاسطورة ، تفجر فجأة فى المكان الذى توجد فيه البئر الآن ، نبع غزير روى منه عطشهما . وفى سنة ٧٦٢ ، وفى عهد الخليفة ابنى جعفر المنصور ، بنيت عمارة فوق البئر . وفى سنة ٨٢٨ جفت البئر ؛ وبامر من الخليفة الدامون جرى تعميقها فظهر الماء من جديد . واخيرا فى ١٦١١ ، بنى حول فتحة البئر حاجز حجرى عال ، لأنه تواجد متعصبون كانوا يرمون بانفسهم هناك قصد الانتحار .

عمق البئر فى الوقت الحاضر زهاء ٥٠ ارشينا وقطرها ارشينان . يستقى الماء معا اربعة اشخاص خصوصيين ؛ يقفون على الحاجز ويعملون بدلاء جلدية موصولة بحبال طويلة ممررة عبر بكرات معدنية مثبتة فى اعلى . لماء زمزم طعم مرّ نوعا ما ؛ وهو يؤثر فى اناس كثيرين ، كمسهّل خفيف وهو ساخن جدا عند استخراجه من البئر .

على خط الدرايزين ، من جانبه الخارجى ، توجد ، مقابل كل من واجهات الكعبة ، اربعة انشاءات من طراز خفيف ، هى ضرب من تعاريف يقف عليها ، اثناء الصلوات العامة ، مؤذنون من المذاهب السنية الاربعة - مذاهب الحنفيين ، والشافعيين ، والمالكين ، والحنبلين .

من الجانب الشرقى من الحرم يمتد شارع المسعى ، وطوله نصف فرستا ، ويصل بطرفه الشمالى الى جبل المروة وبطرفه الجنوبى الى جبل الصفا ، وينتهى عند الجبلين ببضع درجات واسعة فى اعلاها ساحة صغيرة . بين هذين الجبلين ، كما تقول الاسطورة ، فتشت هاجر ، وقد اضناها العطش ، عن الماء راكضة من جبل الصفا الى جبل المروة ذهابا وايابا .



- الصلاة حول الكعبة / أواخر القرن التاسع عشر -

وعلى ذكرى هذا الحدث يقطع الحجاج هذه المسافة سبع مرات ؛ وهذا الفرض يسمى «السعي» والمكان الذي يؤدي فيه «المسعى» . فى المساء ينثرون الحرم وبعض امكنة المسعى بعدد هائل من المصابيح ؛ وهذه عبارة عن انصاف كرات زجاجية معلقة فى سلسلة ؛ وفى قاعها يسكبون الزيت ويضعون عوامات فيها فتيل .

وهكذا يشكل حرم مكة مكانا لاجل فريضة الحج ، ومسجدا جامعا يؤمونه لاجل الصلاة خمس مرات ؛ وهو ، فضلا عن ذلك ، قاعة شاسعة للمحاضرات لاجل جميع المدارس الدينية فى مكة ، وماوى شاسع لقضاء الليل ، يتوافد فيه مساء جميع الحجاج الذين لا ماوى لهم .
يُعتبر والى الحجاز قِيَمًا على الحرم . وهناك مجموعة كبيرة من الخصيان الذين يرتدون بدلات بيضاء خاصة ويقومون بدور الخدم .

شعائر الحج الرئيسية ، ومنها الاحرام ، والطواف ، والسعى ، كانت قائمة ، كما هو معلوم ، عند العرب قبل محمد (صلعم) ايضا . وقد أكد القرآن بعضا من عادات العبادة هذه . اما بعد محمد ، فقد تم على اساس القرآن كما على اساس اقوال النبى ومثاله الشخصى ، وضعت جملة من قواعد الحج التى يتقيد بها جميع الحجاج بكل دقة .

الآيات القرآنية

المتعلقة بالحج

فيما يلى جميع آيات القرآن المتعلقة بالحج ، كما وردت فى تسلسل السور .

سورة البقرة . الآية ١٢٥ : «واذ جعلنا البيت منابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلًى وعهدنا الى ابراهيم واسمعيلى ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» .

الآية ١٢٧ : «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيلى ربنا تَقَبَّلْ مِنَّا انك انت السميع العليم» .

الآية ١٥٨ : «ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فَمَنْ حَجَّ البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يَطْوِفَ بهما ومن تطوَّع خيراً فان الله شاكر عليم» .

الآية ١٩٦: «وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» .

الآية ١٩٧: «الحج أشهر معلومات فمن فرّضَ فيهِنَّ الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب» .

الآية ١٩٨: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتُمْ من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ» .

الآية ١٩٩: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم» .

الآية ٢٠٠: «فإذا قضيتُمْ مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق» .
الآية ٢٠٣: «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تُحْشَرُونَ» .

سورة آل عمران . الآية ٩٦: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين» .

الآية ٩٧: «فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» .

سورة المائدة . الآية ١: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير مُحِلَّى الصيد وأنتم حرم أن الله يحكم ما يريد» .

الآية ٢: «يا أيها الذين آمنوا لا تَحِلِّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهَدْي ولا القلائد ولا آمِن البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ولا يجرمُكم سنن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب» .

الآية ٩٤ : «يا ايها الذين آمنوا لَيَبْلُغَنَّكُمْ الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم» .

الآية ٩٥ : «يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حُرْمٌ ومن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغُلَبَةِ اوْ كَفَّارَةً طَعَامٌ مِّسْكِينَ اوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ لِمَنْ سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ» .

الآية ٩٦ : «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَاةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» .

الآية ٩٧ : «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض وان الله بكل شئ عليم» .

الآية ٩٨ : «اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم» .

سورة الحج . الآية ٢٥ : «ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم» .

الآية ٢٦ : «واذ بآنا لابرهم مكان البيت ان لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود» .

الآية ٢٧ : «واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» .

الآية ٢٨ : «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير» .

الآية ٢٩ : «ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق» .

سورة الصافات . الآية ١٠٠ : «رب هب لى من الصالحين» .

الآية ١٠١ : «فبشرناه بغلام حليم» .

الآية ١٠٢ : «فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افع ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين» .

الآية ١٠٣ : «فلما اسلما وتكلم للجبين» .

الآية ١٠٤ : «وناديناه ان يا ابراهيم» .

الآية ١٠٥ : «قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين» .

- الآية ١٠٦ : «ان هذا هو البلاؤ المبين» .
الآية ١٠٧ : «وفديناه بذبح عظيم» .

شعائر الحج

يجرى الحج مرة فى السنة من اليوم الثامن الى اليوم الثانى عشر من الشهر الاخير من السنة القمرية ذى الحجة ؛ واذا صادف اليوم العاشر من هذا الشهر يوم الجمعة ، فان الحج يسمى «الحج الكبير» ، ويعتبر اصلح واكرب حج الى الله ، ويجتذب عددا كبيرا جدا من الحجاج .

ان اداء الحج يقتضى اداء ثلاث شعائر هى :

- ١ - على الحجاج الذين يعتزمون الحج ان يرتدوا لباسا خاصا ويتوجهوا بجميع افكارهم الى الله العلى القدير ؛
- ٢ - على الحجاج ان يقوموا بالطواف مرة واحدة ؛
- ٣ - على الحجاج ان يبقوا عند جبل عرفات طوال اليوم التاسع من الشهر المذكور .

واذا لم يتحقق شرط واحد من هذه الشروط الرئيسية الثلاثة ، فان الحج يعتبر لاغيا ؛ ومن قام به لا يُعفى من اداء هذه الفريضة .
وهناك ايضا شعائر اقل شأنًا يؤديها جميع الحجاج الزاما وان تكن لا تشكل اعمالا جوهرية . وسندرس جميع الشعائر معا حسب الترتيب الذي تتحقق به عادة ، وكما تاتى لى شخصيا ان اقوم بها .

قبل ٤-٥ مراحل من مكة ، يخلع الحجاج جميع ملابسهم فى النقاط المؤشرة خصيصا لاجل كل وجهة ، ويرتدون لباسا خاصا يسمى «الاحرام» ويتألف من قطعتين كاملتين (غير مخيطتين) من القماش الابيض . من قطعة يتشكل ضرب من تنورة مثبتة على الخصر بزناز ؛ والقطعة الاخرى تغطى القسم الاعلى من الجسم (رداء) . ان ارتداء الجميع بلا فرق لهذا اللباس الواحد ، المتماثل الذى يشبه الكفن قد تقرر ، كما يفسرون ، لتذكير الحجاج بيوم الحساب وبالمساواة بين جميع الناس امام الله ؛ وعدا هاتين القطعتين من القماش لا يسمح الا بلبس خفين مفتوحين فى القدمين . اما النساء فيبقيهن فى البستهن العادية . ومنذ ارتداء «ثوب الاحرام» ، يتعين على الحجاج الاستنكاف عن كل دنيوى ، والانصراف الى الصلاة حصرا . وممنوع عليهم فى هذا الوقت حلق الرأس وحلق الدقن وانتزاع الشعر من الجسم ، والصيد ، وذبح الحيوانات ايا كانت ، وخلاف ذلك . وعند الوصول الى مكة ، يتجه الحجاج

رأساً من الطريق الى الحرم للقيام بالطواف الاول والسعى الاول . وهاتان الشعيرتان يؤديهما الحجاج عادة بقيادة من يسمون «بالمطوفين» او «الادلة» - وهذه وظيفة وراثية لفرد معين من كل قومية . وهؤلاء القادة يقومون على رأس حجاجهم بهاتين الشعيرتين ، رافعين بصوت مدو الابتهالات المقررة ، فيرددوها الحجاج وراءهم .

تتلخص شعيرة الطواف في واقع ان الحجاج يدخلون الى الحرم من باب السلام ويقتربون من الزاوية الجنوبية من الكعبة التي يتواجد فيها الحجر الاسود ؛ ومع تلاوة الابتهالات يبدأون الطواف حول الحرم شرط ان يكون دائما من جهة اليد اليسرى ، ويتوقفون كل مرة امام الحجر الاسود ويقبلونه (علامة) ويسعون في المطافات السبعة الى تقبيله بالشفنتين ولو مرة واحدة ، ويمدنون اليد مرة واحدة الى لمس ركن اليمن . وبعد انتهاء الطواف يؤدون صلاة وجيزة في مقام ابراهيم ، ويخرجون من الحرم عبر باب الصفا لاجل اداء الشعيرة الاخرى ، شعيرة السعى .

هذه الشعيرة تتلخص فيما يل . في البدء يتجه الحجاج الى جبل الصفا ، يصعدون على درجاته ، وينهضون ، مرددين الابتهالات المقررة ، الى طرف النصارع المقابل نحو جبل المروة ، قاطعين قسما غير كبير من الطريق المعدم بعلامات خاصة ركضا ، ويستريحون عند جبل المروة ويرجعون الى جبل الصفا ، وهكذا دواليك . والناس الضعفاء يؤدون الشعيرة الاخيرة على ظهور الاحصنة او الحمير ؛ اما المرضى ، فيحملونهم على الحملات سواء في الطواف ام في السعى . وبعد اداء هاتين الشعيرتين ، يحلق الحجاج قسما من شعر الرأس او يقصونه ويرتدون ، عادة ، البستهم العادية (حج العمرة) ؛ اما الذين يؤدون التسعائر بمزيد من الدقة ، فيبقون في ثوب الاحرام حتى نهاية الحج .

واولئك الحجاج الذين لبسوا ثيابهم العادية يرتدون من جديد ثوب الاحرام في اليوم الثامن من ذى الحجة ، ويقومون للمرة النانية بالطواف ، ويمضون جميعهم الى جبل عرفات .

تقول اسطورة عربية ان ابا البشر ، آدم ، تقابل مع حواء للمرة الاولى عند جبل عرفات بعد طردهما من الجنة وانهما عاشا في عرفات في الاونة الاولى ورزقا ولهما الاول في عرفات . وعلى ذكرى هذا الحدث ، يبقى الحجاج عند هذا الجبل طوال اليوم التالي ، التاسع ، من شهر ذى الحجة . وتتلخص الشعيرة كلها بنظر الحنفيين في انه يتوجب عليهم في هذا اليوم ان يلجأوا الى التوبة والصلاة في خيامهم . إما اتباع الائمة الثلاثة الآخرين ،

فانهم يغطون جميع سفوح الجبل قبل ثلاث ساعات تقريبا من غروب الشمس لكي يستمعوا الى جملة من الابتهاالات التي يتلوها قاضى مكة من على ظهر هجين على قمة الجبل . وعند غروب الشمس ينهى القاضى التلاوة بالقول ان خطايا جميع الذين تابوا حقا وصدقا قد سُمِلها الغفران ؛ ويتجه الحجاج جميعهم الى جمالهم لكي ينطلقوا فى اتجاه مكة .

ويقضى الحجاج ليلة التاسع الى العاشر من شهر ذى الحجة فى المزدلفة ، وينطلقون منذ الصباح الباكر من اليوم العاشر الى منى لكي يبقوا هنا حتى مساء اليوم الثانى عشر .

فى منى ، عند سفح جبل عال ، يشيرون الى المكان الذى اراد فيه ابراهيم ، عملا بحشيقة الله ، ان يضحي له بابنه الوحيد (واسمه اسماعيل ، كما يقول العلماء المسلمون) ، الذى جلب الملاك حملا عرضا عنه ، ويشيرون الى الحجر الذى انشق عندما رمى ابراهيم سكينه التى لم تطاوعه ؛ وعلى ذكرى هذه الاحداث ، يذبح الحجاج هنا الخرفان على سبيل تقديم الضحية ويصلون عند الحجر المذكور . ومع تقديم الاضاحي ، يفص الحجاج او يخلقون قسما آخر من شعر رؤوسهم ، ويخلعون ثياب الاحرام نهائيا ويرتدون البستهم العادية .

وفى اليوم نفسه يتوجه بعض الحجاج الى مكة ليقوموا بالطواف الثالث والسعى الثانى ، ولكن اغلبية الحجاج تؤجل هاتين الشعيرتين حتى العودة من منى .

فى شارع منى توجد ثلاث نقاط معلّمة باعمدة حجرية بيضاء ومحاطة بحائط واطىء ، رمى منه ابراهيم ، كما تقول الاسطورة ، حجرا على الشيطان حين رآه . وعلى ذكرى هذا الحدث ، يرمى الحجاج اثناء تلاوة الابتهاالات الى الامكنة المذكورة عددا معيناً من الحصى الصغيرة التى سبق ان جمعوها قرب المزدلفة .

ونحو مساء اليوم الثانى عشر ، يعود جميع الحجاج الى مكة ويبدأون يستعدون للرحيل ؛ وقبل الرحيل يقومون بالطواف الاخير ، طواف الوداع . وبهذا تنتهى جميع شعائر الحج التى يتوافد لادائه مئات الآلاف من المسلمين من شتى ديارهم . ومن المدهش ان هذه الشعائر لا تنطوى على اى شيء خاص بالاسلام او بمؤسسه ؛ فهى جميعها شعائر عبادة العرب القديمة ، من العصر الجاهلي ، وقد دخلت بكليتها فى الدين الجديد .

وهناك شعيرة اخرى غير الزامية تؤدى فى مكة فى اى وقت كان من السنة ، وبصورة مستقلة تماما عن الحج ؛ وهذه الشعيرة يعهد الحجاج

الميسورون الى هذا الحد او ذاك الى شخص ما من مواطنيهم الفقراء بالقيام بها بالنيابة عنهم وعن اقاربهم الغائبين لقاء مكافأة معينة ، واسم هذه الشعيرة «العمرة» ومقادها ان الحجاج يمشون على ظهور الحمير او الاحصنة الى خارج المدينة الى مسجد «العمرة» الواقع على بعد خمسة فرسات تقريباً عن المدينة ، ويرتدون ثوب الاحرام ، ويؤدون هناك صلاة قصيرة ويعودون الى الكعبة لكي يقوموا بالطواف ثم بالسعى .

زيارة الآثار في ضواحي مكة

يزور كثيرون من الحجاج في مكة المقبرة التي دفنت فيها زوجة النبي ، خديجة الكبرى ، وبعض الصحابة الاوائل ، والبيت الذي ولد فيه النبي ، ويصعدون الى جبل ابو قبيس الواقع ضمن حدود المدينة ، والى جبل النور الذي يقع على بعد ستة فرسات تقريباً الى الشمال من جبل ابو قبيس ، والذي كان يعتزل فيه النبي لاجل الصلاة ، ويمضون الى جبل يقع على زهاء عشرة فرسات الى الجنوب من المدينة ، كان النبي يتخفى فيه من ملاحقات وثنيى مكة . والجبلان الاخيران لا يزورهما الحجاج ، نظراً لبعدهما ، الا في الشتاء ، اى فى وقت ابرد .

السجود امام قبر النبي في المدينة المنورة

ولكن ضريح محمد (صلعم) في المدينة المنورة هو اكبر آثار الاسلام في الحجاز . صحيح ان السجود امامه ليس فريضة على المسلمين ولا يمت بصلة الى الحج ، ولكن الحجاج القادمين الى الحجاز يقومون به جميعهم تقريباً ، حسب الظروف ، قبل الحج او بعده . والضريح موجود فى المسجد الكبير بالمدينة المنورة المسمى كذلك ، على مثال مكة ، بالحرم الشريف .

المسجد الكبير في المدينة المنورة

الحرم فى المدينة المنورة الواقع فى الطرف الشمالى الشرقى من المدينة والذي يشغل المكان الذى كان فيه فيما مضى بيت النبي ومسجده بنى من

جديد للمرة الاخيرة فى عهد السلطان عبد المجيد الذى اعتمد لهذا الغرض ٧٥٠ الف ليرة تركية (اكثر من ستة ملايين روبل) ؛ وهو عبارة عن مسجد غير كبير ، من طراز المسجد فى مكة ، ولكن هندسته المعمارية اضخم واغنى ، وحوله صف اوسع من الاعمدة ، وبخاصة من الجانب المواجه لمكة ؛ وزينته الداخلية اغنى . وقد استعملوا الغرانيت المحلى الضارب الى الاحمر ، الجميل جدا بعد الزينة ، مادة لاجل البناء . من الحجر ذاته نحتوا الاعمدة ايضا . والارضية تتألف من بلاطات مرمرية مستجلبة من مصر . وتتميز تزيينات الجدران الداخلية ببذخ بالغ اذ انها مغطاة بفسيفساء غنية وكتابات انيقة بالذهب من آيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية . ومكان مسجد النبى السابق الذى يشغل وسط القسم الجنوبى من الرواق ، يتميز بتزيينات ذهبية خاصة على الاعمدة . وهنا يوجد المحراب والمنبر المتميزان بنقش دقيق رائع ، والمقامان فى مكانيهما السابقين ، كما كان الحال فى المسجد الاولى . والى جانب مكان المسجد القديم ، يوجد من جهته اليسرى اذا وقف المرء واجها الجنوب ، مكان البيت السابق للنبي محمد ، المحاط بمصبع برونزى عال ، كثيف ، مرفق بستائر حريرية ، والمكمل فوق الحرم بقبة خضراء عالية . وفى هذا السياج المسمى بالحجرة الشريفة او الروضة المطهرة توجد قبور النبى محمد وخليفتيه الاولين ابو بكر وعمر ، المغطاة بغطاء حريرى مشترك ، اخضر اللون مطرز بالاحجار الكريمة والخيوط الذهبية . من الجانب الشمالى يلتصق بالحجرة الشريفة انشاء آخر مماثل يوجد فيه قبر ابنة النبى فاطمة . وفى ساحة مكشوفة فى وسط الحرم توجد روضة صغيرة وفيها بئر ، هما جنيحة فاطمة وبئر فاطمة . وللحرم خمس مآذن ، اربع فى الشوارع وواحدة فى الواجهة الشرقية . وللمدخل خمسة ابواب ، اكبرها - وعبره يدخل الحجاج - باب السلام ذو التلييس الرائع الغنى . فى المساء ، ينيرون الحرم وجوانية الهجرة بمصابيح كالتى فى مكة . وهناك ايضا شموع كبيرة مثل الشموع المستعملة فى الكنائس ؛ فضلا عن ذلك تتدلى فى مختلف الاماكن ثريات بلورية تبرع بها الاغنياء . ولادارة الحرم ، المتواجد هنا ايضا فى قبضة الاتراك ، يعينون شخصية محترمة بخاصة من عداد الجنرالات الاتراك المتقاعدين ؛ وتحت تصرفها ملاك كبير من الخدم المخصيين . اصف الى ذلك ان بعض الافراد ينالون ، من باب التكريم الخاص ، الحق فى الاشتراك فى تنظيف الحرم والهجرة . والحجاج القادمون الى المدينة المنورة يدخلون عبر باب السلام ؛ وحين

يقتربون من مصبح الهجرة ، يتخذون وضعة الصلاة ويرددون بعد الدليل الصلوات العادية طالبين تدخل النبي في يوم القيامة . ثم يطوفون بالتتابع على مدافن ابي بكر وعمر وفاطمة ، وبهذا تنتهي الشعائر كلها .

زيارة الآثار الاخرى في ضواحي المدينة المنورة

في الايام التالية يقوم الحجاج برحلة على بعد خمسة فرسعات تقريبا الى الشمال من المدينة ، وذلك الى سفح جبل اُحد حيث يوجد قبر الشخصية المكرمة جدا سيدنا الحمزة الذي كان من اوائل اتباع الاسلام واشدهم غيرة وحماسة ، والذي قتل هنا في معركة مع المكيين . ثم يزورون مسجد الكعبة الذي يقع على نفس البعد من المدينة ولكن من الجهة المقابلة ، والذي توقف فيه النبي عند وصوله الى المدينة المنورة بعد الهجرة . ويقطع البعض مسافة اربعة فرسعات تقريبا الى الشرق للذهاب الى مسجد القبليتين حيث يوجد محرابان ، احدهما موجه الى القدس ، كما صلى محمد في البسء ، والثاني موجه الى مكة التي كانت قبلته عندما كان يصل فيما بعد . ويزور الحجاج مقبرة المدينة المنورة حيث دفن عثمان ثالث الخلفاء الراشدين ؛ واخيرا ، ينهبون ضمن حدود المدينة الى قبر عبد الله ، والد النبي ، وقبر واحد من الائمة السنيين الاربعة ، مالك .

الفصل الخامس

حج المسلمين الروس وظروفه الصحية

عدد الحجاج المسلمين الروس سنة ١٨٩٨

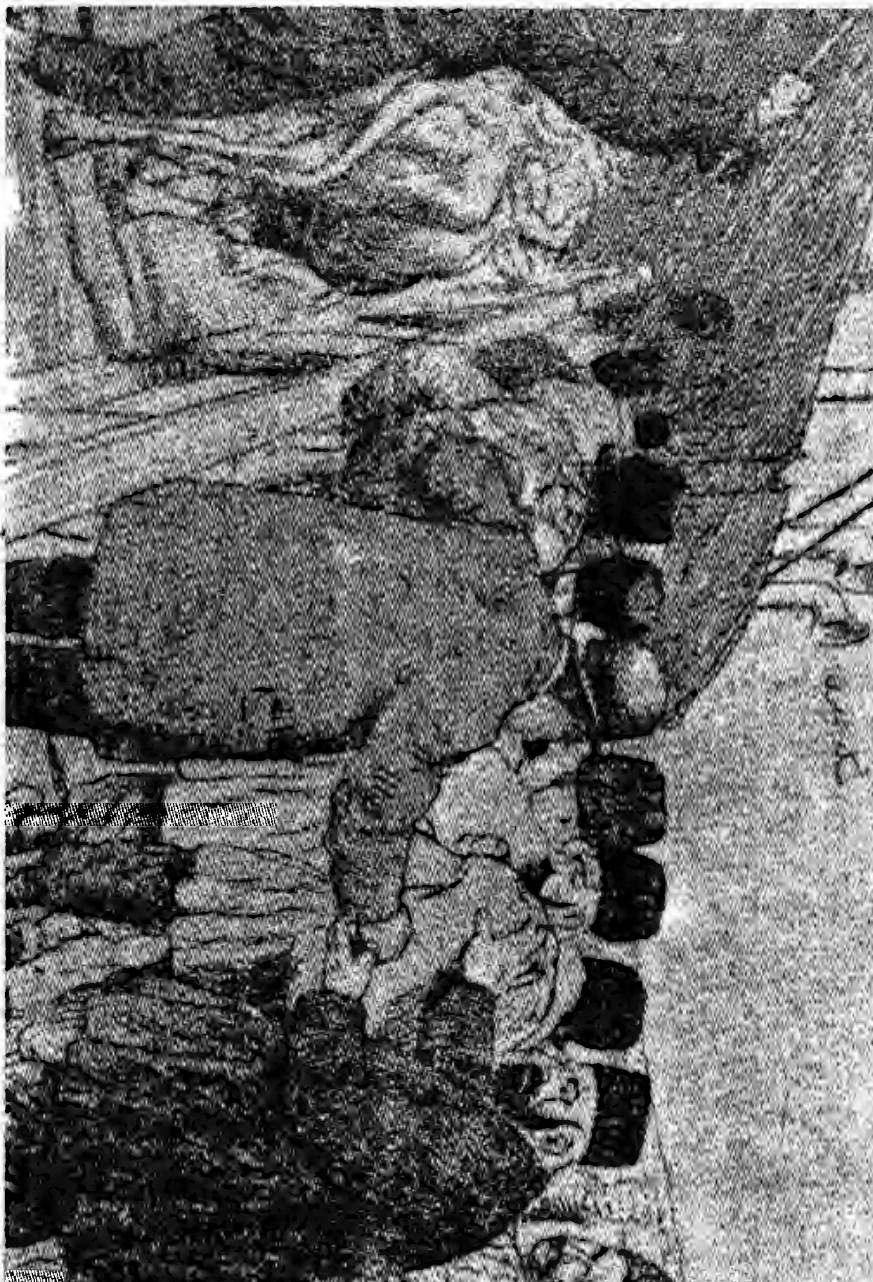
بسبب منع اعطاء جوازات السفر للحج ، وصل فى هذه السنة الى مكة عدد قليل جدا من المسلمين الروس (من روسيا) ، ٤٥٠ شخصا فقط ، اى زهاء عشر العدد الذى يتوافد ، كما يقول الادلة ، فى السنوات الموفقة .

اصناف الحجاج

من حيث القوميات ، كان العدد المذكور يتألف من ٢٥٠ قرغيزيا اغليبيتهم من مناطق سيبيريا ، وحوالى ١٠٠ شخص من سكان ما وراء القفقاس اغليبيتهم من محافظة يريفان ، وحوالى ١٠٠ قترى من مختلف محافظات روسيا الاوروبية - وبالضبط من بطرسبورغ ٦ اشخاص ، من محافظة ريازان ٢١ شخصا ، من محافظة بنزا شخصان ، من محافظة قازان ١٦ شخصا ، من موسكو شخصان ، من محافظة نيجنى نوفغورود ٨ اشخاص ، من محافظة سيمبيرسك ١٤ شخصا ، من محافظة اوقا ١٢ شخصا ، من محافظة سامارا ٧ اشخاص ، من محافظة اورنبورغ ٩ اشخاص ، من محافظة استراخان (عدا اورطة بوكييف (٣)) ٧ اشخاص ، ثم شخص واحد من محافظة توبولسك . ولم يكن هناك حجاج من تركستان ومن مقاطعة ما وراء قزوين ومن القرم .

من حيث الاشغال والمراتب - جميع القرغيز بايات * محليون من الرحل ؛ ولم ار بينهم سوى اثنين من رجال الدين سافرا لقاء اجر لاداء فريضة الحج بالثيابة عن الآخرين («البذل») . وسكان محافظة يريفان الذين

* الباي يعنى القنى .



- قبيل رحيل الحجاج . رسم كاريكاتوري في المجلة الروسية «الملاك نصر الله» ديسمبر ١٩١٣ .

تظاهروا بانهم داغستانيون لكي يتخلصوا ، اغلب الظن ، من دفع رسوم خاصة تستوفى في الحجاز من اهل الشيعة كانوا جميعهم بلا استثناء زراعا ميسورين ، والقادمون الآخرون من سائر انحاء ما وراء القفقاس كانوا على الاغلب تجارا اغنياء . وكان بين التتر ١١ ملا (من ائمة المساجد) ، سافر منهم ٩ على سبيل «البدل» ؛ اما الباقون فقد كانوا جميعهم من مرتبة التجار الميسورين الى هذا الحد او ذاك .

من حيث العمر - كان جميع الحجاج ، باستثناء قلة تافهة ، من المتقدمين في السن - كانت اعمارهم تتراوح بين ٥٠ و ٦٠ سنة .

اما القادمون مع عائلاتهم ، فكانوا اربعة فقط من التتر ، وكان مع احدهم خمسة اولاد ، اصغرهم سنا في الرابعة عشرة من العمر .

الاسباب الرئيسية التي تحمل على الحج

الاسباب الرئيسية التي تحمل على الحج كانت اساسا ، بقدر ما استطع ان اكون فكرة عنها ، الرغبة في اداء فريضة من فرائض الدين الالزامية الرئيسية ، والايمان في الخلاص من الخطايا - الامر الذي يشكل بنظر المتدينين ، ولاسيما في سنوات الشيخوخة ، سببا هاما جدا يجبر على القيام بهذه السفرة الصعبة ، والمحفوفة بالمخاطر . ومن جهة اخرى ، يعود بلا ريب بعض الدور الى الغرور ورغبة المرء في ان يكتسب في وسطه بعض الوزن والوقار المتعلقين بلقب «الحاج» ، رغم ان هذا اللقب بين المسلمين في روسيا الداخلية لا بعد من ان يحظى الآن بذلك الاحترام الذي كان يحظى به منذ ٤٠-٥٠ سنة ، حين كانت الطريق صعبة جدا وحين كان السفر يتطلب ما لا يقل عن سنتين ، وحين كان لا يقدم على الحج غير عدد قليل جدا ممن يحدوهم شعور ديني عميق ويملكون ما يكفي من الاموال ؛ وهذان العاملان نادرا ما يجتمعان عند مسلمينا . ومع تطور البواخر والسكك الحديدية اصبح من الممكن القيام بالسفرة كلها في غضون شهرين او ثلاثة وبنفقات غير كبيرة ، فتكاثر الحجاج كثيرا جدا ، وبينهم لا يندر ان يتواجد افراد لا يتمتعون بسمعة طيبة .

وهدف اولئك الحجاج الذين يذهبون الى الحج من باب «البدل» هو بالطبع كسب بعض المال .

وفي هذه السنة كان ثمة مثال آخر ايضا ؛ فان تاجرا غنيا قد ارسل

ابنه بامل ان تخلصه زيارة الاماكن المقدسة من الادمان على المشروبات الروحية .

مقدار المبلغ الضروري لاجل الحج

الحد الادنى من المبلغ الضروري للقيام بالحج فقط ، اى بدون زيارة المدينة المنورة ، هو فى السنوات التى لا يقتضى فيها الحال الحجر الصحى ٣٠٠ روبل . اما فى حال الرغبة فى زيارة قبر النبى (صلعم) ، فينبغى حوالى ٥٠٠ روبل . وعلى العموم يأخذ حجاجنا من ذوى اليسر المتوسط حوالى ١٠٠٠ روبل فى الطريق . واذا افترضنا انه ينبغى على الراغب فى الحج ان يبقى فى بيته مبلغا مماثلا لتأمين عائلته حتى عودته ، فان فريضة الحج تكون الزامية من وجهة نظر الشريعة على جميع المسلمين الذين يستطيعون اتفاق مبلغ الفى روبل . وعادة يأخذ «البديل» مبلغا يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ روبل .

الاستعدادات للسفر

يتخذ مسلمونا القرار بالسفر الى مكة المكرمة بصورة مستقلة او بناء على نصيحة الملا (امام المسجد) قبل موعد الحج بسنة كاملة ؛ ومنذ ذاك تبدأ الاستعدادات تدريجيا : يستعلمون عن الاشخاص الآخرين الذين يعتزمون الحج ، يؤلفون فرقا من اقرب الاشخاص من حيث مكان الإقامة او من الاقارب ، يدبرون الشؤون البيتية ، يصفقون جميع الحسابات النقدية ، يكتبون الوصايا ، وما الى ذلك . وجميع الحجاج على العموم ، والذاهبون من روسيا على الخصوص يأخذون معهم كمية كبيرة من شتى الاشياء لانهم يستفيدون من نقل قسم منها مجانا فى البواخر وفى السكك الحديدية المصرية . اما الاشياء الضرورية لهذه السفرة فهى فى المقام الاول السماور ، وآنية الشاى والمطبخ ، والشاى الروسى الذى يصعب الحصول عليه فى الخارج ، ومختلف المأكولات بما فيها بضعة اكياس مليئة بأرغفة مجففة من خبز الجودار ، يقدرها حجاجنا فى الحجاز خاص التقدير ، وعنب الثعلب الاسود المجفف ، والفالوذة ، وما شاكلها : ولكن قرغيزينا يأخذون المؤن معهم اكثر من الجميع ، بما فى ذلك لحم الخيل المملح ، واصناف السجق المدهن ، وجبنة الغنم المملحة الجافة (الكروت) ، والخ . .

واخيرا ينطلق الحجاج عند نهاية رمضان بالذات ، اى قبل موعد الحج بشهرين ، ويودعهم بمهابة واحتفال جميع اقاربهم ومعارفهم الى نقطة التجمع المعينة سلفا ، وعادة الى اقرب مدينة او الى محطة كبيرة للسكة الحديدية . فى السنوات غير الموفقة ، يعرف الراغبون فى الحج ، وعادة قبل فترة وجيزة من السفر ، بأمر الحكومة بعدم اعطاء جوازات سفر للحج ، ويقراون الرسائل السيارة التى تصدرها جمعيات المسلمين الدينية بنصائح الامتناع هذه السنة عن السفر الى الحجاز .

وفى هذه الاحوال تؤجل الاغلبية السفر الى سنة اوفق ، ولكن البعض لا يرى فى هذا الامر سوى التضييق على ممارسة الشعائر الدينية ، ولا يصدقون البتة فى وجود الاوبئة ويسافرون ، وذلك استنادا الى انباء من اقاربهم فى الحجاز الذى يعنى الامتناع عن الحج بالنسبة لهم الحرمان من كل كسب فى زمن الحج . وهناك اشخاص ، وبخاصة ممن ارجأوا فى السنوات السابقة سفرهم ، يفترضون انه قد يقوم فى السنوات القادمة منع اشد صرامة ، وانه لن يتسنى لهم ابدا القيام بالحج اذا ما انتظروا ازمانا ملائمة ، وانه لا مفر من القدر ، وما الى ذلك ، فيقررون هم ايضا السفر .

الحصول على جوازات السفر

حجاج هذه السنة من منطقة ما وراء القفقاس اخذوا بمعظمهم جوازات السفر حسب اماكن اقامتهم ، والتتر فى موسكو على الاغلب ؛ ستة اشخاص فقط منهم اخذوا جوازات السفر فى بطرسبورغ ، واثنان فى سيمبيرسك (٤) وثلاثة فى فرصوفيا (٥) ؛ والقرغيز فى موسكو واوديسا .

يصلون على التاشيرات من القناصل الاتراك للسفر حتى القسطنطينية حيث الحجاج ملزمون بأخذ جوازات السفر التركية التى لا يصلح غيرها لمواصلة السفر ، ولذا يترك بعض من المسافرين الى مكة جوازات السفر الوطنية فى القسطنطينية ، ولا يعرضونها فيما بعد وفى اى حال من الاحوال فى اى مكان تخوفا من المصاعب اثناء العودة الى روسيا . وعلاوة على ذلك يستحصل البعض فى الاسكندرية او فى السويس جوازات سفر مصرية لا يقبلون بدونها الركاب ، فى حال العودة ، على بعض بواخر الشركة الخديوية التى لا تنقل غير سكان مصر .

يستغرق تحرك حجاجنا بالمتوسط ٦ اشهر - فى السنوات الاخيرة من شباط (فبراير) الى آب (اغسطس) ؛ ولكن التحرك بدأ باكرا جدا لسنة

١٨٩٩ ؛ ففي كانون الاول (ديسمبر) تقابلت في مصر مع بعض مجموعات من المسافرين الى الحجاز ممن غادروا ربوعهم باكرا ، قبل ان يصعب الحصول على جوازات السفر .

من الصعب الاشارة الى اجراءات فعالة يمكن بها ، عند الاقتضاء ، الحؤول دون سفر مسلمينا الى الحجاز . لربما اعطاء جوازات السفر حسب مكان الاقامة فقط ، او لربما المطالبة الزاما بان يقدم الراغبون في السفر شهادات من سلطاتهم البوليسية حتما بعدم وجود موانع للسفر الى الخارج ، من شأنهما ان يخفضا عدد الراغبين في الحج ؛ ولربما يتعين كذلك تحذير جميع المسافرين الى تركيا من المصاعب التي تترصدهم عند العودة الى روسيا .

الخروج من حدود روسيا

الابواب التي يخرج منها حجاجنا هي اوديسا وسيباستوبول بالنسبة لروسيا الداخلية وسيبيريا ، وباطوم بالنسبة للمسافرين من آسيا الوسطى واقليم ما وراء قزوين ، وفي هذه السنة ، كان هناك ثلاثة من رعايا روسيا اخذوا جوازات سفر في فرسوفيا وسافروا الى القسطنطينية بالسكة الحديدية عبر فيينا .

في جميع الموانئ الواقعة سواء ضمن حدود روسيا ام في تركيا ومصر ، والتي تجرى عبرها حركة الحج الرئيسية ، يوجد عملاء يستقبلون الحجاج ويعمدون الى انزالهم عادة في بيوتهم ، ويستحصلون لهم على الوثائق الضرورية ، ويقودونهم لاجراء مختلف الشروات ، ويستغلون باوقح نحو الناس غير المطلعين .

القسطنطينية بوصفها نقطة متوسطة هامة

تذاكر السفر لا تؤخذ في البدء الا الى القسطنطينية ، النقطة المرحلية الرئيسية بالنسبة لجميع المسافرين من روسيا . وفي القسطنطينية يبقى الحجاج اسبوعا تقريبا ويتزودون بجوازات السفر التركية . ويبادلون قسما من النقود بالنقود التركية لنفقات الطريق ، ويشترون مستلزمات الاحرام ، ويستعلمون عن البواخر الذاهبة الى جدة ، وما الى ذلك .



- استراحة الحجاج الروس.

السفر الى جدة

تقوم اربع شركات للملاحة بنقل الحجاج لاحقا الى جدة او الى ينبع .
١ - الشركة الروسية للملاحة والتجارة التي تنقلهم الى الاسكندرية فقط ، وتسلمهم الى عميل شركة الملاحة ماغرى رينى وشركاه فينقلهم بالسكة الحديدية الى السويس لاجل نقلهم لاحقا على بواخر الشركة .
٢ - الشركة الصغيرة ماغرى رينى وشركاه التي لا تملك سوى باخرتين سيثتين ، وقديمتين جدا تعملان بين مرافى البحر الاحمر .
٣ - البواخر الخديوية المصرية السابقة التي اشترتها الشركة الانجليزية Khedivial Mail Steamship and Graving Dock ؛ وهذه الشركة تملك ١١ باخرة غير كبيرة يعمل بعض منها خصيصا على نقل الحجاج فى زمن حركة الحج ، فتقوم برحلات مباشرة من القسطنطينية عبر قناة السويس الى جدة ذهابا وايابا .
٤ - البواخر الحكومية التركية ، وهى اسوأ البواخر واقلها ، وتنقل الحجاج هى ايضا برحلات مباشرة معرجة على اصغر المرافى كافة فى آسيا الصغرى وسوريا .
وعلى جميع البواخر التى تقوم بنقل الحجاج ، يوجد اطباء تحت تصرفهم صيديات صغيرة .

الاشخاص المسافرون فى حجرة من الدرجة الاولى او من الدرجة الثانية يتواجدون بمثابة استثناء نادر جدا ؛ والحجاج العاديون يشغلون فى المعتاد اماكن على المتون او فى العنابر دافعين لقاء السفر الى ينبع او الى جدة ليرتين تركيتين (حوالى ١٧ روبلا) بالفرد الواحد ، ولكن البواخر التركية تنقل كذلك مجانا جمهور الحجاج الفقراء ذهابا وايابا .

تأخذ بواخر الشركات الثلاث الاخيرة عددا من الركاب كبيرا الى حد ان تكتظ الباخرة كلها بهم حقا وفعلا ، غير تاركين اية ممرات على الاطلاق . وقد تاتى لى ان اسافر من السويس الى جدة على سفينة صغيرة لشركة ماغرى رينى وشركاه ؛ كان عدد الركاب ٨٥٠ شخصا فاحتشدوا فيها بضيق لا يوصف . وبسبب قلة الاماكن ، شغلوا كل متن الدرجة الاولى ونصف مركز الربان ، وحتى ملأوا زوارق الانقاذ . وكانت اكشاك مركبة كيفما اتفق من الواح خشبية ومعلقة خارج المتن بمثابة مراحيض ؛ ولأجل الوصول اليها كان ينبغى التسلق فوق سياج عال ، الامر الذى كان بالنسبة للكثيرين عملية صعبة ؛ وعشية الوصول الى جدة ، هبت فى المساء عاصفة قوية ودامت الليل

كله ؛ ومن الصعب ان يتصور المرء ما حدث آنذاك على هذه الباخرة المكتظة بالناس . ومن الاحاديث مع الطبيب علمت انه تحدث بين الصغار اثناء الانتقال مختلف الامراض الوبائية وان ولدين ماتا في الرحلة السابقة من الدفتيريا (الخناق) . ولا يجرى التطهير الوقائي في الباخرة .

في طريق العودة سافرت من ينبع على باخرة افضل تابعة للشركة الخديوية سابقا ، ولكن الضيق هنا ايضا لم يكن اقل رعبا ، بل كان اشد واقسى من جراء القيظ الرهيب . وفى العنبر وفى الحجرات لم يكن ثمة قطعا اى هواء للاستنشاق ، وكان الركاب هنا متمددين مرضى باغلبيتهم بسبب الفيظ وكتمة الهواء . وجعلت قيادة الباخرة من قسم الدرجة الاولى درجة خاصة ؛ فلقاء مبلغ اضافى قدره ليرة ونصف ليرة ، انزلوا هنا ركاب الدرجة الثالثة ، وسرعان ما اكتظ القسم كله بالفرس . واثناء الرحلة يطبخ جميع الحجاج لانفسهم المأكّل على مناقل يضعونها فى كل مكان من العنبر ومن المتن ، ويشعلون النار تحت السماورات فى كل مكان ، ويشعلون النارجيلات ، وكل هذا لا يحسبون انه يشكل خطرا . يبقى ان اضيف انه غالبا ما تنشب فى قلب هذا الجمع المتعدد القوميات خلافات ومجادلات بسبب الاماكن تنتهى احيانا بالشجار ، علما بانه ليس بمقدور افراد طاقم الباخرة ان يفعلوا شيئا بسبب قلة عددهم .

النزول فى جدّة او فى ينبع

ينزل حجاجنا عادة فى ينبع اذا سافروا فى الوقت المناسب الباكر ، ومنها يتوجهون الى المدينة المنورة ، ومنها الى مكة المكرمة . هذا الخط انسب فى الوقت الحاضر اذ يجرى الحج فى شهر نيسان (ابريل) لانه لا يتعين السفر بالقافلة فى وقت حار جدا . واذا وصلوا بعد ذلك ، فانهم ينطلقون راسا الى جدّة ؛ وقبل الوصول بقرابة ١٢ ساعة الى الرفأ المذكور ، يخلع جميع الحجاج كل البستهم ويكشفون رؤوسهم ويلتفون بثياب الاحرام . اما الذين يمضون من المدينة المنورة فيقومون بذلك فى رايع . ولا ريب فى ان هذا اللباس الخفيف وتعريّة الرأس الذى يغطيه المسلمون على الدوام يضرّان كثيرا بصحة الحجاج الذين لم يتعودوا على المناخ الحار المحلى . ويحاول بعض منهم ، ممن هم اوفر تجربة ، ان يقللوا من تأثير ثوب الاحرام الضار ، فيطلقون الشعر الطويل فى الوقت المناسب ، ويشترون هذا اللباس من قماش اسمك . وحين ينزل الحجاج فى جدّة ، يتوزعون على الشقات

بحيث يستأجر بضعة اشخاص غرفة واحدة ، ثم ينطلقون مع القافلة الاولى الى مكة . ولكن جدّة كانت مغلقة في السنة الجارية بسبب الحجر الصحي ، فانزلونا على بعد ٢٠ فرستا تقريبا الى الجنوب منها في محلة الرأس الاسود المحاطة ، مثل جدّة ، بسلاسل من الصخور قرب سطح الماء لا تسمح باقتراب البواخر من الشاطئ فترسو على بعد منه يتراوح بين ٧ و ٨ فرسات . وفي اليوم الثاني من وصولنا اقترب من الباخرة زهاء عشرين زورقا شرعيا كبيرا واخذت تستقبل الركاب ؛ وبما انه حدث قبل ذاك بزمان قصير حادث مؤسف ، كان زورق يأخذ الامتعة والطاقم فقط ، بينما كان زورق آخر يأخذ الركاب ، وكان الزورق الاول يقطر الثاني . تقطع الزوارق المسافة الى الشاطئ في اكثر من ساعة ، متموّزة على الدوام بين الصخور التحتمائية ، وناطحة اياها احيانا كثيرة بقاعها .

الرأس الاسود

الرأس الاسود عبارة عن شاطئ رملي منخفض مزود برصيف مبني كيفما اتفق تلتصق به سقيقتان مركبتان من الواح خشبية ؛ وابتعد قليلا نصبوا خياما لاجل الحجاج القادمين ، ويتواجد بازار صغير ، وكل هذا محاط بحواجز خشبية يسير بمحاذاتها حراس . وراء الحواجز اقيمت فساطيط بشكل نصف دائرة لاجل الطابور الواقف هنا لحراسة الحجاج ومرافقتهم . والى ابعد ، كان البدو مع جمالهم وشقاداتهم وحميرهم ينتظرون من يستأجرهم . قبل الوصول الى الشاطئ ببضع ساجينات ، توقفت الزوارق واخذوا مسبقا من كل منا نصف مجيذية (حوالي ٨٠ كوبيكا) في صالح المحجر الصحي ؛ وبعد ذاك فقط سمحوا لنا بالنزول الى الرصيف . وهنا ، تحت السقيقتين ، يوجد صندوقان يأخذون بقرب احدهما مرة اخرى في صالح المحجر الصحي نصف مجيذية من كل حاج ، ويتحققون بقرب الآخر من الوثائق ، ومن ليس معهم جوازات سفر تركية يزودونهم بها ، ثم يتفحصون الامتعة ، واخيرا يسمحون بالخروج الى الشاطئ . وعشية النزول ، اخذنا انا وكثيرون من الحجاج القادمين من الشمال نعاني من اختلال قوى في المعدة وبعطش معذب ولا يرتوى وبضعف غير عادي لم استطع انا شخصيا ان اتخلص منه تماما طوال اقامتي في الحجاز . في الرأس الاسود ، اصطلمت للمرة الاولى بالانظمة التركية غير المعقولة اطلاقا ، بدءا من مسألة الماء . فان ماء الشرب يستجلبونه الى هنا من جدّة

على زوارق شرعية لا تستطيع ان تبحر الا نهارا بسبب من وفرة الصخور
التحتائية والا اذا هبت ريح مؤاتية الى هذا الحد او ذاك . والماء المستجلب
يبقى في الزوارق ، وليس على الشاطئ اية خزانات او اية احتياطات . وفي
يوم وصولنا نفذ كل احتياطي الماء حوالى الظهر ، وراحت الزوارق الى
المدينة لجلبه . وحوالى الساعة الرابعة نفذ كل الماء عند الحجاج ، فآخذوا
ينتظرون عودة الزوارق متجمعين جمعا ضخما جدا على الرصيف ، ولكنهم عبا
انتظروا حتى ساعة متأخرة من الليل وسافروا فى اليوم التالى دون ان
يجصلوا على الماء .

كذلك لم افهم الواقع التالى ؛ ففي يوم وصول البواخر ، جاء بحرية من
جدة ، رغم الحجر الصحى ، باعة بالمفرق طفقوا يبيعون بين الحجاج شتى
التوافه ؛ وكثيرون من التجار ممن كانت لهم هنا دكاكين كانوا يواصلون
الاتصال مع المدينة بلا عائق ؛ واخبرنى سواقو الحمير انهم ، فى طريقهم
من مكة ، عرجوا على جدة ثم على البحرة وحدة ؛ وقد رأيت شخصا بضع
جماعات من الجنود جاؤوا مباشرة ، كما قالوا ، من المدينة الموبوءة .
فى الرأس الاسود ، كان القنصل الفارسى يعمل على الدوام فى هذه
السنة وكان فسطاطه الغنى الذى تنيره فى المساء المشاعل من كل الجوانب
يستوعب انتباه جميع الحجاج .

الانتقال الى مكة

قررنا انا وثلاثة رفاق ان ننتقل الى مكة على ظهور الحمير ، واردنا ان
ننطلق فى اليوم نفسه قبيل المساء ، ولكن لم يسمحوا لنا ، قائلين انه ،
نظرا لمخاطر الطريق ، سينطلق الجميع معا غدا بحراسة خفر خاص . وبالفعل
رافق القافلة فى اليوم التالى خفر قوى من الخيالة ولكن المسافرين على ظهور
الحمير تفرقوا جماعات صغيرة ومضوا فى طرق مختلفة ، كل جماعة على
هواها .

قرب البحرة ، حيث تدخل الطريق وادى فاطمة العريض ، ينفصل الى
اليسار درب اقصر ؛ وكثيرون ممن راوحوا فى هذا الدرب تعرضوا ، كما
تبين ، لهجوم البدو . فى البدء رأينا جنديا تركيا راكضا صوبنا من جانب
الدرب المذكور ، وملوحا بيديه ، وصائحا ، ووضح لنا ان رفيقيه الاثنين
الذاهبين معه فى الحج من جدة الى مكة قد قتلوهما للتو بالاحجار . نقلناه
الى البحرة وهناك اغمى عليه . وبعدنا اخذت تصل جماعات الحجاج الاخرى

الماضية على ظهور الحمير وتتشكى من انهم سلبوا ادهم ٣٠ ليرة وسلبوا آخر ٤٠ ليرة وهكذا دواليك ؛ واخيرا ظهر جندي آخر كان ، كما تبين ، عازفا فى الطابور المربط فى جدّة وابلغ الضباط الاتراك الجالسين هنا فى المقهى ان البدو قتلوا رفيقه . وقابل الضباط الاتراك جميع هذه البيانات والشكاوى ، كما يقابلون ظاهرات عادية ، ببالغ اللامبالاة ، رغم ان كل هذا حدث على مقربة قريبة من البحرة ؛ تأسفوا على القتل والمسلوبين ، وشتموا البدو ، وطفقوا يتجادلون بصدد من منهم يرسل جملا لآخذ الجنود القتلى . ان كثيرين ممن يمضون على ظهور الحمير يصلون الى مكة فى يوم واحد لأن هذه الحيوانات تتميز هنا بالجلد الكبير والقامة الضخمة والمشيمة الجيدة ، ولكننا نحن قضينا الليل فى حدة بسبب مرضي ، ووصلنا فى اليوم التالى صباحا بدون اية مغامرات ؛ الا اننا سمعنا على الدوام عن اعمال السلب والنهب تارة هنا وطورا هناك .

الوصول الى مكة والاقامة

عند دخول المدينة يتلاقى حاجنا مع مطوفيهم ، ولكن قلّة منهم يكون بمقدورها ان تمضى وراهم فى الحال الى الحرم للقيام بالطواف والسعى ، كما تقتضى الشعائر ، والاغلبية تؤجل عادة اداء هذه الشعائر الى بضعة ايام ، وذلك لأن المناخ المحلى يحمل الذين لم يألوه على التراخى . وللمسلمين الروس فى مكة ثلاثة مطوفين : ادهم لاجل القادمين من القفقاس ، والثانى لاجل القادمين من القرم ، والثالث لاجل جميع الباقين . ولإقامة حاجنا فى مكة مجانا توجد ثمانى تكيات ، اشتراها مسلمونا وقدموها هدية للاوقاف . وهذه التكيات هى فى المعتاد بيوت غير كبيرة من الطراز المحلى يعيش فيها دائما ويشرف عليها بشارة من الهادى احد ما من مواطنى روسيا ممن استقروا هنا . والغرف لإقامة الحجاج فى هذه التكيات ليست بمعظمها على ما يكفى من النظافة والترتيب ، رغم ان المشرفين على هذه البيوت يجمعون كل مرة من الحجاج النقود لاجل التصليح . وهناك قسم من الحجاج يستأجر على حسابه الشقات فى البيوت الخاصة ؛ وفى هذه الحالة وتلك سواء بسواء ، يسكنون بخارق الضيق لمجرد ان يكون على الارضية مكان للتمدد عليه . وعموما تجدر الاشارة الى ان حاجنا ، وحتى اولئك الذين يملكون مبالغ كبيرة من المال ، يتميزون فى زمن السفر الى الحجاز ببخل خارق ويحرمون انفسهم ابسط وسائل الراحة والرفاهية .

الإقامة في مكة قبل الانطلاق الى عرفات

فى الحال يتوافد الى الحجاج القادمين حديثا مواطنوهم المحليون (من مكة) او القادمون من المدينة المنورة ليستعلموا ما اذا كانوا يكلفونهم بأداء الحج (البذل) او العمرة او ليحصلوا على الصدقة ؛ ويأتى «السقاؤون» الملتزمون بجلب الماء من بئر زمزم الى الحجاج طوال اقامتهم فى مكة . وينقضى الوقت قبل الانطلاق الى عرفات فى زيارة الحرم لاجل صلاة الصبح والمساء ، وفى السجود امام مدافن مختلف الاولياء ، وفى الصعود الى جبل ابو قبيس ، وفى التردد على البازار ، وفى شرب الماء المقدس المذكور اعلاه باجتهاد وحمية .

الانطلاق الى عرفات

الرحلة الى عرفات اروع مرحلة بالنسبة للحجاج فى كل زمن الحج . والذكريات والاقاصيص عن اوبة الكوليرا الرهيبة التى غالبا ما تنشب لدن اداء هذه الشعائر تثير فى نفوس الحجاج رعبا خاصا ، شديدا ، وجميع الاحاديث قبل الانطلاق تدور بوجه الحصر حول عرفات ومنى ؛ وجميع الافتراضات يرافقها التحفظ : «ان شاء الله اعود سالما من عرفات» ؛ ويوصى الرفاق بعضهم بعضا بكيفية التصرف بالاموال المتواجدة فى حال الوفاة ، وما الى ذلك . وفى اليوم الثامن من ذى الحجة ، يبدو كل الطريق الى عرفات ، البالغ طوله ٢٠ فرستا ، كتلة متحركة بلا انقطاع من حجاج مرتدين بتياب الاحرام البيضاء ، راكبين فى الشقائف او على الهجان والحمير ، او سائرين مشيا على الاقدام . وجميع العساكر المرابطة فى مكة ، والمحملان مع الخفر ، والوالى ، والشرىف ، وجميع سكان المدينة ، ما عدا النساء والاطفال ، ينزحون فى هذه الايام الى عرفات بعضهم لاداء الشعائر ، والبعض الآخر بدافع المصالح التجارية . كذلك ينطلق الفريق الطبى المرسل فى مامورية لزمن الحج ، مع صيدليته ومع لوازم التطبيب والاستشفاء .

الإقامة فى عرفات

موقف الحجاج عند عرفات عبارة عن سهل وملى عريض من الجانب الجنوبي لجبل عرفات ؛ وفى هذا السهل ينصبون مخيمهم الهائل الخارق

الضيقة ، والغالى من اى نظام . والحجاج باغلبيتهم يجلبون معهم من مكة خياما يقيم فيها اكبر عدد ممكن منهم رغبة فى التوفير . وبعض الحجاج يدبرون لانفسهم بصورة اصطناعية ظلا بغرس بضع عصي فى الارض ومدّ قطعة من الخيش فوقها . والفئة المعدمة تأوى هنا قرب المسجد وتحتمى من الشمس تحت الصخور والشجيرات .

اثناء الاقامة فى عرفات يأخذون الماء من مجرور المياه المكى ، وذلك بجلبه بواسطة آبارمنافذ للهواء مقامة هنا ، او بأخذه من الاحواض المعدة لاستحمام الحجاج ؛ الماء الذاهب الى مكة يمر عبر هذه الاحواض ، وينصب من جديد فى المجرور العام ، ولكن السكان المحليين لا يخامرهم اى قلق او شك من واقع انهم سيشربون ماء استحم فيه بشر من كل سائكة وطراز . وهم يقولون : «بموجب تعاليم الشريعة ، لا يتلون هذا الماء ، وشربه مسموح حتى ولو كانت فيه جيفة» .

عند اقدام الجبل يتشكل فى الانحصار بازار مؤقت يتاجرون فيه بالموونة حصرا ؛ وهنا بالذات يذبحون الاغنام لاجل البيع . وغير بعيد عن البازار ، يستقر البدو ويبيعون الاغنام والبطيخ والشمام والخضراوات والحطب والتبن ، وما الى ذلك . وقرب كل خيمة يحجزون مربعا صغيرا ملفوفا بالخيش بحيث يقوم بدور المراضى . وبين الخيام بالذات ، ترتع الجمال مع سواقيها ؛ وهنا بالذات تتراكم بقايا الاغنام التى يذبحها الحجاج لانفسهم ؛ ولذا انتشرت قبيل مساء اليوم التالى (التاسع من ذى الحجة) من كل مكان رائحة نتنة قوية ؛ وقرب البازار لم يكن من الممكن اطلاقا المرور دون سد الانف . ومن حسن الحظ ان الحجاج ملزمون بالبقاء هنا يوما واحدا فقط .

يشتهر عرفات كنقطة حارة جدا فى الحجاز . والمراقبات التى قمت بها فى ١٩ نيسان (ابريل) قرب هذا الجبل (وعلوه ١٠٥٠ قدما فوق سطح البحر) اعطت النتائج التالية : الحرارة العليا فى الخيمة ٣٤ درجة ريو مور فوق الصفر ؛ فى الوقت نفسه تحت الشمس ٤٦ درجة فوق الصفر ؛ الحرارة الدنيا ليلا ٢٦ درجة فوق الصفر .

المزدلفة

عند غروب الشمس ، يتحرك منجم الحجاج الهائل كله دفعة واحدة صوب المزدلفة حيث يكون قد اقيم قبل ذاك بقليل صف طويل من الاكشاك

لبيع الماء والمؤونة . وفى اليوم التالى (العاشر من ذى الحجة) ينطلق الحجاج فى الصباح الباكر الى منى .

منى

تقع منى فى فج عميق وضيق جدا ، قاعه رمل ، وعلى جانبيه كتل حجرية عارية راسية تقريبا ؛ وهى عبارة عن صف ممتد فى قاع الفج من بيوت مينية حسب طراز بيوت مكة ، ومسكونة فى ايام الحج الثلاثة فقط . ولهذا المقام شارع رئيسى واحد يتشعب فى الطرف العريض (الشرقى) من الفج ، وبضعة ازقة قصيرة تمتد بالعرض . وفى وسط المقام ينتصب مبنى غير كبير من طابقين يقوم فيه «المحجر الصحى» اثناء اقامة الحجاج فى منى ، وهو عبارة عن لوازم المستشفى الوقت والاطباء المرسلين فى مأمورية الى هنا فى زمن الحج .^١

ياخذون الماء ، كما فى عرفات والمزدلفة ، من منافذ الهواء لمجرور مكة الذى يملأون من مائه ايضا الاحواض الضرورية جدا ، كما قالوا لى ، فى زمن تجمع الحجاج الكبير . وفى كثير من الاماكن ، اقيمت مراحيض عامة هى عبارة عن صف من معالف واطئة ، مركبة من الحجر ، بدون حفر ، وبدون ابواب . وعند الطرف الشرقى من المقام يحفرون سلفا فى مكان عريض من الفج عددا من الحفر ، مساحة الواحدة منها زهاء ٤ ارتسينات مربعة وعمقها ارسنين ونصف ارسنين . وهذه الحفر هى مكانا لذبح وتقديم الاضاحى .

تقع منى على ارتفاع ٩٧٠ قدما فوق سطح البحر ، وبما انها مطوقة من جميع الجوانب بكتل حجرية ضخمة ، فانها تتميز بحرارة خارقة العلو ؛ كما تتميز بانحباس الهواء بلا حركة . ومرد ذلك ، اغلب الظن ، الى بنية الجبال الخاصة . ومن المراقبات التى اجريتها فى غرفة محمية جيدا من الشمس ، استخلصت ما يلى : فى ٢٠ نيسان (ابريل) الحرارة العليا ٣٢ درجة ريو مور فوق الصفر ، الحرارة الدنيا ٣٠ درجة فوق الصفر ؛ فى ٢١ نيسان الحرارة العليا ٣٣ ، الحرارة الدنيا ٣٠ ؛ فى ٢٢ نيسان الحرارة العليا ٣٣ ، الحرارة الدنيا ٣٠ .

قبيل الحج ، يسوقون الى منى عددا هائلا من رؤوس الغنم والماعز ، وكذلك جزئيا من الجمال لبيعها من الحجاج ولذا كانت اسعار هذه المواشى تبقى غير عالية جدا نسبيا رغم الطلب الكبير . ويبدو انه يوجد بين البدو من قديم الزمان اعتقاد مفاده انهم اذا لم يرسلوا قطيعهم او قسما منه لبيعه

فى منى فى زمن تقديم الاضاحى، فان جميع مواشيهم تهلك حتما من شتى الاويثة ؛ وهذا ما يفسر العرض الهائل وسوق المواشى من ابعد انحاء الجزيرة العربية ، كما ، مثلا من الحدود مع فلسطين ، ومن ضواحي بغداد ، وما الى ذلك .

وفى منى ، كما عند عرفات ، يقيم الحجاج فى الخيام ناصبين معظمها فى الطرف الشرقى من منى ، فى الاماكن العريضة من الشوارع ؛ والبعض ينصب خيامه فى احواش خاصة محاطة بسور عال ومرفقة بابواب سميكة ، هى عادة ملك المطوفين . ونادرا جدا ما ينزل حجاجنا (وفى هذه السنة اثنان فقط) فى البيوت نظرا لبدل الايجار الرقيق . والطبقة المعدمة تقيم فى المعتاد على جانبى الفج بين الصخور او فى الشوارع تحت الاسيجة .

بعد ان يستقر الحجاج بنحو او آخر ، يمضون الى الحفر المعدة لذبح المواشى المذكورة اعلاه ، ويشترون هناك الخرفان ، ويذبحونها على طرف حفرة ، ويتركونها هناك ؛ ولكن اذا كان الخروف المذبوح مدنها الى هذا الحد او ذاك ، فيتوافد الحجاج المعدمون ، ويطلبون التصديق عليهم بالذبيحة ، ويقصون منها افضل القطع لى يهيئوا لانفسهم ، كما علمت فيما بعد ، احتياطيا من اللحم المقدد . وحوالى الظهر ، يدفعون جميع المواشى المذبوحة مع جلودها الى الحفر ويطمرونها بشريحة رقيقة من التراب . وفى المساء تتكرر هذه العملية بالنسبة للاضاحى الجديدة . وجميع الاعمال قرب الحفر يقوم بها الجنود .

كل حاج يضحي ببضعة خرفان او مواز ، منها واحد على نيته ، والاخرى بتكليف من اقاربه ، ولراحة نفوس الموتى ، او ايفاء بوعده ، وهكذا ذبح احد مسلمينا فى هذه السنة اكثر من ٦٠ خروفا . ولكن كثيرين من الفقراء غير ملزمين بهذا الواجب . واذا اخذنا العدد الادنى فقط ، وحسبنا ان كل حاج يذبح بالمتوسط خروفا ونصف خروف فقط ، فان عدد المواشى المذبوحة بهذه الطريقة بدون اى نفع يبلغ رقما هائلا - ١٥٠ الفا ، نظرا لعدد الحجاج فى هذه السنة وهو ١٠٠ الف . وهذا الذبح يجرى فى جميع الايام الثلاثة من اقامة الحجاج فى منى ، الامر الذى يشكل خطرا رهيبا يهدد بنشوء بؤرة للاوبئة نظرا للمناخ الحار ولغياب الشروط الصحية .

فى اليوم التالى (اليوم الحادى عشر من ذى الحجة) ، طفت فى منى وفى مخيم الحجاج فلاحظت ان الشوارع الرئيسى فى منى بقى غير قذر جدا ، ولكن حين تنحيت جانبا ، بين الجبال والمبانى ، ذهلت من حال هذه المحلة الرهيب . كانت التربة كلها مكسوة بالعظام مع بقايا اللحم المسودة

والمتفسخة ؛ فان الحجاج الذين اعدوا لانفسهم اللحم المقدد ، قصّوا كيفما اتفق الاقسام اللينة ، وورموا الباقي ليهترى نظرا لوفرة اللحم . وكانت هناك بضعة جيف منتفخة لخرفان بكاملها . وجميع الاماكن قرب الاسيجة كانت مغطاة بالبراز البشري ؛ وفي كل مكان ، نفايات مختلفة وزباله رهيبة ؛ وفي كل مكان رائحة نتنة لا تطاق ، وبخاصة في جوار المراحيض العامة التي لم يطمروها باى شيء . وقرب الحفر ، ما وراء منى ، آلاف من المواشى المذبوحة التي قد بدأت تتفسخ وتتعفن ؛ وقرب تلك الحفر التي قد امتلأت وطمروها ، تتناثر مختلف البقايا من الجيف . تلاقيت مع طبيب من الاطباء طاف راكبا في مكان ذبح الاضاحى وامر بطمر الحفر . وقد افادوني ان احد الحجاج احيل الى المحاكمة لانه ذبح الخروف قرب خيمته ، رغم ان الكثيرين ، نظرا لنقص الرقابة هنا ، يذبحون خفية في اماكنهم لكي لا يمضوا بعيدا ولا يرتبكون البتة من الرائحة النتنة التي تنتشر فيما بعد ؛ وعلى العموم ، ينظر الحجاج باغليبيتهم الى هذا الطلب البسيط - ذبح الاضاحى في المكان المعين فقط - كما الى تضيق ناقل تماما ؛ ولولا القسر ، لرجعوا فوراً بلا ريب الى النظم القديمة ولطفقوا يذبحون الخرفان ويتركونها تتفسخ كما من قبل بين الخيام . ونحو مساء ذلك اليوم ، زرت بضعة من الاحواش التي ذكرتها آنفا . والحجاج يفضلونها نوعا ما ، لأنهم يغلّقون الابواب في الليل ويجدون انفسهم بالتالى في بعض الامان من اللصوص الذين يتجمع عدد كبير جدا منهم في منى أملا في الابتزاز السهل (وخاصة في حال نشوب الاوبئة ، حين يعكفون بكل حرية على السلب والنهب) . ولكن ، نظرا للاسيجة والابواب المغلقة ، ولشدة الضيق بين الخيام المنصوبة ، ولانشاء المراحيض قربها بالذات ، ولوجود الجمال ، ينشأ هناك جو مرهق جدا . ومن الافضل بكثير نصب الخيام فيما وراء منى ، حيث المكان ارحب وانظف الى ما لا قياس له . ونظرا للظروف الصحية السيئة المذكورة اعلاه تكون نسبة الاصابات بالامراض والوفيات بين الحجاج عند عرفات وبخاصة في منى ، كما يقال ، اكبر بكثير مما في مكة . ولكن عدد الذين ماتوا طوال الرحلة كلها الى عرفات بلغ في السنة الجارية حوالى ٤٠ شخصا فقط .

العودة الى مكة ورحيل الحجاج

بعد العودة الى مكة يسرع الحجاج الى اعلام اقاربهم في الوطن بسلامة نهاية الرحلة الى عرفات ؛ وفي هذه الايام يكون التلغراف ، رغم التعريفة

العالية - خمسة فرنكات عن كل كلمة - غارقا في العمل ؛ ويستعد الحجاج للرحيل . وجميع الحجاج يحملون معهم الى اوطانهم لاجل تقديم الهدايا كميات متفاوتة من ماء زمزم والتمر المحلى ، تبعا لاحوالهم المالية . يأخذون ماء زمزم فى اوعية خاصة من الصفيح يبيعها سمكزية مكة من الحجاج الراحلين بعد ان يملأوها بانفسهم ويلحموا رقابها ، والتمر يشترونه عادة فى المدينة المنورة . فضلا عن ذلك ، يشترون على سبيل الهدايا مسابيح من صنع محلى او من صنع القسطنطينية ، وسجادات صغيرة لاجل الصلاة ، وخواتم فضية مصنوعة من بقايا الخزاف المتغيرة كل سنة فى مقام ابراهيم ، وخواتم فضية مرصعة بالصدرد اليمنى وقطعا من الكسوة ، والكندروما الى ذلك ويأخذ كل منهم ايضا معه ثوب الاحرام الذى التف به فى زمن الحج ؛ يأخذون ايضا لانفسهم وبتكليف من معارفهم قطعا من الخيش مبللة بماء زمزم لاجل الاكفان . وجميع هذه الاشياء يدسونها فى صناديق ويسلمونها لعملاء خصوصيين هم السماسرة ، لاجل ايصالها الى القسطنطينية .

واولئك من حجاجنا الذين سبق ان كانوا فى المدينة المنورة قبل الحج او لم يحسبوا ان يزوروها ، بدأوا هذه السنة ، فى اليوم الثانى او الثالث بعد العودة من عرفات ، بالسفر فوافل صغيرة الى جدة ، حيث كان الحجر الصمى قد رفع قبيل عودة الحجاج ، وحيث تجمعت ١٢ باخرة لنقل الحجاج الى السويس وبيروت وازمير والقسطنطينية .

وفى السنة الجارية كان عدد الحجاج الذين قرروا زيارة المدينة المنورة ايضا بعد الحج قليلا جدا نظرا لمخاطر الطريق الكبيرة ؛ ولذا انطلقت من مكة الى المدينة المنورة ، عدا المحملين الساقرين معا فى الطريق الشرقى ، قافلتان وركبان فقط . وجميع الحجاج المرضى ، مهما كانت صحتهم واهية ، لا يرغبون البتة فى البقاء فى مكة ، ويرحلون مع رفاقهم فى الطريق . وهذا ما يفسر ، اغلب الظن ، واقع انهم يدفنون دائما كثيرين من الناس فى المواقع الاولى بعد مكة ، مثلا ، فى حدة او البصرة او وادى فاطمة . . .

الانتقال الى المدينة المنورة

انضمت الى سكان المدينة المنورة العائدين ، ورحت مع احد الركب فى طريق الغاير ، اما حجاجنا الباقون ، فقد انتقلوا مع القافلة فى الطريق الفرعى . وقد وقعت فى القوافل بضع حالات من عمليات السلب والقتل ذهب ضحيتها مسافرون ابتعدوا عن الموقف ، علما بان واحدا فقط من

وعايا روسيا ، كما ذكرنا آنفا ، قد تضرر . اما الركب ، فقد اجتازت السبيل بكامل السلامة . صحيح ان اشارات الانذار كانت تنطلق فى الليالى وكانت تسمع طلقات الرصاص واننا توقفنا فى الطريق ، ولكنى لم ار خطرا حقيقيا .

الاقامة فى المدينة المنورة

توجد فى المدينة المنورة ايضا خمس تكيات لمسلمينا ، ولكنهم ، كما قيل اعلاه ، يفضلون النزول عند اقاربهم او فى مدرسة قازان الدينية ؛ وهذه السنة ظلت جميع التكيات فارغة . وعموما لا وجود فى المدينة المنورة لذلك الضيق فى المساكن وفى المدينة كما فى مكة ، وذلك لأن الحجاج يتوافدون الى المدينة المنورة تدريجيا ويبقون عادة وقتا قصيرا جدا - ٣-٥ ايام . وفى المدينة المنورة ، يوجد ايضا ادلة يقودون الحجاج حين يزور هؤلاء الحرم وضواحي المدينة ، كما انهم يؤدون الصلاة بالنيابة عنهم .

الذهاب الى ينبع

فى السنة الجارية تأخر الذهاب من المدينة المنورة الى ينبع بسبب الاضطرابات فى قبيلة بنى حرب، وتأخر كثيرا جدا ؛ ولم تنطلق القافلة الاولى الا بعد مرور زهاء اربعة اسابيع على وصولها من مكة . ثم انتظروا زمنا طويلا الانباء عن مصير هذه القافلة ، وسرت اشاعات مفادها ان البدو قد نهبوا القافلة كلها ، ونصحوا بالذهاب الى جدة ؛ ولكن بعد مرور زهاء اربعة اسابيع ، قرروا تسيير القافلة الثانية دون انتظار الانباء من ينبع ، ومع اخذ الرهائن من المقومين . ومع هذه القافلة الثانية والاخيرة مضى جميع حجاجنا الباقين بمن فيهم انا .

تم الانتقال الى الجديدة بطلاقة لأننا سرنا فى ارض مقومينا ؛ ولكن فيما بعد ، فى منطقة بنى حرب ، سارت القافلة باحتراس بالغ ؛ بيد اننا وصلنا الى ينبع بسلامة ودون تأخر ، اذا لم نأخذ بالحسبان ٥-٦ حالات من النهب والسلب ، وقطعنا هذا الطريق فى سبعة ايام . عند الخروج من الجبال فقط ، وقع حادث اظهر كيف يتصرف فى مثل هذه الاحوال البدو الذين يسوقون القافلة . كانت القافلة تسير فى ثلاثة اقسام - فى القسم الامامى كان العرب الافارقة (المغاربة) ؛ فى الاوسط ، حجاج من شتى القوميات ، بمن فيهم مسلمونا ؛ فى القسم الخلفى ، الفرس . وفجأة سمعنا

طلقات مترددة من جانب القسم الامامى الذى لم يكن مرثيا فيما وراء الجبال . اخذ مقومنا سلاحه ، وركض الى امام القافلة ، وسرعان ما تجمع حوله جميع سواقي الجبال الآخرين وفى ايديهم السلاح . وفى هذه الاثناء ظلت القافلة تواصل السير كما من قبل وفى مقدمتها جميع البدو . خلال ربع ساعة ، انعطفت الطريق عدة مرات وبعد خروجه من الجبال ، اخذ ينزل الى الشريط الساحلى المستوى (تهامة) ؛ وفى الحال تكتشف للانظار كل المحلة المجاورة مع ابعاد البحر الزرقاء . وكانت مقدمة القافلة تبدو بوضوح ، وكانت الطلقات لا تزال تتعالى من هناك ؛ وقد تبين ان المغاربة اعربوا بذلك عن فرحهم لدن رؤية عنصرهم الطبيعى العزيز ، البحر .

اثناء هذا الانتقال من المدينة المنورة الى ينبع ، اضطرت الى معاناة عواقب ريح السام التى كانت تهب بلا انقطاع تقريبا . وعند بئر السيد اشار ميزان الحرارة فى الظل الى ٤٤ درجة ريومور فوق الصفر ، وهى اعل درجة من الحرارة رأيتها فى الحجاز . المرحلة الاخيرة من هذه البئر الى ينبع كانت اطول المراحل ؛ وقد سارت القافلة بلا توقف ٢٠ ساعة بالضبط .

الاقامة فى ينبع

لقد سبق ان تحدثت عن الحالة الصحية الخارقة السوء فى ينبع . وليس ثمة مكان فى الحجاز يواجه فيه الحجاج مثل الظروف المرهقة القائمة فى هذه المدينة . وعند عرفات ، او فى منى او فى جدّة ، يوجد على الاقل ماء جيد ضرورى جدا فى مثل هذه الحرارة العالية ؛ اما هنا ، فان الماء الذى يبلغ ثمن الدلو منه حوالى ٥٠ كوبيكا لا يمكن شربه الا فى اقصى الاحوال . ولحم الغنم المحلى المباع هنا بسعر ١٥ كوبيكا للرطل الواحد يتميز بقساوة غير عادية وغياب الدهن . ومن جراء كل هذه الظروف ، عانى جميع الحجاج اثناء الاقامة فى ينبع باختلال المعدة ؛ كان حسب المرء ان يقترب من شاطئ البحر حتى يقتنع بان الجميع مصابون بالاسهال . وقد ازداد عدد الموتى بشكل ملحوظ ، وكل يوم كانوا يدفنون ٥-٦ اشخاص (كان عدد الحجاج زهاء ٣٠٠٠ شخص) . ولسوء حظ الحجاج غالبا ما يتعين عليهم ان ينتظروا طويلا فى هذا المرفأ الرهيب اقلاع الباخرة او انطلاق القافلة ؛ ففى هذه السنة بقى الداهيون الى المدينة المنورة ما لا يقل عن اسبوع ، وبقى الراحلون من الحجاز زهاء ٨ ايام ؛ ومن وصلوا مع القافلة الاولى بقوا اكثر من شهر .

وحجاجنا يبيتون هنا ايضا كما فى جدّة مستأجرين غرفة واحدة لعدة اشخاص ؛ اما حجاج القوميات الاخرى ، كالمصريين والمغاربة ، فانهم يدبرون لانفسهم ظلا ما فى الشارع وعلى الساحل المنخفض ويعيشون فى وسط القنر الرهيب والرائحة الثتنة الكريهة .

تصل البواخر الى ينبع بعد ان تقوم فى البدء برحلة لنقل الحجاج من جدّة ؛ ونظرا للحجر الصحى ، حملت الحجاج على انتظارها فى هذه السنة زمنا طويلا جدا . واخيرا اخذت تقترب ، وفتح العملاء مكاتبهم ، وبدأت المفاوضات بصدد اسعار التذاكر . فى البدء طلبوا عن الدرجة الثالثة الى القسطنطينية ٧١/٢ ليرات اى اكثر من ٦٣ روبلا . ولكن بما ان عدد الراغبين فى السفر بهذا السعر العالى كان قليلا جدا ، فقد خفضوا سعر التذكرة بعد يومين حتى ٦ ليرات (٥١ روبلا) ، واذ ذاك فقط شرع الحجاج يشترون التذاكر . والباخرة التى سافرت على متنها كانت قد اخذت ٧٠٠ راكب ؛ ولكن رغبة فى زيادة عددهم ، ارجأوا الاقلاع من يوم الى يوم ، الى ان احتشد الركاب اخيرا ، وقد فرغ صبرهم ، فى جمع ضخم امام مقر القائمقام وطفقوا يعربون باصوات مدوية عن احتجاجهم ، متشكين من نقص المؤن والماء ، وشرعوا يطالبون باقلاع الباخرة ؛ وسرى مفعول الاحتجاج ، وبدأت الباخرة تولّد البخار ، وتأخذ الركاب ، واقلعت فى ذلك اليوم بالذات . وقد قالوا لى ان القائمقام والعميل وربان الباخرة يحصلون على مداخيل كبيرة بفضل هذه الطريقة لبيع التذاكر . واولئك الحجاج الذين صبروا طويلا اشتروا التذاكر بالسعر العادى المطبق فى السنوات التى يقوم فيها الحجر الصحى اى بخمس ليرات للتذكرة . وعدا الركاب الذين يدفعون ثمن التذاكر ، تركّب السلطات المحلية على متن كل باخرة ٢٠-٣٠ شخصا من الحجاج المعدمين .

الحجر الصحى فى الطور

اهتم الحجاج كثيرا ، عندما كانوا فى المدينة المنورة ، وعندما وصلوا الى ينبع ، بمسألة هامة جدا بالنسبة لهم - هى مسألة فرض الحجر الصحى فى الطور ؛ وفى هذا الصدد انتشرت فى المدينة شتى الاشاعات . قال البعض ان الحجر الصحى سيدوم ١٠ ايام ، وقال آخرون انه سيدوم ٥ ايام فقط ؛ ولكن الاغلبية كانت على يقين بان الحجر الصحى لن يفرض ولا يمكن فرضه ، لأن الحجاج ، كما كانوا يحاكمون ، لم يكونوا فى جدّة حيث وقعت

اصابات بمرض الطاعون ، بل نزلوا فى الرأس الاسود ، وانهم اقاموا بعد ذلك اكثر من شهر فى مكة حيث لم يكن اى وباء ، وبقوا اسبوعين فى الطريق بين مكة والمدينة المنورة ، واقاموا فى المدينة المنورة ايضا مدة كبيرة على خير ما يرام ، ثم ساروا اسبوعا الى ينبع حيث بقوا فى انتظار الباخرة اسبوعا ايضا ؛ وطوال هذا الوقت كله لم تحدث اية حالة مشبوهة . فما الداعى الآن الى الحجر الصحى ؟ لقد تكونت عند الحجاج عن الحجر الصحى اسخف المفاهيم . يقولون بالاجماع : هدف الحجر الصحى ليس البتة المقتضيات الصحية بل رغبة الدول غير الاسلامية فى تصعيب وصولهم الى الحجاز واضعاف دينهم بذلك ؛ ولهذه الاهداف ابتدعوا الحجر الصحى حيث يميئون الحجاج التعساء بل وحاولوا ان يسموهم . انزلوا ٢٠٠٠ شخص فى جزيرة (المقصود هنا ، اغلب الظن ، جزيرة كمران) فانخذ الطبيب الانجليزى يعطيهم سما بذريعة انه دواء ، ولكن احد الحجاج حزر ذلك فقتل الطبيب ؛ وآنذاك فقط ، وقد رأوا ان هذه المعاملة لا تخلو من الخطر ، اصعدوهم الى متن الباخرة وواصلوا السفر . يقول كثيرون من الحجاج : «الباخرة الانجليزية المنطلقة من الهند الموبوءة تمر بدون اى توقيف . بينما نحن المسافرين من اماكن سليمة يعرضوننا لمثل هذه العذابات . ونحن يعانون الحجاز من الكوليرا او من وباء آخر ما ، فليعرضوا الحجر الصحى . اما فى السنوات الطبية ، فهذا ظلم جلى» .

وفى ينبع ايضا لم ترد معلومات دقيقة عن الحجر الصحى ؛ وبارتياب بالغ قابلوا تصريحات طاقم السفينة باننا سنتوقف ١٢ يوما فى الطور ؛ وفى اليوم الثالث اقتربنا من هذه النقطة ونحن على كامل اليقين باننا سنواصل السفر بعد وقفة قصيرة ، يقتنع فيها الاطباء ان كل شئ على ما يرام .

الطور بلدة صغيرة على الساحل الآسيوى من خليج السويس ، تتألف من عشرة بيوت حجرية من طابقيين . على بعد زهاء فرستا اثنين الى الجنوب ، تقع مجموعة من الخيام على ساحل البحر ، ومجموعات صغيرة من اشجار النخيل هنا وهناك . وهذا هو المحجر الصحى فى الطور الذى يكرهه الحجاج بالغ الكره . الساحل واطى ، الرمل وعس ، ويشكل بعيدا عن البحر جملة من كتبان مستطيلة ؛ فى الافق ترتفع كتل حجرية معدومة الحياة من الجبال ؛ المنظر اشد كآبة مما فى الحجاز .

اقتربت باخرتنا على بعد زهاء ٢٠٠ ساجين من الساطى ورمت المرساة . وكانت ترسو هنا بضع سفن اقلعت من ينبع قبلنا وفرضوا عليها الحجر

الصبحى . بعد ساعة انطلق من الساحل زورق بخارى صغير ونقل الينا طبيبين اختصاصيين فى الحجر الصبحى ؛ وهذان تفحصا اوراق الباخرة ، ثم عادا بعد فترة وجيزة الى الساحل . وفى هذه الاثناء نشر احد المازحين اشاعة مفادها ان الحجر الصبحى لن يفرض ؛ وصدق الجميع هذه الاشاعة حقا وفعلا واعربوا بصور مختلفة عن فرحهم العظيم . ولكن سرعان ما عاد الزورق قاطرا ثلاثة زوارق كبيرة ؛ وفى الحال بدأ انزال الركاب ونقل كل امعتهم الى الساحل ، الامر الذى استغرق يومين ، لانه لا يتسنى فى اليوم الواحد تعقيم اكثر من ٣٠٠-٤٠٠ شخص . وكل الامتعة الثقيلة الموضوعة فى العنبر انزلوها هى ايضا من الباخرة . وكنيرون من الركاب ابقوا حقائبهم اليدوية وغير ذلك من اشياء اوفر قيمة لاجل الحفظ عند المسؤول عن مطعم الباخرة ؛ وهذا الاخير اخفاها فى مكان ما لقاء مكافاة .

ترسو الزوارق عند الرصيف الراسخ الاسس ؛ وعلى طول الرصيف مدوا القضبان الفولاذية لاجل سكة حديدية من طراز خفيف جدا . وقبيل رسو الزوارق ، فصل عربتان حديديتان صغيرتان ، واحدة بصورة عربية مستشفى ، وعليها ينقلون المرضى الى مستشفى الحجر الصبحى ؛ والاخرى من طراز عربة الشحن لاجل نقل الامتعة الى مبنى التعقيم . وعلى ابعاد قصيرة يعبر الناس العربتين وعلى مسافات ابعد ، يفرون البغال ؛ وهناك ايضا قاطرة صغيرة .

على بعد زهاء ٢٥ ساجينا من الرصيف ، توجد تخشيبتان مسقوفتان طويلتان لاجل غرف التعقيم ؛ وقربهما سقيفة ينتظر الحجاج تحتها دورهم . ولتغطية نفقات الحجر الصبحى ، يأخذون من كل حاج ٦٤ قرشا مصريا (زهاء ٦ روبلات و ٤٠ كوبيك) ؛ اما المعدمون ، فيسمحون لهم بدخول المحجر الصبحى مجانا ، ولكن بعد الانتهاء من تعقيم الحجاج الذين دفعوا الرسم . انتظرت دورى ودخلت احدى التخشيبتين المذكورتين ، واذا بى ارى نفسى فى غرفة رحبة كفاية ارضيتها رطبة ومفروشة بالاسفلت ؛ على هذه الغرفة تطل ابواب ثلاث مقصورات بخارية تعقيمية ؛ وهنا ايضا تنتصب الخوابى والبراميل المليئة بشتى السوائل المعقمة . اخذوا يفكون صرر الامتعة ويصنفونها . وكل امتعتى المؤلفة من كيس للسفر فيه البياض ولوازم الفراش ، ومن سرير للسفر ، ومن صندوق فيه الآنية والمؤونة ، نقلوها الى الحوش ؛ اما امتعة خادى ، فقد ادخلوها كلها فى مقصورة . ثم طلبوا منا ان نتعري تماما ونلبس بياض الحجر الصبحى ، البعض لبسوا الكلاسين ، والبعض الآخر القمصان الطويلة . ونحن ، ركاب الدرجة الاولى الثلاثة ،

حاولنا ان نحتج ، لعدم رغبتنا فى ارتداء البسة قذرة ، الله يعلم عمّن نزعوها ، وطلبنا اعطاءنا البسة انظف على الاقل ، ولكن طلبنا قوبل بالرفض القاطع ؛ فتعين علينا ان نتعري ، ونربط كل البستنا معا ، ونعطيها الى المقصورات ، ونرتدى قمصانا كريهة ، نتنه . ولم يسمحوا لنا الا بان نبقي معنا محافظ الطريق التى تحتوى النقود والوثائق ، والمظلات والاحذية .

وحين بلغ عدد مرتدى هذا اللباس زهاء ١٠ اشخاص ، جاء الطبيب وفحصنا ، متلمسا الغدد اللوزانية ، وتحت الابطين ، وفى المغبن (المنطقة الاربية) . واثناء فحص الطبيب ، خلعوا حذائى وبللوه ببالح الاجتهاد فى خابية تحتوى ، على الارجح ، سائلا معقما ثم انتزعوا عند الخروج الى الحوش المظلة من يدى وقطروا عليها من مرشة نحو ٢٠ قطرة ، ولكن لا اكثر ، ثم دخلنا الى التخشيبية ذاتها ، ولكن من طرف آخر ، متجنبين وسطها ، حيث تقوم المقصورات والمراجل . وقد اضطررت الى انتظار البستى زمنا طويلا نسبيا ورؤية مشاهد طريفة جدا . ها هم يرمون من قسم التعقيم عبر باب واسع الصرر والرزم المطهرة من كل مسبب للأمراض ؛ هذه الصرر والرزم يثلقها فى الحال اصحابها الذين ينتظرونها ويفكونها ويبدأون تفحصها - جميع الطرايبش تحولت الى قلبقات كريهة المنظر وتغيرت ألوان الاشياء الاخرى او انصبغت باصباغ غريبة ؛ بعض الاصباغ فى السجادات بهت لونها هى ايضا . ويجلس الفرس عليها مستغرقين فى التأمل ؛ عند البعض تبين ان غلافات الاشياء قد احترقت ؛ ومن لم يسحب الاشياء الجلدية ولم يضعها جانبا بسبب جهله للامر تلقى بالطبع مجرد مزق مدعوك . ومن هم اوفر طيبة ولطفا يضحكون ، ولكن تتعالى على الاغلب التذمرات واللعنات .

وحين امعنت النظر فى الحجاج العارين من مختلف القوميات ، ذهلت : يا للشعب النحيل والذهوك القوى ! هذه الرحلة الى الحجاز ترهقهم جميعا ! وما ان يتلقوا امتعتهم حتى يرتدوا ثيابهم ، بينما يرمون بياض المحجر الصحى بحنق على الارضية القذرة والرطبة ؛ ومن هذه الارضية يأخذ الخدم هذا البياض وينقلونه لاجل الاستعمال لاحقا . ارتديت ثيابى من جديد وخرجت الى الحوش ووجدت عند الباب كل امتعتى بدون اى اثر لاي تعقيم . ثم شرعوا ينقلون الامتعة الى ما وراء البوابة ، لكى ينقلوها الى المخيم حيث يفرضون الحجر الصحى على الحجاج .

اقيم هذا المخيم على بعد زهاء ٤٠٠ ساجين عن الساحل ، وهو عبارة عن صف واحد ، بموازية ساحل البحر ، من احواش مربعة صحيحة التخطيط (اقسام) مفصولة بعضها عن بعض شبكة عالية من الاسلاك ، ولها بوابة

واحدة تطل على الواجهة ؛ وقرب هذه البوابة يتواجد المخفر الذى يرسلون منه حراسا الى جميع انحاء المخيم . وداخل السياج ، خيام صغيرة واطلة تتسع الواحدة منها ٥-١٠ اشخاص . وقرب البوابة توجد خيمة الطبيب ومعاونيه الاثنين ؛ وهنا بالذات يتواجد نحت السقيفة دكان وضرب من يوفيه ؛ وفي الخط الخلفى تقوم مراحيض منقولة مصنوعة من الواح خشبية . ومن يملكون خياما خاصة يفرزون لهم ايضا امكنة . يجب قول الحق ، فان منظمى المحجر الصحى فى الطور قد انشأوا هنا نظاما ظاهريا معينا ؛ ففى كل مكان مدوا الخطوط الحديدية ، وعليها ينقلون امتعة الحجاج ، ويستجلبون عليها الماء ٣-٤ مرات فى اليوم ؛ ولهذا الغرض يستخدمون ثلاث عربات حديدية صغيرة على كل منها ثلاثة براميل خشبية مزودة بحنفيات وخراطيم ، ينسكب الماء بواسطتها بصورة مناسبة ومريحة وسريعة جدا فى صهريجين حديديين موضوعين قرب البوابة . والماء نقى ، ومن نوعية مرضية ، ويستخرجونه من بئر بمحرك هوائى . وكل يوم يجمع الحراس بين الخيام الزباله وشتى النفايات ، ويراقبون بحيث لا يذهب الحجاج لقضاء حاجاتهم الطبيعية الا الى بيوت الغلاء التى يحافظون على نظافتها ويغسلونها على الدوام ، ويسكبون عليها منقوع الكلس . وجميع الحجاج المعتمدين يتلقون كل يوم على حساب الحكومة المصرية طعاما يتألف من رغيف خبز صغيرين وزن كل منهما زهاء رطل ، وحساء مطبوخ مرة باللحم ، ومرة اخرى بدون اللحم . يبقى ان اضيف ان ساعى البريد يحضر كل يوم لاجل قبول الرسائل العادية والمضمونة وكذلك البرقيات ، وان بواخر البريد التى تقوم برحلات بين موانئ البحر الاسود تأتى الى هنا فى زمن الحجر الصحى . ولكن الغلاء هنا رهيب ويشمل جميع المأكولات الضرورية ، وغالبا ما يستحيل كليا شراؤها . مثلا ، سعر رطل لحم الضأن ٣٠ كوبيكا ؛ رغيف الخبز من الطحين الاسود ، وزنه نصف رطل ، وهو دائما قاس وعتيق ، سعره ٨ كوبيكات ؛ سعر الدجاجة ٨٠ كوبيكا . سعر البيض ٣ . بركات ، سعر الحطب (٣ ارطال) ٤ كوبيكات ، سعر اللحم الجبرى ٥ كوبيكات للرطل الواحد .

منذ الايام الاولى بالذات ، تبين ان عددا كبيرا جدا من الحجاج يعانون من الاسهال . اضعفهم ارسلوهم قسرا الى المستشفى الذى يخافه الحجاج خوفا من النار . وقد حاول بعض ممن مرضهم اقل وطاة ان يطلبوا النصيحة والدواء من الطبيب ، ولكن تبين ، لما فيه دهشة الجميع ، انه لا يجوز هنا اعطاء النصائح والادوية . فاذا كنت مريضا ، فعليك ان تتعالج فى المستشفى .

ولكن الخدم انفسهم كانوا ينظرون الى العزلة الصارمة جدا بالنسبة للحجاج ، بدون اى تنازل فى صالحهم نظرة مغايرة تماما وبذلك كانوا يستثيرون على الدوام دمدمة الخاضعين للحجر الصحى ؛ فان الحراس كانوا يعضون بحرية لاداء شتى تكاليفات الادارة ؛ وصاحب الدكان كان هو ايضا يتعامل بدون اى عائق مع بقية العالم . وحين اخذ الفرس يبيعون سجاداتهم ، افتتح بازار حقيقى قرب خيمة الطبيب ، وعكف الاطباء اليونانيون القادمون عادة من خارج المخيم على الشراء .

دام الحجر الصحى فى الطور ١٢ يوما ؛ وطوال هذه المدة سادت بين الحجاج كآبة عميقة عامة وهبوط شديد فى المعنويات ، الامر الذى يمكن تفسيره بادراك الحرمان من الحرية وبالتخوف من امكان استئطالة هذا الاعتقال زمنا طويلا غير محدد فيما اذا ظهر مرض ما مشكوك فيه . اغلب الظن ان التغذية الرديئة جدا كان لها هى ايضا دورها ، لأن النقود كادت تنتهى عند الكثيرين من الحجاج ، فكانوا يعيشون ببيع امتعتهم ، ناهيك بانه لم يكن ثمة شىء يمكن شراؤه بهذه النقود عدا لحم الضأن السيئ النوعية او احيانا دجاجة هزيلة . كذلك لعبت دورا ، اغلب الظن، المحلة الخارقة الكآبة ، والرياح الشمالية المتواصلة التى تهب هنا بقوة كبيرة جدا ، قابلة الغنيم ، والتى تخفف القىظ نوعا ما والحق يقال ، ولكن التى تغطى جميع الاشياء على الدوام بشريحة سميكة من الرمل .

قبل انتهاء مدة الحجر الصحى بيومين ، قام الطبيب بفحص عام ، جديد ، جاسا الخدد ، ووجد ان كل شىء على ما يرام . وقد توسل الحجاج من الله باصدق نحو ان يموت جميع الضعفاء والمرضى منهم ، اذا كان لا بد لهم من الموت ، فى اى مكان ، فيما عدا هذا المكان ، فيما عدا هذا المحجر الصحى . وغالبا جدا ما تذكروا احاديث الحجاج السابقين ، ومفادها ما يلى : فى زمن الوباء ، اذا مات حجاج فى الايام الاخيرة من الحجر الصحى ، كان رفاقهم يذفنونهم خفية فى الخيام ؛ وكان الجميع موافقون تماما على انه هكذا ينبغي التصرف اذا توفى احد ما فجأة ، لا سمح الله !

واخيرا حل يوم الفرح بالنسبة للجميع ، يوم انتهاء مدة الحجر الصحى ؛ ونقلوا الحجاج بالطريقة نفسها ولكن بسرعة بالغة الى الباخرة التى تعرضت هى ايضا فى هذه الاثناء للتعقيم العام .

وقد افادنى بعض من الحجاج ممن كانوا فى الطور فى السنة الماضية ايضا (سنة ١٨٩٧) ان ظروف الحجر الصحى فى السنة الجارية اخف الى ما لا قياس له ؛ فآنذاك وصلت من بنبع دفعة واحدة ٦ بواخر ؛ واليو،خسر

التي وصلت بعد غيرها اضطرت الى انتظار دورها لانزال الركاب اكثر من ١٠ ايام ؛ وهذه الايام لم تدخل في حساب مدة الحجر الصحي (١٥ يوما) . وهكذا ، امضى ركاب الباخرة «ماغنيت» في الطور ٢٧ يوما . واثناء التعقيم ، اصاب التلف عددا كبيرا جدا من شتى الاشياء . مثلا ، قدر احد المسلمين من رعايا روسيا خسائره بمبلغ يربو على ٥٠٠ روبل .

ان كل حجر صحي هو بالطبع عبارة عن مضايقة معينة ، اى التاخر مدة متفاوتة الطول في الطريق ، والنفقات الاضافية ، والحرمات ، والانتقال مع جميع الامتعة الى الشاطئ* والعودة معها الى الباخرة ، وما الى ذلك ؛ ولكن اذا تفحصنا نظام الحجر الصحي في الطور ، اتضح لنا جزئيا لماذا ينظر الحجاج اليه باحتراس وحذر وخوف . ليس من الصعب اقتناع الحجاج ان التعقيم ضرورى لتعاشي نقل الوباء الى وطنهم ، رغم ان لديهم اعتراضا جاهزا مفاده انه لم يكن ثمة اى وباء في النقاط التي زاروها في الحجاز . ولكن حين يرون ان بعض الاشياء يجرى تعقيمها ببالغ الصرامة وان اشياء اخرى مماثلة تمر بدون اى تعقيم او تطهير ؛ وحين يرون كيف يجبرونهم على التعري تماما ويرسلون جميع الالبسة الى مقصورة ، وكيف يسمحون بابقاء الاشياء الصغيرة ، وكيف لا يغسلون اجسام الحجاج باى شئ - حينذاك يفقد الحجر الصحي بالطبع كل ثقة . ان التعري امام الآخرين هو بعد ذاته عمل مرهق جدا بالنسبة للمسلمين ؛ وارتداء البياض القلر ، المنزوع من قبل ، الله وحده يعرف عمّن ، والمرمى على الارضية القدرة ، يمكنه بالطبع ان ينقل الى الناس الاصحاء عدوى شتى الامراض الجلدية ؛ فبين الحجاج ، يوجد مصابون بالسفلس ؛ وقد يكون بينهم برص زاروا الاماكن المقدسة بحثا عن الشفاء ؛ واخيرا يتسبب التعقيم الزاما ببعض الخسارة لاصحاب الاشياء اذ يبهت لونها وتحترق غلافاتها ، والخبز . والعزلة نفسها ، القاسية جدا بالنسبة للحجاج ، قلما يتقيد بها الخدم . وكل هذا معا يقنع الحجاج بان هدف الحجر الصحي ليس البتة المقتضيات الصحية ، بل مجرد التسبب لهم بالخسائر وتصعيب وصولهم الى الحجاز .

ويستفاد من المعلومات الرسمية ان ٢١ سفينة مرت في هذه السنة عبر الحجر الصحي في الطور ، منها ١٩ باخرة ومركبان شراعيان ، وانها تقلت بالاجمال ١٦٩٥٢ حاجا . وبلغ عدد الذين ماتوا في الطور ١٩٥ شخصا . وفي ابو زليم ٨ اشخاص .

وفي السنة الجارية اعتمدت الحكومة المصرية اكثر من ٣٠٠٠٠ ليرة (حوالي ٣٠٠٠٠٠ روبل) لبناء تخشيبات خاصة في الطور . ولا ريب في ان

الظروف لاجل المحجورين فى الحجر الصحى ستتحسن كثيرا بعد بناء هذه
التخشيبيات .

بعد انتهاء الحجر الصحى فى الطور تبقى البواخر التى تستقبل الحجاج من
سكان مصر وغيرها من اقطار افريقيا الشمالية لاجل الفحص فى جوار ابو
زليم ؛ اما البواخر التى تحمل حجاجا من بلدان ابعد الى الشمال ، فانها تتجه
للهدف ذاته الى بيروت التى كان يتعين علينا ان نمضى اليها .
ومما له دلالة ان نسبة الوفيات بين ركاب الباخرة كانت اكبر نسبة
اثناء الانتقال من الطور الى بيروت ، وانهم كانوا فى هذه الايام الاربعة من
السفر يرمون يوميا فى البحر جثث ثلاثة او اربعة اشخاص . ومرد ذلك ،
اغلب الظن ، الى الحرمانات السابقة ، والضنك الاقصى ، وكثرة الهواء التى
لا تطاق والضيق فى الباخرة ، ولربما ايضا الى التموج القوي جدا الذى رافق
هذه المرحلة .

فى السويس اخذت الباخرة طبيبين صحيين واوصلتهما الى بور سعيد ؛
ورافقتها فى القناة سفينة خافرة لتحاشى فرار الركاب ، الامر الذى يصعب
حدوثه فعلا .

الحجر الصحى فى بيروت

فى بيروت تتوقف الباخرة فى مكلا مفتوح ؛ والنزول صعب جدا اذا هبت
ريح شديدة نوعا ما . ولنقل الركاب ، يأتى اصحاب زوارق من العرفا
ويقومون بهذه العملية على زوارقهم الصغيرة جدا .
يقع الحجر الصحى فى بيروت فى محلة جميلة ، بين البساتين ، على
ساحل البحر بالذات ، على بعد زهاء فرستا اثنين الى الشمال من المدينة ؛
وعن حق وصواب يعتبر الحجاج اقامتهم فى هذا الحجر استراحة مستطابة .
وعند دخول الحجر يجرى التعقيم هنا ايضا ولكن بصورة سطحية جدا ،
وبصورة خفيفة بالنسبة للجميع . يوزعون الحجاج فى تخشيبيات مريحة جدا
ورحبة وجزئيا فى خيام منصوبة فى ظلال الاشجار . الماء جيد جدا وموجود
فى كل مكان . النسيم الذى يهب من البحر بارد نسيبا ومستطاب على الدوام .
اما المزية الرئيسية لحجر بيروت الصحى ، فهى الدكانة الواسعة المزودة
بجميع السلع والماكل الضرورية ، والتى كل شئ فيها رخيص نسيبا ومن
نوعية جيدة . وهنا اشترى الحجاج للمرة الاولى لحم الضأن الجيد («كما
عندنا فى روسيا» ، قال حجاجنا) ، ووجدوا تنتى الخضراوات ، واكلموا

الفواكه للمرة الاولى ، وشربوا الحليب الممتاز ، وراوا الجليد . ولم يستطع قرغيزونا الا ان يشربوا حتى التخمة من اللبن البارد . وهنا انتعش الجميع ، ومرحوا ، وتحسنت صحتهم .

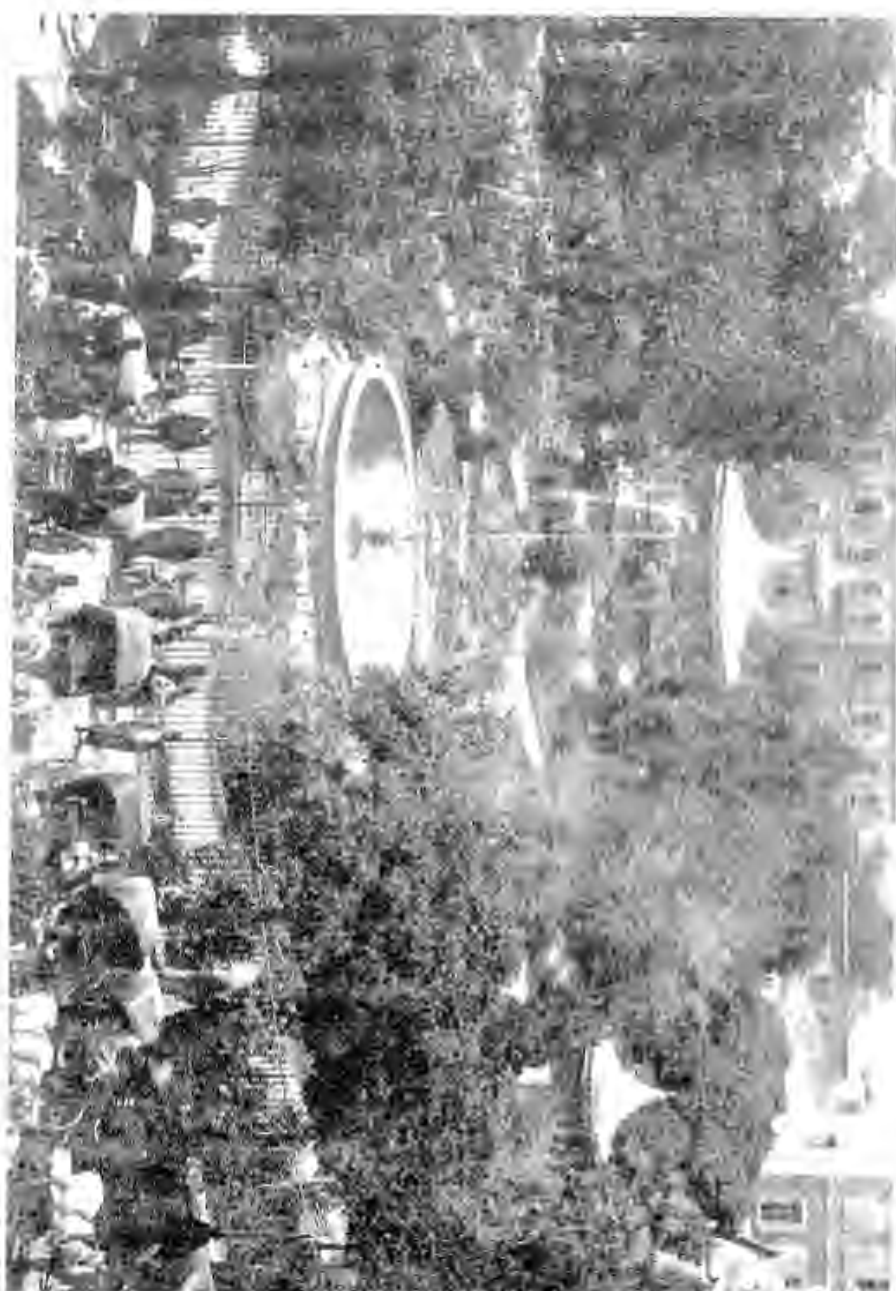
وللمحجر الصحي في بيروت مزية كبيرة اخرى ؛ فان المرء لا يشعر بانه محبوس ، معزول ، ولا يرى اى حرس ، وادى خفر ، والمجال الى البحر مفتوح ؛ وبفضل ذلك يتنعم الجميع بالاستحمام الرائع فى مياه البحر . حوش المحجر الصحي نظيف كفاية ؛ بيوت الخلاء المبنية فى اماكن مختلفة على شاطئ البحر ينظفونها ويعقدونها بعناية ؛ وجميع الدروب والتخشيبات التى يسكن فيها الحجاج تنار ليلا ؛ ولكن المرء يشعر هنا بالاهمال الكبير فيما يتعلق بالنظام الداخلى والمراقبة . المحجر الصحي يشرف عليه طبيب خاص يعيش فيه على الدوام . نفقات المحجر الصحي يغطيها رسم عن كل حاج قدره ٣٧,٥ قرشا ؛ ولكن فى هذه السنة على الاقل لم يدفع الا من كان ضميرهم لا يطاوعهم فى الامتناع عن الدفع ، لانه لم يكن ثمة اية رقابة او اى مطالبة بالوصل عند الخروج .

بين ركاب باخرتنا ، لم تحدث فى بيروت اية وفاة ؛ كذلك لم تحدث اية اصابات باية امراض . وعند الرحيل قال الحجاج : من الافضل لو ان الحجر الصحي كان فى بيروت فقط ، عوضا عن الطور ؛ وقالوا انهم يوافقون على البقاء فى محجر بيروت ولو بضعة اشهر .

عند انقضاء الايام الخمسة ، سمحوا للحجاج الذين اخذوا التذاكر حتى بيروت بالخروج من المحجر الى المدينة ، اما المسافرين الى القسطنطينية فقد نقلوهم الى الباخرة . وفى حال التموج ، يجرى ركوب الباخرة فى مكلا مغلق .

زيارة القدس ودمشق والقاهرة

يبقى بعض من حجاجنا فى بيروت لكي يعضوا من هنا الى القدس والى دمشق حيث مدفن يحيى (يوحنا) ، ويزورون كذلك القاهرة حيث مدفن رأس حفيد النبى محمد (صلعم) ، الحسين وحيث مدفن احد الائمة السنيين الاربعة ، الشافعى ، ولكن هذه الرحلات تتحقق على الاغلب قبل السفر الى الجزيرة العربية ، لان الحجاج بعد انتهاء الحج يشتاقون بشدة الى الوطن .



١- حديقة ساحة الباحة / صورة جوفتيل ٢٠٠٢

عودة الحجاج الى روسيا

فى طريق العودة يصل حجاجنا الى القسطنطينية ؛ وهى النقطة الاخيرة التى يمكن شراء التذاكر للسفر اليها ، وهى كذلك مكان لاجل وقفة قد نطول او تقصر . واذا كان الحجاج العائدون من الحجاز لا يملكون الوثائق التى تتيح لهم حرية الدخول الى روسيا ، فانهم يأخذون امتعتهم من السحابة ويحاولون ان يصنفوها بحيث يكون من الاسهل تمريرها عبر الحدود ؛ مثلا ، يسكبون قسما من ماء زمزم فى زجاجات ، ويتركون القسم الآخر لاجل الارسال فيما بعد اذا سنحت الفرصة ويستعلمون عن اسهل السبل للعودة ، وما الى ذلك .

وقد عرفت عن حجاج سنة ١٨٩٨ ان اكثرهم يسرا عادوا الى روسيا بالسكة الحديدية ، عبر فيينا وفرصوفيا ، اما الآخرون فقد انتظروا طويلا فى القسطنطينية ، واستأجروا بواخر خاصة نقلتهم الى فيودوسيا . والحجاج العائدون يستقبلهم اقاربهم ومعارفهم بمهابة واحتفال كما فى حال توديعهم ، ويكونون فى الالوة الاولى موضع انتباه وتقدير خاص فى اوساطهم . ويتوافد جميع الاقارب المقيمين فى المنطقة المعنية لرؤيتهم ؛ والمطلوب من الحاج الجديد الحديث بالتفصيل عما رآه وسمعه اثناء هذه الرحلة الطويلة .

تأثير الحج فى مسلمينا

اى تأثير يمارسه الحج فى مسلمينا ؟
بقدر ما استطعت ان اراقب فى موطنى واثناء المأمورية الاخيرة ، ينقسم حجاجنا الى قسمين ، القسم الاول يتألف عادة من الشيوخ ، وهم اناس ذوو ثقافة ضعيفة جدا ، ينظرون بلا مبالاة وبلا مشاركة الى كل ما يحيط بهم ، ولا يبتغون غير الهدف النهائى من السفرة ، وينفذون على العمياء شعائر الحج بما فيها اقل التفاصيل ؛ وهم يرون حتى فى عمليات النهب والسلب التى يقوم بها البدو سرا يستحيل فهمه ومكيدة من الشيطان للحيلولة دون اداء الشعائر المقدسة ، ويعتبرون جميع التدابير الصحية امرا غير ضرورى اطلاقا ، لانه لا ملاذ على كل حال من القضاء والقدر ، وما الى ذلك . واذا سألهم احد بعد العودة من الحج عما راوه اثناء الرحلة ، فليس بمقدورهم ان يفيدوا شيئا غير بعض الحكايات والخرافات التى سمعوها فى الطريق عن

مختلف المعجزات . وبعد العودة الى البيت ، يتحلون ببالح التصوف والتقوى ، هذا اذا لم يكونوا كذلك من قبل ، وغالبا ما يكرسون بقية العمر للصلاة بوجه الحصر ، ويتجنبون الشؤون والهموم الدنيوية .

اما الآخرون ، وعددهم يتزايد سنة بعد سنة ، فهم اناس اكثر تطورا ، وذوو اهتمامات متنوعة ، ويحللون ويفكرون ، ولهم معيار معين . ومنذ اولى الخطوات بالذات بعد الخروج من روسيا ، ينفسح امامهم مجال غنى وشيق لاجل المراقبة والمقارنة . فى البدء تتملكهم خيبة أمل مرة فى عاصمة الخلافة - اى فى القسطنطينية التى يعتبرها مسلمونا ضربا من العجائب . فان الشوارع الضيقة والقذرة ، والبيوت الرديئة ، وانعدام النظام ، كل هذا يحمل على المقارنة عن غير قصد مع اوديسا المجاورة التى ينطلق منها حجاجنا فى اغلب الاحوال . ثم يتعرف حجاجنا على عمليات استحصال جوازات السفر وعلى النظم التركية وعلى الرشوة السائدة فى كل مكان ، ويفسادون القسطنطينية بتصور مغاير تماما . وبعد ذلك يتسنى لهم ان يسمعا ويروا حقارة البواخر التركية التى غالبا ما تحدث لها احداث غريبة ، كنفاد احتياطى الفحم فى وسط البحر ، او التوقف اسابيع عند مدخل قناة السويس بسبب عدم دفع النقود المتوجبة عن المرور ، ورفض تقديم الفحم لها فى المرافىء ، والخ . . وفى الحجاز ينذهلون لكون البدو ، ابناء موطن النبى ، ينهبون فى قلب الاسلام اخوانهم فى الدين القادمين ببالح الصعوبة لاداء الشعائر المقدسة التى ينص عليها دينهم الحنيف ؛ وتذهلهم كذلك جراءة عمليات النهب هذه ووقاحتها وغياب كل عقاب عليها ووقوعها فى وضوح النهار وبحضور الجنود الاتراك ؛ ويدهشون لما تبديه السلطات من لامبالاة تامة ومن انعدام كل تعاطف واهتمام بمصائر الحجاج . ويعجبون بالبالح العجب حين يرون من جانب سكان الحجاز الاصليين الذين اعتادوا فى الوطن اعتبارهم قديسين او يكاد ، موقفا طائشا من اداء شعائر الدين الاساسية وهيمنة المصالح النقدية بنظرهم على جميع المصالح والاهتمامات الاخرى . ويبعدو لهم من الغريب جدا انعدام النظام والنظافة فى «ام القرى» وفى «مدينة النبى» بالذات ، ولا يطيب لهم البتة غياب السكون والاجلال فى المساجد بالذات ، وقرب الكعبة المقدسة ، وعند قبر النبى (صلعم) ؛ ويتسنى لهم ان يسمعا عن ارتشاء الشريف ، وعن استثنائه بالاعانات المالية المقررة لبعض قبائل البدو ؛ ومن جراء ذلك يضطر الحجاج التعساء الى الدفع من جيوبهم وصحتهم . لا يجوز ولا يمكن ان ننكر ان الحج يساهم فى رفع الشعور الدينى نوعا ما ؛ فان قسما من الحجاج من الفئة النانية يغيرون حياتهم الروحية كتييرا

بعد عودتهم الى الوطن ، ويحاولون التقيد بقواعد الدين بمزيد من الدقة ، ويؤمنون انهم قد تخلصوا من الخطايا السابقة ، ويحاولون عدم تفويت مواعيد الصلاة والصيام في المستقبل ، وتجنب الاشياء الممنوعة ، كالخمر مثلا ؛ والبعض يحرم نفسه حتى المتع البريئة كالمرح او السيرك . ولكن يمكن القول قطعا على العموم ان حاجتنا جميعهم تقريبا يعودون الى الوطن بنظرات تغيرت كثيرا ، واكثر نضوجا وتبصرا ، وبموقف اوعى من وضع الامور السياسى ؛ فان تلك الصبغة التي كانوا يتصورون بها من قبل تركيا الاسلامية ورأسها الخليفة تزول تماما .

تبدد الاشارة الى ان اغلبية حاجتنا يتصرفون بعد العودة ببالح التمالك بين ابناء شعبهم فيما يتعلق بانتقاد ما رأوه لاعتبارهم انه من غير اللائق التنديد بالبلدان الاسلامية والاماكن المقدسة ، ولعدم رغبتهم فى اثاره شتى الحملات ؛ واذا ما تحدثوا ، ففى وسط الناس القريبين منهم فقط .

لقد اثار اهتمامى بنحو خاص مسألة ما اذا كان للحج فى الظرف الراهن شأن سياسى ما من حيث تقارب المسلمين من مختلف القوميات ؛ ولكن الحج الى مكة ، باقتناعى الصادق ، وعلى الاقل فى الظرف الراهن ونظرا لوضع الشعوب الاسلامية الحالى لا يؤدى الى اى تقارب ، بل ان فكرة مثل هذا التقارب نفسها لا وجود لها . وقضلا عن الماليزيين وعن سكان الهند الغربيين تماما عن سائر الحجاج من حيث اللغة ومن حيث الاصل ، وعن سكان ايران المنعزلين بالخلاف الدينى ، ينغزل الحجاج من جميع القوميات الاخرى بعضهم عن بعض بكل شدة ، ويعاملون بعضهم بعضا بغير صداقة ومودة . وحتى قرغيزيونا وقرتنا لا يريدون ان يعرفوا بعضهم بعضا . ان اوضاع الحج نفسها ، اى الفريضة ذات الطابع الدينى الصرف ، والقصيرة جدا والمتسعة جدا ، والحافلة بالهرج والمرج ، والادراك العام لوجود الخطر مثل نشوب وباء للتو - كل هذا لا يساعد فى ظهور هذه الفكرة ولا يدفع الى القيام بالمظاهرات السياسية . وعند الجميع فكرة واحدة فقط - انجاز الشعائر بأسرع وقت ، والتفرق بأسرع وقت .

ان التجمع فى مكة لا يزال يحتفظ بالنسبة لسكان الحجاز وحدهم دون غيرهم ببعض الاهمية السياسية الداخلية الى جانب الاهمية الدينية والتجارية ؛ فهنا يجرى التصالح بين مختلف القبائل المتعادية ، ويدفعون الفدية عن الدم ، والنح . . .

تأثير حجاجنا في سكان الحجاز

تملكتني دهشة مستطابة جدا لكون وطننا العزيز يتمتع بجاذبية خاصة ايضا بين سكان الحجاز البعيد . فهناك كذلك يتحدثون عن جيروت القيصر الروسى وعن النظام فى روسيا ، والاهم ، عن العدالة فى روسيا . وغالبا ما تسنى لى ان البى فضول السكان المحليين الذين يهتمون بالغ الاهتمام بالمعلومات عن عظمة الامبراطورية الروسية وعن مدنها ، وعن عدد سكانها وما الى ذلك . باى سبيل امكن ان تنتشر شهرة روسيا وتصل حتى الى هذا البلد البعيد ؟ لا يمكن تفسير هذا الواقع الا باحاديث حجاجنا الدائمة المفعة اعجابا واعتزازا بالوطن ، وبنقلهم شهرة روسيا الى الحجاز وان بصورة غير واعية احيانا . فان مسلمينا ، اذ يصلون الى ربوع الجزيرة العربية الشحيحة والقائظة ، الخالية من اسط اسباب الرفاه ومن اسط المرافق ، والتي تتبدى فيها ببالح السطوع افضليات الوطن البعيد فى جميع الميادين يتحولون فجأة الى مواطنين فى منتهى الحماسة ويتغنون ويشيدون فى كل مناسبة بطبيعة روسيا وثرواتها ونظمها ويرفعونها الى السحب . وجميع النظم والامور فى الحجاز تستنير فى الحال المقارنة . «روسيا لن تجيز النهب فى اراضيها» ، «القرى هناك تتمتع بنظام اكبر وبقدر من المرافق واسباب الرفاه اكثر مما تتمتع بها المدن هنا» ، «فى الطرق التى يمر بها عشرات الآلاف من الحجاج ، كانت امتدت السكك الحديدية من زمان» ، «المجرمون عندنا فى روسيا لا يتخلصون من العقاب مهما دفعوا من النقود» . وطبيعة الحجاز الشحيحة التى لا تنتج اى شىء تقريبا تعطى حجاجنا موضوعا لاحاديث لا عد لها عن ثروات بلادنا ، عن وفرة ورخص المأكولات فيها ، الامر الذى يستمع اليه بانتباه خاص البدو شبه الجياع . واذا قال حجاجنا «كما عندنا فى روسيا» ، اعتبر قولهم هذا من فائق المديح . وتأثير روسيا هذا اصبح ، على ما يبدو ، ملحوظا فى الالوة الاخيرة . ويستفاد من اقوال الحجاج القدماء الذين زاروا مكة منذ ١٥-٢٠ سنة انه صار من الافيد فى السنوات الاخيرة فقط ان يقول الحاج عن نفسه انه من رعايا روسيا ، لان هذا الانتماء يوحى بقدر اكبر من الاحترام .

تأثير سائر الامم الاوروبية

على نقيض روسيا ، لا يعطف سكان الحجاز كثيرا على انجلترا ؛ فان الانجليز يشتهرون هنا بانهم امة من الصحيح انها متفنة وبارعة ولكنها

غدارة وقاسية . وفى جميع الاحاديث والقصص والحكايات التى يعيش بها شعب الحجاز ، يعود الى الانجليز دور الناس الاوفر دهاء ومكرا ، دور من لا يبتغون سوى نفعهم . ويعتبر اهل الحجاز بصورة قاطعة ومبرمة ان الانجليز ايضا مسؤولون عن جميع الاضطرابات والفتن . الحركة فى السودان ، الانتفاضة فى اليمن ، هجوم ايطاليا على الحبشة ، كل هذا ، برأىهم ، هو من صنع انجلترا . وفى شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٨ تقابلت صدفة فى القاهرة مع بضعة اشخاص من سكان مكة النافذيين ، العائدين من القسطنطينية ، الى حيث مضوا لشراء البضائع . حكيت لهم عن الاحداث التى وقعت فى شهر ايار (مايو) عندنا فى انديجان ، ورغبة فى معرفة ما يقال عنها فى القسطنطينية سألت - من اين امكن ان ظهرت عند السرت مثل هذه الفكرة الطائشة ! فقرر سكان مكة الاجلاء فى الحال ان هذه بلا ريب من مكائد الانجليز . من الصعب ان اقول من اين ينتقل الى الحجاز هذا النفور من الانجليز - اغلب للظن ، من مصر ، حيث ، كما اقتنعت ، لا يحبونهم كثيرا ؛ ولربما من الهند .

عن هولندا لا يعرفون فى الحجاز اى شىء تقريبا ، ومرد ذلك ، على الأرجح ، الى ان رعاياها ، الماليزيين يعيشون فى عزلة مفرطة . كذلك يتحدثون فى الحجاز قليلا جدا عن الفرنسيين .

الفصل السادس الحجاج من الدول الاخرى

القشغريون

القشغريون وسائر المسلمين من تركستان الصينية يتوافدون الى الحجاز باعداد قليلة جدا نظرا لبعد البلد ولمصاعب الطريق .
والقشغريون ، بقدر ما استطعت ان اعرف ممن سافرت معهم ، يقومون بهذه الرحلة فى واحد من الطرق الثلاثة التالية .

١ - الطريق الاغلى ولكن الانسب والاسهل والاسرع انما هو الطريق عبر معبر تركداوان الى اوش وسمرقند وكراسنوفودسك وباكو وباطوم والقسطنطينية والى ابعد . واذ تعطيهم السلطات الصينية جوازات السفر تطلب منهم بالاقوال ان يكون لديهم من المال ما يكفى للسفر ، الامر الذى يشار اليه فى الوثائق المعنية . وعند قنصلنا فى قشغر يحصلون على التأشيرات اللازمة ؛ وهناك ايضا يقايضون جميع نفودهم بالاوراق النقدية والنقود الذهبية الروسية .

٢ - وفى الطريق نفسه يمضون الى سمرقند ومنها ركوبا عبر كابول الى بيشاوار ، ثم بالسكة الحديدية الى بومباى او كاراتشى ، ثم على البواخر الانجليزية الى جدة .

٣ - اخيرا ، الطريق الثالث ، عبر كوندجوت او باداخشان الى كابول دون الدخول الى روسيا .

السفر فى الطريقين الاخيرين لا يكلف غالبا جدا ، - زهاء ١٠٠ روبل فقط - ولكنه محفوف بمصاعب كبيرة ويقتضى الكثير من الوقت ؛ اذ انهم يمضون دائما على احصنتهم ؛ ويبيعونها بفائدة بعد الوصول الى بيشاوار ؛ وفى اغلب الاحيان يبيعونها مسبقا فى كابول لاجل الخيالة الافغانية . ويلقى الحجاج فى البلدان التى يجتازونها الاستقبال الطيب والدعم المادى من جانب السكان المسلمين .



- حاج من الملايو / تصوير هيروغرونيه سنة ١٨٨٨.

وفى هذه السنة كان عدد القشغريين ١٨ شخصا فقط . ولكن عدد الحجاج من هذا البلد ، كما يقولون ، يبلغ المائة فى بعض السنوات . فضلا عن القشغريين كان هناك شخصان من تشيخوتشاك ، سافرا على الخيل مرحلة فمرحلة حتى مدينة اومسك ومنها بالسكة الحديدية ، وثلاثة اشخاص من شعب الدونغان الذين لا يربو ايدا عدد الحجاج منهم ، كما قالوا لى ، على ٥-٦ اشخاص .

الفرس

يمضى سكان ايران الى الحجاز فى الطرق الرئيسية الاربعة التالية .
١ - اقدم الطرق - عبر بغداد او البصرة الى جبل الشمر ومكة ؛ والعودة الى المدن ذاتها عبر المدينة المنورة . هذا الطريق الصعب والغالى من الماء لا يزال يستعمله سكان ايران الجنوبية او سكان الاقاليم الاخرى ، الراغبون فى السجود اثناء الطريق امام المقدسات الشيعية الرئيسية فى كربلاء والنجف .

٢ - الطريق الثانى - وهو ايضا طريق تاريخى وكان لا يزال منذ ٥٠-٦٠ سنة الطريق الوحيد بالنسبة لايران الشمالية - يمر عبر دمشق ؛ وعلى هذا الطريق يمضى المحمل السورى الذى يحظى بحماية مسلحة ويرافقه دائما عدد كبير من الحجاج والتجار . وهذا الطريق ، كما قالوا لى ، اخذ ينتعش من جديد فى الآونة الاخيرة بعد تاسيس المحجر الصحى فى الطور وكرمان ؛ وشرع كثيرون من الحجاج يفضلون السفر شهرا من المدينة المنورة الى دمشق على البقاء ١٠-١٥ يوما فى احد المجريين الصحيين المعنيين .

٣ - يسافر قسم من الحجاج من الاقاليم الجنوبية من ايران بحرا عبر البصرة ، وبندر بوشير او بندر عباس الى جدة .

٤ - اخيرا الطريق الحديث والاكثر انتعاشا ؛ وهو يعبر حدود روسيا ؛ فان سكان خراسان يمشون الى احدى محطات سكة حديد ما وراء قزوین ؛ ومن اقليم استراباد او من اقليم مازاندران ، يسافرون الى باكو ومن طهران واذربيجان يسافرون بسكة حديد ما وراء القفقاس ، وفيما بعد يسافرون الى القسطنطينية عبر باطوم .

صحيح انهم يصبرون على الشيعيين ويسمحون لهم ، على قدم المساواة مع سائر الحجاج ، باداء جميع الشعائر التى يقتضيها الحج ، ولكن كره السنين لهم ، اى كره جميع الحجاج الباقين يتجلى فى كل حال . اما اساس

هذه العداوة ، فهو ، عدا الاسباب التاريخية ، موقف الازدراء من جانب
الفرس انفسهم حيال بعض المقدسات التي يجلبها السنيون ؛ فاثناء قيامهم
بالطواف ، مثلا ، يشيخون بوجوههم عن الحجر الاسود ؛ واحيانا يثبتون
عليهم تدنيس المقدسات بصورة افدح ؛ فعند زيارة قبر النبي ، يعبرون
بجلاء عن احتقارهم للخليفتين المدفونين هناك مع النبي ، الامر الذي لا يندر
ان يشبهوهم ضربا بسببه .

وليس ثمة امة من الامم تعرب عن مشاعرها الدينية بنفس القدر من
الوضوح الذي يعرب به الفرس عنها ، وتتميز بنفس القدر من الحمية والهيأج
الذي يتميز به الفرس اثناء اداء شعائر الحج ؛ فحول الكعبة ، ينجبون
باصوات مدوية ، قارعين صدورهم بقبضاتهم ، ويبوسون عتبات الحرم ،
ويلثمون البوابات ، وما الى ذلك .

يشكل سكان ايران اكثر طبقات الحجاج يسرا ؛ واذا كان على البواخر
ركاب في الدرجة الاولى والدرجة الثانية ، فهم كلهم تقريبا من الفرس ؛ كما
ان الفرس وحدهم يستعملون اغلى واسطة للتنقل في الحجاز وهي تختروان ؛
وخيرة البيوت في جدة ومكة والمدينة المنورة وينبغ يشغلها
هؤلاء الحجاج الفرس ؛ والبيوت في منى يستأجرها على الاغلب الفرس
وحدهم . وهم يجلبون معهم خياما جيدة ، وسجادات ؛ وعند كثيرين منهم
خدم .

وتجدر الاشارة الى ان البدو يستحصلون من الشيعة ، لقاء حق
المرور ، رسما معيناً ؛ ففي هذه السنة ، مثلا ، اخذ رجال قبيلة بني حرب
من كل منهم ليرة ونصف ليرة في الطريق من المدينة المنورة الى ينبع .
وهذه السنة بلغ عدد الفرس الذين زاروا الحجاز ، بمن فيهم النساء
والاطفال الذين يأخذهم الكثيرون من الفرس معهم زهاء ٨٠٠٠ شخص .

الأتراك

يشكل الأتراك اكبر قسم من الحجاج الذين يتوافدون من الشمال .
اما النقاط الرئيسية التي يركبون فيها البواخر المنطلقة الى الحجاز ،
هي القسطنطينية وازمير ، ثم ادنة ومرسين ، وكذلك مرافئ صغيرة
أخرى على سواحل البحر الابيض المتوسط التي تدخل اليها البواخر التركية
التي تنقل الحجاج . ونادرا ما يسافر الأتراك مع افراد عائلاتهم ؛ وهم
يشكلون اهدأ طبقة من الحجاج .

وقد ترسخت عند اهالى الاناضول عادة مفادها ان الذين ينون الحج يقضون شهر رمضان كله فى مكة ، ولذا يسبقون جميع الحجاج ، اذ انهم يتوافدون قبل الموعد المقرر بأكثر من ثلاثة اشهر . وفى هذه السنة بلغ عدد الترك زهاء ١٠٠٠٠ شخص .

السوريون

عادة يسافر سكان سوريا وفلسطين عبر طرابلس وبيروت ويافا ، ونظرا لقيام المحاجر الصحية شرعوا فى السنوات الاخيرة يفضلون ، لاجل طريق العودة ، سفرا اصعب واطول مع المحمل . وكل سنة يمضى كثيرون من دمشق الشام الى الحجاز مع هذه القافلة بدافع المصالح التجارية حاملين الى مكة والمدينة المنورة البضائع الحريرية والفواكه المجففة على الاغلب ، وعائدين بالبن اليمنى والتمر . فى سنة ١٨٩٨ بلغ عدد الحجاج الشاميين قرابة ٤٥٠٠ شخص بينهم عدد كبير من النساء .

المصريون

يمضى سكان مصر الى الحجاز بحرا عبر السويس ، مستعملين بواخر الشركة الخديوية ويشتررون التذاكر ذهابا وايابا . فى هذه السنة بلغ عددهم ٥٢٤٥ شخصا (المعطيات الرسمية للمحجر الصحى فى الطور) ، ثلثهم او ربعهم من النساء . فى السنوات المناسبة ، كما يقال ، يكون عددهم ثلاثة امثال . يتميز هؤلاء الحجاج بالفقر المدقع وغياب فئات اوفر ثقافة واطلاعا بينهم ؛ وفى جميع مدن الحجاز يقيمون فى خيام مرتجلة ، فى اقذر الاحوال . وهم يقنمون اكبر عدد من الحجاج الذين يستفيدون من الطعام المجانى فى مكة والمدينة المنورة والطور واكبر عدد من الركاب المسافرين مجانا فى البواخر .

ولاجل الحد من حج الطبقة المعدمة التى لا يشكل الحج البتة بالنسبة لها واجبا الزاميا والتى ليس الحج بالنسبة لها غير عبء ناقل وخطر ، طبقت الحكومة المصرية فى سنة ١٨٩٨ النظام التالى : يتعين على الراغب فى الحصول على جواز سفر للحج ان يعرض تذكرة سفر بالباخرة ذهابا وايابا ،

ويقدم كفيلىن يؤكدا ان الحجاج يملك ما يكفى من المال لاعالة نفسه فى الطريق وفى الحجاز . ولسنة ١٨٩٩ ، ظهر مشروع قانون يقضى بان يقدم المسافرون الى الحجاز ، علاوة على تذاكر السفر بالباخرة ، ليرة ونصف ليرة (زهاء ١٥ روبلا) ، منهما نصف ليرة يجب دفعه فى صالح المحجر الصحى ، وليرة يجب صرفها على اعالة الحاج اثناء اقامته فى المحاجر الصحية ، وذلك تحوطا لعدم توفر المال لديه . واذا توفر عنده المال ، يتعين اعادة المبلغ المذكور اليه .

عدا السكان الحضر ، يسافر من مصر ايضا البدو الذين يمضى معظمهم كما من قبل فى القوافل عبر السويس وشبه جزيرة سيناء والعقبة ، وراى حتى مكة واياها عبر المدينة المنورة والوجه . وهذه السنة بلغ عدد هؤلاء الحجاج ٢٠٠٠ شخص .

المغاربة

جميع العرب القاطنين فى القسم الشمالى من افريقيا - طرابلس ، تونس ، الجزائر ، فاس-المغرب - يسمونهم فى الحجاز «بالمغاربة» اى «الغربيين» خلافا لبدو الجزيرة العربية - «الشرقيين» .

ياتون بحرا الى الاسكندرية ، ويعرجون على القاهرة ، ثم يواصلون السفر بالطريق البحرى العادى عبر السويس ، ولكن يوجد بينهم ايضا بعض القبائل التى تفضل السفر برا عبر شبه جزيرة سيناء . والبدو الافارقة المتعادون مع الشرقيين يحملون معهم ، لاجل الدفاع عن النفس اثناء التنقل فى ربوع الحجاز ، وفرة من الاسلحة المماثلة لاسلحة اعدائهم .

فى السنوات الاخيرة شرع سكان الجزائر يسافرون الى الحجاز باكرا جدا ؛ ففى تشرين الثانى (نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ، كانت تقس العىن فى القاهرة على حجاج جزائريين ذاهبين الى مكة . وقد فسروا لى السبب بالرغبة فى السفر فى الوقت المناسب تحوطا لمنع قد يصدر فيما بعد عن الحكومة الفرنسية .

فى هذه السنة بلغ عدد الحجاج من طرابلس زهاء ٦٠٠ ومن تونس ٢٠٠ ومن الجزائر ٢٠٠ ومن فاس-المغرب ٣٠٠ شخص .



- حجاج بن يونس القريبي / تصوير هيرودوت سنة ١٨٨٨.

الافغان

عدد الحجاج من سكان افغانستان يكون عادة قليلا جدا ؛ وفي هذه السنة بلغ عددهم زهاء ٢٠ . طريقهم تمر عبر بيشاور ، وعبر كاراتشى او بومباى ، رغم انه يوجد بينهم افراد يشقون لانفسهم طريقا عبر القسارة متجنبين المحجر الصحى فى كمران .

سكان الهند

فى السنوات السابقة كان سكان الهند يشكلون قسما كبيرا من الحجاج ، ولكن عددهم انخفض كثيرا فى الاونة الاخيرة من جراء وباء الطاعون فى بومباى والحجر الصحى الشديد فى كمران ؛ وفى هذه السنة وصلت باخرة واحدة فقط حاملة هؤلاء الحجاج ، وقد بلغ عددهم زهاء الف راكب . وبين سكان الهند يأتى عدد كبير من التجار مع بضائعهم . الطريق الذى ينطلقون عليه الى الحجاز طريق بحرى ، عبر بومباى او كاراتشى الى جدة ولكن فى السنوات الملائمة ، كما قالوا لى فى دمشق ، كان قسم منهم ، اكثر من ١٠٠٠ شخص ، ينزل فى البصرة قصد زيارة مختلف المقدسات خارج الجزيرة العربية ، ومن البصرة ينطلق فى طريق دائرى عبر بغداد الى دمشق ، ويزور القدس ثم مصر ثم يسافر الى الحجاز .

الماليزيون

فى السنوات الاخيرة يشكل سكان جزر السند وشبه جزيرة ماليزيا الذين يسمونهم فى الحجاز «جاوه» العنصر المهيمن بين الحجاج . وجميعهم يصلون بالطريق البحرى فقط عبر جدة . يشكل الحجاج الماليزيون مجموعات منعزلة تماما ، متراسة بوثوق ، على رأسها آامرون منتخبون . وهؤلاء الامرون يشرفون على كل اقتصاد مجموعاتهم : يشترون تذاكر السفر ، يتزودون بالمؤونة على الباخرة اثناء السفر ، يستأجرون الجمال ، يجدون الغرف للاستئجار ، وما الى ذلك ، وهم يمضون بقافلتهم من مكة الى المدينة المنورة ، ويعودون منها على الجمال ذاتها . وغياب النساء والمعدمين بين هؤلاء الحجاج يستلفت النظر . فى هذه السنة بلغ عدد الماليزيين ١٥٠٠٠ شخص ، اما فى السنوات الملائمة ، فان عددهم ، كما يقال ، يبلغ الضعف .

سكان الساحل الشرقي من افريقيا

من زنجبار ومدغشقر والترانسفال ، يكون عدد الحجاج صغيرا جدا ، ونظرا لعدم وجود اتصال مباشر بالبواخر مع جدة ، يمضى هؤلاء الحجاج اولا الى السويس ومنها يسافرون الى جدة .

سكان الجزيرة العربية

الجزيرة العربية ذاتها تعطي هي ايضا عددا كبيرا من الحجاج ، فاهيك عن سكان مكة والمدينة المنورة والضواحي القريبة ، الذين يشتركون بنحو او آخر في اداء الشعائر . وقبل الحج وصلت هذه السنة ثلاث قوافل كبيرة من اليمن (زهاء ٤٠٠٠ شخص) ، وقافلة من عدن (٢٠٠ شخص) وقافلة من عمان (زهاء ٣٠٠ شخص) وبضعة ركب وقافلة من نجد و[٠] (حوالي ٤٠٠٠ شخص) .

الحاصل

وهكذا يبلغ عدد الحجاج في سنة ١٨٩٨ :

من روسيا	
القرغيز	٢٥٠ شخصا
التتر	١٠٠ شخص
سكان ما وراء القفقاس	١٠٠ شخص
من تركستان الصينية	٢٠ شخصا
الفرس	٨٠٠٠ شخص
الأتراك	١٠٠٠٠ شخص
السوريون	٤٥٠٠ شخص
المصريون	٥٢٤٥ شخصا
البدو المصريون	١٥٠٠ شخص

٦٠٠ شخص	طرابلس	سكان
٢٠٠ شخص	تونس	
٢٠٠ شخص	الجزائر	
٣٠٠ شخص	فاس - المغرب	
١٠٠٠ شخص	الهند	
٢٠ شخصا	الساحل الشرقي من افريقيا	
٤٠٠٠٠ شخص	سكان مكة والضواحي زهاء	

٣٥٠٠ شخص	المدينة المنورة	سكان الجزيرة العربية
٤٠٠٠ شخص	اليمن	
٣٠٠ شخص	عمان	
٢٠٠ شخص	عدن	
٤٠٠٠ شخص	نجد وغيرها	الافغان
٢٠ شخصا		
١٥٠٠٠ شخص	الماليزيون	

حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص

واذا صدقنا الافاصيص لا يقل عدد الحجاج فى السنوات الملائمة عن ٢٠٠٠٠٠ شخص ، كما يبلغ عدد الحجاج فى الحج الكبير ٥٠٠٠٠٠ شخص . اما قلة عدد الحجاج فى سنة ١٨٩٨ فمردها ، عدا اجراءات الحجـ الصحى ، الى غياب العلف فى المراعى لاجل الجمال ، الامر الذى خفض كثيرا عدد الحجاج القادمين مع القوافل .

تجدر الاشارة الى ان تقدير عدد الحجاج ، وان بصورة تقريبية جدا ، صعب ومعقد جدا نظرا لغياب الاحصاءات الرسمية ، ونظرا للوقت القصير الذى يقضونه معا فى مكة وفى عرفات وفى منى ، ونظرا للازدحام والهرج والمرج هناك فى ايام الحج . والاسلوب الوحيد الذى لجأت اليه انما هو الاستعلام ، بعد اداء الشعائر ، من مطوفى كل قومية ، اذ انهم ، يعرفون عدد حجاجهم التقريبى ، على الاقل فى السنوات التى لا يكون عددهم كبيرا جدا . واحصاءات المحجرين الصحيين فى الطور وكرمان لا تبيّن غير عدد العائدين بحرا .

الفصل السابع عن اوبئة الكوليرا في الحجاز

معلومات عامة عن الاوبئة

كان وباء الكوليرا ووباء الطاعون معروفين في الجزيرة العربية من سحيق الازمنة . ومن بداية العهد الاسلامي حتى ايامنا وصل قول مشهور جدا ينسب للنبي محمد (صلعم) يبدو كأنه يقرر الحجر الصحي ، اذ قال انه لا يجوز دخول بلد يتفشى فيه الطاعون واذا كان المرء فيه فلا ينبغي ان يفر منه . وفي الوقت الحاضر ، يستعمل العرب كلمة «الطاعون» لتعريف هذا المرض ، وكلمة «الوباء» لتعريف الكوليرا ؛ ولكن هذين المرضين او الوبائين اختلطا من قبل ، على ما يبدو ، اذ اننا نجد مثلا العبارة التالية : «قال الخليل : الطاعون هو الوباء» ، وما الى ذلك .

في السنوات المائة الاخيرة لم يسمع احد عن الطاعون في الحجاز ، فتوطد بين السكان الاعتقاد بأن الله تقبل صلوات نبيه ومنع هذا المرض الى الابد من المساس بالمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولكن اوبئة الكوليرا تنشب احيانا كثيرة في وقت توافد الحجاج الى الحج وذلك ، بالمتوسط ، مرة كل ثلاث سنوات ، فتسفر في بعض السنوات عن نتائج رهيبة اذ تفتك باكثر من نصف الحجاج وتمتد الى اماكن ترحل البدو المجاورة والى نقاط أهلة اخرى في الجزيرة العربية .

طابع اوبئة الكوليرا المحلية

يستفاد من اقوال جميع من تسنى لى ان اتحدث معهم ان هذا الوباء يبدأ احيانا عند عرفات ، ولكن بشكل ضعيف ، ولذا لا يسترعى الانتباه ، ولكنه ينسب فى اغلب الاحيان فى منى ويبلغ هنا قوته القصوى . وقالوا لى انه اذا سارت جميع الامور على ما يرام عند الانطلاق الى عرفات وحتى

مساء اليوم الاول من الاقامة فى منى ، فمن الممكن الامل فى ان الوباء لن ينتسب هذه السنة . ويتبين من الآراء العامة ان هذا الوباء يتميز هنا بطابع الانفجار الرهيب ويتواصل بشدة مخيفة طوال ٥-٧ ايام ثم يهدأ كذلك بسرعة . وبقدر ما استطعت ان اعرف من الاحاديث مع السكان والاطباء المحليين ، لا يوجد وباء الكوليرا فى الحجاز بصورة مرض دائم ؛ وفى اغلبية الاحوال يلاحظ ان الحجاج من الهند يجلبونه معهم ؛ وحيانا ينتسب بصورة مستقلة تماما ، على ما يبدو ، فى منى او عند عرفات ، او لربما ، حتى فى مكة ؛ واذا كان فى مكة لا يسفر عن نسبة كبيرة جدا من الوفيات ، فان مراقبته اصعب هناك مما عند عرفات او فى منى حيث كل شيء ظاهر للعيان نظرا لتجمع الحجاج فى الخيام .

نشبت ارمهب الاوبئة من حيث قوتها فى السنوات التى كان يقع فيها الحج الكبير ، الذى يجتذب ، كما سبق ان قلنا ، عددا كبيرا جدا من الحجاج ، وفى السنوات التى يجرى فيها الحج فى فصل القيظ . كذلك سمعت من عدد كبير جدا من الناس ان وباء الكوليرا ينتسب عادة فى السنوات التى تكون فيها الجبال التى تحيط بفج منى مكسوة بالعتمة ؛ وبقدر من تكون العتمة كثيفة ، بقدر ما يكون الوباء قويا . وهذه الظاهرة تنجم ، اغلب الظن ، عن حالة الجو الخاصة وعن غياب التيارات فى الهواء ؛ وعلى هذا الاساس تنبأوا عند وصولنا الى منى بان الحج سيجرى هذه السنة بسلامة ؛ الامر الذى تحقق فعلا .

الاوبئة المعروفة فى القرن الحالى

اشهر اوبئة الكوليرا فى القرن الحالى هو الوباء الذى نشب سنة ١٨٣١ والذى جاء الى الحجاز من الهند ؛ وآنذاك ، كما يقال ، مات ثلاثة ارباع جميع الحجاج وانتشر الوباء فى عموم اوروبا . والوباء التالى نشب فى سنة ١٨٣٤ ، ثم فى سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٠ ؛ ثم عاث الكوليرا فسادا طوال خمس سنوات على التوالي - فى سنوات ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ .

ولكن وباء سنة ١٨٦٥ تميز بشدة خاصة ؛ وقد بدا من الحجاج القادمين من الهند ودام فى السنة التالية ، ١٨٦٦ .

اليكم ما رواه لى شيخ شاهد هذا الوباء الرهيب بام عينيه : «كان الحج الكبير (يوم الجمعة ، ٥ نيسان - ابريل) ، وقد نوافد عدد خارق من

الحجاج . الإقامة عند عرفات ، كما بدا ، جرت بسلامة ؛ انتقلوا الى منى ، وهنا ايضا كان اليوم الاول هادئا . صحيح ان حجاجا ماتوا ، ولكن عدد الموتى كان قليلا . وآنذاك لم تكن قد ظهرت القاعدة القاضية بطمر الخرفان المذبوحة على سبيل التضحية . كان كل حاج يذبح ويرمى قرب خيمته ؛ وقرب الخيمة ايضا كانوا يرمون بقايا الاغنام المذبوحة لاجل الاكل . فببيل مساء اليوم الاول ، انتشرت من تعفن جيف الاغنام رائحة كريهة الى حد انه كان من المستحيل التنفس . فى المساء ازداد فى الحال عدد الموتى المنقولة جنهم للدفن ؛ وفى الخيام المجاورة لنا وقعت ايضا حالات مرض وموت ، ولكن لم يخطر بعد فى بالنا ان هذا وباء . فى اليوم التالى ، ازداد عدد الموتى الى حد انه لم يكن يتسنى دفنهم ؛ وقبيل مساء ذلك اليوم ، كان شارع منى مكسوا كله بجثث الحجاج الذين ماتوا اثناء اداء شعيرة رمى الاحجار ؛ ولاداء هذه الشعيرة كان يتعين السير على الجثث حقا وفلا . من اصل ثمانية اشخاص كانوا فى خيمتنا ، بقى اثنان فقط قيد الحياة . بقى الحجاج فى منى بحكم العادة ثلاثة ايام ؛ وعندما وصلوا فيما بعد الى مكة ، كان الوباء هناك ايضا على اشده . قمنا ببالح السرعة بالطواف والسعى ، وانطلقنا فى الطريق الى جدة ، وكانت الطريق مزروعة بجثث الحجاج الموتى ؛ وفى جدة كان المرض قد سبقنا اليها . رحنا بالباخرة المنطلقة الى السويس . آنذاك لم تكن المحاجر الصحية قائمة ؛ والباخرة التى كانت تكتظ بالركاب فرغت كثيرا فى آخر الرحلة . فى السويس لم يسمحوا لنا بالنزول الى المدينة بل اركبونا فى القطار وارسلونا الى الاسكندرية ؛ وهنا نقلونا بالطريقة نفسها الى باخرة راسية فى المكلا . واثناء مواصلة السفر ، ظلوا يرمون فى البحر كل يوم بضع عشرات من الموتى ؛ ولكن المرض ، على ما يبدو ، اخذ يضعف ، وحدثت حالات نقاهة وشفاء . بعد زهاء ١٠ ايام من وصولنا الى القسطنطينية بدأ الوباء فى هذه المدينة ايضا .

ان وباء الكوليرا الذى نشب سنة ١٨٦٥ وعمّ فيما بعد اوروبا بأسرها لفت الانتباه اخيرا الى الحجاز ؛ وفى ١٣ شباط (فبراير) ١٨٦٦ انعقد فى القسطنطينية مؤتمر قرر فيما قرر وجوب طمر جيف الخرفان المذبوحة فى منى فى حفر .

وبين الاوبئة التى نشبت فيما بعد ، تميز وباء سنة ١٨٨٣ ، بنسبة خارقة العلو من الوفيات ، وذلك حين وقع الحج يوم الجمعة ايضا (١٢ تشرين الاول - اكتوبر) .

جميع التواريخ المذكورة اعلاه تحققت من صحتها فى القاهرة بموجب

المصادر الرسمية ؛ اما الاشارات اللاحقة الى السنوات ، فانها لا تركز الا على احاديث اشخاص مختلفين ، متناقضة احيانا كثيرة ، رغم ان الماضى غير بعيد جدا . ولكن سكان الحجاز يرون هذه البلايا مرارا وتكرارا الى حد انهم لا يتذكرون منها غير الرهيبة والجائحة . وحسب هذه المصادر ، نشبت اوبئة غير شديدة جدا فى سنوات ١٨٨٤ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٠ ، ١٨٩١ ، ١٨٩٢ .

واخيرا وباء الكوليرا الاخير الذى تسبب هو ايضا بكنزة كثيرة من الضحايا وقع سنة ١٨٩٣ (الحج الكبير . يوم الجمعة . ٢٣ حزيران - يونيو) . ويستفاد من اقوال شهود العيان ان هذا الوباء ، منله مثل وباء سنة ١٨٦٥ ، قد بدأ بصورة غير ملحوظة عند عرفات ، وتفجر فى منى نحو مساء اليوم الاول من اقامة الحجاج هناك ، وانتقل بسرعة الى مكة وجدة ، ولكن ، بفضل المحاجر الصحية ، لم يتجاوز حدود الحجاز .

فى سنة ١٨٩٥ نشب ايضا وباء ما يشبه ، حسب الاوصاف ، حمى التيفويد او الزحار (الدوسنطاريا) ؛ بدأ هذا الوباء فى فافلة انطلقت من المدينة المنورة الى مكة ، واستمر بدرجة ضعيفة عند عرفات ، ولكنه لم ينتشر فيما بعد ، وانتهى فى منى ، كما يفترضون . ومن هذا الوباء الاخير عانى قرغيزيونا اشد من غيرهم . فمن اصل ٦٠ قرغيزيا جاؤوا فى تلك السنة من كوستاناى عاد ١٨ فقط ، كما يقول شاهد عيان .

وغالبا جدا ما تسنى لى ان اسمع من السكان المحليين ان القرغيز يصابون فى الحجاز بالكوليرا حتى حين لا وجود لاي اثر لهذا المرض فى هذا البلد ، ويموت منه فى منى وعند عرفات عدد كبير منهم . ولذا اذا عاد الى الوطن عُشر الحجاج القرغيز ، ترتب اعتبار هذا ظاهرة طبية . اغلب الظن انه يوجد ايضا مرض ما ترافقه آلام فى المعدة ويصيب اقل مواطنينا من الرحل تمالكا واحتراسا فى الاكل ، السمان وغير المعتادين للمناخ المحلى . وفى السنة الجارية ، الملازمة خارق الملازمة ، كما يستفاد من اقوال الجميع ، تجاوزت نسبة الذين ماتوا فى الحجاز من القرغيز ، بقدر ما استطعت ان احسب ، ١٢ بالمئة ، ومن سائر حجاجنا زهاء ٨ بالمئة ؛ وتميز المرض بالآلام المتواصلة فى المعدة المرفقة بدرجة عالية جدا من الحرارة وبالهديان .

الاسباب التي تساهم في نشوب واشتداد الاوبئة في الحجاز

الحجاج الذين يتوافدون من اقطار بعيدة يشكلون بيئة مستعدة تماما لتقبل شتى الامراض - فان السفر المضنى والطويل ، والازدحام الخارق وكتمة الهواء الفاتكة في البواخر ، والمآكل السيئة وغير الصالحة ، والمناخ الحار والرطب ، واللباس غير المألوف ، المفرط الخفة (ثوب الاحرام) ، - كل هذا ينهك الجسم ويضعفه الى اقصى حد . ومنذ الخطوات الاولى بالذات ، يصل الحجاج الى جدة او الى ينبع اللتين تتميزان بمناخ وخيم جدا وبظروف صحية خارقة الرداءة ؛ وفي هذا الوضع ، يبقون ، بانتظار انطلاق القافلة ، في جدة يوما او يومين ، وفي ينبع اسابيع احيانا . ثم السفر المضنى من جدة الى مكة او السفر من ينبع عبر المدينة المنورة الى مكة ، وهو سفر اسند ارهاقا . ان الظروف الصحية غير المرضية في مكة ، وشرب الماء من بئر زمزم بصورة فائقة الحد ، ثم الوضع الصحى الردىء بشكل لا يصدق عند عرفات ، وبخاصة في منى ، والطعام اللحمى الوفير لمناسبة العيد ، وسوء نوعية المشروبات المباعة في البازار ، والانقضااض على البطيخ والشمام وغيرهما من التمار - كل هذا يجعل الحجاج اناسا شبه مرضى وذوى عضوية مستعدة لتقبل اى مرض كان .

ان اقدس المدن في الحجاز - المدينة المنورة ، وبخاصة مكة المكرمة ، حيث يقيم الحجاج اطول ما يقيدون ، ليستا على الصعيد الصحى فى الاوقات العادية اقلر من مدن الشرق الاخرى كالاحياء القديمة فى دمشق او القاهرة مثلا ، ولكن تجمع عدد ضخم جدا من الناس والمواشى ، وضيق موقعى هاتين المدينتين - مكة والمدينة المنورة - والمناخ الحار ، كل هذا يخلق بيئة ملائمة جدا لنشوب شتى الاوبئة .

من جراء التلوث الشديد ، يمكن ان يشكل عرفات بؤرة من بؤر العدوى ، ولكن الشر الاكبر بالطبع يكمن فى منى ، بسبب درجة الحرارة العالية جدا ، وغياب الريح ، ومئات الآلاف من الجيف المتفسخة والمتعفنة التى تلوث الهواء ، وتلوث الماء بالتأكيد .

عدا الاسباب الواضحة جدا لآلام اختلال اجهزة الهضم مثل اللحم الردىء ، والماء غير المغلى ، والبطيخ ، والشمام ، يوجد عدد كبير من الاسباب الاخرى . يقول البعض ان الخرفان الجائعة المساقة الى مكة من اماكن بعيدة تاكل اوراق السنن المكى (الورق الاسكندري) الذى ينبت بوفرة فى ضواحي

مكة ، ويفترضون ان الخواص المسهلة الملازمة لهذه النبتة تنتقل مع اللحم الى الانسان . لا اعرف مبلغ صحة هذه الفرضية ، ولكن الاغنام تأكل فعلا اوراق هذه النبتة .

ان الطبيب المصرى صالح صبحى الذى زار الحجاز بتكليف من حكومته فى سنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٤ يرى سبب الاوبئة فى منى . واطباء مكة الذين تسنى لى ان اتحدث معهم فى هذا الصدد ، وكذلك سكان مكة الاكثر ثقافة واطلاعا ، يعتبرون هم ايضا ان الوباء عاقبة لتلوث الهواء من جيف الاغنام المتفسخة والمتعفنة فى منى . اما سواد السكان والحجاج ، فهم يرون فى الكوليرا عقابا من الله وحسب .

ماذا تم فعله حتى الآن للتجهيز بالمرافق الصحية

١ - منذ سنة ١٨٦٦ بدأ تطبيق قاعدة تفرض على الحجاج تقديم اضاحيهم فى الامكنة المعينة وحدها دون غيرها وطمر الجيف فيما بعد فى حفر مهيئة سلفا . ولكن هذا التدبير ، وان كان يبلغ هدفه من حيث الاساس ، لم يوضع البتة تقريبا موضع التنفيذ ؛ صحيح ان الحفر قد حفرت ، ولكن الحجاج كانوا يستغلون غياب المراقبة ويفضلون الذبيح قرب خيامهم . يستفاد ، مثلا ، من اقوال محمد صادق باشا الذى زار الحجاز فى سنة ١٨٨٠ ان الحجاج لم يرموا فى الحفر المحفورة وراء المسجد غير بضعة خرفان ، بينما ملأت الجيف الباقية كل المدى بين الخيام ؛ بل ان خيمة الشريف وخيمة الوالى كانتا محاطتين ايضا بجيف متفسخة ومتعفنة ؛ ومنذ الساعة ١٢ من اليوم الاول من الاقامة فى منى بدأت تنتشر رائحة كريهة رهيبة . وفى السنة الجارية ، كما سبق ان اشرت ، جرى الطمر بصورة سطحية جدا وببالغ الاهمال .

٢ - فى زمن الحج يرسلون فى مأمورية ثلاثة اطباء الى مكة وطبيبيا الى المدينة المنورة ؛ وفى كل من هاتين المدينتين ، يوجد ما يسمى بالمحجر الصحى («الكرنتينة») ، وتوجد لوازم لاجل مستشفى متنقل يتسع لثلاثين سريرا يتعين فتحه فى الخيام اذا ما نشب وباء . والمحجر الصحى المكى ينتقل مع الحجاج الى عرفات ، ثم ينتقل معهم الى منى حيث يوجد مبنى مكيف خصيصا من اجله . وفى هذين المكانين ، وكذلك فى مكة ، يعطى المستشفى الادوية مجانا ويقدم الاسعاف الطبى الجوال للحجاج المرضى .

ومن النافل القول ان المستشفى الذى يتسع لثلاثين شخصا يكون عاجزا تماما اذا ما نشب وباء جدى ، خطير بين مثل هذا العدد من الحجاج .
بوسع هذا المستشفى المتنقل ان يعود بمزيد من النفع فى المدينة المنورة ، اذ انه لا يحدث تجمع كبير جدا من الحجاج هناك ، واذا انه يمكن ، باغلاق البوابات ، عزل المدينة كليا عن العالم الخارجى .
عدا الاطباء الاربعة المذكورين سابقا ، يأتى ايضا ، فى زمن الحج ، طبيبان مع المحملين السورى والمصرى .
٣ - فى كل من مكة والمدينة المنورة يوجد مستشفى دائم لاجل الفقراء فيه ٣٠ سريرا . وفى هذين المستشفياتين يجرى ايضا استقبال المرضى بطريقة المستوصف واعطاء الادوية مجانا . وفى السنة الجارية كان فى مستشفى مكة طبيبان وفى مستشفى المدينة المنورة طبيب واحد .
٤ - فى جميع البواخر التى تقوم بنقل الحجاج يوجد اطباء يسعفون الركاب المرضى مجانا وتحت تصرفهم صيدليات صغيرة .
٥ - ضمن حدود البحر الاحمر انشئت لاجل الحجاج محاجر صحية فى جدة وكرمان والطور وابو زليم .
٦ - يبقى ان نشير ايضا الى انه قامت محاولة لانشاء مقصورة بخارية فى جوار مكة لاجل تعقيم البسة وامتعة الحجاج العائدين من منى . ولكن مبنى المقصورة الذى انتهى بناؤه للتو دمره البدو فى سنة ١٨٩٥ حين كان الحجاج عند عرفات ؛ ولذا لم يتسن لهم اختبار هذه الوسيلة . وحين يشاهد المرء آثار المبنى المدمر ، يعجب عفو الخاطر ويتساءل : باى نحو كانوا يفترضون ان يتسنى لهم فى هذه المقصورة الصغيرة ان يعقموا مثل هذه الجبهة الضخمة من الحجاج العائدين معا ، دفعة واحدة ، الى مكة . اغلب الظن انه كان تعين كبحهم بالقوة المسلحة فى غضون بضعة ايام فى منى وتعرضهم لجميع فظائع الاقامة فى هذه المحلة المشؤومة . اصف الى ذلك انه اذا ما نشب وباء ، فان التعقيم ما كان ليبلغ الهدف لأن العدوى، ناهيك عن الحجاج ، تنتقل الى مكة مع الماء بكل سهولة ؛ واذا ما هطلت امطار غزيرة ، فان السيول ستجرف جميع النفايات من منى الى مكة .

ما هى التدابير الصحية الضرورية الاخرى

التدابير المذكورة اعلاه لا بعد بالطبع من ان تكون كافية لقيام نظام صحى مرض الى هذا الحد او ذاك فى الحجاز . وهذه التدابير ، على ما يبدو ،

قد وافقت الحكومة التركية على معظمها بأقصى التردد وعدم الرغبة ، تحت الضغط الخارجى ، كما انها موضع تنفيذ بقدر اقل من الرغبة والحرص ، وذلك لمجرد «رفع العتاب» . واذا لم تتخذ تدابير اشد جذرية وحزما لاجل تنظيم اوضاع الحج الصحية ، فان الحجاز سيشكل دائما خطرا على البلدان الاخرى .

وفى عداد هذه التدابير يجب ، برأىي ، ان ترد فى المقام الاول التدابير التالية :

فى منى :

١ - اقرار نظام لمنع التلوث من جيف الاغنام . وقد يكون حسرق الجيف اسلوبا اصوب ، اكثر عقلانية ؛ وهذا الاسلوب يدعّمه الدكتور صالح صبحى بشدة ، وتم تطبيقه جزئيا فى سنة ١٨٩٦ ؛ ولكن توقف العمل به لسبب ما . واذا بقى النظام السابق للطمر ، فمن الضرورى نقل الحفر الى ابعد عن المقام السكنى وعن الماء ، وحفر حفر اعمق ، والطمر بمزيد من العناية ، واستعمال وسائل التعقيم .

٢ - انشاء خزانات لاجل الماء اكثر تجاوبا مع مقصدها من الاحواض المكشوفة المتواجدة حاليا ، وتأمين الادوات لاستقاء الماء دون استعمال الدلاء .

ومن الممكن ، مثلا ، انشاء خزانات لاجل احتياطات الماء فى مكان اعلى من منى زهاء فرستا اثنين او ثلاثة ، ومد انابيب من هناك الى حنفيات لتوزيع الماء مركبة فى اماكن مختلفة .

٣ - انشاء بيوت خلاء عامة افضل على الصعيد الصحى وباعداد اكبر ، وتعقيمها بدقة وعناية احيانا كثيرة ومنع اقامة المراحيض الموقّعة قرب الخيام .

٤ - نصب خيام الحجاج بموجب خطة مرسومة سلفا وحسب نظام معين لا يحول دون تيارات الهواء ، ويسهل الرقابة على الخيام . ومنع نصب الخيام فى الاحواش المغلقة وفى الشوارع .

٥ - نقل السوق الذى يتاجر باللحوم الى خارج المقام السكنى .

٦ - ابعاد جميع الجمال طوال مدة اقامة الحجاج فى منى الى مكان ما فى الضواحي .

٧ - بسط رقابة فى منتهى الدقة والصرامة على النظافة سواء فى الشوارع والاحواش ام بين الخيام ، وبخاصة على نوعية المأكولات والمشروبات المباعة فى السوق .

٨ - بما ان الحجاج الذين يقبضون فى الخيام طوال ايام الاقامة الثلاثة

فى منى يعانون ، اشد ما يعانون ، من الحرارة العالية ، فان انشاء اكواخ ما
اوسقائف ما تحميهم جيدا من الشمس من شأنه ان يعود بنفع اكيد .
٩ - من المرغوب فيه توزيع الاطعمة الجاهزة على الحجاج المعدمين
ومنهم من تناول لحوم الاضاحي .
عند عرفات :

- ١ - من الضروري اغلاق الاحواض المبنية لاجل الاستحمام الذى لا تنص
عليه اية شعائر دينية .
- ٢ - من الضروري ، كما فى منى ، توفير ادوات لاستقاء الماء من الحنفيات .
- ٣ - يجب نقل سوق اللحوم بعيدا ، فى منحنى عن موقع مخيم الحجاج
وانشاء مسلخ .
- ٤ - يجب انشاء مراحيض عامة خشبية منقولة وتعقيمها بدقة وعناية ؛
ويجب فى الوقت نفسه منع اقامة بيوت الغلاء قرب كل خيمة .
- ٥ - بما ان المكان عند عرفات رحب كفاية ، فمن المرغوب فيه نصب
مخيم الحجاج بمزيد من السعة ، حسب خطة مرسومة وحسب نظام معين .
- ٦ - واخيرا من الضروري اقصى الضرورة فرض رقابة عامة فى منتهى
الدقة والصرامة على النظافة سواء بين خيام الحجاج ام ، بصورة خاصة ، فى
الاسواق ، وفرض الرقابة على المشروبات والاطعمة المباعة .
فى مكة :

التدابير الضرورية فى مكة هى التالية :

- ١ - تأمين حنفيات لتوزيع الماء ، وان ، مثلا ، من النوع المستعمل فى
المدينة المنورة ، ومد انايبب مغطىة عوضا عن المزاريب المكشوفة .
- ٢ - اسلوب نزع مواد برازية اكثر عقلانية من الاسلوب القائم حاليا ، تعقيم
بيوت الغلاء احيانا كثيرة وبدقة وعناية ، وبخاصة منها العامة .
- ٣ - نظرا لامكان تسرب الاقذار عبر التربة من البالوعات الى الماء ، من
الضرورى ، على الاقل ، بناء البالوعات الواقعة حول المسجد الكبير او قرب
خط انايبب الماء على اساس من الاسمنت ، الامر الذى يستطيع الحجارون
المحليون صنعه بنحو ممتاز من المادة المحلية بالذات .
- ٤ - نقل اسواق اللحوم الى اماكن ابعد عن الحرم .
- ٥ - مراقبة التكيات ، واقرار معدلات لعدد النازلين يتعين على نظار
هذه المؤسسات عدم تجاوزها .
- ٦ - رش بعض الشوارع الرئيسية ، وبخاصة حول الحرم وفى الاسواق
حيث تقوم الحركة الاشد انتعاشا .

- ٧ - تبليط الاسواق والشوارع حول الحرم .
- ٨ - المراقبة الصارمة والدائبة على النظافة في المدينة ، تكتيس الشوارع بانتظام ، رمى النفايات في عربات خاصة تطوف في المدينة عوضا عن رميها في الشوارع .
- ٩ - جمال القوافل المتوافدة الى مكة يجب ابعادها الزاما الى خارج المدينة .
- ١٠ - نزع جميع المنشآت الخشبية التي تصعب المرور في الشوارع الضيقة ، ومنع سد الشوارع بالرجال وما الى ذلك .
- ١١ - نقل المسلخ الى مسافة ابعد خارج المدينة وتعقيم البقايا .
- في المدينة المنورة :**
- بصدد التدابير الصحية الضرورية في المدينة المنورة ، يتعين تكرار ما قيل فيما يتعلق بمكة . بعض هذه التدابير تحققت في المدينة المنورة كحفريات توزيع الماء مثلا ، والارصفة ؛ بينما يتعين تنفيذ بعضها الآخر وان لم يكن بنفس القدر من الالاحاح والسرعة كما في مكة .
- في ينبع :**
- ينبع ، كما سبق ان قلنا ، من اسوأ مدن الحجاز من حيث التجهيز بالمرافق ومن حيث الظروف المناخية الوخيمة ، وهنا ينقص شرط من اهم شروط الحياة ، وهو الماء الصالح للشرب الى هذا الحد او ذاك . ولهذا يجب في المقام الاول :
- ١ - تأمين التزويد بالماء . اقرب الينابيع التي تعطي الماء الجيد تقع على بعد ٢٠-٢٥ فرستا تقريبا الى الشرق من ينبع في بلدة ينبع النخلة الواقعة في ارتفاع عن سطح البحر اعلى بكثير من ينبع الاولى . وفي حال انفاق مبلغ معين ، يمكن جر الماء بالانابيب .
- ٢ - تطبيق اسلوب احدث لنزح المواد البرازية مع نقل الزبالة الى خارج المدينة .
- ٣ - بما ان بيوت المدينة لا يمكنها ان تتسع لجميع الحجاج الذين يتجمعون هنا ، يتعين ، اذا ما رغب جميعهم في استئجار الغرف ، بناء سقائف او شيء ما من هذا القبيل لاجلهم .
- ٤ - تحاشيا لتلوث الشوارع ينبغي بناء مراحيض عامة .
- ٥ - هنا ينبغي اكثر مما في سائر مدن الحجاز فرض الرقابة بمنتهى الدقة والعناية على النظافة في المدينة وفي البيوت الخاصة ، ولاسيما في السوق .

٦ - أخيرا ، الحجاج محرومون اثناء اقامتهم فى ينبع من كل اسعاف طبي ؛ والمرضى الخطيرون الذين لا يقبلونهم فى البواخر لا بد من تركهم لرحمة القدر عندما يرحل رفاقهم . ولهذا من الضرورى اقصى الضرورة هنا طبيب لاجل الحجاج ، ومستشفى صغير ، يتسع على الاقل لخمسائة عشر سريرا ، والاسعاف المستوصفى ، وتوزيع الادوية .

فى جدة :

مدينة جدة ، المرفأ الرئيسى فى الحجاز ، تعاني ، بموجب الاوصاف والاحاديث ، نفس الظروف الصحية السيئة التى تعاني منها ينبع ؛ ومن الضرورى فى جدة اتخاذ نفس التدابير كما فى مكة .

فى نقاط صعود الحجاج الى البواخر :

على البواخر التى تنقل الحجاج ، يقبلون ، كما سبق ان اشترنا ، عددا من الركاب اكبر بكثير مما تتسع له الباخرة ومما يرد فى وثائق الباخرة . وهذا الضيق الخارق ، والقيظ الدائم ، وبخاصة فى غرف العنابر ، يضعفان الى اقصى حد المسافرين ، ويعرضانهم سلفا لخطر شتى الامراض . اما باى قدر تكتظ البواخر بالركاب ، فمن الممكن تكوين فكرة عن ذلك ، مثلا ، من الواقع التالى : على متن ١٩ باخرة نقلت هذه السنة الحجاج من الحجاز الى الطور ، كان بموجب وثائق البواخر ١٤٢٩٠ شخصا ؛ اما عند تعدادهم فى المحجر الصحى ، فقد تبين ان عددهم ١٦٩١٠ اشخاص اي ما يزيد ٢٦٢٠ شخصا . يجب الظن ان هذا الفرق يبلغ ارقاما اكبر ايضا اثناء الرحلات الى الحجاز . ولهذا من الضرورى فرض رقابة اصرم على البواخر المعنية .

طبقة الحجاج المعمنة

هناك عامل آخر ييسر انتشار مختلف الامراض الوبائية ويزيد من سوء الظروف الصحية فى جميع النقاط الاهلة فى الحجاز التى يجرى فيها تجمع الحجاج ، هو النسبة الكبيرة من الحجاج المعتمدين . لقد سبق ان قلنا ان اداء فريضة الحج مرة واحدة فى الحياة ليس ، بموجب الشريعة ، فرضا الزاميا الا على اولئك المسلمين الذين يملكون ما يكفى من الاموال لاجل القيام بهذه السفرة ولجل تأمين عيالهم حتى عودتهم ؛ وهذه القاعدة تلقى تفسيريا واحدا عند جميع مذاهب السنيين الاربعة وعند الشيعيين . ولكن الى جانب تفسير الشريعة ، قامت عند بعض الشعوب عادات تتطلب اداء هذه الفريضة من قبل جميع الافراد ممن يملكون الكفاة

البدنية ، ولهذا يظهر فى الحجاز عدد كبير من الحجاج تتلخص جميع اموالهم واحتياجاتهم لكل مدة هذه السفرة الطويلة فى اثناء لاجل الماء وقطعة من قماش ما لاجل توفير الظل فى اماكن التوقف . وامثال هؤلاء الحجاج ، كما قيل لى ، تعطى اكبر عدد منهم اليمن (قبيلة حضرموت) والهند وافريقيا الشمالية ؛ ومن قبل كانت مصر تعطى هذا العدد الكبير ايضا . فضلا عن هؤلاء الاشخاص الذين يتوافدون الى الحجاز تحقيقا للمادة المتبعة ، يتوافد فى وقت الحج عدد كبير من شتى المتتردين والفقراء من ابناء جميع القوميات وجميع البلدان . واكبر عدد من هؤلاء يأتى بالطبع من الاماكن القريبة ، ولكن يوجد بينهم افراد من سكان آسيا الوسطى وقشغر وافغانستان والقفقاس وايران وتركيا وغيرها ، بل انى تقابلت مع شخص من روسيا يقيم فى محافظة كوفنو (٧) . وجميعهم يأتون عادة سيرا على الاقدام ، وبعض منهم يتجوب عدة سنوات ؛ المتحدرون من آسيا الوسطى وقشغر يأتون عبر افغانستان وايران الى بغداد او دمشق حيث ينضمون الى احدى قوافل الحجاج او يمشون الى القسطنطينية او الى احد مرافئ آسيا الصغرى وسوريا لكى يركبوا هناك على البواخر التركية التى تحمل الحجاج ؛ وسكان الهند وافغانستان وايران يمشون عادة الى بغداد او البصرة ، وسكان افريقيا الشمالية يذهبون مع قوافل مواطنيهم الذين يسافرون برا عبر السويس والعقبة .

وجميع هؤلاء الحجاج المعدمين يعيشون فى الطريق كله من جمـع الحسنات بوجه الحصر ؛ وحين يصلون الى مكة ، يقيمون عادة فى الحرم او مباشرة فى الشوارع ، ويأكلون جزئيا فى التكيات ، وبصورة رئيسية من الحسنات من جديد ، ولذا تكون شوارع مكة على الدوام حافلة بهم طوال اليوم كله .

ومع سائر الحجاج ينطلقون الى عرفات ويتوزعون هناك ، بعض تحت الجنبات ، وبعض تحت الصخور ، ثم يمشون الى منى مدبرين امورهم فى هذه الايام الثلاثة تحت صخور السفوح الجبلية المحيطة . وبعد حياة مديدة من الجوع ينقض هؤلاء الفقراء هنا بنهم على اللحم المجانى ويستغلون وفرته فلا يحاولون سد جوعهم بفيض وحسب ، بل يحضرون ايضا اللحم المجفف لاجل مواصلة السفر . وقد قال لى طبيب من الاطباء المحليين عاش طويلا فى مكة وشهد كثرة من اوبئة الكوليرا فى منى ان هذا الوباء يبدأ دائما ، حسب مراقباته ، من امثال هؤلاء الحجاج الذين لا مأوى لهم ، رغم انه فسر السبب ، لا بالظروف التى يواجهونها ، بل بكونهم يرتدون البسة من قماش

الاكياس التى يُنقل بها الرز من الهند ؛ ومع هذه الاكياس ، برأيه ، تنتقل مسببات الامراض .

بعد الحج يمضى قسم من الحجاج المعدمين الى جدة حيث تجبر السلطات المحلية ربان كل باخرة بقبول بضع عشرات من هؤلاء الفقراء مجاناً . والبواخر التركية التى تنقل الحجاج فى رحلة ثانية من الحجاز تكون على الاغلب مشغولة مجاناً بامتال هؤلاء الركاب . وقسم آخر من هؤلاء الحجاج ينضم الى قافلة وينتقل معها الى المدينة المنورة ؛ وهنا يقيمون ، عادة ، نهارة فى الحرم ، وليلا فى الشوارع المجاورة ، حين يفلق الحرم ابوابه . اما المصدر الرئيسى لطعامهم فى المدينة المنورة فهو هنا ايضا الصدقة ، وجزئيا التكية المصرية . وبقدر ما تنطلق قوافل الحجاج من المدينة المنورة ، يتفرق هؤلاء الحجاج المعدمون تدريجياً فى جميع الاتجاهات ؛ بعضهم يمضى مع المحمل السورى الى دمشق ، وآخرون يمشون الى بغداد او البصرة ، وبعض ثالث الى ينبع بأمل الحصول على مكان فى باخرة . وفى المحاجر الصحية ، يتمتع الحجاج المعدمون بالمؤونة على حساب الحكومة .

يبدو ان كبيرين من هؤلاء الافراد ، اذ يصلون سيرا على الاقدام او ركوبا الى مدينة ما ، يبقون فيها حتى الحج التالى ويعودون من جديد الى الحجاز . فقد تسنى لى فى بيروت ودمشق ان اتقابل فى اوقات مختلفة مع بضعة افراد فقراء من ايرانيين وبخاريين وقشغريين عادوا من مكة . وسألتهم : كيف يعتزمون السفر الى اوطانهم البعيدة ، فاجاب الجميع انهم ينتظرون رمضان المقبل ، ويركبون باخرة تركية ويعودون الى مكة حيث قد يوافق مواطن من مواطنيهم القادمين الى الحج ينقلهم الى الوطن .

هذه الطبقة المعدمة من الحجاج التى تواجه اسوأ الظروف الصحية هى بلا ريب عنصر غير مرغوب فيه اطلاقاً . وليس من المتوقع ان تسنح الفرصة بمنعهم كلياً من الدخول الى الحجاز . ولكن اذا حظيت وسائل المسافرين المادية بمزيد من الاهتمام لدن منح جوازات السفر للحج ، واذا رفضت البواخر التركية نقل الحجاج مجاناً الى الحجاز ، واذا منع المحمل السورى الفقراء من اللحاق به ، لقل كثيراً ، اغلب الظن ، عدد هذا الطراز من الحجاج .

التدابير التى ينصح بها الدكتور صالح صبحى

لتنظيم قضايا الحج ينصح الطبيب المذكور اعلاه صالح صبحى باتخاذ التدابير التالية :

١ - «مطالبة كل حاج بشهادة تفيد انه يملك ما يكفي من الاموال لاجل رحلته ولاجل اعاله نفسه». هذا التدبير يجرى تطبيقه منذ حين في مصر ؛ فعند منح جواز السفر لاجل الحج ، كان المطلوب في سنة ١٨٩٩ توفر تذكرة بالسفر ذهابا وايابا على الباخرة وتقديم ضمانه قدرها ١٥٠ قرشا ، ٥٠ قرشا منها في صالح المحجر الصحي ، و١٠٠ قرش تنفق على اطعام الحاج اذا تبين انه صار خالى الوفاض . ولتقليل عدد الحجاج المعدمين ، من المرغوب فيه ان تطبق الحكومات الاخرى ايضا هذا التدبير . اما المسلمون الروس ، فان المعدمين بينهم ظاهرة استثنائية ، نادرة جدا . واذا هوى احد منهم الى هذا الوضع من جراء حادثة مشؤومة ما ، فان موطنه يساعده عادة .

٢ - «بدون اذن خاص من السلطات المعنية على الاقل ، يمنع الحج على

أ - الاولاد ممن لم يبلغوا العاشرة من العمر ،

ب - النساء في المرحلة الاخيرة من الحمل ،

ج - العميان ،

د - الشيوخ الهرمين ،

هـ - الافراد الذين ليس لديهم افادات بالتلقيح ضد الجدري في غضون السنوات الثلاث الاخيرة» .

وقد سبق ان ذكرنا انه من النادر جدا ان يسافر الحجاج من روسيا مع عائلاتهم ؛ واذا سافروا مع زوجاتهم ، فعادة يسافرون بدون الاولاد . ولكن يوجد بينهم كثيرون من الشيوخ ، علما بان الشيوخ يدوتون بمعظمهم اثناء هذه السفرة الصعبة .

٣ - «تزويد الحجاج بتعليمات مطبوعة بصدد التدابير الصحية الرئيسية الضرورية اثناء السفر الى الحجاز :

أ - اية مؤونة يصح اخذها ،

ب - اية اساليب لتنقية الماء بواسطة المصافي ،

ج - اية البسة مناسبة للمناخ ،

د - اية اشياء ضرورية للسفر ، كالاغطية وما الى ذلك ؛

هـ - اية ادوية يجب اخذها تحوطا للأمراض المفاجئة» .

٤ - «من الضروري تواجد صيدليات في مكة ومنى وينبع» .

في مكة توجد صيدليات منذ حين ؛ في منى يجرى توزيع الادوية من المحجر الصحي .

٥ - «الزام كل باخرة تنقل الحجاج بان يكون على متنها طبيب مختص» .

الاطباء من هذا النوع يعملون منذ حين على جميع البواخر .

٦ - «من الضروري في جدة وينبع نقل قدر البواليع الى خارج المدينة ، عوضا عن طمرها في الشارع ، لان الماء في الاحواض المجاورة يتلوث نظرا للترربة الرخوة» .

٧ - «وصل ينبع التي يمر عبرها عدد كبير من الحجاج ، بالتلغراف ، مع جدة او نقطة أهلة اخرى» .

٨ - «حرق جيف الاغنام في منى عوضا عن طمرها . اما اذا استحال تنفيذ هذا التدبير ، تعين على الحجاج الامتناع عن تقديم الاضاحى في جميع الايام الثلاثة من الاقامة في منى ، والاكتفاء بتقديمها في اليوم الاخير قبل الرحيل من منى ، الامر الذى تسمح به الشريعة» . التدبير الاخير ، اذا لم يستتبع التسرع البالغ والهرج والمرج ونسبى ضروب الفوضى ، من شأنه ان يمارس تأثيرا خيرا في الوضع الصحى في منى . ولكن ، من جهة اخرى ، لا يستطيع الحجاج ، بدوجب الشعيرة ، ان يخلعوا ثياب الاحرام الا بعد تقديم الاضاحى . ولهذا سيتعين عليهم ان يبقوا خلال اليومين الاولين في هذا اللباس غير المريح ، الامر الذى ينعكس باقصى الضرر على صحة الاغلبية .

٩ - «تجنبنا للتماس بين الحجاج القادمين من الجنوب ، مثلا ، من الهند وجزر السند حيث الكوليرا يتواجد في شكل مرض مستوطن ، وبين سائر الحجاج القادمين من الاقطار السليمة ، يجب اقرار دور يجيز لسكان الهند وغيرها الدخول الى الحجاز في سنة ، وللحجاج من البلدان الشمالية في سنة اخرى» . هذا التدبير الهام من شأنه على كل حال ان يكون نافعا جدا لانه يقضى على خارق تجمع الحجاج في مكة وعند عرفات وفي منى ، الامر الذى يشكل على الصعيد الصحى احدى سلبيات الحج الرئيسية .

١٠ - اخيرا . لاجل تسهيل حركة الحجاج في طريقهم الرئيسى ، يوصى صالح صبحى بوصول جدة بمكة بالسكة الحديدية . ولكن ، اغلب الظن ، لن يرى الحجاز عما قريب السكة الحديدية في ربوعه .

الخاتمة

هذه هي التدابير المرغوب ، برأى ، فى تطبيقها بأسرع وقت ممكن ؛ وهذه التدابير لا تتنافى ، لا مع مفاهيم الجموع ، ولا مع الشريعة ، ولا تتطلب نفقات كبيرة جدا .

ولو كان الحجاز خاضعا لحكومة اخرى ، اشد همة ونشاطا من الحكومة العثمانية ، لحظى اغلب الظن ، بقدر معين من الرفاه واليسر ؛ وتوفرت في

النقاط الآهلة التي يتجمع فيها الحجاج ظروف صحية افضل ، ولجى تعقيم الاغنام المذبوحة فى منى بأسلوب من الاساليب الفعالة ، ولجى استعمال هذه الاموال الكبيرة المصروفة عبا فى مهب الريح لما فيه فائدة القضية ، ولتم مد السكك الحديدية فى ربوع الحجاز ولجى الحج كله ، باستعمال واسطة المواصلات هذه ، فى غضون ٧-١٠ ايام ، ولصار ظاهرة عادية ، ولفقد الحجاز سمعته الرهيبة كبؤرة للامراض المعدية ؛ ولكن ، من جهة اخرى ، لو كانت هناك حكومة اشد همة ونشاطا ، لاستفادت ، بالتاكيد ، من تجمع الحجاج هذا فى اغراضها السياسية ايضا .

لا ريب فى انه لن يكون من الممكن فى وضع الامور القائم تطبيق هذه التدابير غير المعقدة من قبل السلطات التركية بالذات رغم جميع المطالب على الورق ؛ ولهذا قد يكون من الاصول تعيين قناصل او نواب قناصل الدول الغربية فى مكة بالذات عوضا عن جدة ، وتعيينهم من عداد المسلمين وتكليفهم بالاشراف على كل الجانب الصحى وانفاق المبالغ المعتمدة لهذا الغرض .

اما فيما يتعلق بالجانب المالى من المسألة ، فقد يكون من الممكن والعاذل والصائب اجبار جميع الحجاج المسافرين الى مكة على دفع مبلغ خاص من المال ، مثلا ، خمسة روبلات ، عند منحهم جوازات السفر ، ونظرا لمتوسط عدد الحجاج - ١٠٠ الف شخص ، يبلغ الرسم المحصل بالاجمال زهاء نصف مليون روبل ، اى ما يكفى تماما لاجل تطبيق التدابير الصحية فى غضون سنة بكاملها .

وعلى العدم اعتقد ان تنظيم قضايا الحج حاجة حيوية وملحة ، ولربما تجد حكومتنا من الضرورى ، نظرا لوضعها السياسى بين الشعوب الاسلامية ، ان تاخذ زمام المبادرة فى هذا المجال الهام .

الثقيب دولتشين

ملاحظات

١ - هنا ، وفي جميع المنشورات الاخرى الواردة فى هذا الكتاب ، لا تعلق من وجهة نظر العلم الحديث على هذه او تلك من آراء المؤلفين التاريخية . وهى بمجملها تعكس مستوى الاطلاع على القضايا المتعلقة بتاريخ الاسلام والعالم العربى فى روسيا وفى كثير من الاحوال فى اوروبا اجمالا ، الامر الذى يتسم بحد ذاته بجانب من الاهمية والفائدة .

٢ - سوفت - تلميذ المدرسة الدينية .

٣ - الاورطة البوكية (الاورطة الداخلية) - خانة (امارة) كازاخية تابعة لروسيا ؛ دامت من عام ١٨٠١ الى عام ١٨٧٦ . اسميت باسم بوكى نورعليموف . كانت تقع بين الاورال ونهر الفولغا . دخلت فى قوام محافظة استراخان .

٤ - سيمبيرسك (منذ سنة ١٩٢٤ اوليانوفسك) - مدينة على نهر الفولغا . حاليا مركز مقاطعة . مرفأ على خزان كوبييشف المائى .

٥ - منذ سنة ١٨١٥ ، عاصمة المملكة البولوية فى قوام روسيا .

٦ - «تركستانسكي فيدوموستي» («انباء تركستان») (١-٦-١٨٩٩) تعطى لوحة زاهية من الطلاق الحجاج من استنبول : «كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ كان قطيع كبير من الجمال ذات السنابين المرونة باشرطة متعددة الالوان ، وهبارق غنية من الديباج ، وهتى الخشخيشات وعشرات البغال تحت شقادات جميلة ومظلات ذهبية التلاوين ، واخيرا ، فصيل كبير من الحمير البيضاء الصغيرة المحملة بصناديق حديدية والمرفقة «بزيبقيين» شرسين يقطنون فى ولاية ايدين ، جميعها تسير فى هذه الايام فى جميع الشوارع الرئيسية بعاصمة السلطان التركى . ان السلطان التركى ملزم ، بموجب عادة قديمة ، بان يرسل سنويا الى مكة ، قبل ١٥ يوما من رمضان ، قافلة مع الهدايا ووكيله الذى يقوم بالنيابة عنه ، اى عن السلطان ، بالرحلة المقررة فانونا للسحود امام مقدسات مكة المكرمة والمدينة

المنورة . ومنذ ١٥٠ سنة كان يتعين على السلاطين ان يمضوا شخصا الى الاماكن المقدسة ؛ اما الآن فان واجب السلطان في هذه الحال يؤديه الوكيل ؛ وهذه المرة عين السلطان بدور الوكيل رئيس الفرع الديني بوزارة التعليم العام ، عريف افندى . امضت القافلة يومين في دار شيخ الاسلام ؛ وفي احاديث متواصلة القى كلمات النصيح على المسافرين في سفرة بعيدة ، ثم اتجه الى قصر يلدز اى الى حيث كان يتجه ويتجمع جمع غفير من الناس .

وتسنى للاجانب ان يروا مشهدا فريدا ، حيث تجمعوا في بتشيك داش الذى كان لا بد ان تمر فيه «القافلة المقدسة» . في طليعة صف الجمال والبغال والحمير المؤينة بتبرقش ، كان عريف افندى راكبا على جمل ابيض ذى سنابين ، وكان يرتدى معطفا مطرزا بالذهب هو المعطف الرسمي للموظف التركي ، ماسكا في يديه الممدودتين الى الامام شهادة صلاحياته . وقد ركز كل انتباهه على هذه الورقة التى كان عريف افندى ينظر اليها بركة وحنان كما الى شيء مقدس ، وبالوداعة الملازمة للتعصب الاسلامي . ان مجموعة «الزيبين» التى تسمى في طليعة الموكب وفى مؤخره تشكل الحرس الذى ينبغى ان يحرس القافلة من هجوم البدو عليها فى الطريق . و«الزيبقون» الذين يرافقون القافلة من شيخ الاسلام الى قصر السلطان يرقصون بلا انقطاع مسترعين الانتباه العام بلباسهم الغريب . وبهذه الصورة تصل «القافلة المقدسة» الى قصر يلدز حيث يستقبلها بمهابة واحتفال اصحاب المقامات الكبيرة الاتراك المتجمعون لهذا الغرض ويرحب بها السلطان نفسه الذى يظهر لهذا الغرض هذه المرة على الشرفة الكبيرة المطلة على حوش القصر .

بعد اداء الصلاة ما قبل السفر ، امر عريف افندى بتسرع بفتح الصناديق الحديدية وارسال خمسة منها الى مخدع السلطان . من الصعب ان تصف باى ورع وضع اصحاب المقامات الكبيرة الاتراك حففات من الذهب فى الصناديق المفتوحة . وبالنظر اليهم ، لم يكن يجوز التنديد بالرماح الجهال الذين باسوا آثار حوافر المواشى المنطلقة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وبعد فترة وجيزة اخذ الخصبان يتوافدون الى عريف افندى حاملين اكباسا حريرية تحتوى تبرعات سيدات حريم السلطان . وكل من هؤلاء النامكات التعميسات ارسلت كيسا ، يحتوى ، عدا بضع قطع نقدية ذهبية ، عنوان المتبرعة التى كان يتعين على الوكيل ان يجلب لها من مكة الماء المقدس ، او سلاكة خشبية للاسنان ، و مسايح رخيصة ، ولكن ها هم ياورو السلطان يطلون حاملين الصناديق المرسلية الى مخدع السلطان . ان وضع الامور المقلق فى الجزيرة العربية ، ولاسيما فى ولاية اليمن اجبر الباديشاه على عدم الضن بالذهب المعد على سبيل الهدية للشيوخ العرب الذين يرأسون مختلف القبائل العربية التى تخضع لسلطة شيوخها بوصفهم اخلافا

لمحمد (صلم) . ولا جدوى من احداث شجار بين الشيوخ العرب والباب العالي ، لان الباب العالي يدرك جيدا جدا عجزه عن اجبار العرب على اجلاله واحترامه . ان الرشوات السخية المقدمة للشيوخ النافذين هي وحدها التي تحافظ اليوم على النظام الظاهري في الولايات العربية . واذا غضب شيخ طماع بطبيعته ، فان القبيلة بأسرها تصيح على استعداد من الاشارة الاولى لحمل السلاح وشد المروج على احصنتهم .. . ولكن لا يخامر الشك احدا في ان الذهب لا يكفى الباب العالي مدة طويلة لاجل ارضاء الشيوخ العرب الذين يطالبون بالمزيد من الذهب بالحاح وجشع . بعد ان اخذت القافلة المقدسة في قصر يلدز كل ما يمكن اخذه ، انطلقت بالاحتفال ذاته الى القسم الاسلامي من المدينة «سكوتاري» حيث تبقى ١٥ يوما ، وتنتقل في هذه المدة من بيت الى بيت لجمع التبرعات .
واننا نترك لكمة المؤلف الاخطاء بصدد الوقائع ولهجة بعض من آرائه .
٧ - المركز - مدينة كوفنو . منذ سنة ١٩١٧ كاواناس ، مدينة في ليتوانيا .

مكتبة فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكااديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي ، XXXVII (٢٧) ٣٤/١٢ . النص الرسمي مع الختم «سري» نشر سنة ١٨٩٩ في بطرسبورغ في مطبعة هيئة الاركان العامة .

محمد بن اسماعیل بن علی بن ابی طالب

بسم الله الرحمن الرحيم
 من الله ما به التوفيق
 من الله ما به التوفيق
 من الله ما به التوفيق

—فرمان أمير بخاري بمكافأة دولتشين.



- خان خوي في بطرسبرج سنة ١٩١١ / ويبدو العقيد دولتشين الثاني من اليسار.

ملاحق

الملاّ ميرزا عليّ
ابن دام الله ميرزا رحيم طشقنى

وصف طريق الحاج

[الورقة ١٥٥ - أ] فى السابع من شهر رجب ١٣٠٥ (٢١ كانون الثانى - يناير ١٨٨٨) انطلقنا فى اتجاه المدينتين المقدستين ، مكة المكرمة والمدينة المنورة . خرجنا من مدينة قوقند ووصلنا الى محلة بش اريك ، ومنها الى ناحية محرم . غادرنا هذه الناحية ، ودخلنا مدينة خوجند . وهنا زرنا الشيخ مصلح الدين ، ثم واصلنا السفر . توقفنا فى ناحية بيقباد ، وبعدها فى ناحية جاما ، ثم توقفنا فى دجيزاك . ثم واصلنا السفر وتوقفنا فى ناحية يانغى كورغان . اجتزنا هذه النقطة وتوقفنا فى ناحية آك تبه . ثم واصلنا السفر حتى مدينة سمرقند المحمية من شتى الاحوال الطقسية [. . . .] ، وقضينا الليل فيها . هنا قمنا (الورقة - ١٥٥ ب) بالحج الى شاه زنده والى (ضريح) صاحب العظمة الامير تيمور ، وطلبنا العون من روحه ، ثم واصلنا السفر ووصلنا الى ناحية الوديل . وهنا توقفنا للاستراحة . ثم واصلنا السفر ، ووصلنا الى كاتا - كورغان وتوقفنا فى ناحية تشاخار شنبه . ومن هنا انطلقنا ووصلنا الى محلة اسمها كرنب - اتاباته ، ومن بعدها دخلنا الى عاصمة الولاية ، مدينة بخارى . وهنا قمنا بالحج الى ضريحى الولى بهاء الدين نقشبند ومير قولال ، وصلينا كذلك امامهما . فى جامع تك آب ، قمنا بصلاة الظهر ، ومن بعدها واصلنا السفر . [الورقة ١٥٦ - أ] وتوقفنا للاستراحة فى ناحية قره قول ، وصلنا الى مدينة شاردجو حيث امضينا الليل . ثم وصلنا بالقطار الى مدينة مرو . دفعنا ثلاثة روبلات بدلا للركوب . قبل ذاك كانت هاتان المدينتان تخصان يوسف بك واحمد بك . ومن هنا واصلنا السفر بالقطار . فى يوم واحد وصلنا بالقطار الى عشق آباد ، وهنا قضينا الليل . هذه المنطقة القديمة كانت مدينة رستم دستان . ثم واصلنا السفر فى القطار المذكور ، وفى

غضون يوم واحد وصلنا الى محلة اوزون آطا (كراسنوفودسك) . دفعنا لقاء السفر بالقطار احد عشر روبلا وعشرين كوبكا . خرجنا من هناك ، وركبنا باخرة ؛ فى غضون يوم وصلنا الى مدينة باكو . وباكو هى بالفعل ، كما يقولون ، مدينة بلقيس . لقاء السفر بالباخرة دفعنا روبلين ونصف روبل . ويعرف القارى انه كان لهذه الباخرة (الورقة ١٥٦ - ب) مروحتان وان هيكلها كان من طابقين . طول الباخرة تسعون خطوة .

شعر :

النبي رأى الله ، وموسى سمعه ،
وهل يمكن تشبيه المسموع بالرأى .
ان شاء الله ، يذهب كل امرئ فى طريق الحج ،
ويؤكد كل هذا اذ يجربه بنفسه .

خرجنا من مدينة باكو المذكورة ، وواصلنا السفر ؛ وفى غضون يوم واحد وصلنا الى مدينة تقليس . هذه المحلة كانت تخص السلطان ابن قور ، وكانت مدينته . ومن هنا واصلنا السفر ودخلنا مدينة باطوم . كانت هذه بالفعل مدينة ابي مسلم صاحب [. . . .] (اى ابو مسلم المنتصر) . بدل السفر الى هاتين المدينتين بلغ ١٨ روبلا . فى الطريق عبرنا انفاقا جبليّة كبيرة منورة . ثم واصلنا السفر بالباخرة . فى غضون يوم واحد وصلنا بالباخرة الى (الورقة ١٥٧ - ١) مدينة طرايزون ؛ وقد كانت من مدن الاسكندر (المقدونى) . حجم الباخرة المذكورة : الطول مائة واربعون خطوة ، العرض ثلاثون خطوة ، الهيكل من ثلاثة طوابق .

وليعرف القارى ان مرفأ استنبول تدخله (كل يوم) مائة باخرة ويغادره العدد نفسه من البواخر . ومن هنا واصلنا السفر بالباخرة ؛ وفى غضون يوم واحد وصلنا الى مدينة سمسون . بعد يوم وصلنا بالباخرة الى مدينة انبولا وامضينا الليل فيها . بعد يوم دخلنا بالباخرة الى استنبول المحمية وتوقفنا فيها . بدل الركوب الى مدينة استنبول اثنا عشر روبلا .

فى استنبول يوجد جسر . طوله الف خطوة وعرضه يكفى لسير العربات بثلاثة صفوف . المدخول اليومى من هذا المكان يبلغ ستمئة قطعة نقدية ذهبية (الورقة ١٥٧ - ب) . من كل عربة يأخذون ، كبديل المرور على الجسر ، تانغا واحدة ، ومن كل فارس تانغا ونصف تانغا ، ومن كل ماش كوبيكين . كذلك رأينا جامع آجيا صوفيا الشهير . طول هذا الجامع مائة واربعون خطوة ، عرضه مائة وعشرون خطوة ، قسمه الاعلى - بشكل قبة . من جانبى المحراب توجد سمعتان طول كل منهما قولاتشان (١) وسماكة كل

منهما سبعة قاريشات (٢) ، وهناك اعمدة من المرمر سماكة كل منها احد عشر قاريشا ، وطوله خمسة قولاتشات . عدد الاعمدة الاجمالى فى الجامع المذكور سبعون ؛ وفيه سبعون ثريا . وفي كل ثريا تشتعل سبعون شمعة . حكينا عن استنبول بايجاز ، والا لما كفت ٥-١٠ اوراق [الورقة ١٥٨ - أ] لاجل وصفها . ولهذا الوصف لم يتوفر الوقت .

خرجنا من استنبول ، وركبنا الباخرة [.] ، وبعد ثلاثة ايام كنا فى الاسكندرية . ومن الاسكندرية انطلقنا بالقطار ، وبعد خمس ساعات وصلنا الى القاهرة . دفعنا لقاء السفر بالقطار خمسة روبلات .

ايها الاعزاء ، اعلموا اننا قمنا بالحج الى قبور بيبي زينب ، ابنة صاحب العظمة على ، والامام حسن والامام الشافعى ، وشاهدنا بئر صاحب العظمة يوسف ، فليحل السلام عليه . طول البئر مائتان وخمسون خطوة . شاهدنا كذلك جامع [.] على . طول السجادة فيه ثلاث وعشرون خطوة وعرضها ست عشرة خطوة . يقولون ان معلمى العمار بنوا هذا الجامع فى غضون ستين سنة . انطلقنا من القاهرة بالقطار . بعد عشر ساعات بلغنا السويس . دفعنا عن السفر ستة روبلات [الورقة ١٥٨ - ب] . الباخرة الراسية فى السويس تتسع لالف راكب . خرجنا من السويس على متن الباخرة ، وبعد يومين وصلنا الى رائق (٩) ، دفعنا عن السفر سبعة وعشرين روبلا ، لبسنا لباس الحجاج ، بعد يوم دخلنا مدينة جدة المقدسة . فى مدينة جدة المقدسة ، امضينا ليلتين . قمنا بالحج الى ضريح صاحبة العظمة امنا حواء . ثم ، بعد صلاة الظهر ، انطلقنا على الجمال باتجاه مدينة مكة المكرمة . فى الطريق توقفنا فى ناحية [.] . بعد الصلاة ، وقبل مغيب الشمس راكبنا الجمال من جديد ، ووصلنا قبل الفجر الى مدينة مكة المكرمة . بعد وصولنا ، توضحنا فى الحال ، بموجب الشعيرة ، ودخلنا رواقا مكشوفاً ، وهنا رأينا ساحة الحرم الشريف [الورقة ١٥٩ - أ] . قلنا ثلاث مرات : «الله اكبر» . بعد هذا ، اقتربنا من مقام صاحب العظمة ابراهيم ، عليه السلام ، ورأينا هنا الكلمات : «ومن دخل كان اميناً» ؛ وفى الحال ركعنا ركعتين . تذكرنا الاصدقاء والاقارب وصلينا من اجلهم . بعد هذا شرعنا فى الطواف حسب الشعائر حول المكان المقدس وطفنا حوله سبع مرات بكل تقوى ، وفى كل مرة كنا ننحنى امام الحجر الاسود . ثم صلينا وقوفا بين «الملتزم الشريف» وابواب الحرم . وبعد الصلاة امام الكعبة ، اقتربنا جميعاً من ضريح ابراهيم ، عليه السلام ، وركعنا هنا ركعتين . وبعد ذلك سعينا سبع مرات بين الصفا والمرو ، وقصصنا شعرنا ، وبعد العودة الى حيث

كنا قد توقفنا ، [الورقة ١٥٩ - ب] خلعنا ثوب الاحرام ولبسنا البستنا . ثم
نزلنا فى بيوت جيدة وتمتعنا بضعة ايام [. . .] المستطاب ، وكل يوم
كنا نأكل معا حتى التخم البطيخ والخندلاق (٣) والخيار ونشرب العصائر ،
ومن جراء ذلك ارتفعت حرارتنا ومرضنا مدة يومين تقريبا . ووزعنا
الصدقات باسم الله ، وبعد ذلك شفى الجميع اى ان طبيعتنا صارت متناسبة
مع طبيعة مكة العظيمة . وبعد هذا ، صلينا خمس مرات فى المسجد . وكما
من قبل قمنا خمس مرات بالطواف . تذكرنا جميع الرفاق ، وصلينا من
اجلهم ، ثم رحنا باتجاه المدينة المنورة . يا رب ، لتكن سفرتنا على خير
وسلامة .

ملاحظات

- ١ - قولاتش - مقياس طول تحدده المسافة بين طرفى الاصبعين الوسطيين
للدين الممدودتين .
- ٢ - قاريش - مقياس طول تحدده المسافة بين طرفى الابهام والخنصر
الممدودين .
- ٣ - خندليق (خندلاق) - نوع سريع النضوج من الشمام مستدير الشكل .

الملاّ ميرزا عليّ
ابن دام الله ميرزا رحيم طشقندى

وصف بوابات كعبة الله والاماكن المقدسة حيث يمكن ان يقبل [الله] صلوات المؤمنين

بعد تمجيد الله وانبيائه زمنا طويلا ، يرد : [الورقة ١٦٠ - ب] الحجر الاسود ، والكعبة ، ومقام ابراهيم ، عليه السلام ، وبئر زمزم المقدسة ، في القسم الشرقي من كعبة الله ، اى الحرم الشريف . اضرحة الانبياء المقدسين نوح عليه السلام ، وهود عليه السلام ، وشعيب عليه السلام ، وصالح عليه السلام ، تتواجد هنا . وهذه قصة الشيخ التقى حسن البصرى . وهذا القسم يسمى ركيزة الحجر الاسود . الخاتم المقدس ، ماسورة تصريف الماء ، عليها رحمة الله ، [الورقة ١٦١ - ا] مقام (اتباع) ابو خنيفة ، عليه رحمة الله ، حجر اسماعيل (. . . .) عليه السلام ، ضريح بيبي حجر ، عليها رضى الله ، تتواجد في القسم الشرقي من حرم الله ، وهذان القسمان يسميان بالركيزة العراقية . (مقام) المالكيين يقع في القسم الغربى من حرم الله ؛ وهنا تقع مدافن سبعين نبيا ؛ هذا القسم يسمى بالركيزة اليمنى . لكعبة الله - حرم الله ، اربعة واربعون بابا . باب السلام يتألف من ثلاثة ابواب ، باب النبى يتألف من بايين ، باب عباس يتألف من ثلاثة ابواب ، باب على يتألف من ثلاثة ابواب ، باب البعلى يتألف من بايين ، باب [. . . .] يتألف من بايين ، باب الصفا يتألف من خمسة ابواب ، باب الشريف يتألف من بايين ، باب الجهاد يتألف من بايين ، باب التكية يتألف من بايين ، باب الامهات يتألف من بايين ، باب الوداع يتألف من بايين ، باب ابراهيم يتألف [الورقة ١٦١ - ب] من باب واحد ، باب النقيب الاشرف يتألف من باب واحد ، باب العتيق يتألف من باب واحد ، باب الماسك يتألف من باب واحد ، باب البيطار يتألف من باب واحد ، باب [. . . .] يتألف من باب واحد ، باب زياد يتألف من ثلاثة ابواب ، باب القاضى يتألف من باب واحد ، باب مدرسة السليمانية يتألف من باب واحد ، باب الداودية يتألف من (ثلاثة) ابواب . الحاصل ٤٤ بابا .

لبوابة المكان المقدس سبع مآذن . لكل مئذنة مؤذن واحد يؤذن بوقت كل من الصلوات الخمس . وليكن واضحا ومفهوما اننا سنحكي [ادناه] عن مكانين للحج في مكة المكرمة . في جنة (الجنة المعلا) يوجد مدفن ام المؤمنين خديجة الكبرى ومدفن آمنة بنت وهب ، ام نبي الله ، - صلى الله عليه وسلم ؛ ومدفن صاحب العظمة عبد الرحمن ابن ابو بكر ، ومدفن السيد عثمان المرغيناني ، ومدفن مالك الاجدر . جميع هذه المدافن هي محجات [الورقة ١٦٢ - ١] . يتلو الناس سورة وجيزة ويصلون ، وبخاصة من اجل المذكورين اعلاه والباقيين الموجودين في جنة المعلا . المسجد (هنا هو ذلك) المكان الذي اصبغ فيه شياطين الليل مسلمين بعد ان اتفقوا مع النبي ، ولهذا فان جميع الاماكن من هذا النوع هي محجات .

في جبل ابو قبيس توجد علامة هي محج . المكان الذي اقيم فيه موقتا الحجر الاسود ، اثناء الطوفان العالمي في عهد صاحب العظمة نوح عليه السلام ، هو محج . بيت العجب هو ايضا محج . مكان ولادة النبي صلى الله عليه وسلم - هو محج .

مكان ولادة صاحب العظمة علي والغرفة التي كان يصلي فيها (عادة) ؛ محراب خديجة العظيمة ؛ مضرب ابو بكر الصديق ، عليه رضى الله ؛ الحجر الحاكي اي الحجر الذي كان شاهدا على عظمته (محمد) ؛ مكان ولادة صاحب العظمة الامير حمزه ؛ [الورقة ١٦٢ - ب] المكان الذي كان يصلي فيه صاحب العظمة عمر (عادة) ؛ مدرسة صاحب العظمة عثمان ابن عفان ؛ المكان الذي ولد فيه صاحب العظمة الامام جعفر الصديق ومدفن مولانا محبوب ؛ ومدفن القحافة ؛ ومدفن مولانا تاج الامام الرباني ؛ ومدفن السيد حسنى ؛ مدفن تلامذة السيد عبد القادر الكيلاني واخوته الصغار ؛ مدرسة صاحب العظمة [. . . .] الاعظم ، رضى الله عليه ، جميع الاماكن المذكورة هي محجات .

بين بوابات مكة المكرمة ، المسماة باسم الشيخ محمود ابن ابراهيم ادهم حيث يرتدى الحجاج ثياب الاحرام في حال الحج الصغير وبين مكة المكرمة توجد مدافن احد عشر ممن استشهدوا في الجهاد وبينهم عبد الله ابن عمر ، رضى الله عليه ، هذه المدافن هي ايضا محجات .

وليعرف القارى ايضا امكنة الحج في منطقة منى . مسجد [. . .] . يقولون ان نبي الله كان هناك وقدم الاضاحي . هنا كهف نزلت فيه آيات «المرسلات» . اثناء التضحية بصاحب العظمة اسماعيل عليه السلام [الورقة ١٦٣ - ١] ارسل الله العظيم لاجل التضحية خروفا (عوضا عنه) .

تكريما لقبول الضحية ، ادى الصلاة ، وركع ركعتين . ذلك المحراب الذى صلى قر به (اسماعيل) صار مكانا للعبادة .

ليعلم القارى ايضا جبل الرحمة . انه مكان توقف فيه النبى ، صلى الله عليه وسلم . على جبل الرحمة يوجد مكان القى فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - الخطبة . ويتناقلون فى احدى الاساطير ان والدنا صاحب العظمة آدم ، عليه السلام ، وامنا حواء تعارفا هنا . على الجبل يوجد مبنى بديع يذهب اليه للعبادة المنتمون الى مذهب الامام الشافعى . اما نحن ، فلا توصينا الشريعة بذلك . وفى مدينة جدة زرنا قبر صاحبة العظمة حواء . وفى جبل النور يوجد مكان نزلت فيه آيات سورة القرآن «سورة الشرح» . وفى جبل النور يوجد كهف نزلت فيه آيات القرآن «اقرأ باسم ربك الذى خلق» . وفى جبل النور يوجد كهف تخفى فيه صاحب العظمة [الورقة ١٦٣ - ب] نبى الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحب العظمة ابو بكر الصديق من الكفار . هذا الكهف هو محجة . بعد زيارة هذه الاماكن ، ايها الاخوة الاعزاء ، انطلقنا صوب المدينة المنورة . الهدف الاساسى من زيارة المدينة المنورة يتلخص بالنسبة لنا فى قرع جباهنا الخاطئة على الضريح المقدس لصاحب العظمة ، النبى محمد ، صلى الله عليه وسلم . . . نأمل فى ان يسمح الله العظيم للنبى بعد اداء هذه الشعائر برعايتنا نحن الخطاة فى يوم الحساب .

[الورقة ١٦٤ - أ] ان شاء الله ، سنحكي بايجاز عن مواقف واماكن العبادة التى رايناها حيث كنا . ايها الاخوة الاعزاء ، على الطريق السلطاني المؤدى الى المدينة المنورة ، توجد المواقف التالية : «وادي فاطمة» ، «محسنة» ، «اسفهان» ، «اخلاص» ، «كريمة» ، «رايغ» ، «مستورة» ، «حسالى» ، «صفراء» ، «بئر عباس» ، «بئر شريف» . عن السفر الى المدينة المنورة دفعنا عشرين روبلا . قبل مدخل المدينة المنورة ، توجد محجة ؛ انها قبة صاحب العظمة الخضر ، عليه السلام . دخلنا المدينة المنورة ونزلنا فى بيت حيث توضعنا حسب الاصول ، وذهبنا الى نبى الله لاجل الصلاة والسجود (ومررنا) عبر بوابة باب السلام ، مرددين الآيات : «اللهم انت السلام ومنك السلام واليك يرجع السلام ، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام» . وقرب محراب النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رحنا الى السجود امام ضريح نبى الله ، ثم قمنا بالحج الى ابو بكر الصديق ، رحمة الله عليه ، ثم كنا عند مدفن صاحب العظمة عمر ، رحمة الله عليه . ثم قمنا بالحج الى المكان الذى نزلت فيه الملائكة . ثم قمنا بالحج الى ضريح فاطمة الزهراء ، البريئة من

كل خطيئة . بعد الحج الى جنة الباقي ، سجدنا صوب جبل أحد . وقمنا بالحج الى مدفن الامير الحمزة وسائر الشهداء . ثم اقتربنا عن كتب من غرفة صغيرة قائمة تحت منذنة وصلينا ووجهنا الى القبلة . ثم صلينا ووجهنا صوب الضريح المقدس . ثم ابتعدنا منه اربع او خمس خطوات وصلينا مرة اخرى ووجهنا صوب الضريح . ثم صلينا ووجهنا صوب ضريح صاحب العظمة نبي الله ، صلى الله عليه وسلم وانهيينا الصلاة ؛ وهكذا بعد كل صلاة قمنا بالسجود بالطريقة الموصوفة اعلاه . يوم الجمعة [الورقة ١٦٥ - أ] قمنا بالحج الى مقبرة «جنة الباقي» . القبة الاولى فيها هي قبة الولي عثمان ، عليه بركة الله ، وهي اول مكان للعبادة . القبة التالية ، قبة الولية حليلة السعدية . ثم توجد خارج المقبرة قبتان ، وهما ايضا مكانان للعبادة . الشهداء المدفونون في مقبرة جنة الباقي يعتبرون هم ايضا جديرين بالتقدير والاحلال . ومن الاماكن المقدسة يعتبرون ايضا : قبة الامام مالك ، عليه بركة الله ، الذي كان مؤسس مذهب ؛ مقبرة خوجه محمد [. . .] ؛ قبة الولي عباس ، عليه بركة الله العلي ؛ (مقبرة) الائمة الاثني عشر ؛ قبة الولية عائشة ومدفن زوجات النبي ؛ (مقبرة) عم نبي الله القائمة بين بوابة المقبرة والمدينة اي انها تقع قرب مدخل المدينة المنورة ؛ الى اليسار ، على بعد خمس او ست خطوات ؛ قبة اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، عليه بركة الله ، وتقع في الغرب من باب الرحمة [الورقة ١٦٥ - ب] مدرسة [. . .] ومدفن عبد الله اي والد نبي الله ؛ مدرسة في دار غوث الاعظم ، عليه بركة الله .

واعلموا ، ايها الاخوة المؤمنون ، ان الحج الى الامير حمزة في جبل أحد والى المكان الذي انكسرت فيه سن النبي الكريم بسبب الايمان يجرى يوم الاربعاء . سجدنا امام قبة ولينا الامير الحمزة وجميع اولاده واحفاده الموجودين هناك . وسجدنا ايضا امام مدفن الولي [. . .] والمستشهادين في سبيل الله الاحد . وبئر الولي عثمان ، بركة الله عليه ؛ والمدينتين المقدستين (القدس ومكة) ؛ ومسجد الاربعين ؛ كهف غار الخزن ؛ مسجد القبة ومسجد [. . .] . جميع هذه الاماكن تقع في القسم الخلفي من مقبرة جنة الباقي . كما سجدنا امام محراب نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ محراب فاطمة الزهراء ، والمنبر ؛ المكان الذي ركعت فيه ناقة نبي الله ، والواقع ما وراء مقبرة «جنة الباقي» . مسجد علي ؛ والمسجد الاخضر [الورقة ١٦٦ - أ] لعمر ، بركة الله عليه ؛ اشجار النخيل التي تملك موهبة الكلام ، والتي جاءت بلا اقدام وادلت بشهاداتها . وتقول الاسطورة ان عثمان

اسقط في بئر خاتم النبي ؛ وهذه البئر تسمى بئر الخاتم ؛ جميع الاماكن المذكورة آنفا هي اماكن للعبادة ، وكذلك مسجد جرت فيه صلاة الجمعة وهو ايضا مكان للعبادة .

وليعلم القارىء ايضا انه يوجد في المسجد ثلاثة محاريب . الاول منها محراب نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ المحراب الثانى ، محراب السلطان سليم . المحراب الثالث ، محراب الولى عثمان ، بركة الله عليه . بوابات المسجد خمس - باب السلام ، باب الرحمة ، باب المجيد ، باب النساء ، باب جبرائيل . مآذن المسجد ثلاث - المئذنة المجيدة ، والمئذنة الرئيسية ، ومئذنة بلال . ثريات المسجد خمسمئة [الورقة ١٦٦ - ب] منها اثنتان بيضاوان ، اثنتان حمراوان . قياسها عشر شارات تقريبا ، الله وحده يعلم . الباقية مختلفة المقاييس . قيب المسجد مائتان . عدد الاعمدة اربعمئة .

المخطوطة رقم ٥٠٤٢-٩٣٧٢/III مقتبسة من مجموعة المخطوطات والوثائق الشرقية لدى اكااديمية العلوم في جمهورية اوربكستان الاشتراكية السوفيتية (راجع ص ٥٤-٥٥ ، المجلد ٧ من كاتالوج المجموعة ، طشقند ، سنة ١٩٦٤) . النص مكتوب بخط عربى دقيق على ورق قوقند (٢٥×١٥) سنمترا) . تشكل المخطوطة قسما من مجلد كبير (الاوراق ١٥٤ ب - ١٥٩ ب) ، وهى ، نظرا للحاشية فى الورقة ٨٢ ب ، من خط المؤلف . النص باللغة الاوزبكية . يصدر للمرة الاولى .

الحاج سليم غيرى سلطانوف

منطقة المسلمين المقدسة فى الجزيرة العربية

(من ذكريات حاج)

مقتطفات

النُّبذات التى اعرضها على القراء كتبتها بموجب تسجيلات وجيزة قمت بها اثناء السفر ، وبموجب ذكرياتى الشخصية .

المعلومات التاريخية والمرتبة زمنيا اقتبستها من مؤلفات مختلف العلماء المسلمين ، وكذلك من تاريخ الاسلام للمستعرب الالمانى البروفسور مولر . فلاجل دراسة الشريعة ، اى علم الدين الاسلامى وقوانينه ، عشت زهاء سنتين فى قرية صغيرة تقع فى اعماق بشكيريا حيث توجد من قديم الزمان مدرسة دينية اسلامية شهيرة فى اقليم اوبا . وهنا تعرّفت على ملّا بشكيرى اسمه خيرالله راح غير مرة الى المنطقة المقدسة فى الجزيرة العربية . وقد حكى لى الملّا خيرالله الكثير عن اسفاره ، وهذه الاحاديث اثارت فى نفسى الرغبة فى زيارة اماكن المسلمين المقدسة .

فى الصباح الباكر من الرابع من آذار (مارس) سنة ١٨٩٣ ، انطلقنا نحن ستة مسلمين من محافظة اوبا ، بعد ان تمنى لنا جمع غفير من الودعين السلامة واغدق علينا النصائح ، من محطة اوبا الحديدية الى مكة البعيدة لكى نؤدى هناك الفريضة الدينية - اى السجود والصلاة امام المقدسات التى تشغل بينها الكعبة او بيت الله المرتبة الاولى فى عيون اتباع الاسلام . بفضل وسائط المواصلات الحالية ، كنا بعد اسبوع فى القسطنطينية .

لن اصف القرن الذهبى والبوسفور وجمال وروعة ضواحيه العجيبة والمناظر من البحر الى المدينة العالمية الجليلة . وقد ارجأت مشاهدة المدينة وطرائفها بصورة مفصلة الى طريق العودة . والاحظ ان الحجاج فى القسطنطينية يرون واجيهم الاول فى زيارة ضريح ابنى ايوب الانصارى ، الشهير فى تاريخ الاسلام ، ومن اخلص اصحاب النبى (صلعم) [. . .]

ثم يزور المسافرون المسلمون المساجد - مسجد آيا صوفيا ، مساجد

السلطين : سليمان ، محمود ، احمد ، سليم ، بايزيد ، وغيرهم . واخيرا يتسنى لبعض الحجاج فقط مشاهدة المتاحف والقصور ، الامر الذى قمنا به في طريق العودة بفضل تلمظ ياور البلاط العقيد صادق بك [. . .] في ٢٩ آذار (مارس) كنا في بيروت حيث غادرنا باخرتنا «ناخيموف» لكي نساغر الى دمشق . ومن بيروت الى دمشق كان السفر يجرى آنذاك في عربة كبيرة تجرها ستة بغال . اما الآن فقد بنيت هناك سكة حديدية . تعبر الطريق جبال لبنان ، بخط متعرج ، متلو ، اولا ٥٠ فرستا صعودا فى الجبال ، ثم ، بعد معبر عبر الجبال ، ٦٠ فرستا نزولا من الجبال ، ثم الفرستات الـ ١٠ الباقية في وهدة ، على ضفة سيل مائى ، عابرة اياه غير مرة من ضفة الى اخرى . . .

اعظم طرائف دمشق جامع الامويين القديم الباقي من حيث خطوطه الكبرى حتى ايامنا هذه . وهو يتميز بعظمته ومهابته الخارجية ، وروعة الزينات من الذهب والفسيفساء فى الداخل ، وكبره الذى لا يصدق اذ يتسع لـ ١٨ الفا من المصلين . وفوق الجامع تنتصب بضع منارات * رشيقة اسطوانية الشكل . واحداها تعتبر الاهم ؛ فعليها ، كما تقول الاسطورة ، سينزل يسوع المسيح حين يحل زمن التنكيل بالمسيح الدجال اى حين يحل يوم القيامة او يوم الحساب [. . .]

القصور والجنان والبساتين ، والكثير من العمارات الفخمة ، والسوق البديعة ، ومخازن الاسلحة * * ، والمقاهى ، وزهاء ٢٠٠ مسجد - كل هذه تشكل زينة المدينة القديمة . بيوت المالكين الخصوصيين الذين تسنى لى ان ازورهم لا تسترعى النظر بشئ من الخارج ، ولكنها فى الداخل تتغندر بالزخارف وبالفسيفساء المتنوعة الالوان وبالبلخ حسب الذوق الشرقى . جمال دمشق الرئيسى موقعها . فمن التلوج الذائبة من الجبال اللبنانية تتشكل كثرة من السواقي التى تصب فى واحدة وتشكل مسيلا اسمه بردى ،

* المنارات فى الكلام التركى جمع منارة ؛ وفى الشرق يسمونها على الاغلب «مدينة» والاصح «منذنة» اى مكان الدعوة الى الصلاة (مشتقة من فعل «آذن» و«آذن» تاذينا بالصلاة اى اعلم بها ودعا اليها) .

* * السلاح الابيض من فولاذ دمشق البديع واسع الانتشار فى الشرق . السيوف الفولاذية ، الخناجر والسكاكين من الصنع الدمشقى القديم تسنى لى ان اراها فى بولوتيا ايضا . فقد جلبوها الى هذا البلد بعد الحرب ضد الاتراك بجوار فيينا . النبلاء البولونيون يقدرونها رفيع التقدير ويسمونها Szabla Damascenke (السيوف الدمشقية) .

وعرضه ٣٠ ساجينا تقريبا . يسيل نهر يردى فى وسط المدينة ثم ينقسم الى سواعد ، ويتشعب فى عموم المدينة وبذلك يتيح انشاء الاحواض والفوارات فى كل مكان . وفى كل حوش تقريبا توجد فوارة ، وفى كل بستان حوض مائى تتلاعب فيه «اسماك ذهبية» ، وفى كل بيت ، وحتى فى كل غرفة تقريبا توجد مجارى المياه .

التربة الخصبة ، ووفرة الماء والمناخ الحار تعطى نباتا سريع النمو ومتنوع الاصناف ، وزهورا وثمارا عجيبة الى حد ان العرب يسمون دمشق عن حق وصواب «جنة الدنيا» .

وفى دمشق تعرفت على تترى من قازان يعيش ويشغل هنا من زمان بعيد . وقد رحل معه الى جبل واقف قرب المدينة يدلون منه على المكان الذى قتل فيه قايين اخاه هابيل . ثم زرنا قبر ولى مسلم يحكون عنه ما يلى . منذ سنوات عديدة جدا دفن امام دمشقى شخصا غير معروف كان يعيش فى دمشق . وحين طمروا الجثة بالتراب ، طرح الامام على الحاضرين السؤال العادى : هل كان المتوفى طيبا . الجميع ذكروه بالخير وتمنوا له المملكة السماوية (الجنة) ، ولكن واحدا منهم قال عن المتوفى الكثير من السوء . فى هذه الاثناء اطلت من القبر قدم بسرعة البرق . لم تكن للدهشة حدود بالطبع ، الجميع آمنوا بقداسة المتوفى ، وبنوا فوق رفاتة ضريحا لائقا لا يزال يزوره الى الآن كثيرون من المسلمين .

وانقضت سنوات عديدة . ذات مرة زار باشا تركى عجوز القبر ، وكان يشك ، نظرا للقدم المطلة ، فى ان تبقى الجنة مئات السنين . حفروا القبر فتبين منه نور ساطع . رأى الباشا وجميع من معه بام عيونهم جنة الرجل المقدس ، ونعموا زمنا طويلا جدا ، مرددين الصلوات الحارة . وبعد هذا ، لم يطمروا القبر من جديد بل غطوه بالقطن تاركين القدم فى وضعها السابق . وانا رأيتها بام عينى ، وعجبت كثيرا بالطبع ، بينما الفرنسى الواقف بقربى هز رأسه دليل الشك .

فى اوائل نيسان (ابريل) عدنا من دمشق الى بيروت ؛ وفى اليوم نفسه انطلقنا الى يافا ومنها الى القدس . من يافا الى القدس توجد سكة حديدية هى ملك شركة فرنسية . السكة تمتد طوال الوقت كله تقريبا فى الجبل والقسم الاخير منها فى فج ضيق وعميق .

فى القدس امضينا اسبوعا بكامله ، وشاهدنا الاماكن المقدسة وصلينا فى مسجد عمر وفى المسجد الاقصى .

المسجدان المتجاوران ينتصبان فوق ساحة عريضة ، مطوقة بحائط

حجرى - الحرم الشريف الواقع فى قمة جبل [. . ٠] الممهدة والمبلطة بصفائح من المرمر والگرانيت ، والمحاطة بكثرة من الانتشاءات العجيبة . وبمسجد عمر المشيد فى مكان هيكلى سليمان ترتبط الاسطورة عن سفر النبى ليلا من مكة الى القدس . وفى هذا المسجد يدلون ايضا الى الصخرة التى تشكل كلا واحدا مع الجبل الذى صعد منه محمد الى السماء [. . ٠]

الاماكن المقدسة فى القدس موصوفة مرارا وتكرارا ؛ وفى الادب الروسى توجد عنها كتب عديدة مختلفة من حيث المستوى والمزايا ، ولذا اتحاشى تكرار المعروف . ولكن اكتفى بالقول ان الاماكن المقدسة تبدو حسب الوصف كأنها موزعة فى مساحة كبيرة بينما هى فى الواقع متقاربة بشدة . لا يمكن ولا يجوز الصمت عن ان مقدسات المدينة العالمية يشوبها اقصى القذر . والمدينة نفسها تحدث بعد دمشق انطبعا مرهقا سواء بمظهرها الوسخ ام بتجهم وبرودة سكانها المتنوعى القوميات والاديان ؛ وبقدر ما نرى سكان دمشق مضيافين ولطفاء وخدميين بقدر ما نرى سكان القدس الحاليين ، بدءا من اليهود وانتهاء بالروس او ممن يتظاهرون بانهم روس ، طماعين ، بخلاء ، ميالين الى ابتزاز اكثر ما يمكن من المسافرين والحجاج ، والى خداعهم بنحو ما . وقد اعتاد السكان النظر الى الحجاج نظرهم الى دجاجات تبيض بيضات ذهبية . ويستحوذ الحياء والغضب على القلب والروح حين يرى المرء كيف يسود الفساد الى جانب المقدسات . والى ما قيل يجب ان اضيف مناخ القدس الرديء ، غير الصحى ، وغياب الماء الجيد فيها .

من القدس قمنا برحلة الى بيت لحم والى حبرون (الخليل) الواقعة على مسافة ٧ ساعات ركوبا فى طريق بديع . وفى بيت لحم رأينا كنيسة المهد ، وفى الكنيسة معلف . والمعلف عبارة عن حجر محفور ومنحوت ، من الغرانيت على ما يبدو ، طوله زهاء اربعين واحدا . وفى هذه الكنيسة يعرضون ايضا المكان الذى نمت فيه شجرة كانت تجلس تحتها العذراء مريم والطفل يسوع فى يديها .

وفضلا عن الكثرة من مختلف المقدسات والطرائف المعمارية ، زرنا فى حبرون هيكلا بديعا ترقد فيه ، كما تقول الاسطورة ، رفات بطاركة القدس الاوائل - ابراهيم ، يعقوب ، يوسف ، وغيرهم . والقبور تقع فى كهف مستواه ادنى من مستوى ارضية المسجد ، واليه ينزلون على سلاسل بضعة مشاعل صغيرة مشتعلة .

قضينا الليل في جبرون وعدنا الى القدس ثم الى يافا ، ومنها انطلقنا على متن الباخرة «اوديسا» التابعة لشركة روسية الى بور سعيد .

وعند وصولنا الى بور سعيد زرنا في الحال القنصل الروسى لكي نسأل عن البواخر الذاهبة الى ينبع . وقد تبين ان قنصلنا السيد براون المانى ولا يعرف اية كلمة روسية . اعرب عن استعدادنا لخدمتنا ومساعدتنا بالمعلومات التى يملكها ؛ ولكن من جراء عدم فهم اللغة بصورة متبادلة وغياب المترجم فى القنصلية ، جاءت خدمات السيد براون مل خدمة الدب بالذات اى جاءت بعكس القصد منها ؛ اى انها لم تنفع بل اضررت . فمن توضيحاته نجم ان هناك باخرة وحيدة تقلع من بور سعيد فى ١٦ نيسان (ابريل) ؛ وان الباخرة التالية لن تقلع قبل مضي اسبوعين . وفى الوقت نفسه تطوع السيد براون لتزويدنا بالتذاكر ، فوافقنا بطيبة خاطر . ولكن تبين فيما بعد ان الباخرة الوحيدة التى ستقلع فى ١٦ نيسان (ابريل) الى ينبع ، تخص الشركة النمساوية «لويد» التى يقوم السيد براون بدور عميل لها ؛ وان هناك بواخر تابعة لشركات اخرى واننا لو سافرنا على متن احداها لدفعنا اجرة اقل .

فى ١٦ نيسان اقلعت الباخرة «اغلايا» من بور سعيد عبر قناة السويس ؛ وفى صباح اليوم التالى كنا فى السويس ، ثم عبرنا البحر الاحمر خلال يومين . واثناء هذه الرحلة ، تقابلنا للمرة الاولى مع مؤشرات الدخول فى المنطقة الاستوائية . كان ميزان الحرارة حسب معيار ريومور يشير الى ٢٧ درجة فى الظل . الابخرة التى ترتفع من البحر تترسب ليلا بصورة ندى صمغى يشير احساسا غير مستطاب اطلاقا ، ولاذعا نوعا ما ، حسب كل احتمال ، لأنه ينير طفحا احمر سواء على الوجه ام على الاقسام المكشوفة من اليدين المعرضة لتأثيره . ولا يمكن فى اى حال من الاحوال القول عن السفر فى البحر الاحمر بأنه مستطاب ؛ فان القيثظ نهارا ، وكثمة الهواء ليلا يرافقان المسافرين طوال الوقت كله لأن الندى الذى ذكرته للتو لا يسمح بفتح ابواب ونوافذ ليلا . وسواحل البحر تعرض منظرا صحراويا تماما . وللماء لون محلول الزاج ؛ ولا تقع العين على الطيور ولا حتى على طيور النورس ، ولا نرى الاسماك التى تتلاعب عادة على سطح الماء فى البحار الاخرى ؛ ولذا يبدو البحر الاحمر نفسه فى الطقس الهادى عديم الحياة كليا . [. . .]

ينبع قلعة غير كبيرة . عدد سكانها خمسة آلاف . وهنا مقر القائمقام ،

معاون عامل المدينة المنورة (الوالي) . وفي القلعة حامية تركية من ٥٠٠ جندي .

بانتظار تشكيل القافلة امضيها في ينبع خمسة ايام ، واشترينا كل ما يلزم لاجل مواصلة السفر الطويل الى المدينة المنورة على «سفن الصحراء» . [٠ . ٠]

حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر انطلقنا من بوابة القلعة في اتجاه المدينة المقدسة . [٠ . ٠]

كانت الوقفات على العموم غير طويلة . كانت القافلة تسير نهارا وليلا . خطوة الجمل كبيرة نسبيا ، ولكن رغم كل هذا تسير القافلة ببطء . سبب بطء الحركة امتداد القافلة الكبير . يكفي ان يقف جمل لسبب ما حتى يتعين ان تقف كل السلسلة السائرة ورائه . في اليوم الواحد كنا تقطع بالاجمال ٣٠-٣٥ فرستا ، لا اكثر .

في ٢٥ نيسان (ابريل) اقتربنا مساء مع غروب الشمس من المدينة المنورة ، اى من اقدم مراكز الاسلام . انتعشت القافلة . اشعل الجميع المصابيح والمشاعل وبدأ اطلاق النار من البنادق ، وانشد البعض اناشيد دينية ، وتلا آخرون غيبا آيات من القرآن الكريم ، وتنادوا باصوات مدوية ، واطلقت النساء الهنديات والمصريات من الحلق ترانيم غريبة جدا .

وعلى بعد ١٠ فرسات تقريبا من المدينة ، استقبلنا المسلمون المهاجرون الروس المقيمون هنا على الدوام . وفي الساعة الحادية عشرة كنا جالسين في صالون مواطننا اللطيف المضيف عبد الستار اقندى الى سمار روسي يفتح بمرح والى مآكل قومية متنوعة .

في صباح اليوم التالي صليت بدهوع الفرح والحنان والرقعة وبكل حرارة عند قبر محمد ، الذي كان في التاريخ العالمي كله الانسان الوحيد الذي جمع في نفسه النبي والشاعر والحقوقي والمشترع والطبيب والخبير الصحي ومؤسس دين وامبراطورية ، واضفى القوة والوحدة على جميع القبائل في الجزيرة العربية ومن خلالها على العديد من الشعوب الاخرى في آسيا وافريقيا واوروبا ، ويتقيد بمذهبه وتعاليمه الآن اكثر من ثلث البشرية جمعا . [٠ . ٠]

عامل المدينة المنورة * عثمان باتما تحدر من روسيا ؛ فهو شركسي القومية ، وقد غادر القفقاس طوعا واختيارا . حموه ، الابن البكر للشخصية الشهيرة شميل ، غازى محمد ، الذى يعيش على الدوام فى مدينة النبى ، يتمتع بالشعبية الواسعة ، والانتباه والاحترام بين العرب . وان مسلما متقفا ذكيا يشغل مكان الصدارة فى رفقتنا الصغيرة زار مرارا شميل وعثمان باشا . وهو يقول ان الحديث العام كان غالبا ما يعود الى الذكريات عن روسيا ، الموطن السابق ، وهى ذكريات مفعمة بالعطف العميق .

تشغل المدينة رقعة غير كبيرة نسبيا ، ومرد ذلك الى اقصى تراحم العمارات ؛ فان البيت يلتصق بالبيت دون اية فسحة بينهما . لا احواش . الشوارع ضيقة الى حد انه لا يمكن فى بعضها الا بصعوبة ان يتلاقى ويتفارق حماران محملان .

ومن غير المريح ابدا بالنسبة لابن الشمال غياب الزجاج فى الغرف ، ولذا يطير الغبار اليها مباشرة من الشارع ؛ والغبار كثير لأن الحركة فى الشوارع هائلة ومتواصلة فى غضون اربعة اشهر ، بدءا من شهر رمضان ** حين يتوافد الى هنا الحجاج من شتى اقطار العالم الاسلامي .

ان الموضوع الذى يجتذب الى هنا مئات الآلاف من الحجاج انما هو الجامع الذى يتواجد فيه قبر النبى محمد . قبره يقع فى الجانب الجنوبي من الجامع . وفوقه يوجد مرتفع غير كبير مكسو بغطاء حريري مطرز بغنى

* قبل حجرة النبى من مكة ، كان سكان يثرب يسمون مقامهم فى اغلب الاحوال «بالمدينة» خلافا للضواحي . واطلقوا على المدينة مع الضواحي اسم يثرب . وهذا الاسم الاخير تراجع مع مر الزمن . واخذوا يسمون المدينة «بالمدينة» قاصدين «مدينة النبى» .

** اسم الشهر الذى يصوم المسلمون فى غصونه . الفرس والأتراك يلفظونه «رمضان» . التقويم الاسلامي قمرى . السنة تتألف من ١٢ دورة قمرية ، وبالتالي من ٣٥٤ يوما او من ٣٥٥ يوما . فى الحالة الاخيرة يضاف الى الشهر يوم واحد آخر . الشهر فى غضون ٢٣ سنة ينتقل دائما عبر جميع اوقات السنة . اسماء الاشهر : محرم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الثانى ، جمادى الاول ، جمادى الثانى ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة . ومن يرغب فى معرفة التقويم الاسلامي بمزيد من التفصيل يمكنه ان يراجع مقالة السيد تيرينتييف (بشير آسيا الوسطى . ايار - مايو ١٨٩٦) وكتاب «التقويم الشمسي فى العالم الاسلامي» لمؤلفه شاكر باشا ، ياور السلطان ، والسفير التركي سابقا لدى البلاط الروسى ، والمفوض السامي الحال للباب العالي لاجل تطبيق الاصلاحات فى آسيا الصغرى . ترجمة محمد آغا شاهطختينسكى (محمد بك) من التركية . موسكو . سنة ١٨٩٧ ، ١٧٣ ص .

ووفرة ، ومحاط بشبكة من الحديد الصب المطلى بالذهب ، وغالياً فوق السطح تشع قبة (السعادة) . وإلى جانب النبي دفن خليفته الأولان - ، الخليفة أبو بكر * والخليفة عمر - وإلى أبعد ، ابنة النبي ، زوجة الخليفة علي ، فاطمة . [. . .]

امضينا في المدينة المنورة خمسة اسابيع بانتظار قافلة دمشق لأننا لم نتجراً على مواصلة السفر مع قافلة البدو نظراً لغياب التنظيم فيها ، ثم لأن قوافل البدو لا تراعى البتة أية قواعد صحية . والآبار التي تمر بها هذه القوافل في طريقها محاطة بكثرة من الاقذار والافساخ ، وحتى جثث الذين يموتون في الطريق يطمرونها كيفما اتفق في مكان التوقف بالذات .

اغتنتم فرصة الاقامة المديدة في المدينة المنورة فتعلمت اللغة العربية لأنني حسبت ان ابقى بضع سنوات في الجزيرة العربية رغم اني غيرت رأيي فيما بعد . اللغة العربية عسيرة المنال على الكثيرين ولكنني كنت اعرفها نوعاً ما على الصعيد النظري ، وهذا ما ساعدني في استيعاب الكلام الدارج بسرعة . يكنّ العرب للكفار ، اي لغير المسلمين اشمئزازاً غريزياً ، وفضلاً عن ذلك ينظرون بعدم الرضى الى جميع من لا يتكلمون بالعربية . وهم يعتبرون لغتهم ، وليس بدون بعض المبررات اغلب الظن ، لغة فائقة الغنى ، قوية التعبير ، واحسن لغات العالم وقعا على الاذن ، واكثرها اناقة .

فضلاً عن دراسة اللغة العربية بصورة عملية ، اخذت دروساً في «علم التجويد» الذي يتلخص في صحة نطق آيات القرآن الكريم ، لأن اهل المدينة المنورة يُعتبرون خيرة قراء ومفسري الكتاب المقدس . وكثيرون منهم يعرفونه بكليته غيباً . تعلمت عند معلم ، من سلالة النبي ، اسمه علي افندي زغيري . اخلاف النبي يسمونهم «بالاسياد» ولذا كانوا يسمون معلمي «بالشيخ السيد علي زغيري» . ولكل سيد ، عدا ذلك ، لقب «الشريف» ؛ والاسياد يحملون في الحزام حنجراً اعوج دليلاً على تميزهم .

وقد تبين ان السيد علي افندي ، كما كان ينبغي التوقع نظراً لاصله الرفيع ، كان انساناً متعلماً ، محباً للاطلاع ، ولطيفاً جداً . في سنة ١٨٩٨

* ابو بكر . من قديم الزمان وإلى الآن يعتز العربي اكرام الاعتزاز بكونه ابا ، ولهذا يخاطبونه باسم ابنه دليلاً على التقدير والاحترام . الخليفة ابو بكر ، الذي تسنم الخلافة من سنة ٦٣٢ إلى ٦٣٤ ميلادية اي من سنة ١١ إلى سنة ١٣ هجرية لقبه النبي «بالصديق» . اما عمر الذي نعته المؤرخون وكذلك العلماء المسلمون «بالفاروق» لعادته ، فقد حكم من سنة ٦٣٤ إلى ٦٤٤ . والخليفتان ، ولأسيما عمر ، عملاً كثيراً على نشر الاسلام وتأسيس الامراطورية الاسلامية .

تجوب فى ربوع آسيا الوسطى وروسيا ، وزار مدينة اوتا حيث كان من حسن حظى ان ازوره . وقد عرفنى فى الحال ، وسُرَّ باللقاء على ما يبدو . امضينا معا امسيتين ، متحدثين عن روسيا وعن الجزيرة العربية ، ومتذكرين ، فيما تذكرنا ، المدينة المنورة ودروسنا . وغنى عن البيان انه لقى من جانب المسلمين فى كل مكان ، بوصفه ضيفا رفيع المقام ، ومبجلا ، ونادرا ، الاحترام اللائق والاستقبال المناسب . [. . .]

فى المدينة المنورة تسنى لى ان احضر محاكمة ، ولكن بصفة شاهد . قبل سفرنا ببضع سنوات توفى فى المدينة المنورة حاج ، بشكيرى من انحائنا ، تاركا زوجة واولادا . وبموجب القاعدة العامة السارية المفعول ، اخذوا اموال المتوفى ، حتى حضور ومطالبة ورثته الشرعيين الى بيت المال الى مؤسسة تشرف على اموال وتركات الموتى . اعطت زوجة المرحوم احد رفاقى وكالة للحصول على الارث . طلبت المحكمة شاهدين بوسعهما ان يؤكدوا صحة الوكالة . وكنت انا احد الشاهدين . استجوبونا بعد القسم . جرت المحاكمة فى حجرة متواضعة ، علنا ، امام الحضور ، وبصورة لائقة جدا . والدعاوى يفصل فيها قضاة تعينهم الحكومة التركية . وعند الفصل فى الدعاوى يستترشدون بلوائح خاصة تسمى «بالدساتير» ؛ وهذه تضعها الحكومة التركية على اساس احكام الشريعة .

طريقة وضع الدستور الذى يتجاوب مع الحياة الواقعية هى التالية . توجد فى القسطنطينية لجنة خاصة من حقوقيين مسلمين يضعون ، كما اشرنا اعلاه ، على اساس احكام الشريعة ، مشروع قانون فى فرع معين من الحق ، عارضينه فى شكل عقائدى . مشروع القانون الموضوع هنا يطبعونه ويرسلونه الى المحافظات العامة والمحافظات فى الامبراطورية حيث توجد لجان ثانوية . وهذه تدرس المشروع المرسل وتعيده مع اعتباراتها وآرائها . ولجنة العاصمة تدرس هذه الاعتبارات والآراء حول مشروعها وتضع نهائيا وثيقة تكتسب قوة القانون تصبح سارية المفعول ما ان يصادق عليها السلطان .

فى اواخر ايار (مايو) وصلت الى المدينة المنورة قافلة حكومية تركية يجرى تجهيزها سنويا فى دمشق وارسلها عبر المدينة المنورة الى مكة المكرمة مع هدايا عادية لشريف مكة ورؤساء (شيوخ) البدو ، وهدايا للكعبة وللجوامع ، ومع النقود لاعالة الموظفين الاتراك .

هذه المرة كانت القافلة تتألف من الفى جمل وسارت بقيادة عبد الرحمان ياشا وبرفقة بضع مئات من الجنود المسلحين بالبنادق وراكبين على البغال .

وكانت القافلة مزودة بمدفع ولذا كانت مضمونة تماما على صعيد السلامة والأمن دون هجوم البدو المتوحشين . والى هذه القافلة انضممنا نحن المسلمين الروس وعددنا ٤٢ شخصا . ومعنا سافر مهاجر روسي ، طبيب تعلم على نفسه ، وساعد كثيرا ومجانا اثناء السفر بنصائحه وادويته .

فى ٣٠ ايار (مايو) مساء ، انطلقت القافلة من البوابة الشرقية للمدينة المنورة فى طريق لا تمضى عليه قوافل البدو /لأن هذا الطريق اطول من الطريق العادى . قطعنا الطريق من المدينة المنورة الى مكة المكرمة فسى الشقذاف ، ولكن توجد فى قافلة دمشق تختروانات ايضا . التختروان انما هو حمالة يركبون عليها لاجل ركوب المسافرين كشكا غير كبير له نوافذ صغيرة جدا يمكن فتحها . وهذا الكشك يشدونه بين جملين سائقين الواحد تلو الآخر .

كانت القافلة تسير نهارا فقط ، منطلقة من الدوقف بعد صلاة الفجر اى قبل طلوع الشمس بساعة ونصف ساعة تقريبا ؛ وكانت تتوقف لربع ساعة لاجل اداء صلاة الظهر ثم كانت تسير بلا توقف حتى صلاة المساء وادائها قبل غياب الشمس وتتوقف لقضاء الليل . وقبل توقف القافلة ، يرسلون ائى الامام لاجل الاستكشاف افرادا من حرسها المرافق والخدم الذين ينصبون الخيام .

كان الوقت اثناء الوقفة ينقضى بما يكفى من المرح فى تبادل الزيارات واحتساء الشاي (كانت معنا سماورات روسية) وفى الاحاديث التى غالبا ما كانت تستطيل الى ساعة متأخرة من الليل . وقد اجتزنا الطريق كله بهدوء وانسراح وبشاشة ، ولم يكن ثمة سئء ، على ما يبدو ، يتذر بويلات الوباء الذى كان ينتظرنا فى مكة . . .

ركوب الجمال لا يطاق البتة . يهتز الراكب واى اهتزاز . ولدى كل خطوة من الجمل يتأرجح الراكب تارة الى جانب وطورا الى آخر ولذا يصاب كثيرون فى الايام الاولى بمرض دوخان البحر . وهذا الركوب ازعجنى لفترة من الزمن الى حد انى طلبت من سواق الجمل ، وهو عربى سورى ، ان يتنازل لى عن حصانه لمدة يوم واحد . وافق وان لم يكن ببالح من طيبة خاطر ، وحل محلى فى الشقذاف ، واخذ يراقبنى منه بين الفينة والفينة طالبا ان امضى بمزيد من الهدوء والبطء ، رغم انى لم اكن افكر البتة بحث حصان لا اعرفه . . .

ان العرب يحبون ويقدرّون احصنتهم الى اقصى حد . ولا يمكن ان نجد عند اى شعب آخر مثل هذا التعلق بهذه الحيوانات الضرورية فائق الضرورة

لاجل القبيلة ، المترحلة على الاغلب . وهذا التعلق ليس غريبا لا على الحكام ولا على الشعب البسيط ، ولا على النساء ولا على الاولاد . وكثيرون من الشعراء العرب تغنوا بالحصان . وهناك ادلة كثيرة على حب العرب وتعلقهم برفاقهم في الفرع ، في المجد والتعاسة - الاحصنة . . . [٠ . ٠]

في اليوم الحادى عشر مساء اقتربت قافلتنا من مكة وتوقفت في محلة شهادة ؛ وسرعان ما جاء دليل المسلمين الروس محمد على سروجى مع احد معاونيه . والادلة هم قادة الحجاج في زمن اداء شعائر الحج وفى زمن زيارة الاماكن المقدسة في المدينة وضواحيها . محمد على سروجى عربى اصيل من مواليد مكة وسكانها الدائمين . آنذاك كان عمره اكثر من ٦٠ سنة . وانا لا اعرف ما اذا كان لا يزال الآن قيد الحياة . كان سروجى يتكلم بالتركية بطلاقة ، ولكن اللغة الروسية ايضا لم تكن غريبة عليه . فقد تعلم التكلم بالروسية في سجن طشقند حين زجوا به فيه بسبب عدم وجود الوثائق اللازمة اثناء تجوئه في ربوع آسيا الوسطى . وفى السجن امضى سنتين كاملتين الى ان انتهت المراسلات الدواوينية بشأنه ؛ وهذا واقع يدل على غلاظة وقساوة الاوضاع البيروقراطية .

والادلة يعينهم شريف مكة ، وهذا اللقب ينتقل بالوراثة من الاب الى الابن . . [٠ . ٠]

[٠ . ٠] حين وصلنا الى عرفات ، كان الوادى مغطى كليا بالخيام اذ تجمع هنا حوالى نصف مليون من الحجاج من مختلف القوميات : من العرب المحليين ، والبدو ، والافارقة من مصر والجزائر والمغرب ، والهنود ، وسكان جزيرتى سومطرة وجاوه ، وسكان بخارى ، والفرس الشيعيين ، وسكان بوسنيا ، ثم نحو الفين من المسلمين الروس ، وعدد اقل من الافغان ، واخيرا نحو ١٠ صينيين . وللمناسبة اقول ان جميع القوميات تساوت هنا باللباس العام الذى يرتديه الحجاج - ثوب الاحرام .

ان الحادثة التالية قد تعطى فكرة عن كبر المخيم . راح احد المسلمين الروس يتنزه في المخيم فاضاع مكان خيمته . وحين كان يسأل عن كيف يجد جماعته ، كانوا يسألونه من اى بلد جاء . وهذا لأنه بوسع العرب ، اذا عرف وطن السائل ، ان يخمن القافلة التى وصل معها والمكان الذى توقفت فيه . ولكن هذا الساذج لم يخطر فى باله ان يجيب عن جميع الاسئلة انه «قازانلى اى قازانى» ، من قازان ، وكان يجيب انه «بوغولمى» ، دون ان يخطر فى باله ان عدد قليلا جدا من الناس ، لا فى الجزيرة العربية وحسب ، بل ايضا فى روسيا اغلب الظن ، سمعوا بوجود بلدة بوغولما الصغيرة فى

محافظة سامارا . . ولذا لم يستطع ان يتلقى جوابا من احد على اسئلته ، وامضى اكثر من نصف اليوم فى البحث ؛ ونحو المساء فقط وصل بالصدفة الى خيام مواطنيه .

طوال ليلة الحادى عشر الى الثانى عشر من حزيران (يونيو) صدحت الموسيقى فى مخيم الحجاج ، وشعت الالاعاب النارية والصواريخ ودوت طلقات المدافع بين الفينة والفينة . كانت هناك ثلاثة مدافع . واحد فى قافلتنا ، والثانى فى القافلة المصرية ، والثالث فى القافلة المكية .

اليوم الثانى ، يوم عرفات ، بدأ بالقاء موعظة دامت حتى الساعة الرابعة تقريبا من بعد الظهر . وقد القى الموعظة امام معين خصيصا ، وصعد الى الجبل على جمل ابيض وتوقف على بعد بضعة ساجينات من العمود الحجرى المنصوب على الجبل . لم اعرف مضمون الموعظة بسبب الضجة المحتملة فى مثل هذا الحشد الجمّ من الناس ، وبسبب بعد الامام . [. . .]

عند الظهر تكشفت بين الحجاج اصابات مرض . كان المرضى الاوائل من عداد اليمنيين ؛ وبعد بضع ساعات ، سرت فى المخيم بسرعة البرق اشاعة عن حالات وفاة . تكدرّ الجميع ، ولكن خضوع المسلمين لمشيشة الله كان له الغلبة . فلم يخالف النظام العادى للاحتفال بالعيد العظيم والنادر الى اقصى حد بالنسبة للاغلبية الساحقة . وعدا ذلك ، لقي الجميع العزاء من الايمان فى ان من امضى الليل فى عرفات قد لقي الغفران عن جميع الخطايا التى اقترفها قبل ذاك .

قبل غياب الشمس بدأ جميع الحجاج ، باستثناء النسيعيين ، يتجمعون للرحيل ؛ وحين دوت طلقة المدفع اطلق جميع الحجاج ، وعددهم نصف مليون شخص ، هتافا مدويا بالتشهد ، وانطلقوا بلا نظام فى طريق مكة الى وادى منى .

كان الجمع فى منتهى التنوع . مضى البعض سيرا على الاقدام ، ومضى بعض آخر على ظهور الحمير او على ظهور الجمال ، ومضى بعض ثالث فى شقائف بسيطة ، وبعض رابع فى تختروانات مزينة بسخاء وغنى ؛ وبعض خامس على احصنة بديعة وحتى فى عربات مطلية بالذهب .

وعلى بعد قرابة عشرة فرسات عن عرفات ، توقف الجميع لبضع ساعات فى وادى المزدلفة حيث تلاقى آدم مع حواء ، كما تقول الاسطورة ، بعد طردهما من الجنة ، وحيث قضيا الليلة الاولى . يقع الوادى بين الجبال . وهنا توجد بلدة صغيرة ، ويوجد مسجد محاط بحائط . بعد اداء صلاة المساء وصلاة الفجر ، واصلنا السير عند الفجر علما بان كلا من الحجاج

اختار لنفسه عددا معينا من الاحجار الصغيرة . وعلى بعد بضعة فرسعات من المزدلفة تقع بلدة منى الصغيرة جدا فى واد بالاسم نفسه . هذا الوادى يحفل بالذكرىات ؛ والمؤرخون المسلمون يذكرونه غير مرة . هنا ، كما يقال ، كان قبر آدم ، وهنا قدم قايين وهابيل الاضاحى ، وهنا ولدت هاجر ابنا اسماعيل فى احد الكهوف ، وهنا اراد ابراهيم ان يضحي بابنه ، ولكن الشيطان المتجسد بصورة شيخ مسن حال دون ذلك ، ولذا اخذ البطيرك ابراهيم يرجمه بالحجارة . وهنا اخيرا اغرى الشيطان نفسه اسماعيل على الانتحار ، وقطع الطريق ثلاث مرات امام ابراهيم واسماعيل حين عادا من عرفات الى مكة بعد اداء فريضة الحج ، الامر الذى كان لا بد من ان يجازى عليه ؛ فان النبيين - الاب والابن - اخذا يرجمانه بالحجارة . ثم ، كما تقول الاسطورة ، راح اسماعيل طوعا واختيارا الى المكان الذى كان يجب ان يضحي به فيه ولكن الشيطان اغراه هنا ثلاث مرات محاولا ان يصرفه عن اطاعة والده وعن عزمه على التضحية بنفسه . ومكان كل من لقاءات اسماعيل الثلاثة هذه مع الشيطان مُعَلَّمٌ بعمود حجرى يرميه الحجاج (فى غضون الايام الثلاثة من الاقامة فى منى) بالاحجار المجلوبة من المزدلفة تذكيرا بان اسماعيل رد على اغراء الشيطان برميهِ بالاحجار * .

فى وادى منى توقفت قافلة الحجاج بأسرها لمدة ثلاثة ايام ، ما عدا الشيعيين الذين بقوا فى عرفات ، وكانت تلك اكبر وقفة . هبت «السموم» وارتفعت الحرارة من ٢٧ درجة بمقياس ريومور الى ٣٥ درجة فى الظل بسرعة بالغة .

الوادى - والاصح القول - الفج ضيق جدا ، ولذا تلامست خيام الحجاج المنصوبة وتماسكت تقريبا احداها بالآخرى . والصخور العارية التى تطوق الوادى والتى تسخنها الشمس حولته حقا وفعلا الى قرن هائل مشددة القيظ الذى لا يطاق وكثمة الهواء الخائقة فوق ما هما عليه من شدة . وازداد عدد المرضى وازداد عدد الموتى .

وكان اليوم التالى يوم تقديم الاضاحى * * .
صحيح ان تقديم الاضاحى هو بمثابة العمل الاخير فى جميع اعياد الحج ،

* يضرب الحجاج الشيطان كما يلى . يضع الحاج حجرا صغيرا على ظهر ابهام اليد اليسرى وينقفه باصابع اليد اليمنى .

* * يضحي الحجاج بشتى الحيوانات ولكن على الاغلب بالغنم . علما بانه يجب ان يكون الحيوان خاليا من اية نواقص بدنية ، سليما تماما .

وصحيح انه كان ينبغي على القافلة ان تعود الى مكة فى اليوم الثالث ، عند غياب الشمس ، ولكن هذه المرة اجيزت مخالفة النظام العادى بسبب تزايد عدد الوفيات اكثر فاكثر ، ولذا عدنا الى مكة بعد يوم من الموعد ، وذلك فى ١٥ حزيران (يونيو) .

لا بد من الانشادة الى ان القبط الذى لا يطاق فى وادى منى كانت له جوانب طيبة ايضا . فان التجمع الهائل من الناس والحيوانات فى واد عميق ضيق وكثرة النفائات بعد الذبح كان لا بد لهما ان يتسببا ، فى اوضاع اخرى ، بنتانة رهيبية ، الامر الذى لم يحدث هنا ؛ فان شمس الجزيرة العربية قد ادت واجبات الوقاية الصحية بشكل ممتاز ؛ اذ ان جميع النفائات قد جفت آنيا وفقدت القدرة على نشر النتانة والروائح الكريهة فى الهواء . . . من مجموعة المسلمين الروس الذين جاؤوا مع قافلة دمشق ، وعددهم ٤٢ ، وصل اربعة الى مكة مرضى ، ومات ثلاثة منهم فى اليوم نفسه متضورين فى آلام رهيبية من التشنجات . ثم اخذت تتوارد معلومات عن الجديد والجديد من الاصابات والوفيات بين الحجاج من المسلمين الروس .

علاوة على الظروف المناخية ، يشكل خطرا كبيرا على القادمين الى مكة لحم الاغنام المحلية الذى هو لذيذ جدا ، والعق يقال ، ولكنه يشير اختلالا شديدا فى المعدة . ومرد ذلك ، كما يقولون ، الى ان الاغنام تاكل ما يسمى العشب المكى (السنا المكى) اى الورق الاسكندري . هذه النبتة ، كما هو معلوم ، تملك خاصية مسهلة . وللحيلولة دون التأثير المضر للحم المحلى فى الجسم ينصحون بتقطيعه قطعاً صغيرة وقلية او شوية ، قبل طبخه ، ثم باستعماله فى الطعام . وان الحساء من هذا اللحم والمأكلى الاخرى منه لم تمارس بالفعل تأثيرا ضارا فى المعدة فى حال تناولها باعتدال .

تجلى المرض بالضعف العام ، والسعال ، والقيء ، والتشنج . وكان الموت يحل بعد ساعتين او ثلاث . ولى كثرة من المبررات للقول ان هذا المرض هو الكوليرا الاسيوية الحقيقية * .

اخذ القبط يشتد يوما بعد يوم ؛ كذلك ازداد عدد الوفيات ، ولذا اسرع الجميع الى مغادرة المدينة بخير وسلامة . [. . .]

بعد العودة من منى الى مكة اشترينا فى اليوم التالى بعض الاشياء ثم اغتسلنا بعد الظهر بماء زمزم ، وقمنا بطواف الوداع ، وقبّلنا للمرة الاخيرة الحجر الاسود ، وعتبة بيت الله ، وكسوته ، وادينا الصلاة ، وخرجنا من المسجد ناظرين الى بيت الله حتى توارى عن انظارنا .

* الكوليرا فى الحجاز ظاهرة عادية تحل سنويا .

عند غياب الشمس انطلقت مع واحد من رفاقنا وبرفقة ثلاثة من العرب الى جدة لكي نركب الباخرة هناك ونسافر الى وطننا روسيا . رحنا راكبا على بغل ؛ وبما اننا قطعنا المسافة كلها بين المدينتين (٧٠ فرستا) في الليل ، فاني لم ار شيئا عدا المسافرين في الاتجاه المعاكس ، المنطلقين مجموعات على الحمير بضجة وضوضاء بين الفينة والفينة .

في الصباح الباكر وصلنا الى جدة . تقع مدينة جدة على ساحل البحر الاحمر ، وهي مرفأ لمدينة مكة ، كما انها اكبر مركز تجارى في منطقة الحجاز كلها . والنشاط في المدينة كبير نسبيا . وهنا توجد قنصليات الدول الاوروبية ، بما فيها القنصلية الروسية . شغل السكان الرئيسي صيد المرجان وعلى الاغلب المرجان الاسود .

وقرب المدينة يدلون على قبر جدة جميع الكائنات البشرية ، حواء ؛ طول القبر زهاء ٦٠ ارشينا . في وسطه ينتصب مسجد يؤدي فيه الزوار الصلاة . وفي المقبرة نفسها ، دفن ، في عداد من دفنوا ، القنصل الروسي الاول في جدة ، المستشار الحكومي الفيلسوف ابراهيموف (تتري من تركستان) . وقد توفي بصورة مأساوية في الطريق بين جدة ومكة من الكوليرا في السنة الاولى بالذات من تعيينه ، سنة ١٨٩٢ . ويقال ان المرحوم كان قنصلا متحمسا وهاما يحرص على مصالح مواطنيه الحجاج ، المسلمين الروس . كان القنصل الروسي الكسندر دمتريفيتش ليفيتسكي لطيفا الى حد انه عرض بسرور النزول في شقته ، رغم اننا جئنا من محلة تصف فيها مرض لم تكن خواصه معينة بعد بدقة ، وسموه بالكوليرا في جدة نظرا لعدد الوفيات الهائل .

اغتنمنا ضيافة القنصل الروسي ، واقمنا هنا ثلاثة ايام بانتظار رفاقنا الذين بقوا في مكة وبانتظار اقلاع اولى البواخر بالحجاج . وبين اولى البواخر التي اقلعت ، كانت الباخرة «عبد القدير» ؛ وقد ركبنا فيها مع الركاب الآخرين واغلبهم من الترك والمسلمين الروس واهل البوسنيا . وفيها سافر ايضا الصينيون العائدون من مكة . وقد جاؤوا الى مكة عبر الهند ؛ اما الآن فقد اختاروا طريقا آخر لكي يشاهدوا القسطنطينية ؛ ولكن هذا الفضول كلفهم غالبا بسبب الحجر الصحي . اقلعنا من جدة في ٢١ حزيران (يونيو) وتوقفنا قرب جبال سيناء على بعد ١٢ ساعة في الطريق من مدينة السويس وبداية قناة السويس .

وقد تبين ان اختيار الباخرة «عبد القدير» لم يكن موفقا ؛ فقد صعد الى متنها زهاء ألفي راكب اي ما يوازي ضعف ما يصح لها من حيث حجمها .

ناهيك بأنهم قبلوهم على متنها دون أى تمييز ، سواء منهم الاصحاء ام المرضى الذين رفضت البواخر الاخرى قبولهم . وسرعان ما تكشفت عواقب ذلك ؛ فقد كان الضيق شديدا الى حد ان ركاب الدرجة الثالثة كانوا ممددين حقا وفعلا مثل السمك فى برميل ، بل ان كثيرين منهم حتى انزلوهم فى العنبر الذى نعتة الركاب بجهنم نظرا للقيظ. وكتمة الهواء اللذين لا يطاقان فيه . وبما انهم قبلوا على الباخرة ركابا مرضى ، فسرعان ما ظهرت الوفيات ؛ واثناء السفر من جدة الى سيناء رموا فى البحر ٢٥ جثة للركاب الموتى . وقرب سيناء وجدنا اربع بوادر موقوفة بسبب الحجر الصحى . وكانوا قد انزلوا ركابها الى الساحل ووزعوهم فى الخيام بحيث ان ركاب كل باخرة شكلوا جماعة منفردة ، معزولة تماما عن الجماعات الاخرى ، علما بان حراسا مسلحين كانوا يحافظون على هذه العزلة . اما نحن ، فقد بقينا طوال وقت الحجر الصحى على الباخرة ، ولم ننسر نحن شخصا بمنفصات هذا الحجر الصحى . [. . .]

كان للمحجر الصحى مستشفى ولكن المرضى راحوا اليه باقى المضض والانزعاج لأن الاطباء والخدم فيه عرب لا يفهمون لغات المرضى . واثناء الحجر انصحى كان اليهود يستجلبون من مصر المأكولات ويبيعونها باسعار رابحة جدا بالنسبة لهم : سعر رطل اللحم ٤٠ كوبيكا ، سعر الدجاجة روبل و٢٠ كوبيكا واغلى ، بينما سعر رطل اللحم فى السويس ، على بعد ١٢ ساعة فى الطريق ١٠ كوبيكات فقط ، وبينما شتى اصناف الدواجن - الدجاج ، الارانب ، الحمام - كانت تزدحم بها حقا وفعلا الاسواق فى الاسكندرية والقاهرة . إلا ان الطعام كان مؤمنا للمعتمدين ، والحق يقال ، على حساب الحكومة التركية .

اثر باخرتنا «عبد القدير» اخذت تتوافد بوادر اخرى وتتوقف كذلك للتقيد بالحجر الصحى . نحو اليوم الخامس عشر من التوقف قرب جبال سيناء ، تجمعت ٢٥ باخرة . وفى هذه الاثناء ، سمحوا للبواخر التى وصلت قبل «عبد القدير» بالسفر ثم بدأت تقلع شيئا فشيئا البواخر التى وصلت بعدها ، ولكن اعتبروا انها خضعت للحجر الصحى . ومحل البواخر التى اقلعت ، حلت بوادر جديدة ، ولذا وصلت اثناء توقفنا قرب جبال سيناء قرابة اربعين باخرة حاملة الحجاج العائدين من مكة .

وبالنسبة لنا نحن ركاب «عبد القدير» دام الحجر الصحى ٣٣ يوما ؛ وفى ٢٥ تموز (يوليو) فقط اُعلن ان بوسع الباخرة ان تستأنف سفرها . تقلوا الركاب من الساحل بالزوارق الى الباخرة . ولكن نقلوا معهم زهاء ٦٠

مريضاً بقوا من البواخر الأخرى . أكان هذا سوء استعمال للوظائف أم مجرد نقص في القيام بها ؟ على كل حال كان من الغريب أن يبقونا في الحجر الصحي ٣٣ يوماً وأن ينتهي هذا الحجر الصحي بضم مرضى من باخر أخرى إلينا من جديد . وبالطبع ، ما لبثت النتائج أن ظهرت ؛ فبعد يوم ، كانت على «عبد القدير» خمس جثث . ١

في ٢٦ تموز (يوليو) مساءً ، اقلعت «عبد القدير» ، وفي صباح اليوم التالي اقتربت من مدخل قناة السويس . وهنا صعد إلى الباخرة أعضاء اللجنة الصحية الدولية ، وفحصوا المرضى وتحققوا من عدد الركاب ، ثم دخلت الباخرة قناة السويس التي هي عبارة عن شريط مائي ضيق بين ضفتين رمليتين منخفضتين . والقناة ضيقة إلى حد أنه لا يمكن لباخرتين أن تتلاقيا ، بل يجب أن تنتظر أحدهما الأخرى في امكنة معينة أوسع .

مضينا في القناة يوماً بكامله بحراسة باخرة صحية صغيرة وحرس مسلح من على ضفتي القناة . واثناء عبور القناة ، تلاقينا مع باخرة حربية فرنسية وباطرة حربية أخرى ، انجليزية . وكان على متن الباخرة الأخيرة طلاب عسكرية في رحلة تدريبية .

في ٢٨ تموز (يوليو) ، نقلوا جثث الركاب الموتى إلى الباخرة الصحية لأجل دفنها ، وذلك اثناء المرور بمحاذاة الاسماعيلية . وفي مساء اليوم ذاته تجاوزنا بور سعيد ودخلنا البحر الأبيض المتوسط ، الامر الذي تجلّى فوراً سواء في تغير الهواء أم في منظر نبات السواحل الذي لم نره قبل ذاك ولو مرة واحدة طوال سفرنا على الباخرة «عبد القدير» .

انعطفنا إلى الشرق وخلفنا إلى اليمين مدينة يافا ومدينة صيدا ؛ وفي ٣٠ تموز (يوليو) مساءً وصلنا إلى بيروت . في اليوم التالي جاء إلى الباخرة ترجمان من القنصلية العامة الروسية في بيروت وأعلمنا أنه أعد لنا على الساحل مبنى نظيف يجب قضاء مدة الحجر الصحي فيه . امضينا ذلك اليوم كله على الباخرة . وفي الصباح التالي (في أول آب - أغسطس) نقلونا إلى مخيم المحجر الصحي .

وفي بيروت كيفوا للحجر الصحي ثكنات قديمة مرممة تشغل مساحة كبيرة جداً ، ويحيط بها من ثلاثة جوانب سور حجري ، ومن الجانب الرابع البحر . وضمن هذه الرقعة ، توجد بضعة انشاءات حجرية . في واحد منها مكيف بهذا القدر أو ذاك للسكن ، كان يعيش الدكتور العامل في المحجر الصحي . وهنا أيضاً خصصوا غرفة لنا . وكل مساحة المخيم مقسمة في داخله

بحواجز من الشعريات الى ثلاثة اقسام لكي لا يتصل ويتعاشر ركاب باخرة مع ركاب البواخر الاخرى .

والمحجر الصحي مزود بوفرة من الماء النقي الممتاز ؛ وفي داخله تنتصب الاشجار . ومن حيث الظروف الطبيعية ، يمكن على العموم نعت المحجر الصحي في بيروت بانه مرضى ، ولكن الترتيب والنظام كانا في منتهى القباحة . فقد انزلوا ركاب الباخرة «عبد القدير» وعددهم اكثر من ١٣٠٠ شخص ، في احد اقسام المحجر الصحي ، ولم يكن من الممكن بالطبع ان تتسع لهم جميعا الانشاءات الحجرية المتواجدة في هذا القسم ، ناهيك بان عدد الخيام كان قليلا ، ولذا تاتي لعدد كبير جدا من الركاب ان يتحملوا الحجر الصحي في الهواء الطلق .

كان الطبيب واحدا لكل هذا الجمع من سكان المحجر الصحي وعددهم الف وخمسمئة تقريبا ؛ وكان يدون معاونين وبدون ممرضين ، ناهيك بانه لم يكن يفهم اى لغة من لغات الشعوب التي كان ابناؤها من عداد ركاب «عبد القدير» . كذلك الخدم الصحيون كانوا لا يعرفون اية لغة عدا اللغة العربية . وبوسع القارىء ان يتصور الى اى حد مؤسف كان وضع اولئك الذين كان من سوء حظهم ان ينزلوا في مستشفى لا يمكنهم فيه حتى ان يطلبوا الماء من الخدم الذين لا يفهمون لغاتهم .

كان المستشفى على مقربة من الانشاءات السكنية . كانوا يغسلون جثث الموتى كيفما اتفق قرب الابواب بالذات تحت نوافذ الانشاءات السكنية . وكانت المراحيض ، غير المنظفة ابدا على ما يبدو تنشر رائحة كريهة رهيبة . وكان التطهير يجرى بصورة سيئة للغاية . وزيادة فى الطين بلة ، لم يكن المستشفى مجهزا حتى بالاسرة وكان المرضى ينامون مباشرة على الارضية .

بفضل القنصل الروسى المرحوم ك . د . د . بياتكوفيتش وتدخله الحازم ، بعد ان ابلغناه عن اوضاع المحجر الصحي ، اخذت هذه الاوضاع تتغير نحو الاحسن . فقد زودوا المحجر الصحي بعدد كاف من الخيام ، واتخذوا التدابير لحفظ النظافة ولإزالة النتانة السائدة . ونقلوا المستشفى الى عمارة واقعة بعيدا عن الانشاءات السكنية والخيام . وظهرت الاسرة ، ولذا لم يعد المرضى ينامون على الارضية . ومن جراء ذلك قل عدد الوفيات في المستشفى . فى الآونة الاولى بلغت الوفيات ١٠٠٪ ، ولذا اخذ سكان المحجر الصحي يسمون المستشفى ، لا «كاستاخانة» بل «كاسابخانة» * ؛ وكل

* «كاستاخانة» تعنى مستشفى . «كاسابخانة» تعنى مسلخ .

من كان يدخله كانوا يعتبرونه على كل حال ميتا . وعندما اخذ بعض المرضى يشفون بعد تحسين الخدمة الصحية في المحجر الصحي ، تعجب الجميع من ذلك بوصفه ظاهرة غير عادية .

كذلك وقعت حوادث طريفة . كان معنا اثنان من تتر القرم . مرض احدهما فوضعه في المستشفى . وبما ان رفيقه كان على يقين بانه لا يخرج من المستشفى غير مخرج واحد هو الطريق الى القبر ، وبما انه افترض ان رفيقه لم يعد بحاجة الى امواله ، فقد افام ضربا من بيع بالمزاد العلني وباع كل امتعته ؛ ولكن المريض ، لما فيه دهشة رفيقه ، شفى بعد ١٣ يوما وخرج من المستشفى ووجد ان كل امتعته انتقلت الى اناس آخرين ، وبقي بدون اي لباس تقريبا .

ويوما بعد يوم اخذ يتزايد عدد الذين يشفون ، ويقل عدد الذين يمرضون ، واخيرا اعتبروا ان الحالة الصحية العامة لركاب «عبد القدير» مرضية تماما ، فاطلقوا سراحنا من المحجر الصحي . واجمالا بقينا في المحجر الصحي في بيروت ٤٣ يوما . وعلى امتداد كل هذه الحقبة من الزمن كان المعدمون يحصلون على الطعام مجانا ، وان يكن شحيحا جدا : في اليوم رغيفان صغيران من عجينة القمح وقطعة متناهية الصغر من العجينة المالحنة جدا .

اقلعت الباخرة السيئة انظر «عبد القدير» من بيروت في ١٥ ايلول (سبتمبر) ، وكان لا بد لها ان تخضع في اورله ، بجوار ازميز ، لمحجر صحي آخر مدته يومان . وهنا ازلت قسما من ركايبها ، قرابة خمسمئة شخص ، ثم تابعت سفرها . وفي الدردنيل جرى فحص الركاب ، الامر الذي تسبب بوقفة غير طويلة . واخيرا ، بعد كثرة من المحن ، وصلنا في ٢٠ ايلول الى القسطنطينية . وهنا استقبلنا على متن الباخرة موظف السفارة ، السيد ياكوفليف ، ومعه نزلنا الى الساحل .

زرنا في القسطنطينية اقاربنا المقيمين هنا من زمان بعيد واقمنا عندهم اسبوعا . وفي ٢٧ ايلول اقلعنا الى اوديسا وفي اول تشرين الاول (اكتوبر) نزلنا في ارض الوطن ؛ وبعد اسبوع كنت في اوبا ، في بيتي ، بين اهل واقاربي واصدقائي ومعارفي .

مكتبة لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكااديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي .
48. B/3355 النص باللغة الروسية اصدروته في سنة ١٩١٦ في موسكو الجمعية الامبراطورية لهواة العلوم الطبيعية والالتروبولوجيا والاثنوغرافيا .

الحاج عشايف

مكة

مدينة المسلمين المقدسة

(حديث حاج)

(مقتطفات)

الفصل الاول

مدينة جدة

فى سنة ١٨٩٥ خدمت فى مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، فى منطقة من الجزيرة العربية ، اسمها الحجاز . جدة مدينة كبيرة نسبيا ، والنقطة التجارية الرئيسية فى الحجاز . فى مكنتها غالبا ما ترسو البواخر والسفن التى تقيم الاتصالات بين اوربا وبين افريقيا الشرقية وايران الجنوبية والهند والشرق الاقصى . عبر جدة تتحرك كذلك الى مكة جماهير الحجاج المسلمين القادمين من مختلف البلدان على السفن والبواخر . وفى جدة ينزلون ويسافرون برا الى مكة التى يفصلها عن جدة ما لا يزيد عن سبعين فرستا . ولحماية مصالح الحجاج توجد فى جدة قنصليات من الدول الاوروبية التى عندها رعايا مسلمون ؛ وفى عداد القنصليات القنصلية الروسية التى خدمت فيها [. . .]

على الصعيد الادارى والعسكرى يدير جدة معاون محافظ مكة ، القائمقام . وفى المدينة ترابط حامية تركية من ٥٠٠ فرد وتوجد بضعة مدافع . ولسكن الجنود توجد ثكنتان ، احدهما تقع على ساحل البحر ، قرب المكان الذى ينزل فيه الحجاج من البواخر ، والاخرى قرب قبر حواء .

لا وجود فى المدينة لطرائف خاصة ، ما عدا قبر حواء الواقع خارج المدينة ، وسط مقبرة كبيرة . لمدفن ام البشر اجمعين نحو ٦٠ ارشينا بالطول ؛ فى مقدمة القبر (اى فى موضع الرأس فى القبر) يوجد ضرب من صفيحة من المرمر عليها كتابات عربية ؛ وتنتصب نخلة . فى الطرف الاخر من القبر تنمو شجيرات ما . فوق وسط المدفن يوجد بناءان تحت سقف واحد ، احدهما يعتبرونه مسجدا ، وفى الثانى يوجد مدفن يتوافد اليه الحجاج ويلثمونه . قرب المدخل ، يوجد ، فى الخارج ، خزان محفور فى

صخرة كبيرة يشبه الجرن الذى تشرب منه الخيول . وفى الخزان يصبون الماء ويعتبرونه زهزم حواء . وهنا يعيش عدد عديد من الشيوخ ، وعدد اكبر من النساء والاولاد الفقراء ؛ وهؤلاء يجمعون الحسنات من الحجاج الذين يتوافدون لاداء الشعائر الدينية .

مدفن حواء ، كما سبق ان قلنا ، تحيط به مقبرة دفن فيها ، مثلا ، القنصل الروسى الاول فى جدّة المستشار الحكومى الفعلى شاهيمردان ميرياسوفيتش ابراهيموف الذى توفى من الكوليرا فى العام الاول بالذات من تعيينه (عام ١٨٩٢) . وعلى مدفنه حجر عليه كتابة بالروسية والعربية نصبه القنصل الذى خلفه ، السيد ليفيتسكى .

وبما ان المرحوم ابراهيموف كان معروفا جدا فى تركستان وعموما فى آسيا الوسطى حيث خدم زمنا طويلا ، فانى ارى انه ليس من النافل ان اسوق معلومات جمعتها من بعض الافراد عن وفاته ، خصوصا وانها تصبح عموما على وضع الحجاج فى زمن الاوبئة من حيث عجزهم التام عن تدبير سبيل للاتصال بين جدّة ومكة ، ومن حيث نقص الاهتمام والعناية بهم من جانب العرب المحليين والحكومة التركية .

وبما ان ابراهيموف كان يعيش على مقربة من مكة ، فقد كان ملزما ، بوصفه مسلما ، ان يقوم فى السنة الاولى بالذات بالحج اليها ، اى برحلة دينية لاجل السجود للمقدسات الاسلامية . ولسوء حظه نشب فى ذلك العام وباء كوليرا شديد ، تاجج اواره بخاصة فى مكة فى «يوم عرفات» - اى فى ذلك اليوم الذى يمضى فيه الحجاج ، بموجب نظام اداء شعائر الحج ، الى وادى عرفات الواقع على بعد ٢٠ فرستا من مكة . وخاف المسكين ابراهيموف خوفا شديدا وتوجه رأسا من عرفات الى مكة بدون توقف . وهنا مرضت زوجة القنصل ، اما بالكوليرا واما من الارهاق اثناء التحرك السريع من عرفات . ترك ابراهيموف زوجته فى مكة ، ومضى الى جدّة مع فارسين (خادمين) ومع احد التركستانيين ومعهم مضى ايضا طبيب مصرى . وعند الرحيل كانوا جميعا بخير الصحة والعافية ، ومضوا ركوبا مع قافلة . فى المقهى الاول بالذات توقفوا للاستراحة . احتسوا القهوة والشاي واكلوا . وتابعوا السير ، وما كادوا يقطعون بضع مئات من الساجينات حتى اصيب ابراهيموف فجأة باختلال فى المعدة ، اذ اصابه اسهال دموى قوى . انزله الخادمان عن السرج ووضعوه ارضا . بدأ الطبيب يدلكه وعرض عليه تناول دواء ، ولكن المريض رفض قطعاً .

شعر ابراهيموف باقصى الضعف ، فامر بوضعه على تختروان اى على

مسند خاص مصنوع من عارضتين ممدتين على بغلين او على جملين . البون بين العارضتين يجعلونه بحبال منلما يفعلون فى اسرة السرتيين . وعلى التختروان يمكن الجلوس والتمدد اثناء السير بصورة مريحة نوعا ما . وضعوا المريض وتابعوا السفر . بعد بعض الوقت ، امر الطبيب احد الخادمين بمعاينة المريض وجس جسده . قال الخادم ان جسد المريض قد برد . اسرع الطبيب الى الامام وقال انه سينتظر فى المقهى التالى ولكن لن تقع عليه العين فيما بعد . فقد راح الى جدة تاركا المريض المحتضر فى يد القضاء والقدر . مات ابراهيموف قبل الوصول الى محطة حدة . نقلوا جثمانه الى جدة ، حيث دفنوه قرب مدفن حواء .

وعن سبب موت ابراهيموف تنتشر شائعة اخرى لن ارويها انا لانى لا املك اية مستندات .

ان المرحوم ابراهيموف كان يؤدى واجباته القنصلية ، كما يقولون ، بغيرة وحماسة ، وكان يصرف الامور بهمة وحزم ؛ ولذا يتذكره بالسوء حتى الآن شتى الادلة والوكلاء ، اى تركستانيونا الذين يأخذون فى جدّة من الحجاج السنج ، السريعى التصديق ، النقود لاجل صيانتها وحفظها اثناء سفر الحجاج الى مكة ؛ وكذلك على العموم جميع الاندال الذين لا يعيشون الا من نهب الحجاج واستثمارهم بكل الوسائل . وقد حاول ابراهيموف ، بوصفه قنصلا روسيا ، ان يحمى مواطنيه من هذا الجراد الذى ينقض عليهم فى الحجاز ، وكان على العموم يساعدهم بقدر الامكان . تجدر الاشارة الى ان السياسة الاسلامية فى الحجاز تبدو فى الظاهر بسيطة وساذجة جدا ، ولكنها فى الواقع معقدة وداهية جدا . اما قنصليتنا فى جدّة ، فهى مؤسسة حديثة جدا ، وضمانتها ضعيفة جدا ، الامر الذى يتضح ، مثلا ، من هجوم العرب على قناصل الدول المسيحية فى جدّة سنة ١٨٩٥ . وعلى القنصل الاوروبى ان يكون هنا محترسا خارق الاحتراس [. . .]

الفصل الثانى

من جدّة الى محطة حدة

[. . .] فى ٣٠ نيسان (ابريل) حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، انتظرنا قافلتنا ما وراء البوابة المكية فى جدّة ، قرب المقهى الاخير الواقع غير بعيد عن البوابة . رحت مع العائلة . وقد رافقنا الى المقهى : مدير

اعمال قنصلية امبراطورية روسيا في مدينة جدّة ، والسيد الفائق الطيبة
غ . ف . برانديت والسكرتير ف . ف . نيكيتنيكوف ، وكذلك كثيرون من
التركستانيين القاطنين في مدينة جدّة . قرب القافلة تقدم منى سواق
الجمال والجندي التركي رئيس الخفر [. . .]

وبما ان القافلة لم تكن بعد جاهزة للرحيل ، فقد رحنا الى المقهى . كنا
جميعا مرتدين بدلات اوروبية صيفية خفيفة ؛ كان السيد برانديت في سدارة
روسية بيضاء ، والسيد نيكيتنيكوف في قبعة من القش ، وانا في طربوش
تركي . البدلة الاوروبية هنا ليست على العموم بالامر النادر ، ولا تبهر
عيون السكان المحليين بالجدّة والغرابة ، ولكن عمرة الرأس ، الطربوش ،
هو العلامة المميزة المعترف بها عموما على التبعية التركية . صحيح اني كنت
في عداد الاجانب ، ولكن كانوا يعرفونني هنا كمؤمن ، من ابناء الذين نفسهم ؛
والاتراك لا يحترمون المسلمين الذين يرتدون على الرأس عمرة ما غير
الطربوش . وحين كنت في القسطنطينية وكنت اذهب الى القنصلية او الى
السفارة لابس القبعة ، رأني الاتراك الذين يتلاقون معي في الشارع واثاروا
غير مرة الى عدم لياقة عمرة رأسي ، الامر الذي اضطرت الى التقييد به
مع ذلك نزولا على رغبة سفيرنا السيد نليدوف الذي نفر من الطربوش .
وحيث وصلت الى الحجاز ، اضطرت تحاشيا لملامات الاتراك والعرب ، الى
لبس الطربوش ، رغم كل نفوري منه لاني كنت قد اعتدت على القبعة ، وهي
عمرة رأس انسب واسهل ، وبخاصة في الوقت الحار [. . .]

الفصل الثالث

محطة جدّة والوصول الى مدينة مكة

في صباح الاول من ايار (مايو) وصلت قافلتنا نحو الساعة السابعة
الى محطة جدّة ، حيث توقفت للاستراحة ليوم بكامله .
هنا استقبلنا كبير الادلة المكيين محمد علي سروجي مع تلامذته . وهنا
الاحظ. ان الادلة هم قادة الحجاج اثناء قيامهم بالحج ، وعن الادلة سأتحدث
بمزيد من التفصيل فيما بعد . - جلب لنا محمد علي من مكة الكثير من ماء
نبيع زمزم المقدس واعد غداء من بضعة مأكّل واهدي الاولاد بيضات مصبوغة
وشمتي الحلويات . وقد تبين انه كان يعرف ، قبل رحيل من طشقند ، عن

سفرى للخدمة فى جدّة ، ومن جدّه تلقى خبرا عن سفرى الى مكة ، فراح الى لقائى ، واستقبلنا هنا بكل مودة وترحاب . وفى الغداء روى الكثير من الاخبار [. . .] وقد اعرب ، فيما اعرب ، عن استيائه من شريف مكة وكذلك من القنصل الروسى السابق فى جدّة ، شاهيماردان ابراهيموف . ومحمد على عربى اصيل ، عمره اكثر من ٦٠ سنة ، ويعرف اللغة التركية ؛ وهو على العموم شيخ محترم جدا وكثير الكلام . منذ نحو عشرين سنة كان فى روسيا ؛ وهو الآن يعمل دليلا لجميع التتر والقرغيز من امبراطورية روسيا ، حاصلًا منهم على دخل عن القيادة فى اداء فرائض الحج اثناء زيارتهم لمكة . وهو يحظى بين التتر والقرغيز بكبير الاحترام ، ولا يعرف من يأتون هنا لاجل اداء فريضة الحج وحسب ، بل يعرف ايضا جميع التجار والاغنياء المعروفين من التتر ، وكذلك الايشانات والملاّات القاطنين فى المدن الروسية والسهوب القرغيزية . وعفو الخاطر دهشت لمعرفة الشاسعة هذه عن روسيا وتركستان . فانا ، المقيم فى تركستان ، لا اعرف الكثيرين من التتر المحليين ، بينما هو يعرف الجميع . ولكن كان من السهل تفسير ذلك ، فيما بعد ، لكون محمد على يملك مجلدات كبيرة بقوائم المسلمين الروس . وهو يتراسل مع كثيرين منهم احيانا يرسل مع الحجاج العائدين الى روسيا تلامذته لاجل جمع التبرعات .

تقع محطة حدّة فى وسط الطريق بين جدّة ومكة . وهى تتألف من بضع منشآت شاسعة مبنية من احجار غير منحوتة مشدودة بالاسمنت . الحوش مسيج بسياج من الحطب القشاش . وفى الحوش ، بمحاذاة السياج ، توجد كنزة من الاكواخ المصنوعة من المادة ذاتها . وفيها يتوقف عادة الحجاج متسترين من اشعة الشمس الحارقة . الى يسار الحوش الرئيسى يوجد حوش آخر مماثل تماما ولكنه اصغر . وفى عداد المنشآت الاخرى توجد منشأة من غرفة واحدة مع قاعة انتظار ومع حوش بقربها . وهى معدة لاجل الحجاج الاغنياء المسافرين مع عائلاتهم ، وهى تؤجر عادة لقاء مبلغ كبير من النقود ، وبخاصة اذا كان بين القادمين مع القافلة موظفون واغنياء اترك . وبما انه يتعين على القادمين الى الحج ان يمكثوا فى حدّة يوما بكامله فان هؤلاء لا يضمنون ، عادة ، بالنقود فى الصيف ، فى القبط الرهيب ، لاجل النزول فى هذه المنشأة ، فينقذون بذلك حياتهم وصحتهم . القبط فى هذه الصحراء العارية ، الخالية من الماء يكون احيانا رهيبا حقا وفعلًا مهددا الانسان غير المعتود بضربة شمس وعلى العموم باختلال واستضعاف الجسم . فى طريق العودة ، اخذ الموظفون الاترك الذين وصلوا بعدنا يطالبون

بالضجيج والصياح بهذه المنشأة المينة لانفسهم - مع انها خالية من
المفروشات ، وعارية الجدران ، وقلرة كفاية ؛ ولكن سرعان ما هدتوا حين
قالوا لهم ان موظفا قنصليا روسيا يشغلها . وحتى في الحجاز الموحش
يحظى الاسم الروسى بالمكانة والاحترام . . .

فى حدة يوجد مسجد يسمى بمسجد النبى . تقول الاسطورة ان محمد
كان هنا ، وانه من هنا انطلق الى المدينة المنورة . والمسجد عبارة عن
بناية حجرية كبيرة نسبيا مرفقة بحوش غير كبير ، ولكنه مهمل جدا . يبدو
ان احدا لا يصل فى هذا المسجد ، ولكن لم يخطر فى بالى ذلك فرحت اليه
لاصلى صلاة الظهر غير اننى وجدت هناك جنديا من الحرس العسكرى عنده ،
كما تبين ، شقة فى المسجد بالذات ، رغم ان لديه على مقربة مبنى خاصا
به مرفقا بمصطبة وحوش . بيت الصلاة يستخدمونه بصورة غريبة جدا . . .
تقع حدة فى واد جبلى شاسع تبدو فيه اكواخ العرب الحقيمة فى جوار
المحطة . وغير بعيد عن محطة حدة ، يوجد دغل كبير من اشجار النخيل
ووراءه يسيل نهر صغير ينبع من منابع جبلية . عرض النهر نحو ثلاثة
ارشينات فقط ، وعمقه زهاء نصف ارشين . مياهه تروى المحطة ، وحقل
البرسيم ، ومزارع من القرع حقيمة المنظر ، ومزرعة قطن . وهو من الانهر
القليلة فى الحجاز . ولكم طاب لى ان ارى فى هذا البلد القائط والصحراوى ،
الخارق الجفاف ، نهرا ، وان صغيرا ، نهرا حقيرا بالنسبة لى انا الذى
ترعرت بين السيول الزرقاء والزبداء لنهر تشيرتشيك الذى يحتوى
الذهب ، مع ضجته وهديره المستطاب على الاذن ، وجريانه وسط واد جميل
ذى نباتات ساطعة وخضراء وحين وقفت على ضفة النهر الحجازى ،
تذكرت عفو الخاطر مدينتى طشقند الغارقة فى اخضر بساتينها الزمردى ،
وقدرت كل اهمية وفرة مياهها التى يقدمها تشيرتشيك الذى لا ينضب
معينه ولكن خيل الينا اننا فقدنا طشقند الى الابد . . .

[. . .] وصلت قافلتنا الى مكة فى الثانى من ايار (مايو) عند طلوع
الفجر . وعند دخول المدينة توقفت فى ساحة كبيرة ؛ اما نحن ، فاننا لم
نتوقف بل رحنا الى شقتنا ؛ وقد قادونا اليها عبر المدينة كلها تقريبا .
كان الجو لا يزال معتما ، وفى عتمة الفجر لم استطع ان ارى شيئا بنحو جيد
توعا ما . كانوا يسوقون الجمال فى شوارع ضيقة ومتعرجة . كانت تصعد
تارة الى جبل وطورا تنزل . على جانبى الطريق كانت تنتصب جدران وبيوت .
فى بعض الاماكن اصطدمنا باناس نائمين فى الشوارع مباشرة . ولندن
اقتربا جمالنا كان الناس شبه النيام يقفزون بذعر وينهضون على اقدامهم

ويطلقون اللغظ والضجيج والصياح ، ولكن الحراس السائرين ، شاهري
البنادق على جانبي جمالتنا كانوا سرعان ما يقطعون بنحو ما حبل الضجيج
والصياح ، وكنا نواصل السير بهدوء حتى الكومة التالية من المشردين
الذين اختاروا الشارع منامة لهم [٠ . ٠] . واخيرا توقفت الجمال قرب بيت من
طابقين كان يعيش فيه احد معارفنا التتر ، المدعو عبد الرحمن سلطانوف
الذي انتقل من طشقند الى السكن فى مكة . استقبلنى قرب بوابة البيت .
وكان معه الدليل محمد على الذى استقبلنا فى حدة وسبقنا .

كل حاج يصل حديثا الى مكة ملزم قبل كل شيء باداء الطواف اى السير
سبع مرات حول الكعبة (بيت الله) وبين الصفا والمرو * ؛ وبعد ذلك يدخل
ثوب الاحرام . ورغم خارق الارهاق من السفر على «سفينة الصحراء» ، فى موكب لا
يشرف كثيرا العرب المشهورين بذكائهم وفطنتهم ، اضطررت الى الخضوع
للقواعد المقدسة لشعيرة الدخول ، واديتها فى عتمة الصباح باشراف الدليل
محمد على . دام طوافي طويلا جدا ، ولذا عدت الى شقتى نحو الساعة
السابعة صباحا . وجاءني حلاق وحلق شعر رأسي ، وبعد ذلك خلعت ثوب
الاحرام . كانت زوجتى واولادى لا يزالون نائمين . وكان سلطانوف وزجته
مشغولين باعداد الدستورخان اى بالماكل من شتى الحلويات ، الامر الذى
يعرفه جميع التركستانيين جيدا .

كان الوقت يناهز الثامنة حين اخذ يظهر الواحد تلو الآخر الادلة
المكيون ، وموزعو مياه بئر زمزم المقدسة ، وخدم بيت الله ، والتتسر
اصحاب التكيات ، (وهى ضرب من خانات) ، والبخاريون ، والسرتيون ،
والقرغيز ، وسائر الحجاج من آسيا الوسطى . ثم ارسل جميع الادلة الغداء
من بيوتهم . فهناك توجد العادة التالية : كل دليل يرحب باغنى حجاجه
بغداء وفير نسبيا يرسله الى الشقة التى يشغلها القادم . وفى مكة يتوزع
الحجاج بين الادلة حسب القبائل والقوميات . ولكنى ، بوصفى ممثلا عن
جميع قبائل المسلمين من رعايا روسيا ، تلقيت الماكل من جميع الادلة
الذين وزعوا فيما بينهم حجاجنا . ومقابل هذه الماكل كان ينبغى بالطبع
تقديم الهدايا فيما بعد . وفى هذا يتلخص بالضبط كل مغزى مجاملة ارسال

* الطواف . هند اداء شعيرة الدخول الى مكة ، يجب قبل كل شيء القيام
سبع مرات بالسير ، بالطواف ، حول الكعبة المسماة بيت الله ؛ وبعد ذلك يمضى
الحاج الى مكانى الصفا والمرو الواقعين فى جوار الكعبة ويقوم بينهما بالسير سبع
مرات مرددا طوال الوقت الصلوات المقررة ، باشراف الدليل ؛ واذا كان الحاج لا
يعرف الصلوات ، فانه يرددها اثر الدليل .

الاطعمة الى المسافرين القادم . ولا اثر البتة للضيافة في كل هذا ، بل مجرد امل في الحصول مقابل الطعام على ما يوازي سعر المأكّل منلين او ثلاثة امثال على الاقل . وصاحب البيت الذي نزلت فيه ، سلطانوف ، بوصفه رجلا محنكا وتاجرا ، كان يقيّم كل طعام بعناية ودقة ، مطبقا اسعار السوق المحلية ، وكان يحدد ثمن الغداء بمبلغ يتراوح بين مجيديتين وثلاث مجيديات . وبما ان العملة التركية ، المجيدية ، توازي بالعملة الروسية روبلا و٦٠ كوبيكا ، تعيّن على ان ادفع مبالغ لا يستهان بها مع اضافة الفائدة ، لقاء مجاملة الادلة وبشاشتهم وضيافتهم ، خصوصا وانهم كانوا يرسلون الى زهاء عشرة غداءات . ومنها كنت احتاج مع عائلتي الى غداء واحد فقط ، ولذا صرفت النافل كله على تضييف مواطني وغيرهم من الضيوف القادمين لزيارتي . وفي عداد الضيوف كان كبير الادلة في مدينة مكة ، واسمه محمد علي . وفجأة اخذ يتكلم معي بالروسية لما فيه دهشتي . وفد تبين انه اعتقل حين تجوّب في ربوع اقليم تركستان بدون جواز سفر واعضي اكثر من سنتين في سجن مدينة طشقند بانتظار نتيجة المراسلات بشأنه ؛ وفي السجن تعلم اللغة الروسية . فيا للقاءات الغريبة التي تحدث احيانا ! . كانت شقتي تقع في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة ، وكانت واجهتها تطل على ساحة كبيرة نسبيا . وبالمقابل ، في الجانب الآخر من الساحة ، كانت شقة والي مكة حسن حلمي باشا . ومن الجانب الايسر كانت تقع ثكنات الجنود الاتراك ، ومن الجانب الايمن ، بعد بضعة بيوت ، كانت تقع صيدلية حكومية بقربها روضة صغيرة كان الضباط الاتراك والافراد المدنيون يتنزّهون عادة فيها في الامسيات . كانت شقة الوالي تلاصق الجبل من جانبها الخلفي ، وكان الجبل يعلو ، على الاقل ، زهاء ٥٠ ساجنا فوق سطح هذا المبنى الثلاثي الطوابق . وعلى الجبل كانت تنتصب قلعة ، وبقربها سجن المدينة الذي كانت على مدخله مدافع . وبقرب بيت الوالي ، كانت تقوم ، من الجهة الشمالية ، عمارة ضخمة من طابقين (تكية) ، شبه مدمرة ، كانت تنزل فيها اغلبية الحجاج القادمين من مختلف انحاء آسيا الوسطى ؛ ومن الجهة اليمنى كانت تقوم مرابض عسكرية لاجل بغال الركوب التي يركبها هنا الخيالة الاتراك . والي ابعد كانت تنتصب عمارات عسكرية مختلفة ، ثم الى ابعد ايضا ، على سفوح الجبال ، كانت تبدو خيام بيضاء يعيش فيها الجنود الاتراك الذين يؤلفون حامية مكة . وبما اننا اقمنا على هذا النحو بين العساكر التركية وعلى مقربة من شقة الوالي ، فقد كنا مؤمنين الى هذا الحد او ذاك من حيث السلامة الشخصية ، الامر الذي لا

يشغل المرتبة الاخيرة فى مكة ؛ فهنا جمهرة من الناس الجياع جاءت عن
جهل بالوضع بدون اى وسائل للعيش ، ولذا ليس من النافل ابدا اتخاذ
تدابير الحيطة والاحتراس . وفى الساحة الواقعة مقابل شقتى ، كانت تتجمع
دائما قبيل المساء جموع من الحجاج العرب والهنود من عداد الذين لا مأوى
لهم . فى الليل كانوا ينامون فى الساحة المكشوفة متمدين على التربة
مباشرة ، دون اى فراش . وبما ان هذه الساحة هى فى مكة المكان الوحيد
الذى يمكن فيها استنشاق الهواء النقى نسبيا ، فقد كان كثيرون من الحجاج
ممن لا مأوى لهم يتوافدون اليها نهارا ايضا ؛ كانوا يسكنون الماء على انفسهم
دون ان يخلعوا ثياب الاحرام . وكان من المؤسف حقا النظر الى هؤلاء
المساكين ! كانوا يرتدون ملابس فقدت لونها بسبب الوسخ والعرق ،
وبالكاد تصل حتى الركاب . وكان كل ما يملكونه عبارة عن صرر صغيرة
جدا ، واباريق صغيرة من الصفيح للشاى ، ومظلات مكسرة . كانوا سودا
وصفرا بحكم الطبيعة ، قدرين بشكل لا يصدق ، جياعا ، منهوكى القوى
الى اقصى حد ؛ كانوا عبارة عن كائنات تشبه حقا الاسماك المدخنة [٠ . ٠] .
ومهما كان المرء يشفق عليهم ، كان لا بدّ له من ان يأخذ منهم جانب الحذر
والاحتراس ، لان بمقدور الجوع ان يدفع الانسان الى اقتراف اى فعل
وجرم [٠ . ٠]

الفصل الرابع

مدينة مكة

تقع مدينة مكة فى واد ، وتحيط بها الجبال العالية من جميع الجهات .
وهى مبنية على تربة رملية حجرية وتشغل مساحة قدرها ثلاثة فرسعات
مربعة تقريبا . بيوتها من طابقين الى خمسة طوابق ، وجميعها تقريبا من
احجار جبلية بصورة قطع غير صحيحة الاضلاع ، غير منحوتة ، ومصفوفة
ومرصوفة جدرانها بالاسمنت . السقوف وكذلك الارضيات فى الغرف هى
ايضا من الاسمنت . والبيوت جميعها تقريبا مكيفة لاجل التاجير ، وحديقة
جدا من حيث المنظر والترتيب ؛ والبيوت تشبه من حيث منظرها الخارجى
ناهيك عن منظر الغرف الداخلى وعن احوالها الصحية ، ضربا ممن قصور
قديمة كبيرة متروكة بدون تصليح ، وبدون اية عناية على العموم . وواضح
ان اصحابها ينظرون اليها كمصدر للدخل ؛ وبما ان تدفق الحجاج دورى

ودائم ، وبما ان دخل اصحاب البيوت مضمون بالتالى ، فهم لا يهتمون لا بمنظر البيوت الخارجى ولا بالاسباب الداخلية للراحة والرفاه [٠ . ٠] .
 التجار فى مكة هم على الاغلب من السوريين والفرس وسكان دمشق والمسلمين الهنود . والسوق يحفل بشتى بضائع المصانع والمعامل الأوروبية ؛ وهناك ايضا كثرة من الآنية النحاسية الهندية الصنع . والخردوات هى على الاغلب من انتاج المصانع الانجليزية ، عثينا بها الخرز والاساور والخواتم والحلق والمطرزات والاشربة والجوارب والقصب والآلى الاصطناعية والقناديل والسلطانيات والفناجين والكؤوس وغير ذلك من الآنية الزجاجية ، والآنية من البورسلين والخزف ، وكذلك الآنية المعدنية والمطلية بالميناء . وهناك وفرة من الدهائن والعطور والصابون وخلافه وكذلك من الاحذية من احدث موضحة ، فضلا عن الكثير من شتى الحلويات والمقبلات : مختلف المخللات ، والمربيات ، والسردين ، ومختلف السكاكر والحلويات ؛ ومختلف الاجهزة وآلات الخياطة وآلات صنع الملح ، وخلافها .
 وجميع هذه البضائع ينقلونها الى الحجاز ، بالطبع ، على السفن الأوروبية عبر مرفأ جدة . الشرف والمجد للانجليز على نشاطهم واهتمامهم ، والاهم ، على مهارتهم في تعويد الشعوب شبه البربرية على منتجاتهم ! ومن بين منتجات المصانع الروسية ، لا يقدر السكان المحليون غير الاقفال التى يجلبها احيانا بعض الحجاج ، ويضع العشرات فقط . وهذا كل ما يأتى الى هنا من روسيا . . .

ونظرا لطبيعة الارض الصحراوية المحيطة بمدينة مكة ، ولنمط معيشة سكان البلد الترحلية ، يستجلبون الى مكة جميع المنتجات الحيوية من بلدان اخرى ومدن اخرى ؛ فان الفواكه الطازجة ، متلا ، والعنب ، والمشمش والدراق والعنبيات وخلافها يستجلبونها من الطائف ؛ والتمر من المدينة المنورة ؛ ومختلف الخضراوات والشمام والبطيخ وخلافها من محلة وادى فاطمة ؛ ومختلف الحبوب وكذلك البطاطا والملفوف جزئيا من القاهرة ، واغلبها من بومباى . ولطحن الحبوب المستجلبية توجد فى مكة مطاحن ، تصاميمها فى منتهى البساطة ، وتحركها الحمير والبغال . ولا وجود فى المدينة بالذات ولا فى ضواحيها لاية بساتين ومباقل واحواض للخضراوات ولا اية مزروعات على العموم ، اذ ان كل هذا رهن قبل كل شىء بقله الماء لاجل الرى . وعدا هذا ، لا ينبت فى البلد غير النخيل والنباتات البرية اى الاعشاب والشجيرات الشوكية [٠ . ٠]

وفى مكة توجد لاجل الحجاج الفقراء على اختلاف قومياتهم مساكن مجانية تسمى «التكيات» ، وهى بصورة بيوت . وهذه التكيات بناها فى ازمان مختلفة المسلمون الاغنياء والشعوب التى تدين بالاسلام وجعلوها وقفا على الحجاج . وهذه التكيات يشرف عليها افراد خصوصيون . منظرها الخارجى والداخل غير مرض اطلاقا ، مثله مثل اغلبية البيوت فى المدينة على العموم . والاجانب ، سواء فى مكة ام فى عموم الحجاز ، لا يملكون الحق ، بموجب القانون ، فى اقتناء الاموال غير المنقولة ؛ والكفار ، اى غير المسلمين ، لا يسمحون لهم لا بدخول مكة ولا بدخول المدينة المنورة [. . .] وهى يملك العرب كل شىء ؛ ونظرا لبربريتهم وغياب المزاحمة ، قلما يحرصون على حسن بناء العمارات السكنية وصحة صيانتها ؛ اما الحكومة التركية ، فانها ، بسبب الضعف واختلال المالية ، لا تتخذ اية تدابير ، لا لتوفير اسباب الراحة والوثار للحجاج ، ولا على العموم لتحسين معيشة السكان المحليين . والاستثناء الوحيد هو المؤسسات الحكومية التالية : محطة البريد والبرق ، التى تستقبل وترسل الرسائل والبرقيات الى شتى اقطار العالم ؛ ولا تقبل غير الرسائل البسيطة ، غير المضمونة ؛ والبريد فى جدة وسائر مدن الحجاز ينقله مكارون خصوصيون على الحمير [. . .] ومن هذا يتبين ان المواصلات اليدوية لا تتميز بحسن التنظيم ولا بالسرعة [. . .] وهناك صيدليتان احدهما حكومية ، والثانية خاصة . وهناك مستشفى نهبه العرب . . . وهذا كل شىء .

ومن حيث تجهيز المدينة بالمرافق وتحسين معيشة السكان ، قلما تحقق هنا على العموم مثلها فى ذلك مثل سائر المدن الآسيوية البتة . وهنا لا وجود البتة للحوذيين ، ولا توجد عربات الا عند والى مكة وشريف مكة . ولا وجود البتة للخيول . والسفر فى المدينة يجرى ركوبا على الحمير ؛ والخيالة التركية ، كما سبق ان قلت ، تركب البغال . اما لماذا لا وجود للخيول هنا ، فى اهم مدن البلاد التى تشتهر بخيلها ، فلم استطع ان افهم السبب ، ولكن بوسعى ان اؤكد ان الحصان فى مكة ظاهرة نادرة جدا . كذلك لا وجود البتة للانارة فى الليالى فى شوارع المدينة . وفى البيوت يلجأون الى الانارة بالكاز بواسطة القناديل الانجليزية والكاز الاميركى . يبلغ عدد السكان الدائمين فى مكة زهاء ثلاثين الف نسمة . والرياش فى البيوت بسيطة جدا على العموم . ولا وجود تقريبا للمفروشات فى الغرف ؛ والعرب بمعظمهم يجلسون ويتمددون على الارضية ، مثلهم مثل جميع الشعوب الشرقية . ولا يملكون البتة تقريبا اقتصادا منزليا اذ يشترون من السوق

جميع المؤن . ولهذا السبب توجد فى المدينة كثرة كثيرة من المقاهى ودكاكين المأكولات والمخابز .

وفى مكة يعيش عدد كبير نسبيا من مواطنينا من آسيا الوسطى . وهم يمارسون مختلف الحرف ولا يفكرون فى العودة الى الوطن .

وعلى العموم يعيش سكان المدينة بدون ملل كبير . وفى الاعياد ، وفى اثناء صيام رمضان ، وعيد الاضحى ، وغير ذلك من المناسبات ، تقام نزاهات واحتفالات شعبية كبيرة مرفقة بالاراجيج ورقصات الرجال فى سرادق خاصة . واثناء الاحتفالات الشعبية تقام المقاهى ودكاكين واكشاك المأكولات وتباع شتى الخردوات وشتى التوافه واللعبات لاجل الاطفال ؛ خلاصة القول انه يقام بازار عيدى . وفى هذه النزاهات والاحتفالات تتجمع على الاغلب النساء والاولاد فى البسة مبرقشة ولامعة . وعلى الخصوص تنذهل العين غير المعتادة من البسة الاولاد الغريبة من الديباج والشاش . وهم مزينون من الرأس حتى القدمين بشتى العقود ، والنقود المعدنية الفضية ، ومختلف التفان . وهذه ضرب من حفلات راقصة مقنعة للاولاد مقامة فى الهواء الطلق . . . صحيح ان النساء يحجبن وجوههن ، ولكنهن يتنزهن بكل حرية ، ويتنادين باصوات مدوية فى الجموع ، ويتحادثن ، ويضحكن . ووحدهن حصرا يركبن المراجيح . وعادة يركبن عليها ازواجا ، ويفنين الاغاني ، ويقرعن الدفوف . ولا يمنعهن احد عن ذلك ، ولا يندد بهن احد ، وليس هذا وحسب ، بل بالعكس ، فان الرجال يقفون بوقار ورزاة الى جانب ويستمعون الى اغانيهن وقرعهن على الدفوف (وهنا لا توجد عادة اية موسيقى اخرى) . وعفو الخاطر دهشت لهذه الحرية التى تتمتع بها النساء فى مدينة مكة وعموما فى الحجاز . وفى النزاهات والاحتفالات الشعبية يتجمع اناس من عموم المدينة ؛ وفى عدادهم ضباط وموظفون وجنود . كذلك يأتى بالطبع الحجاج الوافدون من شتى انحاء الدنيا ، والتجار ؛ وايضا القضاة والائمة والرؤساء ؛ وخلاصة القول ، ممثلو جميع طبقات مجتمع المدينة وممثلو جميع الاقوام والشعوب الاسلامية فى الكرة الارضية . وجموع الرجال تسلك وتتصرف ببالغ التواضع واللياقة كأنما لا تلاحظ البتة النساء اللواتى يمرحن . وعادة يطلقون الصواريخ النارية فى الامسيات ، ويشعلون النيران البنغالية ، الرخيصة جدا . ثمن الوحدة من ٥ الى ١٠ كوبيكات . واحيانا يصنعها العرب انفسهم ؛ اما اكبر كمية منها ، فيستجلبها التجار الهنود من بومباي . وعلى العموم تكون الامسيات اثناء النزاهات الشعبية مرحلة جدا . تططق وتنفقع الصواريخ ، تستعل النيران البنغالية المتنوعة الالوان ،

الآخيرة ، حدّ السلطان التركي تماما من سلطة شرفاء مكة . فهم مجرد رؤساء دينيين ، ولا يملكون اية سلطة مدنية ، ويخضعون للمحافظ (الوالي) التركي ويعينهم السلطان التركي فى الوظيفة بناء على توصية من الوالى . فى سنة ١٨٩٥ كان عون الرفيق شريفا فى مكة . وكان يناهز الستين من العمر ، وكان له مقر دائم فى مدينة الطائف - الواقعة على بعد ٧٠ فرستا تقريبا من مكة باتجاه الشرق ، وراء عرفات .

والشريف يرافقه عادة خفر تركى من ٥٠ جنديا برئاسة ضابطيين يعتبران ياورى الشريف ويرتديان حمائل ذات اطراف معدنية مثل ياورى والى مكة . ويقال ان الشريف يعيل خفره من الجنود والياورين من مداخله غير القليلة . وعادة يلبس بدلة آسيوية طويلة الاطراف ، ولكن له لاجل المناسبات الاحتفالية زيا خاصا بصورة معطف رسمى يزور به ، مثلا ، الشخصيات الاجنبية الرفيعة المقام . وهو يحمل عبر كتفه شريطا من نوع شريط وسام القديس اندرى فى روسيا وكثرة من الاوسمة والنجوم المرصعة باحجار الالماس واللاؤل .

وعادة يخرج الشريف من بيته فى عربة تجرها البغال . ومما له دلالة انه حين يرغب فى زيارة احدا ، يرسل سلفا الى الامام قبل وصوله ببضع دقائق بضعة جنود مسلحين مع ضابط . وهؤلاء يقفون فى الغرفة المعدة لاجل استقبال الشريف ، وحين يصل ، يقدمون له التحية : يقدمون السلاح ، ويقفون هكذا امام الشريف ورب الدار طالما تستمر الزيارة . وليس من النادر فى هذه الزيارات ان يحملوا مسبقا الى البيت الذى يمضى اليه نارجيلته ، كما تفعل النساء ، الامر الذى سبق ان تحدثنا عنه [. . .]

تعقد المحكمة جلساتها علنا . ونظام وشكل النظر فى الدعاوى فى غرف المحكمة بسيطان جدا ، غير معقدين ، كما ان الوضع كله بسيط ايضا . كل شىء يجرى ببالح الهدوء وبكل لياقة . وعند النظر فى القضايا والفصل فيها لا يسترشد القضاة بكتب الشريعة بل بانظمة خاصة وضعتها الحكومة التركية على اساس احكام الشريعة . وهذه الانظمة تسمى «الدستور» ومكتوبة بشكل مواد منفردة ، مثل قوانينا الروسية ، او على العموم مثل المجموعات الاوروبية من القوانين . ومواد «الدستور» تتغير وتتكامل وفقا لمقتضيات الحياة العملية وروح العصر ولا تشكل بالتالى احكاما جامدة لا

تتغير مثل الشريعة * . والمدعى او المدعى عليه ، اللذان لا يرضيان على قرار القاضي الوحيد الواحد ، يملكان الحق فى استئناف الدعوى الى محكمة اعلى تسمى «حكومة» تقوم بوظيفتها لدى الوالى ، كما سبق ان قلنا . والحجّاز على العموم بلد لا يعيل الى التقاضى . ومما له دلالتة ان مواطنينا من تركستان يشغلون اهتمام المحاكم اكر من جميع السكان الآخرين . ومن الجلى انهم يحملون الى هذا البلد ولعهم بالمجادلات وحبهم الحار للتقاضى بدافع من امور تافهة في اغلب الاحيان . وليس عبثا يقال ان العادة طبيعة ثانية .

[٠ . ٠ .] يمكن تقسيم جميع الحجّاج الى اربع فئات : الفعليين ، الاختصاصيين ، التجار ، المحتالين . الحجّاج الفعليون او الحقيقيون يذهبون الى مكة بالدافع الدينى فقط ، كما يذهب المسيحيون الى القدس والبوذيون الى التبت ، الى لاسا ، وخلافهم . وهم مشغولون حصرا باداء فريضة الحج فقط اى باداء الشعائر والواجبات الدينية ؛ وبعد ذلك ، يعودون فورا الى الوطن . وهؤلاء هم بالطبع خيرة الحجّاج . الحجّاج الاختصاصيون يقومون بالحج بالنيابة عن الآخرين ، الامر الذى تجيزه الشريعة ؛ وبما انهم اناس ذوو خبرة فى هذا المجال فانهم يقومون بدور الادلة لاجل المبتدئين ؛ ويسمونهم «البدلاء» ، اى انهم يقومون بالحج بالنيابة عن الآخرين ، بدلا عنهم ، وليس بدون مكافأة بالطبع . و«بدلاؤنا» يتنقلون على الدوام بين روسيا ومكة محولين الحج الى ضرب من حرفة . وهذه الحرفة يتعاطاها على الاغلب المُلّاّت والائمة وخلافهم ، اى رجال الدين المسلمون . وعلى العموم قلما يسافرون للحج من اجل انفسهم بالذات ، بل يذهبون فسى اغلب الاحوال بدور البدلاء . وهذه الحرفة - البدالة - متطورة بخاصة بين تترنا رغم انها بدأت فى الآونة الاخيرة تتطور بين سكان السهب القرغيز ايضا .

* اصول وضع الدستور هى التالية . توجد فى القسطنطينية لجنة خاصة من الحقوقيين المسلمين ، وعلى اساس احكام الشريعة ، يضع هؤلاء مجموعة الاحكام القانونية فى فصل معين من الحقوق ، عارضينه فى شكل عقائدى لا وجود له اطلاقا فى كتب الشريعة . ومشروع القانون الموضوع هنا يطبعونه ويرسلونه الى المحافظات والقائمقامات فى تركيا حيث توجد لجان ثانوية ، اقليمية . وهذه تدرس المشروع المرسل لها وتعيده مع اعتراضاتها وملاحظاتهما . وتدرس لجنة العاصمة هذه الاعتراضات والملاحظات ومشروعها هى نفسها وتضع نهائيا قانونا يصبح سارى المفعول ما ان يصادق عليه السلطان . هيئة التحرير [٠٠٠] (اى هيئة تحرير المجلة التى نشرت فيها هذه الذكريات . (الناشر) .

الباهرة ، منيرة الجموع المبرقشة ، المنتعشة ، الصاخبة ، والبسة الاولاد الغربية . وفى كل مكان يتعالى قرع الدفوف وتنداح اغاني النساء . . . الضجة ، التبرقش ، الانتعاش . وكل شيء اصيل ، فريد السى اقصى حد [. . .]

ولكن لا بد من الاشارة الى ان اخلاق النساء فى مكة لا تتميز بصرامة خاصة . ومفهوم للجميع بالطبع ان الحال لا يمكن ان يكون على نحو آخر فى مدينة يتجمع فيها العديد من الرجال ممن لا نساء ولا عائلات لهم . هناك رأى شائع مفاده ان بوسع الحجاج هنا ان يتزوجوا لمدد مختلفة ، من بضعة ايام حتى بضعة اشهر ، ولكنى لا استطيع ان اؤكد هذا الرأى ؛ بيد انه معروف ان الطلب يستتبع فى كل مكان العرض . . . وفى المدينة عدد كبير من العبدات ؛ وفى جوار المدينة اوكار من ادنى واحقر المستويات . . . وفى معرض الكلام عن نساء مكة ، لا استطيع امتناعا عن الاشارة الى عادة من عاداتهن الفريدة . جميعهن يدخنن ؛ واذا اردن الذهاب فى زيارة ، فانهن يرسلن سلفا نارجيلاتهن ؛ وحين يصلن ، يجلسن ، ويدخنن ويتثررن مع ربة البيت ، كما يجرى فى كل مكان وعند جميع الشعوب . وعموما يشغل تدخين النارجيلة فى الحجاز دورا مماثلا تقريبا للدور الذى يشغله عندنا السماور واحتساء الشاي اى القرى وتمضية الوقت [. . .] ولهذا يستعمل الجميع هنا التبغ ، وغالبا ما لا يجده الراغب فى الدكاكين .

[. . .] ان ضباط الحامية التركية المرابطة فى مكة ، لا يتقيّدون اطلاقا ، على ما يبدو ، بوحدة اللباس العسكرى ولون قماشه . جميعهم يرتدون ما تقع عليه ايديهم ، جميعهم فى البسة متنوعة الالوان ، رغم انهم دائما يحملون السلاح : سيفا ذا حد واحد او ذا حدين من الطراز الانجليزى فى حمائل فضية او ذهبية . وعلى الاكتاف يحملون كتافات من الجوخ مع نجيمات معدنية . والجنود يرتدون قمصانا بيضاء . كتافاتهم من الجوخ دون اية علائم . والانضباط والهيئة العسكرية غير ملحوظين بينهم .

وفى معرض الكلام عن الجنود الاتراك ، لا يسعنى لزوم الصمت عن تمرداتهم غير النادرة ضد رؤسائهم . تنشعب التمردات بصورة رئيسية لسببين : لعدم تقاضى الراتب فى الموعد المعين ، ولعدم تسريح من خدموا المدة الشرعية ولابقائهم فى الخدمة بصورة غير صحيحة . واثناء الفتنة ، لا ينذر ان يحتل الجنود بيت الله بقوة السلاح ، وان ينهبوا سكان المدينة وضواحيها وينصرفوا الى اقتراف شتى الموبقات . ولتهدئتهم ، يلجأون عادة الى محاولات الاقناع ، الامر الذى يشارك فيه ، عدا الضباط ، رجال

الدين ، مؤثرين في شعور الجنود الديني . والجنود المرابطون هنا هم على العموم شعب مستهتر جدا ، وذلك ، طبعا ، بذنب من رؤسائهم الذين ليس دائما يتصرفون بصورة عادلة وقانونية .

في سنة ١٨٩٠ ، تمردت حامية المدينة المنورة لانهم لم يسرحوا الجنود من الخدمة بعد انتهائها . رموا اسلحتهم وراحوا الى حوش قبر النبي وعاشوا هناك اكثر من اسبوع الى ان افلح الرؤساء في اقناعهم وتهدئتهم . وفي هذا الاسبوع حولوا حوش قبر النبي الى ثكنة ولم يسمحوا لاحد بالاقتراب والصلاة ؛ ونهبوا السوق ودكاكين المأكولات لتأمين المؤونة لانفسهم . وقد نشب تمرد مماثل تماما في مدينة جدة سنة ١٨٩١ . واحتل الجنود جامعا كبيرا في المدينة ونهبوا المأكولات ايضا في السوق .

وفي مكة توجد مطبعة حكومية لا تطبع غير الكتب الدينية الفحوى ، وكذلك صورا بمناظر مكة والمدينة المنورة وبيت الله وخلافها . والطبع كله يكلف رخيصا جدا ؛ فلا يأخذون سوى ثمن الورق والقليل لقاء العمل . وعند بوابتي بيت الله الرئيسيتين توجد بازارات للكتب . والكتب والرسوم التي يشتريها الحجاج يوزعونها في شتى اقطار المعمورة . وعندنا ، في آسيا الوسطى ، نجد منها الكثير ، كما هو معلوم ، وذلك في الجوامع وفي منازل السكان [. - ٠]

الفصل السادس *

شريف مكة . المحكمة . الحجاج والادلة

شريف مكة ، انما هو الشخصية الاندينية العليا في عموم العالم الاسلامي . ومن حيث اصله يعتبر سليلا ووريثا مباشرا للنبي محمد (صلعم) . وفي الازمنة الغابرة لعب الشرفاء دور الاعراء اى دور الحكام المستقلين ، الاعلىين . اما في الوقت الحاضر ، فان هذا اللقب قد بقي لهم ولكنه لا يتسم باية اهمية عملية . واللقب يكتب على الورق فقط . وفي السنوات العشرين

* يحتوى الفصل الخامس وصفا لبيت الله نفله هنا لانه مماثل لما ورد في المواد الاخرى المنشورة في هذا الكتاب . الناشر .

الحجاج التجار يتعاطون على الاغلب التجارة ، وينقلون البضائع من مدينة الى مدينة ويقيمون لمدة غير معينة حيث يرون فائدة لهم . ولا يهمهم البتة حقا وفلا سواء وصلوا قبل زمن الحج او تأخروا عنه . وبالنحو نفسه يعودون الى ديارهم . وغالبا ما يتزوجون في الطريق ويبقون للاقامة في تلك المدن من الجزيرة العربية او من تركيا على العموم حيث وجدوا ماوى لانفسهم . الحجاج المحتالون اختاروا لانفسهم حرفة الابتزاز والنهب من السذج من اخوانهم في الايمان وبخاصة ممن جاؤوا من مختلف الاماكن النائية ، الموحشة . وهم يستقبلون هؤلاء الحجاج ويرافقونهم في طريق سفرهم ، ويحرصون على سلامتهم ومصالحهم ، ويتظاهرون بانهم اطيب الرفاق واكثرهم مودة وحسن نية ، وبخاصة على متن البواخر . وهؤلاء المحتالون يدرسون طبع رفيق الطريق ويعرفون قدر امواله ؛ وحين تسنح اول فرصة ينهبون الضحية الساذجة وغالبا ما يتركونها في يد القضاء والقدر بين اناس غرباء ، بعيدا عن الوطن . وهذه الحرفة تمارسها النساء ايضا [. . .]

في خاتمة هذا الحديث ، ارى من الضروري ان اتحفظ . فعن كل ما رأيته احكى كشاهد عيان ، دون ان اضيف شيئا ، وحتى مقلدا نوعا ما ، لكى لا امسّ بنحو ما ، عن غير قصد ، المسلمين في مشاعرهم الدينية ، اذ انهم ، بعد العودة من الحج ، يعتبرون عادة من واجبه ان يرووا مختلف المعجزات [. . .] وانا احكى عما رأيته وسمعته ، متقيدا بأكبر قدر ممكن من الدقة .

مكتبة اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتى . ٢٢٠ . النص باللغة الروسية
لشرته في طشقند مجلة «بشير آسيا الوسطى» الشهرية (١٨٩٦) ، تشرين الثاني -
نوفمبر ، ص ٦١-٨١ ؛ كانون الاول - ديسمبر ، ص ٤٥-٨٣ .

ف . ب . تشيريفانسكى

الحج (من وجهة نظر روسية)

-١-

يوجد فى روسيا اكثر من ١٤ مليوناً من المسلمين ، اى اكثر من ١٠ بالمئة من عموم السكان .
على الصعيد الاقليمى يشغل المسلمون مناطق مشارف الاورال ومناطق مشارف القفقاس ، والسهوب القرغيزية ، والمناطق المضغوطة الى روسيا فى القرن الماضى من آسيا الوسطى . وفى معرض الكلام عن توزيع العنصر الاسلامى على الصعيد الاقليمى ، يجب الا يغيب عن البال ان مسلمى آسيا الوسطى من رعايا روسيا هم على صلة وثيقة من القربى مع مسلمى بخارى وخوى شبه المستقلتين .
وفى سياق تعميم الظروف الاقليمية والانتوغرافية لا بد ان نرى انه يتعين على الحكومة الروسية ، فيما يتعلق بالحج ، ان تأخذ بالحسبان ان فئة المسلمين تتألف من ٢٠٠٠٠٠٠٠ شخص .

-٢-

فيما يتعلق بالحج ينقسم جميع هؤلاء العشرين مليوناً من المسلمين الى جماعتين دينيتين رئيسيتين : الى معتنقى مذهب السنة ومعتنقى مذهب الشيعة . من الناحية العددية ، يربو عدد السنيين فى الممتلكات الروسية بصورة ساحقة على عدد الشيعيين .
يتجمع الشيعة فيما وراء القفقاس والسنين الذين يشغلون مساحات شاسعة متواصلة فى آسيا يظلون فى روسيا الاوروبية منفوسين جزئياً فى وسط السكان الروس الذين يؤلفون هنا الاغلبية الساحقة ، ومستقرين جزئياً فى مناطق سلسلة جبال القفقاس . والقرم يستكمل مجموعة مسلمينا الجنوبيين .

كل مسلم ملزم بموجب تعاليم محمد باداء فريضة الحج ولو مرة واحدة في العمر ، بصرف النظر عن اية عقبات وحوائل . والقوى القاهرة وحدها هي التي تسمح للمسلم بالاستعاضة عن الحج شخصيا بتكليف شخص آخر للقيام به بالنيابة عنه ، او بارسال التبرعات في صالح الاماكن المقدسة . وهذه الفريضة يجب اداؤها - بموجب مذهب السنيين - [ص ٧] قرب الكعبة ، في مكة ، اي قرب حرم بنى ، حسب اساطير الجزيرة العربية ، في مكان المعبد الاول الذي بناه ابراهيم .

تتلخص شعائر العيد في الطواف حول الكعبة ، في السير - والاصح ، في السعى بين صخرة الصفا وصخرة المرو ، في السير من مكة الى جبل عرفات وفسى مرسم رجم الشيطان فى وادى منى على ما يبدو . وهنا ايضا يقدمون الاضاحى فيذبحون عددا كبيرا من المواشى .

فى معرض الكلام عن الحج ، يجدر التذكير بان محمد منع الذى يقوم بالحج الكثير من الامور العادية كحلق شعر الرأس او الصيد مثلا ، ولكنه لا يسمح وحسب ، بل يبارك ايضا التجارة فى زمن الحج وهذا «السعى وراء هبات الرب» محبب جدا جدا الى قلب كل مسلم .

ان المسلمين السنيين فى روسيا الاوروبية والقفقاس والقسم لا يواجهون المصاعب فى الحج عبر القسطنطينية التى يمضون اليها عبر مرافىء البحر [ظهر ص ٧] الاسود والتى ينطلقون منها بطريق القوافل الى الجزيرة العربية . اما المسلمون الشيعة ، فانهم يمضون الى اماكنهم المقدسة بطريق القوافل على الاغلب عبر الحدود الايرانية ، رغم ان المسلمين الشيعة من مشارف قزوین قد يركبون البواخر ، اغلب الظن ، حتى انزلى ورشت .

اما اغلبية السنيين فى روسيا الاسيوية وبخاصة فى مناطق آسيا الوسطى ، وكذلك مجمل سكان بخارى وخوى ، فمن المشكوك فيه ان يكون من الممكن اجتذاب هذه المجموعة الهائلة بالتدابير الادارية او غيرها من التدابير الى مرافىء البحر الاسود . سيكون من الممكن بالطبع توجيه مسلمى آسيا الوسطى ايضا بالقوة عبر باطوم الى القسطنطينية ، ولكن هذا التدبير

سيكون ضارا مباشرة من جميع النواحي ، وضارا في المقام الاول بمصالح السياسة الروسية .

-٥-

ان سفر المسلمين السنين عبر القسطنطينية غير مرغوب فيه اطلاقا ، واذا كان لا بد من احتماله ، فيقدر [ص ٨] الضرورة المحتملة فقط ، وليس البتة في اى حال من الاحوال بوصفه امرا نافعا او مرغوبا فيه .

ان الحج هو ظاهرة ذات طابع دينى سياسى . وبفضل الحج ينتعش المسلمون باستمرار ، لا فى عقائدهم وحسب ، بل ايضا فى عدائهم لغير المؤمنين اى لعموم العالم الذى لا يعتنق تعاليم القرآن . وفى هذا المجال يأتى المسيحيون واليهود اعلى نوعا ما من الوثنيين ولكنهم مع ذلك اعداء الله ، والله عدو لهم ، وهم اصدقاء الشيطان ، والحرب ضدهم عمل يرضى الله الذى لا يقبل حتى صلوات المؤمنين من اجل خلاص الكفار .

ان من يؤدى فريضة الحج يبلغ بالتالى وضع القداسة ، واذا ما حاله الحظ وحمل الى وطنه شعرة كانت فى لحية النبى (لا يندر ان تكون ليفا من جوز الهند) ، فان الحاج يلبس باعتزاز عمامته الخضراء ، ويرشد الشعب بالهام ، ويأخذ منه جزية لا بأس بها .

ولهذا لا يجوز البتة النظر الى الحج من وجهة نظر واحدة ما ، مثلا ، من وجهة النظر الصحية ، بل يجب النظر اليه من وجهة مصلحة عموم الدولة ، التى تصغر حيالها وجهة النظر الصحية [ظهر ص ٨] الى ادنى حنا . ولهذا ، اذا كان من المفيد من وجهة النظر الصحية توجيه كل اجمهرة المسلمين الى نقطتين او ثلاث ، فليس من المفيد اطلاقا فى مصلحة السياسة تمرير هذه الجمهرة عبر بوابة استنبول .

ان القسطنطينية تنتظر بفارغ الصبر دافعى الجزية هؤلاء ، لا عند سفرهم الى الجزيرة العربية وحسب ، بل ايضا عند العودة ، حين يستطيع العلماء ان يستميلوا ويحولوا عقول السنين البسيطة حسب مقياسهم هم بالذات . ان القسطنطينية بالنسبة للحاج انما هي اكاديمية اضافية لنزعة الجامعة الاسلامية . فان الحاج الذى استماله علماء القسطنطينية انما يعود الى موطنه مسلما ولد من جديد ، تغير تماما . فهو يتحول من انسان بسيط ، شريف ، وحتى من تاجر طيب الى بروفيسور ، استاذ ، يدعو الى افكار متسامية الى حد ان السنة الجمع تنعقد من سماعها ، وبما ان الجمع

لا يفهم ما لا يفهم الواعظ ايضا ، فانه ينظر عفو الخاطر الى استنبول بوصفها مركز الايمان الصحيح الذى سينتقل اليه عاجلا ام آجلا صولجان الملكية المطلقة العالمية .

-٦-

ان توجيه جميع مسلمى آسيا الوسطى الراغبين فى الحج ، بالتدابير الادارية او حتى بالتأثير فى الامير والخان * ، [ص ٩] الى مرافى* البحر الاسود يقابله الاستياء فى وسط اعتاد على طرق القوافل المنطلقة عبر افغانستان وبومباي . وفى هذه السبل يسعى الحجاج وراء «هبات الله» اى انهم يتاجرون ، الامر الذى لا يستطيعون القيام به فى سبل السفر البخارية . لا ريب فى ان بمقدور التأثير الروسى ان يجبر الامير والخان على اصدار الاوامر بتوجيه حج السكان الخاضعين لسلطتهما الى حيث يشآن ، وان الى مرافى* البحر الاسود ايضا ، ولكن هل هذا ضرورى لاجل سياستنا فى آسيا الوسطى ؟ كلا . يجب ان يبقى الامير والخان فى وسط السكان الخاضعين لسلطتهما مسلمين طيبين ، صادقى الايمان ، لا يمسان العادات والاعراف الدينية من اى ناحية . واذا كان بوسع الحاكم المسلم ان يقطع الرؤوس بلا حسيب ولا رقيب ، فانه يمعن الفكر مرارا وتكرارا قبل ان يخالف القواعد الدينية والشعائر والمراسم الدينية .

قد لا يكون تدمير سكان بخارى او سكان خوى هاما بحد ذاته ، ولكن نحن الروس نهمنا صداقة الشعوب الاسلامية الحدودية واخلاص حكامها سواء بسواء . [ظهر ص ٩] وفضلا عن ذلك ، نرى ان ذلك القسم من السكان الذى يزدرى شتى المخاطر حيال قداسة الحج يمكنه ان يزدري ايضا حتى الاوامر الصارمة للغاية ، بل ويقوم بالحج خفية عبر الممتلكات الاسيوية . وبحكم هذه الاعتبارات اعتقد انه من الافضل الامتناع كليا عن اغلاق سبل القوافل من آسيا الوسطى ، والاكتفاء بانشاء مراكز حدودية لاجل اجراء فحص طبى للحجاج العائدين من الحج .

* المقصود امير بخارى وخان خوى . المهرب .

ينبغي ألا يلقى الحج اية حماية من جانب اصحاب السلطة ، ولهذا يبدو المشروع القائل بواجب المحافظين الاهتمام بتأمين المأكولات وبتسهيلات السفر امرا غير مفهوم اطلاقا . وهل هناك شئ من هذا القبيل بالنسبة للحجاج المسيحيين ؟ كلا ، على ما يبدو .
لنتذكر ان التنظيمات المضبوطة كفاية ليس دائما تتجاوب مع مصالح السياسة السائدة . فان التنظيم المضبوط للشؤون الدينية الاسلامية فى اورنبورغ وقازان قد اسفر عن اعتناق الملايين من السكان القرغيز للدين الاسلامى .

[ص ١٠] ولماذا هذا الجهد الجهد لكى يصل المسلمون الحجاج الى اكاديمية التعصب الاعمى بصورة مريحة جدا ؟ فاذا كان ذلك لاهداف محدودة ، مفعمة بالروح الانسانية ، فمن الضرورى بذل القدر نفسه من الجهد او حتى قدرا اكبر فى صالح الحجاج المسيحيين . اما اذا كانت هذه التدابير صحية بوجه الحصر ، فينبغى ان تكتفى بالتوصل الى هدف واحد فقط هو ان لا يجلب الحجاج المسلمون معهم امراضا معدية من الجزيرة العربية او من بلاد ما بين النهرين .

ان نية التأكد من سلامة صحة المسلمين عند اجتياز الحدود فى الطريق الى الاماكن المقدسة تتجاوز حتى حد المرغوب فيه من وجهة النظر الاسلامية . فان المسلمين الذين يموتون فى اثناء الحج يتطهرون بالتالى من كل ارضى ، من كل دنس . ولهذا لن يقابل المسلمون الحرص على معالجة المرضى (اذا لم يكونوا مصابين بامراض معدية) بالتعاطف .

ان الانظمة [ظهر ص ١٠] المضبوطة لابعد من ان تبلى دائما وعلى العموم الاهداف المنشودة . اما التنظيم المصمم فى القضية موضوع البحث ، فانه يتمادى الى حد ان العمد (الشيوخ) والجاويشية سيقربون من وضع الموظف الحكومى حتى مع الحق فى المكافآت .

الجاويشية ضارون على العموم لانهم «يدعون بالحاح» الى الاماكن المقدسة مبتزين من مهنتهم الكثير من المنافع . والجاويش المنتخب طوعا واختيارا يحظى بقسط من الاحترام من جانب جماعة الحجاج السائرة وراءه ،

ولكن الجاويش المعيّن من فوق لن يحظى بهذا الاحترام . واذا خطر فى باله عند اجتياز الحدود ان يطبق انظمة اوحوا له بها او امره بتطبيقها ، فان رفاقه الحجاج سيعلنونه بالكافر ويطردونه على الاربع من بيئتهم . ويبقى للجاويش او للعمدة (فيما وراء الحدود) ان يذعن لمتطلبات الجمهور ، واذا كان فى الجمهور حاج محنك فانه لن يبقى للجاويش المعين غير ان يكون خادمه المطيع .

ودون الاستغراق فى محاكمات شاسعة ومتعددة الجوانب بصدد هذه المسألة البالغة الشأن من الناحية السياسية كما هو عليها الحج ، ارى من الممكن الاكتفاء بالمبادئ التالية :

١ - الامتناع فى كل حال من الاحوال عن اللجوء الى التدابير غير العقلانية فى توجيه الحجاج عبر مرافى البحر الاسود والقسطنطينية .

٢ - الامتناع عن اغلاق سبل القوافل القائمة فى آسيا الوسطى من اجل الحج .

٣ - انشاء مراكز عبور على الخطوط الحدودية مع فرض رقابة صحية جديدة على الحجاج العائدين .

٤ - الامتناع عن اللجوء الى اية تدابير حماية فى صالح الحجاج المسلمين وبخاصة الى تدابير تتفوق على تدابير العناية بالحجاج المسيحيين .

٥ - ترك قضية تنظيم الحج للمسلمين مع منحهم الحق فى تقديم المساعدة الطبية لمواطنيهم واقربائهم وابناء قبائلهم .

قل . تشيريفانسكى

ارشفيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ . الفهرس I . الاوراق ١١-٥ . المخطوطة على ورق ابيض (٢٧,٥×٢٢) ملحقة باحدى صيغ ومفروع للقواعد الموقلة بصدد حج المسلمين . تنشر للمرة الاولى .

وثيقة وزارة الداخلية

وزارة الشؤون الداخلية

الدائرة الطبية

القسم الخاص بالامراض الوبائية

٢١ آذار (مارس) ١٩٠٢

رقم ٨٤٨

حول الموافقة على مشروع
«القواعد الموقته بصدد حج المسلمين»

الى لجنة الوزراء

صاحب السعادة ف . ك . بليفي (١)

عرض القضية

ان امكنة حج المسلمين الواقعة في الجزيرة العربية وايران وبلاد ما بين النهرين ، - نظرا لتجمع الحجاج من جميع انحاء الدنيا ، بما فيها البلدان التي تتواجد فيها الكوليرا على الدوام وينشعب فيها الطاعون احيانا كثيرة - تتعرض كل سنة لاطار انتشار المرضين الوبائيين المذكورين فيها ، ولذا تتوافر دائما امكانية نشر الاوبئة من جانب الحجاج عند عودتهم الى اوطانهم ، الامر الذي يضفى بدوره على هذه الحركة طابعا خطرا من الناحية الصحية . ان الحج الى ايران وبلاد ما بين النهرين (مشهد ، كربلاء ، النجف) يتسم اساسا باهمية بالنسبة لروسيا التي يقوم منها سنويا - من منطقة ما وراء القفقاس والممتلكات في آسيا الوسطى - ما لا يقل عن ١٥-٢٠ الف مسلم شيعي من رعايا روسيا ؛ اما الحج الى الحجاز فانه يمس مصالح الدول الاوروبية جميعها تقريبا . ونظرا لاهمية حج السنين البالغة ، تتعرض التدابير الصحية لاجل تنظيمه وضبطه للبحث في المؤتمرات الصحية الدولية . فان مؤتمر باريس سنة ١٨٩٤ ومؤتمر البندقية سنة ١٨٩٧ ، مثلا ، قد رسما جملة من التدابير الرامية الى تقليل الضرر الذي تتسبب به هذه الحركة على الصعيد الصحي .

وفي الزمن غير الملائم من حيث الكوليرا والطاعون اعتبروا من الضروري في روسيا ، لاعتبارات صحية ، منع المسلمين من رعايا روسيا منعا باتا من السفر الى الاماكن المقدسة بنظرهم الواقعة في خارج روسيا . وقد صدر امر بوقف الحج في غضون سنوات ١٨٩٢-١٨٩٥ التي سادت فيها الكوليرا ، وكذلك في النصف الثاني من سنة ١٨٩٦ ، نظرا لظهور الطاعون في هندوستان الانجليزية .

ولكن تبين آنذاك بالذات من المعلومات المتوافرة في وزارة الداخلية ان منع الحج لا يقضى على خطره من الناحية الصحية ، وليس هذا وحسب ، بل حتى يشدد ايضا خطر نقل الامراض الوبائية الذي اتخذ هذا التدبير ضده . فان المنع الذي قلل بصورة تافهة العدد الفعلي للمسافرين الى الحج قد خلق الحج السري الذي يجرى عن طريق جملة من اساليب الاحتيال والمكر والغش الرامية الى تجاوز هذا المنع .

وقد تاكدت كليا صحة هذا الرأي في التقارير عن الحج التي ارسلتها الى وزارة الداخلية سفارتنا في القسطنطينية وقنصليتنا في جدة وبغداد . ان اعتبارات الدوائر المذكورة ، المعروضة بالتفصيل في ص ٣٨-٤٥

من المذكرة المطبوعة الملحقة الصادرة بتاريخ ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ تحت الرقم ٢٠٢٥ عن ديوان اللجنة المؤسسة بأمر صاحب الجلالة تتلخص اجمالاً فيما يلي : صحيح ان الحج ظاهرة ضارة وظاهرة غير مرغوب فيها سواء من الناحية الصحية ام من الناحية السياسية ، الا انه لا يجوز منعها ، ولكن من الضروري مع ذلك اتخاذ تدابير ترمى سواء الى تنظيم هذه الحركة داخل الامبراطورية ام الى تحسين شروط اداء الحج في الخارج . ومن وجهة النظر هذه اشارت سفارتنا في القسطنطينية وقنصليتنا في جدة وبغداد الى ضرورة تعزيز الرقابة على الحدود الروسية الايرانية وتسهيل المعاملات وازالة التباطؤ في منح جوازات السفر للحج وترخيص كلفتها ، والاكتفاء بمنحها في قسم معين من السنة ، والزام الجاويشية باخذ جوازات سفر لانفسهم والامتناع ، تحت طائلة العقاب ، عن اخذ اشخاص لا يحملون جوازات سفر في قوافلهم ، وتحميل المشاعيات القروية المسؤولية عن الغائب بدون جواز سفر ، واخيراً ، توجيه جميع الحجاج السننيين دفعات كبيرة الى مرافق البحر الاسود .

ومن باب الرقابة على اداء الحج خارج حدود الامبراطورية اشير الى ضرورة الزام الحجاج بالتأشير على جوازات السفر الى القسطنطينية ، وضرورة الابعاز الى المحافظين بابلاغ القنصل الروسى في القسطنطينية عن جميع المسلمين الذين حصلوا على جوازات سفر ، وزيادة عدد ممثلينا القنصليين في الاماكن المقدسة بالنسبة للمسلمين ، واخيراً ، التقدم مع الدول الاخرى من الحكومة التركية بطلب حماية الحجاج اثناء سفرهم في الصحراء . الاعتبار المذكورة قد احاطت بها علماً وزارة الداخلية المحافظين العامين والمحافظين للعمل بموجبها ، وذلك في الرسالة التعميمية الصادرة عنها في ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٦ تحت الرقم ٤٧٠١ .

الخلاصة المفصلة لراء رؤساء المحافظات معروضة بشكل ملحق خاص . اعربت الاغلبية عن انه من المرغوب فيه اتخاذ اوسع ما يمكن من التدابير لاجل تحسين شروط الحج . ولكن محافظى باكو واورنبورغ وفرغانة وتورغاي ، لاعتبارهم الحج ظاهرة فادحة الضرر ، عارضوا قطعاً اتخاذ اى ضرب من التدابير التى تسهل اداء الحج ويمكنها بالتالى ان تؤدى الى تطوره . وعلى نقيضهم ، اشار الحاكم العام فى القفقاس ، والمحافظ العام فى تركستان (بالنسبة لمسلمى خانة خوى وخانة بخارى) * ومحافظ مقاطعة الاورال

* خانة تعنى امارة . العرب .

ومحافظ ساراتوف الى ان تدابير الحد من السفر لا تقلل البتة مقادير الحج ، الا انهم يخلصون الى القول ان اقرار شتى ضروب تدابير التضييق سيعطى المسلمين الذريعة ليروا فيها تضييقا على تلبية حاجاتهم الدينية ، كما انهم لا يجدون مبررات للاعتراض على اقرار حتى تسهيلات معينة فى صالح الحجاج المسلمين .

وبما ان اتخاذ التدابير ضد انتشار الطاعون قد القى بموجب الارادة السامية الصادرة بتاريخ ٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٩٧ على لجنة خاصة برئاسة صاحب السمو الامير الكسندر بتروفيتش اولدنبورغسكى ، فان دراسة مسألة الحج لاحقا قد انتقلت الى هذه اللجنة المؤسسة حديثا . ان صاحب السمو رئيس اللجنة سابقا ، قد اثار فى جلسة ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٨ مسألة ما اذا كان يصح ان تأخذ الحكومة فى يدها قضية تنظيم الحج نظرا للخطر الذى يمثله المسلمون الحجاج من حيث جلب ونشر الطاعون فى روسيا . بعد الاستماع الى بيان صاحب السمو ، كلفت اللجنة ، بقرار مسجل فى ٢٠ كانون الاول ١٨٩٨ ، ديوانها بتقديم تقرير فى هذا الصدد . بالاستناد الى مادة شاسعة جدا تتألف من تقارير وآراء رؤساء المحافظات ، وتقارير ممثلينا الديبلوماسيين والقنصليين فى القسطنطينية وجدة ومشهد وبغداد ، وكذلك من تقارير الاشخاص الذين ارسلتهم اللجنة خصيصا بمأموريات ، وضع الديوان السابق للجنة التى أسست بأمر من صاحب الجلالة بصدد تدابير درء عدوى الطاعون ومكافحتها مشروعا بتنظيم حج المسلمين . وهذه الرسالة مرفقة بنسخة مطبوعة عن التقرير .

صحيح ان هذا المشروع يرتكز اساسا على النظرة المذكورة آنفا ومفادها ان تدابير المنع لا تبلغ الهدف ، ولكن واضع المشروع اعتبروا فى الوقت نفسه ان الحج كأداة من ادوات «توطيد وتوحيد الاسلام بأسره بوصفه كلا سياسيا دينيا واحدا» وانه بالتالى ظاهرة غير مرغوب فيها من وجهة نظر عموم الدولة . ولهذا قصد المشروع ، مع رفضه منع الحج ، اقرار تدابير ترمى الى تقليل هذه الحركة باحداث تضييقات جديدة متفاوتة الاهمية .

وقبل حل مسألة الحج حلا نهائيا ، تقدم القائم باعمال مفتى توريدا فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٠٠ من وزير الداخلية بطلب السماح بالحج الى الحجاز واشار فى طلبه الى ان السكان قبلوا طوال سنتين اوامر الحكومة بطيبة ووعى ، وذلك وفقا لاحكام الشريعة القائلة : الامتناع عن الفرار من حيث ظهر الطاعون والامتناع عن السفر الى حيث ظهر .

اما فى الوقت الحاضر ، فان منع الحج الذى فقد اهميته من الناحية

الصحية نظرا لعدم وجود الطاعون في الحجاز قد يقلق ويربك المسلمين من رعايا روسيا .

ان الطلب المذكور اعلاه قد احاله وزير الداخلية الى اللجنة المؤسسة بأمر صاحب الجلالة ، وقد قررت هذه اللجنة ، وفقا لتقرير الوزير ، السماح ، حتى تنظيم الحج تنظيمًا نهائيًا ، بمنح المسلمين جوازات السفر للحج الى الحجاز ، ولكن بحيث يمضى الحجاج ويعودون بالطريق البحرى حصرا ، عبر مرفأ من مرفأ البحر الاسود ، وان يتعرضوا بعد العودة لتدابير صحية معينة (القرار المذكور والرسائل التعميمية التي اصدرتها وزارة الداخلية فى هذا الصدد واردة فى الوثيقة التوضيحية) . هذا القرار يستمر مفعوله فى سنة ١٩٠٢ بموجب امر من اللجنة بتاريخ ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٠١ .

ولاجل تكميل مواد الاستفسار المتوفرة بصدد مسألة الحج ، اقترحت الرسالة التعميمية التى وجهتها وزارة الداخلية بتاريخ ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ تحت الرقم ١١٥٩ الى المحافظين ورؤساء المقاطعات ، ان يعرضوا آراءهم فى نتائج تطبيق قواعد الحج الموقته الصادرة لسنة ١٩٠١ . مجموعة آراء رؤساء المحافظات الواردة اثر ذلك معروضة فى الوثيقة التوضيحية تحت الرقم IV .

من الاراء المذكورة يتبين ان القواعد الموقته التى فرضت الرقابة الصحية اللازمة على الحجاج العائدين ، قد قللت كثيرا ، على كل حال ، من خطر الحج من الناحية الصحية ، لانه لم تقع حالات تدل على تهرب المسلمين من العودة عبر احد مرفأ البحر الاسود ، كما تفيد معلومات رؤساء المحافظات . وعلى العموم يؤيد رؤساء المحافظات تمديد مفعول هذه القواعد فى المستقبل .

ثم يشير كثيرون من المحافظين الى ان منع الحج لا يوقف كليا هذه الحركة ، ويخلق ويطور السفر السرى . ويرى الحاكم العسكرى لمقاطعة داغستان ان السماح السنوى بالحج يوقف السفر السرى ويشكل فى الوقت نفسه وسيلة فعالة لوقف طموح وسعى السكان الى الهجرة الى الامبراطورية التركية لان احاديث العائدين من هناك عما يعانى به النازحون الى تركيا من بؤس وفقر وتعاسة وكذلك عن موقف السلطات التركية الظالم والسيئ النية من السكان على العموم ومن المهاجرين على الخصوص ، تقتل الرغبة فى النزوح .

وبمقارنة جميع المعلومات المتوافرة ، رأت وزارة الداخلية من الممكن

اعتبار حج المسلمين ظاهرة دينية بحتة تشكل إحدى سمات السكان المسلمين الكثيرين في الامبراطورية ، وتستوعى الانتباه من وجهة نظر عموم الدولة ، من حيث اهميتها الصحية اساسا .

ولهذا كان المقصود عند وضع مشروع تنظيم هذه القضية اخضاع حركة الحج لرقابة صحية فعالة قدر الامكان ؛ ولأجل معارضة التهرب المحتمل دائما من الرقابة ، ينص المشروع على توفير منافع وتسهيلات معينة لأجل الحجاج المسافرين بالسبيل الرسمي القانوني . وعلى هذا النحو يفترض المشروع منح جوازات سفر خاصة للحجاج لقاء بدل مخفض ، وتبسيط المعاملات المتعلقة بالحصول على جوازات السفر ، وتوفير مأكولات رخيصة ممكنة حسب الظروف المحلية ، وتنظيم قضاء الليل في طرق سفر مجموعات الحجاج ، وتأمين تسهيلات من حيث تعريفات السفر في السكك الحديدية . عند وضع مشروع القواعد اتخذت عدا ذلك ، اساسا ، الاعتبارات التالية .

ان الحج الى الاماكن المقدسة قد كان على الدوام ولا يزال حلما حبيبا لكل مسلم ، حلما يحققه اذا توفرت لديه الوسائل المادية الضرورية للسفر ؛ اما سائر العقبات الباقية في وجه بلوغ الهدف المقدس ، فانها لا تلعب دورا الا اذا استحال كليا القضاء عليها او تجاوزها . وفي عداد العقبات الكاداء التي يستحيل تذليلها ، لم يذكر المسلمون يوما منع الحج الذي صدر ، مثلا ، في سنوات ١٨٩٧ و ١٨٩٨ و ١٨٩٩ و ١٩٠٠ . وتجاوزا لهذا المنع اخذ قسم من الحجاج جوازات سفر عادية لاهداف زعموا انها تجارية ثم راحوا بسبيل ملتوية الى مدينة القسطنطينية حيث استعاضوا عن جوازات السفر «بالتذكرة» ؛ وغسم الآخر استغنى كليا عن جوازات السفر وانتقل الى ايران وآسيا الصغرى المجاورتين عبر نقاط حدودية يعرفها جيدا عالم الحجاج ، ويصعب فرض رقابة صارمة فيها نظرا لبعدها ووحشية مواقعها وصعوبة منالها . يؤكد مدير القنصلية في بغداد في تقرير قدمه سنة ١٨٩٧ ان «منع الحج من جانب الحكومة الامبراطورية حتى وان كان منعوما بمخاطر جديدة من المشكوك فيه ان يردع شبيعيينا من منطقة ما وراء القفقاس عن الحج كما لم يردعهم المنع المماثل المقرر لاغراض الحجر الصحي سنة ١٨٨٩ ، وليس هذا وحسب ، بل لم ينعكس ايضا اطلاقا تقريبا على عددهم في غضون جميع السنوات الخمس التي دام فيها هذا المنع ولم يسفر الا عن واقع ان الحج اخذ يجرى بدون جوازات السفر المقررة» .

ان التقييم المذكور لوضع الامور ، وان كان مبالغيا فيه بدرجة ما ، يعطى

مع ذلك المبررات للاعتراف بان المنع الكلي للسفر الى الاماكن المقدسة لا يوقف على كل حال غير قسم من الحجاج ، بينما القسم الآخر منهم يقومون بالحج مستغلين سبلا واساليب لا تغطيها اية رقابة .

فى السنوات الحرة من المنع ، يتلخص سبب التهرب من القواعد المقررة للحصول على جوازات السفر فى المصاعب التى يواجهها امر الحصول عليها . وقوام هذه المصاعب انه ينبغى ، لاجل الحصول على جواز السفر ، الذهاب الى مركز المحافظة الذى يقع احيانا بعيدا جدا عن مكان اقامة الحاج الدائمة ، وانه ينبغى دفع بدل عن جواز السفر . ان مقدار بدل جواز السفر لا يشكل طبعا بالنسبة للحجاج الميسورين عقبة ؛ اما للاغلبية الساحقة من الناس الذين هم اقل يسرا ، فان ضرورة اتفاق مبالغ كبيرة ، لا على جواز السفر وحسب ، بل ايضا على السفر الى مركز المحافظة ، انما هى امر صعب على التحقيق الى حد ان جمهور الحجاج يفضل التهرب كليا من استخراج جوازات السفر ، رغم انهم قد يتحملون فيما بعد مسؤولية معينة .

ان الحج السرى المتطور والمترسخ من قديم الزمان بين المسلمين الروس قد اتخذ تدريجيا سبلا معينة واستتبع جملة من تدابير تنظيمية معينة من جانب الافراد الذين يتراسون عادة مجموعات الحجاج . وهذه التدابير تتلخص اساسا فى اعلام السكان المسلمين بصورة سرية وفى الوقت المناسب عن موعد ومكان تجمع الحجاج ثم فى الهموم المرافقة لنقل مجموعة الحجاج سرا عبر الحدود . وعند انتهاء الحج يعود جميع الحجاج ، الذين سافروا سرا ، الى الاميراطورية بسبيل سرى ايضا بالطبع ، دون اية رقابة صحية ، ولذا بعد عبور الحجاج للحدود عائدون الى الوطن ، يبدأ السكان فى كل مرة يتعرضون لخطر من الصعب التكهن بمقاييسه حتى فى حال عدم وجود اوبئة رهيبة كالطاعون والكوليرا فى المناطق التركية والفارسية المتاخمة مباشرة لحدودنا البرية . صحيح ان الحجاج قد لا يملكون بحد ذاتهم خطرا جديا فى هذه الحالة ، لانهم ، اذا اصابوا باحد سررضين الميكروبين فى مكان ما بعيد ، يموتون او يشقون قبل الوصول الى الحدود ، ولكن الخطر يبقى بسبب الخرق البالية والالبسة وتلك الاشياء التى يحملها الحاج معه بعد ان يشتريها فى الاماكن المقدسة دون ان يتأكد طبعا مما اذا كانت توجد فى هذه الاماكن اوبئة ودون ان يدرك البتة انه قد يحمل العدوى فى صرته .

بهذا الشكل بالذات انتقل ، حسب كل احتمال ، الطاعون فى ناحية فييتلانكا ، ويمكن الافتراض بقدر كبير من الصحة ان حالات وباء الطاعون

التي لوحظت في السنوات الاخيرة في محافظة استراخان قد نجمت عن هذا السبب بالذات .

وهكذا يشكل الحج السرى في كل وقت خطرا دائما على سلامة الدولة من الناحية الصحية ؛ وفي الوقت الحاضر ، اذ اتخذ الطاعون في الهند مقاييس هائلة ، واذ يمكن ان نتوقع كل يوم انباء عن ظهور بؤر للعدوى في ايران وتركيا تشتد فداحة هذا الخطر ، ويفدو من الضروري بالتالى اتخاذ التدابير الحازمة بأسرع وقت لاجل درئه .

من الممكن مكافحة الحج السرى بسبيلين بالذات ، اما بتوفير شروط يفدو بسببها مستحيل التحقيق فعلا وغير ممكن فعلا ، واما باحاطة الحج العلنى ، السافر ، بشروط مخففة نسبيا تفقد الحج السرى كل معنى . ان السبيل الاول يتطلب من حيث الجوهر تدبيرا واحدا فقط ، ولكنه ضرورى اطلاقا ، هو انشاء خط من المخافر الحدودية على طول حدودنا مع تركيا وايران (فى القفقاس وآسيا الوسطى) من شأنه ان يجعل عبور الحجاج للحدود ، خارج النقاط المعينة ، مستحيلا فعلا . ان الاكتفاء بتعزيز الحراسة فى الاماكن التي صارت فى السنوات الاخيرة بمثابة مكان عادى لعبور الحدود بالنسبة للحجاج السريين سيكون بالطبع تدييرا لا يسفر عن شيء لان الجاويشية (ادلة مجموعات الحجاج) سيبحثون حالا بالطبع عن اماكن اخرى يجرى فيها عبور الحدود بدون مخاطر ومصاعب كبيرة ؛ اما تعزيز المخافر بالتناوب فى سبل عبور الحجاج المفتوحة حديثا ، فمن شأنه ان يؤدى بالنتيجة الى النضال اللامتناهى بين يقظة حرس الحدود وقدره الجاويشية على الاختراع ، علما بان جميع السكان المسلمين المحليين المقيمين فى مناطق الحدود سيكونون دائما معاوين ومستشارين للجاويشية .

ان تعزيز المخافر بصورة جدية على الطول الهائل لجميع حدودنا هو وحده الذى يمكن اعتباره ، كما قلنا سابقا ، تدبيرا يؤدى فعلا الى الهدف ، ولكن مقدار النفقات الذى يقتضيها هذا التدبير سيكون على درجة من الكبر بحيث انه لا يمكن تبريره الا اذا استحال بصورة بيئة تماما بلوغ الهدف بآى سبيل آخر .

ومع العدول عن التدابير الرامية الى جعل الحج السرى غير ممكن ، يصبح من الاسهل بكثير تطبيق نظام من التدابير التى بمقدورها ان تجعل الحج السرى غير ضرورى اطلاقا فى عيون المسلمين .

وفى طليعة هذه التدابير يجب فى المقام الاول العدول التام فى المستقبل عن موانع الحج .

ان هذه الموانع ، كما سبق ان قلنا ، لم توقف الحج ، ولم تفعل غير ان خلقت جمهرة من الافراد المذنبين الذين تحمل قسم منهم العقوبات المناسبة عند اكتشافهم ، ولكنها لم توفر للدولة اية حماية صحية . اما الغاء المنع في سنة ١٩٠١ ، فقد اسفر بالعكس ، وفي الحال ، عن نتيجة كبيرة الدلالة : فان عدد الحجاج العائدين عبر المجرى الصحى فى فيودوسيا كان اكبر من عدد الذين اخذوا (حسب المعلومات التى قدمها المحافظون) جوازات السفر لاجل اداء الحج . وبما انه لا ريب فى ان هذا الفائض قد تشكل من اولئك الحجاج الذين سافروا سرا قبل منع الحج ، والذين كان بوسعهم طبعاً ان يعودوا سرا ايضا متهربين من كل رقابة صحية ، فمن الممكن ان نرى من هذا ان مجرد الغاء المنع قد ادى بعد ذاته الى قيام نظام يغدو فى ظله من الممكن تطبيق التدابير الصحية الضرورية على الحجاج العائدين .

هناك سبب آخر يسفر عن الحج السرى ، هو المعاملات الشكلية المعقدة التى ترافق الحصول على جوازات السفر . ان التهرب من الحصول عليها ، كما يرى قنصلنا فى بغداد وجدة ، ينجم فى المقام الاول عن كلفتها الكبيرة وعن خارق بطء الحصول عليها .

واذا ازيلت هاتان العقبتان ، لا يبقى للحجاج اى سبب يحملهم على اللجوء الى عبور الحدود سرا ، الامر الذى تصحبه على كل حال جملة من المنغصات رغم سهولته النسبية .

ان تخفيض تكاليف الحصول على جوازات السفر بالنسبة للراغبين فى السفر لهدف واحد فقط هو اداء الشعائر الدينية قد قرره القانون (المادة ٢٥٣ من لائحة جوازات السفر) بالنسبة لتت محافظة توريدا ، ومن شأن سحب هذا التخفيض على جميع الافراد الذين يرغبون فى الحج ان يجعل مسلمى الامبراطورية جمعاء متساوين مع مسلمى محافظة توريدا (٢) .

ان منح جوازات السفر للحج من قبل رؤساء الاقضية من شأنه ان يكون الخطوة التالية فى هذا السبيل . فان المادة ٢٣٨ من لائحة جوازات السفر قد قررت نظاما كهذا بالنسبة لسكان منطقة ما وراء القفقاس المسافرين الى الخارج فى اغراض تجارية ؛ وتوسيع مجال تطبيق هذا النظام مع تطبيق مفعوله على الاشخاص المسافرين لاغراض دينية من شأنه ان يقضى على جملة كبيرة من تلك المصاعب التى يمارس المسلمون على نطاق واسع ، لاجل التهرب منها ، عادة الاستغناء عن اية جوازات سفر .

ان تطبيق التدابير المذكورة من شأنه ان يقضى على التربة التى نشأ عليها الحج السرى ، ولا يبقى بعد ذاك غير بذل الجهد لكى يجرى الحج كله

فى ذلك المجرى ، فى تلك السبل التى يكون من الاسهل فيها تنظيم الرقابة الصحية الحكومية عليه .

ولكن الهدف المذكور يمكن بلوغه بقدر كبير اذا سافر الحجاج ، لا كلا بمفرده ، بل جماعات كبيرة يكون وقت خروجها والطريق الذى قررت اتباعه معروفين سلفا . ان تنظيم هذه الجماعات باشراف افراد تعرفهم الادارة ، وقبل سفر الحجاج الى الخارج ، من شأنه ان يؤدى الى تشكيل عدد من مجموعات مختلفة من الناس تنطلق من مكان واحد لهدف واحد وترصها مصالح واحدة ، علما بانه ينبغي بلا ريب ان نتوقع توطد الصلات بين مختلف افراد كل مجموعة اثناء السفر ، ولذا يمكن بسهولة كبيرة ان تتم ايضا عودتهم بالقوام نفسه تقريبا . ان الحاجة الى توحيد الحجاج قد ادت الى ظهور فئة كبيرة من افراد اختاروا اختصاصا لهم تكوين مجموعات وقيادتها اثناء السفر . وفى الوقت الحاضر لا يبقى غير الاستفادة من الظاهرة القائمة وتنظيم نشاط هؤلاء الادلة (القادة) بتعيين واجباتهم بمزيد من الدقة وجعل اختيارهم فى الوقت نفسه رهنا الى حد ما بموافقة الادارة .

وفى ظل هذه الشروط من شأن الحج ان يفقد بقدر كبير ذلك الطابع الخطير ، المشؤوم ، من حيث احتمال انتشار الاوبئة ، الذى لا يزال يتسم به حتى الآن ، كما من شأنه بالتالى ان يصبح منظما من وجهة النظر الصحية . ونظرا لما قيل اعلاه ، تم وضع المشروع التالى بقواعد الحج :

١ - سفر المسلمين ، سواء منهم السنيون ام الشيعة ، الى الحج ، مسموح بموجب القواعد التالية ، فيما عدا الحالات التى يصدر فيها امر خاص من وزارة الداخلية بمنع الحج .

٢ - السفر الى الحجاز لاجل الحج مسموح بطريق البحر حصرا عبر احد مرافئ البحر الاسود ؛ الحجاج المسافرون الى ايران وبلاد ما بين النهرين يمكنهم السفر بطريق البحر عبر جميع المرافئ التى تقوم فيها مؤسسات الحجر الصحي او محطات الرقابة الطبية ، وبطريق البر عبر نقاط الرقابة الطبية على حدودنا البرية مع ايران وتركيا .

لا يسمح بعودة الحجاج من الحجاز وايران وبلاد ما بين النهرين الا عبر نقاط معروفة على حدودنا البحرية والبرية يعينها سنويا وزير الداخلية .

٣ - منح المسلمين الحجاج جوازات السفر للحج يقوم به سواء المحافظون ورؤساء المقاطعات وحكام المدن ام رؤساء الاقضية مع التقيد بالقواعد المقررة بالنسبة لجوازات السفر .

ملاحظة . رؤساء الاقضية يبلغون المحافظين اسبوعيا عن جوازات السفر التي منحوها للحجاج .

٤ - يسجل المحافظون ورؤساء الاقضية جوازات السفر للحج في سجل خاص مع الاشارة الى ارقامها .

٥ - الراغبون في الحج يشيرون فسى طلباتهم الى الطريق الذى سيسافرون فيه .

الطلب المذكور يوقعه مقدمه بتوقيعه شخصيا او بواسطة وكيل مفوض .
٦ - على جوازات السفر الممنوحة للحجاج يشار على الصفحة الاولى بختم احمر على الصفحة كلها عليه كلمات : «لأجل حج المسلمين» .

٧ - علاوة على المعلومات المقررة لأجل جوازات السفر ، يشار فسى جوازات السفر لأجل الحجاج على الصفحة ٣ من جواز السفر الى الامكنة التي ينوى الحاج زيارتها ونقطة الحدود التي يعتزم الحاج عبورها .

عند اعطاء الحجاج جوازات السفر ، يجب اعطاؤهم نسخة مطبوعة عن هذه القواعد بصدد الحج باللغة الروسية واللغة المحلية المعنية ، وكذلك نسخة عن التوصيات التي يرى وزير الداخلية من الضروري اصدارها (بصدد التقيد اثناء السفر بالقواعد الصحية والطبية العامة ، والاشارة الى مقرات ممثلينا فى تركيا وايران ، والمسؤولية التي يتحملها الحجاج بسبب مخالفة قواعد الحجر الصحى ، وغير ذلك) .

٨ - لا يؤخذ لقاء جواز السفر للحج غير ثمن طبع اوراقه وقدره ٥٠ كوبيكا .

٩ - جوازات السفر للحج تعطى لمدة ستة اشهر ، دون الحق فى تمديد مفعولها لمدة جديدة . فى حال تجاوز موعدها يؤخذ ثمن جواز السفر بكليته .
١٠ - لأجل تنظيم حركة الحج تنظيما صحيحا ، يسافر الحجاج ، قدر الامكان ، مجموعات منظمة ، يجب ان يكون على رأسها عمد او شيوخ (الجاويفية عند الشيعة) ينتخبهم الحجاج او يعينهم رجال الدين المحليون ويصادق على انتخابهم او تعيينهم رؤساء المحافظات او رؤساء الاقضية ، بناء على طلب من رجال الدين المسلمين المحليين . تتشكل هذه المجموعات اما فى اماكن سكن الحجاج ام فى نقطة او بضع نقاط للتجمع فى المحافظة او فى القضاء ، او فى طريق سفر الحجاج ضمن حدود الامبراطورية ، قبل صعودهم الى الباخرة .

الملاحظة ١ - عدم رغبة الحاج فى الانضمام الى المجموعة لا يجوز اعتباره مبررا لرفض منحه جواز السفر للحج وعقبة امام سفره .

- الملاحظة ٢ -** عمد او شيوخ مجموعات الحجاج السنين ، المتشكلة في الطريق ، يصادق عليهم الرؤساء المحليون في مرافق الانطلاق .
- ١١ - جمع مجموعات الحجاج من قبل اشخاص ليس لديهم ترخيص من الرؤساء المحليين بذلك ممنوع ؛ والمذنب يتحمل المسؤولية بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات التي تطبقها المحاكم الابتدائية .
- ملاحظة .** العمد او الشيوخ (الجاويشية عند الشيعة) الذين يشكلون قوافل الحجاج يتعين عليهم ان يبلغوا سلفا الشرطة المحلية بذلك مع الاشارة الى وقت تجمع الحجاج .
- ١٢ - العمد او الشيوخ (الجاويشية عند الشيعة) ملزمون بان يأخذوا لانفسهم جوازات سفر للحج وبان يرفضوا ان يقبلوا في قوافلهم الاشخاص غير المزودين بجوازات السفر اللازمة للحج .
- ١٣ - العمد او الشيوخ (الجاويشية عند الشيعة) الذين لا ينفذون المتطلبات المذكورة في البندين ١١ و١٢ يتعرضون للملاحقة القضائية بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات التي تطبقها المحاكم الابتدائية ، وذلك بصرف النظر عن حرمانهم من الحق في قيادة القافلة .
- ١٤ - يتعين على العميد (الشيخ) والجاويش وضع قوائم باسماء الحجاج والاشارة الى النقص واسباب هذا النقص ، وكذلك جمع معلومات اخرى تتعلق بحركة الحجاج واقامتهم في امكنة العبادة ، وكذلك تقديم جوازات سفر الحجاج الذين ماتوا للرؤساء المعنيين .
- ١٥ - يمكن تقديم العمد (الشيوخ) والجاويشية لمنحهم المكافآت الفخرية .
- ١٦ - مجموعات الحجاج الماضية سيرا على الاقدام او قوافل ملزمة بالتقيد بطرق السفر التي يقررها رؤساء المحافظات ويقررها كل منهم ضمن حدود المحافظة او المقاطعة الخاضعة له .
- ١٧ - عن سفر مجموعة الحجاج بشكل قوافل او سيرا على الاقدام يبلغ رؤساء الاقضية سلفا رئيس القضاء المجاور ، كما يبلغون المحافظ لاجل اعلام المحافظ المجاور ، علما بانه يجب ان يشار الى عدد افراد المجموعة واسماء وكنيات العمد (الشيوخ) او الجاويشية ، والوقت الذي ستدخل فيه المجموعة القضاء المجاور او المحافظة المجاورة .
- المجموعات المسافرة بالسكك الحديدية او بالبواخر يجب احاطة رئيس المحطة الحديدية المعنية او رئيس القضاء الذي يقع فيه المرفأ المعنى ، علما عنها قبل يومين او ثلاثة من انطلاقها .

١٨ - يتعين على المحافظين ان يؤمنوا قدر الامكان لاجل مجموعات الحجاج المسافرين بغير السكك الحديدية المأكولات بأسعار رخيصة والمباني لاجل الراحة وقضاء الليل ، وكذلك الاسعاف الطبي .

١٩ - فى نقاط الرقابة الطبية الحدودية يخضع الحجاج ، عند انطلاقهم ، للفحص الطبى ؛ والمرضى منهم يرسلونهم ، اذا رغبوا ، الى اقرب مؤسسة علاجية ؛ واذا لم تكن هناك مؤسسة من هذا النوع ، فانهم يبقون لدى نقاط الرقابة الطبية .

٢٠ - عند عودة الحجاج ، يخضعون فى نقاط الرقابة الطبية الحدودية المعنية للتدابير المقررة لاجل القادمين من اماكن خطيرة من حيث الامراض الوبائية : يخضعون للفحص الطبى ؛ يغتسلون فى حمام او تحت الدوش ؛ تخضع البستهم وبياضهم وامتعتهم للتطهير والتعقيم . يجرى فرز المصابين بالطاعون والكوليرا والحمى الصفراء ، والدفتيريا (الخنثى) ، والجسدى ، والتيفوس . والمصابون بامراض اخرى يرسلونهم ، اذا رغبوا ، الى اقرب مؤسسة علاجية ؛ واذا لم تكن هناك مؤسسة من هذا النوع ، فانهم يبقون لدى نقاط الرقابة الطبية .

فى جوازات سفر الحجاج العائدين الذين يخضعون للتدابير الصحية المذكورة اعلاه ، تختتم مؤسسات الحجر الصحى او المؤسسات الطبية الحدودية علامة على الصفحة ١٥ : «خضع للتدابير المقررة - عنوان مؤسسة الحجر الصحى او نقطة الرقابة الطبية» . العلامة ذاتها توضع على قسيمة قابلة للفصل (ص ١٩ من جواز السفر) ، ثم يفصلون القسيمة ويرسلونها الى المحافظ او رئيس المقاطعة او حاكم المدينة ، حسب مكان اقامة الحاج .

الحجاج الذين يتهربون من تنفيذ هذا البند من القواعد يحاولون السى المحاكمة القضائية بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات التى تطبقها المحاكم الابتدائية ، فضلا عن تطبيق تدابير الاحتراس الضرورية بحقهم (تعقيم الامتعة ومراقبة الاطباء) .

٢١ - نقل جثث المسلمين الشيعة الى بلاد ما بين النهرين والى ايران لاجل دفنها فى الاماكن المقدسة يجاز باذن خاص من الرؤساء المحليين ، يمنحونه فى حال عدم وجود اوثنة معدية بالغة الشدة فى المحلة المعنية . والنقل نفسه لا يسمح به الا فى وعاء محكم الاغلاق .

٢٢ - يتحتم على رجال الدين المسلمين ان يوضحوا لرعاياهم بالسفح اهمية التقيد بقواعد الحج التى تهدف الى حماية الدولة من عدوى الامراض المعدية وازالة الشروط الصحية غير الملائمة للحجاج بالذات .

وقد طرح المشروع المعروض على بساط البحث امام اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة لتدابير درء عدوى الطاعون ومكافحتها . وبعد البحث لم يستطع اعضاء اللجنة التوصل الى استنتاج اجماعى .

ولم تأت من جانب وزير الحربية ووزير المواصلات ووزير المالية ، ومدير وزارة البحرية ، سوى ملاحظات بصدد بعض بنود المشروع . اما وزير العدلية ووزير الخارجية فقد ابديا علاوة على ملاحظات بصدد بعض البنود اعتراضهما على احكام المشروع الاساسية من حيث الجوهر .

فقد لاحظ وزير العدلية ان الفرضيات التى ترد فى مشروع قواعد حج المسلمين ، الى جانب عدد قليل جدا من القواعد الصحية والتى تستهدف حماية الدولة من جلب ونشر الامراض المعدية من قبل الحجاج العائدين (القسم الثانى من المادة ٢ والمادة ٢١) ، ترمى على الاغلب الى تنظيم النشاط الادارى البوليسى الذى تقوم به هيئات الحكومة التى تراقب حج المسلمين . فضلا عن ذلك ، يقرر المشروع لاجل صحة تنظيم حركة الحج وتسهيلها : ١ - منح الحجاج جوازات السفر لقاء بدل منخفض قدره ٥٠ كوبيكا (المادة ٩) ؛ ب - ارسال الحجاج من اماكن سكنهم بشكل مجموعات منظمة بقيادة قادة خصوصيين - عمد (شيخ) يمكن تشجيع نشاطهم بمكافآت فخرية (المواد ١٠ ، ١٤ ، ١٥) ؛ ج - امكانية ترخيص سفر الحجاج فى السكك الحديدية (المادة ١٨) ، واخيرا ، د - واجب الادارة بالحرص على تأمين المأكولات الرخيصة وتوفير راحة الحجاج المسافرين ومنازلهم واسعافهم الطبى (المادة ١٩ والمادة ٢٠) . ومن هنا ينبج ان فرضيات المشروع المذكورة تتخطى فعلا حدود التدابير الصحية والطبية التى يتعين ان تصادق عليها اللجنة المؤسسة بامر من صاحب الجلالة (راجع البند الخامس من مرسوم تأسيسها) وانها تتماس فى الوقت نفسه مع فرع هام جدا من فروع ادارة الدولة يتعلق عموما بالسكان المسلمين . علما بان هذا الموضوع جدير باتتباء خاص نظرا للمعلومات المتوافرة بصدد تطوّر التعصب الدينى فى اوساط مسلمينا (راجع المعلومات والاعتبارات المعروضة فى التقرير الذى وجهه الى صاحب الجلالة المحافظ العام لتركستان ، جنرال المشاة دوخوفسكى لعام ١٨٩٩) .

ونظرا لما سبق ، وكذلك نظرا لكون بعض من القواعد المصممة ينطوى على تراجع كبير عن القانون السارى المفعول بصدد منح الحجاج جوازات السفر (المواد ٣ و ٥ و ٩ من المشروع - قارن المواد ٢١٤ و ٢٣٥ و ٢٣٧ و ٢٣٩ و ٢٥٣ و ٢٥٤ من لائحة جوازات السفر ، المجلد XIV ، طبعة

١٨٩٠) ، اعتقد وزير العدلية بدوره ان المشروع المعنى لا تمكن المصادقة عليه ، في اقسامه المذكورة اعلاه ، وهى اهم اقسامه ، الا بموجب النظام التشريعى .

ويعتقد وزير الخارجية ان التدابير التى ترد فى بعض مواد المشروع والتى ترمى الى ترخيص حركة الحجاج المسلمين وتوفير اكثر ما يمكن من التسهيلات لها فى الاراضى الروسية قد تبيث فى عقول المسلمين من رعايا روسيا الاقتناع الخاطى بان حكومتنا تحمى الحج وتشجعه . ان التدابير المذكورة تتخطى ، من حيث الجوهر ، اطار التدابير الصحية ، وتمنح الحجاج المسلمين على ما يبدو ، ما لا يتمتع به الحجاج المسيحيون والذاهبون الى القدس . قد يخيّل اننا بترخيص السفر الى مكة وكربلاء ومشهد وغيرها من الاماكن المقدسة الاسلامية لا نفعل غير زيادة عدد الافراد الذين يعتزمون الحج ، الامر الذى من المشكوك فيه اعتباره صائبا ، عقلانيا .

ان المسلمين من رعايا روسيا العائدين من الحج من الخارج وبخاصة من مكة لا يندر ان يكونوا قد تغيروا فى اتجاه ابعدهم من ان يتناسب مع اهداف الحكومة . فهم يمسون اشد تعصبا ، ويزداد عداؤهم لكل ما هو روسى ، ويسعون اكثر من سائر المسلمين الى الانزال الدينى السياسى . وبما ان المسلمين العائدين من الحج بوصفهم «حجاجا» لا يندر لهم ان يتصفوا بصفات اخلاقية مشكوك فيها ، فانهم يحظون بمكانة معينة بين اخوانهم فى الايمان وغالبا ما يؤثرون فيهم بروح غير مرغوب فيها بالنسبة للحكومة .

جميع الاعتبارات المعروضة تحمل وزارة الخارجية على قول ما يلى : اذا كان لا يصح لحكومتنا ان تمنح الحج لأن من شأن هذا المنع ان يستتبع حتما الحج السرى وعبور الحدود سرا ، فانه من غير العقلانى على كل حال اتخاذ تدابير بصدد حج المسلمين من شأنها ان تخفف وترخص الحج وتكون بالتالى بمثابة تشجيع للحج .

وعلى رأى وزارة الخارجية القائل بانه من غير المرغوب فيه منح الحجاج المسلمين اية تسهيلات وافق مفتش الدولة وممثل وزارة الزراعة واموال الدولة .

ونظرا لوجود خلاف مبدئى فى الآراء بصدد الحج ، قررت اللجنة

المؤسسة بأمر صاحب الجلالة ان تطلب من وزارة الداخلية طرح المشروع المذكور على بساط البحث امام لجنة الوزراء * .

واذ علق وزير الداخلية اهمية كبيرة جدا على اعتبارات وزارة الخارجية ، فقد اعتبر من الضروري طرح مسألة الحج على البحث المفصل للمرة الثانية من وجهة نظر الجانب السياسى من القضية . وفى هذا الصدد تجدر الاشارة فى المقام الاول الى انه يوجد فى روسيا اكثر من ١٤ مليون مسلم اى اكثر من ١٠٪ من عموم سكانها ، والى ان المسلمين يشغلون على الصعيد الاقليمى مناطق مشارف الاورال ومناطق مشارف القفقاس ، والسهوب القرغيزية ومناطق آسيا الوسطى المضمومة الى روسيا فى القرن الماضى ؛ والسكان المسلمون فى هذه المناطق الاخيرة على صلة وثيقة من القربى مع مسلمى بخارى ونوى شبه المستقلتين .

وجميع هؤلاء المسلمين البالغ عددهم ١٤ مليونا ينقسمون الى جماعتين دينيتين رئيسيتين - الى معتنقى مذهب السنة ومعتنقى مذهب الشيعة . ومن الناحية العددية ، يربو عدد السنين فى الممتلكات الروسية بصورة ساحقة على عدد الشيعيين . يتجمع الشيعيون فى منطقة ما وراء القفقاس ؛ والسنين الذين يشغلون مساحات شاسعة متواصلة فى آسيا يظلون فى روسيا الاوروبية منفترسين جزئيا فى وسط السكان الروس الذين يؤلفون الاغلبية الساحقة وقسما متركزا فى مناطق سلسلة جبال القفقاس . والقرم يستكمل مجموعة مسلمينا الجنوبيين .

كل مسلم ملزم ، بموجب تعاليم محمد ، باداء فريضة الحج ولو مرة واحدة فى العمر ، بصرف النظر عن اية عقبات ومصاعب . وهذه الفريضة يجب اداؤها - بموجب مذهب السنين - قرب الكعبة ، فى مكة ، اى قرب حرم بنى ، حسب اساطير الجزيرة العربية ، فى مكان المعبد الاولى الذى بناه ابراهيم ؛ اما الشيعة فانهم يؤدون فريضة الحج فى بلاد ما بين النهرين . ان المسلمين السنين فى روسيا الاوروبية والقفقاس والقرم لا يواجهون المصاعب فى الحج عبر القسطنطينية التى يمضون اليها عبر مرفى البحر الاسود ؛ ومن هذه المدينة ينطلقون بطريق القوافل الى الجزيرة العربية . اما المسلمون الشيعيون فانهم يمضون الى اماكنهم المقدسة بطريق القوافل على الاغلب عبر الحدود الايرانية رغم ان المسلمين الشيعيين من مشارف قزوين قد يركبون البواخر ، اغلب الظن ، حتى انزلى ورشت . واما فيما * المقصود هنا مجلس الوزراء الذى كان يسمى آنذاك بلجنة الوزراء .

المعرب .

يتعلق بأغلبية السنيين فى روسيا الآسيوية وبخاصة فى مناطق آسيا الوسطى وكذلك مجمل سكان بخارى وخوى ، فمن المشكوك فيه ان يكون من الممكن اجتذاب هذه المجموعة الكبرى بالتدابير الادارية او غيرها من التدابير الى مرافق البحر الاسود . سيكون من الممكن بالطبع توجيه مسلمى آسيا الوسطى ايضا بالقوة عبر باطوم الى القسطنطينية ، ولكن هذا التدبير سيكون ضارا مباشرة بمصالح السياسة الروسية لانه ينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبار ان الحج هو ظاهرة ذات طابع دينى سياسى . وبفضل الحج ينتعش المسلمون باستمرار ، لا فى عقائدهم وحسب ، بل ايضا فى عداوتهم لغير المؤمنين ، اى لعموم العالم الذى لا يعتنق تعاليم القرآن . وفى هذا المجال يأتى المسيحيون واليهود ، بنظر المسلمين ، اعلى نوعا ما من الوثنيين ، ولكنهم مع ذلك اعداء الله ، والله عدو لهم ، وهم اصدقاء الشيطان ، والحرب ضدهم عمل يرضى الله الذى لا يقبل حتى صلوات المؤمنين لاجل خلاص الكفار . ومن هنا ينجم ان المسلم الذى يؤدى فريضة الحج يبلغ بهذا النحو وضع القداسة ويتمتع بكبير الاحترام .

ونظرا للآراء الاكيدة السابقة ، يمكن الاعتراف بمزيد من الاحتراس بان زيارة مسلمينا للقسطنطينية لا تتناسب تماما مع مصالح سياسة عموم الدولة ؛ وبالفعل يمكن تسمية القسطنطينية بالنسبة للحجاج باكاديمية نزعة الجامعة الاسلامية . فمن تاجر عادى يتحول المسلم الى داعية لفكرة مفادها ان صولجان الحكم المطلق العالمى سينتقل عاجلا ام آجلا الى استنبول ، بوصفها مركز الدين الاسلامى .

وثيقة توضيحية

١ . قرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ .
استمعوا الى : بيان السيناتور دورنوفو ومفاده انه عندما كان وزير الداخلية فى الفرع ، قدم اليه مفتى توريدا طلبا بالسماح بحج المسلمين فى السنة القادمة ، سنة ١٩٠١ ، وان اليغرميستر سيبياغين (٣) قد يعترف بإمكان جواز الحج فى هذه السنة ، حتى تنظيم هذه القضية بصورة عامة ، على الاسس التالية :

١ - عند منح جوازات السفر للحج الى الحجاز يجب اخذ تعهد كتابى بان الحاصل على جواز السفر سيسافر الى الحجاز بطريق البحر ، عبر احد

مرافئنا على ساحل البحر الاسود ويعود الى الوطن بطريق البحر ايضا ، عبر اوديسا او فيودوسيا او باطوم او بوتى او نوفوروسيسك * .

٢ - فى مؤسسات الحجر الصحى فى هذه المرافئ يخضع الحجاج العائدون ، بصرف النظر عن التدابير المقررة لاجل السفن القادمة ، للتدابير التالية : يجب ان يفتسلوا فى الحمام او تحت الدوش ، ويجب تعقيم الالبسة والبياض .

٣ - يشار فى جوازات سفر الحجاج الى تنفيذ عملية التعقيم . غياب هذه الاشارة الذى يثبت ان الشخص المعنى تهرب من التدابير الصحية يستتبع معاقبة المذنب ناهيك عن اتخاذ تدابير الاحتراس الضرورية .

٤ - من الضروري الزام رجال الدين المسلمين بان يوضحوا للسكان على الدوام الهدف الحقيقى لهذا الامر الحكومى .

قرروا : تفويض وزير الداخلية بالسماح بحج المسلمين فى سنة ١٩٠١ على سبيل التجربة ، بموجب الاسس التى عرضها .

II . الرسائل التعميمية لوزارة الداخلية المتعلقة بالسماح بالحج .

١ - بتاريخ ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ تحت الرقم ٢٤١٤ . وفقا لقرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء علوى الطاعون ومكافحتها اعترف بان من الممكن السماح بحج المسلمين الى مكة والمدينة ، فى سنة ١٩٠١ ، حتى تنظيم هذه القضية بصورة عامة من باب التجربة ، على الاسس التالية (« بشير الحكومة » . ٢١ كانون الاول ١٩٠٠ ، العدد ٢٨٤) :

١ - عند منح جوازات السفر للحج الى الحجاز يجب اخذ تعهد كتابى بان الحاصل على جواز السفر سيسافر الى الحجاز بطريق البحر عبر احد مرافئنا على ساحل البحر الاسود ويعود الى الوطن بطريق البحر ايضا عبر فيودوسيا وباطوم وهدما .

٢ - فى مؤسسات الحجر الصحى فى هذين المينائين يخضع الحجاج العائدون ، بصرف النظر عن التدابير المقررة لاجل السفن القادمة ، للتدابير التالية : يفتسلون فى الحمام او تحت الدوش ، يجب تعقيم الالبسة والبياض .

٣ - يشار فى جوازات سفر الحجاج الى تنفيذ عملية التعقيم . غياب هذه الاشارة الذى يثبت ان الشخص المعنى تهرب من التدابير الصحية

* والى هذه القائمة يمكن ضم سياستوبول وفياتوريا .

يستتبع معاقبة المذنب بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات ناهيك عن اتخاذ تدابير الاحتراس الضرورية .

الامر المذكور ، الذى الغى القرارات الصادرة من قبل بصدد منع الحج الى الحجاز منعاً تاماً ، قد صدر على اساس الاعتبار القائل ان حرمان مسلمينا من امكانية تلبية هذه الحاجة الدينية الفائقة الاهمية التى هى الحج ، اذا كان مستمرا بضع سنوات على التوالى ومشكلا بالنسبة لهم تضييقاً مرهقاً فعلاً ، يستتبع فى الوقت نفسه الحج السرى وعبور الحدود سرا . ولذا اعتبر من الممكن السماح من جديد بمنح جوازات السفر لاجل السفر الى الحجاز مع تقييد هذا السماح بشروط ضرورية بالتاكيد لاجل القضاء على الخطر من الناحية الصحية المتعلق بهذه الحركة وبخاصة لدن عودة الحجاج .

ونظراً لما ورد اعلاه ، لى الشرف بان اطلب منكم يا صاحب السعادة ، ببالح الطاعة ، الا ترفضوا اصدار الاوامر التالية فى هذه القضية .

١ - يجب ان نوضح لرجال الدين المسلمين ونعرض عليهم اغتنام كل فرصة على الدوام لى يسوخوا بدورهم لرعاياهم كل ضرورة الخضوع للمقتضيات المذكورة النابعة من اعتبارات حماية الدولة والحجاج انفسهم على الصعيد الصحى .

٢ - عند اخذ التعهد الكتابى بموجب البند الاول من الامر المنشور فى «بشير الحكومة» ، العدد ٢٨٤ ، يجب ان توضح للحجاج سواء الاهمية الصحية لمطلب السفر بطريق البحر ام المسؤولية التى سيتحملونها فى حال عدم تنفيذ هذا المطلب . ان اقرار شكل هذا التعهد الكتابى يخضع لراى الرؤساء المحليين فى المحافظات .

٣ - اذا خلا جواز سفر العائد من اشارة من جانب المحجر الصحى تعمل السلطات المحلية فى مكان سكن الحاج بموجب البند ٣ من الامر المنشور فى «بشير الحكومة» ، العدد ٢٨٤ .

ب - بتاريخ اول اذار (مارس) ١٩٠١ - العدد ٣٩٩ . تكميلاً للعرض الوارد فى الرسالة التعميمية بتاريخ ٣١ كانون الاول (ديسمبر) من السنة الماضية ، العدد ٢٤١٤ بصدد شروط السماح بحج المسلمين الى الحجاز ، لى الشرف بان اطلب بكل طاعة منكم ، يا صاحب السعادة :

١ - فرض رقابة صحية فى منتهى الدقة والصرامة على جميع المسلمين العائدين من الخارج الى حدود المحافظة المعهود بها اليكم .

٢ - اذا ثبت ان الحجاج الذين حجوا الى الحجاز وعادوا الى روسيا ، لا عبر المحجر الصحى فى فيودوسيا او عبر المحجر الصحى فى باطوم ،

يجب اخضاع هؤلاء الحجاج للمراقبة الطبية في اماكن سكنهم في غضون عشرة ايام ، واخضاع البستهم وبياضهم وكذلك امتعتهم على العموم لتعقيم صارم .
٣ - يجب ابلاغ وزارة الداخلية عن عدد الحجاج العائدين الى المحافظة المعهود بها اليكم مع الاشارة الى عدد الحجاج المذنيين فسى عدم تنفيذ المطالب المفروضة بصدد الحج .

III . قرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠١ .
يتبين من التقارير الواردة الى وزارة الداخلية من رؤساء المحافظات ان المسلمين شرعوا في الوقت الحاضر يسعون الى منحهم جوازات السفر لاجل السفر الى مكة ، وانه يصعب على بعض المحافظين ان يلبوا هذه الطلبات لان قرار اللجنة المؤسسة بامر صاحب الجلالة بصدد التدابير لدرء عدوى الطاعون ومكافحتها ، الصادر بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ لا يسمح بحج المسلمين الا في سنة ١٩٠١ حتى تنظيم هذه القضية بصورة عامة .
قرروا : حتى صدور قواعد بصدد حج المسلمين مقرررة حسب الاصول ، يجب تخويل وزير الداخلية تمديد فعل قواعد السماح بحج المسلمين الى الحجاز الصادرة بموجب قرار اللجنة بتاريخ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ بحيث تكون هذه القواعد سارية المفعول في سنة ١٩٠٢ .

IV - خلاصة آراء رؤساء المحافظات في الرسالة التعميمية لوزارة الداخلية بتاريخ ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ تحت الرقم ١١٥٩

حرصا على وضع قواعد دائمة للحج من شأنها ان تؤمن سلامة هذه الحركة على الصعيد الصحي ، ورغبة في الاستفادة في هذه الحال من دروس تجربة سنة ١٩٠١ عرضت وزارة الداخلية بالرسالة التعميمية الصادرة في ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ تحت الرقم ١١٥٩ على رؤساء المحافظات ابلاغ اعتباراتهم في هذا الصدد ، وكذلك المعلومات في المسائل التالية :

١ - باى قدر من الدقة تم تنفيذ القواعد المقررة للحج ؛ اذا كانت قد حدثت حالات تهرب ، فما هو قوامها ، واية تدابير اتخذت عند عودة الحجاج الذين ليست لديهم الوثائق اللازمة التي تؤكد تنفيذ المتطلبات المقررة (التدابير الصحية ، الاحالة الى المحاكمة) .

٢ - هل تتوفر معلومات عن سفر الحجاج عن غير الطريق المحسرى المقرر عبر مرافق البحر الاسود . اذا كانت قد لوحظت حالات من هذا النوع ،

فباى سبل سافر الحجاج ، والى اية وسائل لجأوا للتهرب من القواعد الموجودة .

٣ - اذا كان الحج السرى استمر فى سياق السنة الجارية ايضا ، فما هى الاسباب المباشرة التى دفعت اليه ، واية تدابير كان من الممكن اتخاذها لازالة هذه الظاهرة .

٤ - كيف مضى الحجاج من اماكن السكن ، وهل تشكلت جماعات ؛ اذا كانوا قد انتخبوا عمدا (شيوخا) ، فايما كانت مواقفهم من سائر اعضاء الجماعة ؛ فى اى نقاط تشكلت الجماعات ، كم كان عدد افراد كل جماعة ، باى قسط اشتركت الادارة المحلية فى قضية تنظيم الجماعات .

٥ - وقت منح اول وآخر جواز سفر للحج فى سنة ١٩٠١ وعدد جوازات السفر الممنوحة فى كل اسبوع ، وكذلك عدد الحجاج الذين سافروا وعادوا مع الاشارة الى سبب عدم العودة اذا كان معروفا .

٦ - اية تدابير اتخذت لاجل ازالة التباطؤ فى منح جوازات السفر للحج . لقد صعب على ٤٩ محافظا وعلى مدير الشرطة فى فرسوفيا وحاكم مدينة نيقولايف ابداء آرائهم فى هذا الصدد من جراء تفاهة عدد الحجاج او حتى عدم وجودهم فى المحافظات المعهود بها اليهم .

وفيما يلي ترد آراء ٢٩ محافظا و٤ من حكام المدن ، ومدير الشرطة فى موسكو ، ورئيس دائرة زاكاتالى .

١ - فيما يتعلق بتنفيذ الحجاج للقواعد المقررة يوجد ٢٦ تقريرا من محافظى استراخان وفياتكا وايليسايتبول وقازان وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وسامارا وساراتوف وتوريدا وتامبوف وتفليس واوفا ويريفان ، والحكام العسكريين فى مقاطعات كوتايس وداغستان والاورال وسير داريا وتورغاى ، وحاكمى مدينتى اوديسا وكيرتش-اينيقلعة ، ومدير الشرطة فى موسكو ورئيس دائرة زاكاتالى . منها يدل ٢٤ تقريرا على ان الحجاج تقيدوا بدقة بالقواعد المقررة .

اما الانحرافات عن هذه القواعد ، فقد اشار اليها محافظ يريفان ، والحاكم العسكرى لمقاطعة داغستان ورئيس دائرة زاكاتالى ، وتلخصت فى خلو جوازات سفر الحجاج من التأكيد على عودتهم عبر مدينة فيودوسيا او عبر مدينة باطوم (الحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان ، حالتان) ، وعدم وجود جوازات السفر بالذات مع الحجاج (محافظ يريفان - حالة واحدة ، ورئيس دائرة زاكاتالى - ٢٤ حالة) والحج بجواز السفر العادى (محافظ يريفان - ٦ حالات) . فيما يتعلق بالحجاج المذكورين الذين لم ينفذوا

المتطلبات المقررة طبق الحاكم العسكري في مقاطعة داغستان ورئيس دائرة زاكاتالى الرقابة الطبية الصحية ، والتعقيم والاحالة الى المحاكمة ، ولجأ محافظ يريفان الى فرض الفحص من جانب طبيب القضاء والاحالة الى المحاكمة بموجب المادة ٦١ والمادة ٦٢ من لائحة العقوبات وطبق محافظ ايليسافتبول فى ١٤ حالة من الحج السرى المراقبة الطبية مدة عشرة ايام وتعقيم الانشاء والاحالة الى المحاكمة بموجب المادة ٢٩ من لائحة العقوبات .

٢ - محافظو استراخان وفياتكا وقازان وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وساراتوف وسامارا وتوريدا وتامبوف وتفليس واوفا ، والحكام العسكريون فى محافظة كوتاييس ومقاطعة جيتس الدون ومقاطعات الاورال وسير داريا وتورغاي ، ورئيسا مقاطعة ما وراء قزوین ومقاطعة كوبان، ورئيس دائرة زاكاتالى، وحاکما مدينتى اوديسا وكرتش-اينقلعة ، ومدير الشرطة فى موسكو لا يملكون معلومات عن سفر الحجاج عن غير الطريق البحرى المقرر ، عبر مرافى البحر الاسود .

الا ان محافظى يريفان وايليسافتبول (٤) وحدهما ينسيران : الاول ، الى ان الحجاج سافروا الى مكة والمدينة بالطريق البرى ايضا عبر ايران وتركيا ، علما بانهم استحصلوا على جوازات سفر عادية عند عبور الحدود سواء بواسطة معارفهم ام بواسطة عمدتهم (جاویشيتهم) وتابعوا السفر بلا عائق ؛ والثانى ، الى ان سكان قضاء نوخا (٥) - ١٣ شخصا - سافروا سرا عبر كرمانشاه وبغداد الى كربلاء الفارسية * وعادوا بالطرق نفسه .

٣ - محافظو استراخان وفياتكا وقازان ومينسك وموسكو ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وريازان وسامارا وساراتوف وسيمبيرسك وستافروبول وتوريدا وتفليس وتامبوف ، والحكام العسكريون فى مقاطعات كوتاييس وما وراء قزوین وكوبان وتورغاي ، وحكام مدن اوديسا وكرتش-اينقلعة وسيباستوبول ، لم يلاحظوا فى السنة الجارية حجا سرى .

لاحظ محافظا ايليسافتبول واوفا والحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان حالات من الحج السرى .

اما الاسباب التى دفعت الى ذلك ، فقد كانت : منع الحج (محافظا ايليسافتبول واوفا ، والحاكم العسكرى فى مقاطعة داغستان ، ورئيس مقاطعة كوبان) ؛ عدم الرغبة فى الخضوع للقواعد المقررة (حالة واحدة ، الحاكم العسكرى لمقاطعة داغستان) ؛ عدم الرغبة فى دفع البديل المقرر عن جواز السفر (الحاكم العسكرى فى منطقة سير داريا) .

* هكذا فى النص الاصل . العرب .

من الممكن ازالة ظاهرة الحج السرى بالسماح سنويا بهذه الحركة (محافظة ايليسافتبول واوفا ويريفان ، والحاكم العسكرى فى مقاطعة الاورال ، ورئيس مقاطعة كوبان) واقرار عقوبة بالنسبة للمخالفين بصورة غرامة نقدية تربوا على بدل جواز السفر (الحاكم العسكرى فى منطقة سير داريا) . وعدا ذلك ، كما يرى الحاكم العسكرى فى منطقة الاورال ، وبما ان السكان المحليين وكذلك موظفى الادارة العامة القرغيزية ، يعرفون عادة ، عزم كل قرغيزى يرغب فى السفر الى الاماكن المقدسة الاسلامية قبل تنفيذ هذا العزم بزمان طويل ، فان الحج السرى ، اذا ما توفرت الرقابة اللازمة من جانب الادارة المحلية ، انما يمكن درؤه تماما ، كما ان ازالته رهن كليا بنشاط الموظفين المذكورين اللازم ورقابتهم الدقيقة .

٤ - فيما يتعلق بتشكيل الجماعات من الحجاج عند انطلاقهم ، وردت تقارير من ١٨ محافظا ومن مدير الشرطة فى موسكو ومن رئيس دائرة زاكاتالى .

يفيد محافظو استراخان وقازان ونيجنى نوفغورود واورنبورغ وبنزا وريازان وسامارا وسيمبيرسك وتوريدا وتامبوف وتفليس ، والحاكم العسكرىون فى مقاطعات تورغاي وما وراء قزوين وكوبان ، ومدير الشرطة فى موسكو ان الحجاج يسافرون كلا بمفرده وفى حالات نادرة (محافظو استراخان وقازان وسيمبيرسك والحاكم العسكرى فى مقاطعة تورغاي) جماعات من شخصين او ثلاثة .

والى تشكل الجماعات يشير محافظا ايليسافتبول ويريفان ورئيس مقاطعة كوبان والحاكمان العسكرىان فى مقاطعتي الاورال وسير داريا ورئيس دائرة زاكاتالى .

يفيد محافظ. ايليسافتبول ان الراغبين فى اداء الحج قد تجمعوا فى امكنة سكنهم فى جماعات من ٣ اشخاص ، ٢٥ شخصا ثم انطلقوا فى خطوط معينة بقيادة قادة عمد (شيوخ) ، يستمرهم محليا بالجاوشية .

وقد كان الجاوشية-العمد (الشيوخ) قادة ومستشارى الحجاج فى كل مدة سفرهم الى الحج وعودتهم الى الوطن . اما الحجاج ، الذين كانوا يخضعون لهم بلا قيد ولا شرط ، فقد تعهدوا باعائتهم على حسابهم ؛ وكان عليهم ، فى حال سلامة العودة الى الوطن ، ان يدفع كل منهم مبلغا يتراوح بين ١٠ روبلات و ٢٥ روبلا ناهيك عن تقديم الهدايا . وكدليل ساطع على واجبات الجاوشية المفصلة ، يسوق المحافظ من المصادر المتوفرة رسميا

وصف نشاط الجاويش المعروف الحاج زكريا نوح اوغلي ، في السنة الجارية ؛ وهذا الجاويش هو من مواليد مدينة نوحا ، وهو يعتبر الجاويش الدائم لحجاج نوحا . وبما ان الجاويش زكريا هو عمليا قائد جماعة نوحا من الحجاج ، فقد ادى ، فيما ادى ، المهام التالية : بعد ان وصل مع الحجاج الى باطوم عبر ايفلاخ ، انزل الحجاج في خانات الحجاج في باطوم ، وسعى الى الحصول من اجلهم على جوازات السفر والى شراء التذاكر للسفر على الباخرة الى القسطنطينية ، ثم رافق الحجاج الى القسطنطينية وانزلهم هناك في الخانات ، ودبر لاجل الحجاج وثائق تركية واستأجر لهم باخرة تنقلهم الى الاسكندرية (جدة) ؛ وبعد ان اُمن الجاويش زكريا على هذا النحو سفر الحجاج الى الحجاز ، بقى في استنبول ؛ وعندما عاد الحجاج الى هذه المدينة ، رافقهم الى فيودوسيا . وبينما كان الحجاج في فيودوسيا يخضعون لاجراءات الحجر الصحي والتدابير الصحية ، راح الجاويش زكريا الى مدينة نوحا لاجل اعلام وتهنئة عائلات الحجاج واقاربهم بسلامة عودة الحجاج الى الوطن . وانتهت مهمة الجاويش زكريا باستقبال الحجاج بمهابة واحتفال في قرية جعفر آباد الواقعة على طريق ايفلاخ - نوحا ؛ وفي هذا اللقاء وفي مرافقة الحجاج حتى مدينة نوحا اشترك كثيرون من اقاربهم .

ويقيد رئيس مقاطعة كوبان ان الحجاج انطلقوا جماعات من اماكن سكنهم الى احد مرافق البحر الاسود ، وعلى الاغلب الى مدينة توفوروسيسك ، وانتخبوا بانفسهم شيخا (رئيسا) لجماعتهم خضعوا بكل دقة لاوامره في الطريق . والشيخ المنتخب ، الذي هو على الأرجح ممن سبق ان كانوا في مكة ، يشرف على تموين الحجاج اثناء السفر وعلى الحسابات مع شركات البواخر ، والنخ . .

ويشير الحاكم العسكري في مقاطعة الاورال الى ان الحجاج الذين زاروا الاماكن المقدسة الاسلامية في السنة الجارية ، والذين هم من مواليد قضاء ايشينسك قد انطلقوا جماعة باشراف عميد (شيخ) انتخبوه خصيصا وهو ملا ناحية تشيلكار ، احمدجان باي محمدوف . في البداية تشكلت الجماعة في الطريق الى مدينة اورالسك من القرغيز ، ثم تكونت نهائيا في مدينة اورالسك من ٢٨ شخصا .

ويقيد محافظ يريفان ان الحجاج يشكلون دائما في حال السفر العلني من اماكن السكن ، جماعات متفاوتة الكبر ؛ اما في حال السفر السري ، فان الحجاج يشكلون جماعات بعد اجتياز الحدود . وفي هذه الحالة تمضى

الجماعات عادة بمشاركة الجاويشية . والحجاج انفسهم يحددون عدد افراد الجماعة ، وهو يتراوح بين ١٥ و ٢٥ شخصا ، رغم انه لا ريب فى انه تتشكل احيانا جماعات اكبر . وعادة يجرى وداع واستقبال جماعات الحجاج من جانب المعارف والاقارب فى جو احتفالى ، ويشترك دائما فيهما عدد كبير منهم .

ويشير رئيس دائرة زاكاتالى الى ان الحجاج من الدائرة ينطلقون فى آن واحد تقريبا وجماعات كبيرة ، ولكن لم تظهر فيها اية مبادئ للنمط التعاوني . اما فيما يتعلق بمشاركة الادارة المحلية فى قضية تشكيل الجماعات ، فقد اعطى جميع رؤساء المحافظات المذكورة جوابا سلبيا ، ما عدا الحاكم العسكرى فى مقاطعة الاورال ؛ فهو يفيد بصدد تشكيل جماعة واحدة ان الادارة المحلية لم تشترك الا بصورة غير مباشرة ، وانها حاولت ان توجه الحجاج بشكل جماعة لاجل الحصول فى آن واحد على جوازات السفر من الهيئة المعنية .

هـ - فيما يتعلق بعدد جوازات السفر الممنوحة ، وتوزع هذا العدد حسب الاشتهر وكذلك بعدد الحجاج العائدين وردت معلومات من محافظى استراخان وباكو وايليسافتبول وقازان وموسكو ونيجنى نوفغورود واورتبورغ وبنزا وبطرسبورغ وريازان وسامارا وساراتوف وسيمبيرسك وتوريدا وتامبوف وتفليس وتوبولسك واوفا ويريفان ، ومن الحكام العسكريين فى محافظة كوتاييس ومقاطعات جيش الدون وداغستان وما وراء قزوين وكوبان وسير داريا والاورال وحكام مدن اوديسا وبطرسبورغ وسيباستوبول وكرتش-اينقلعة ورئيس دائرة زاكاتالى . عدد جوازات السفر التى منحوها شهريا تتوزع كما يلى :

٧٤٢	كانون الثانى (يناير)
١٥٨٨	شباط (فبراير)
٤٨	آذار (مارس)
١	نيسان (ابريل)
٧	ايار (مايو)
٤	حزيران (يونيو)
—	تموز (يوليو)
—	آب (اغسطس)
—	ايلول (سبتمبر)

-	تشرين الاول (اكتوبر)
٣	تشرين الثانى (نوفمبر)
٣	كانون الاول (ديسمبر)
<hr/>	
٢٣٩٦	المجموع

وعن الحجاج العائدين ، وكذلك عن اسباب عدم العودة لا يفيد غير بعض من المحافظين . ويستفاد من معطياتهم ان ١٤٣٤ شخصا قد سافروا لاداء فريضة الحج وان ١٠٩٦ منهم عادوا وان ٤٠ قد ماتوا . ويستفاد من تقرير رئيس دائرة الحجر الصحى فى فيودوسيا ان ٦٥٢٩ حاجا قد عادوا عبر هذا المجرى فى الحقبة الممتدة من اول كانون الثانى (يناير) الى ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٠١ بمن فيهم ٢٣٩ من تتر روسيا الاوروبية و٢٤٧ من محافظات سيبيريا ، و٢٧٠٠ من اقليم تركستان ، و٢٣٦٠ من القفقاس وما وراء القفقاس ، و٢٤١ من بخارى ، و٤٣٢ من رعايا الصين ، و٢٠٥ من رعايا ايران ، و١٠٥ من رعايا تركيا .

٦ - افاد ١٦ محافظا من اصل ٢١ محافظا ان جوازات السفر اعطيت بدون ملاحظة ، وافاد محافظ ريزان ان الحجاج قد نالوا جوازات السفر فى اليوم الثانى من تقديم طلباتهم ، وافاد رئيس مقاطعة كوبان ان جوازات السفر اعطيت فى اغلبية الاحوال فى يوم حضور الحجاج الى ايكاتيرينودار او فى اليوم التالى ، لأن طالبى جوازات السفر قدموا المعلومات الضرورية شخصيا من الشرطة عن عدم وجود عوائق تحول دون سفرهم الى الخارج . واعتبر محافظ ايليسافتبول والمحافظ العسكرى فى مقاطعة داغستان وحاكم سيياستوبول من الضرورى لاجل القضاء على التباطؤ فى منح جوازات السفر للحج اتخاذ التدابير التالية :

محافظ ايليسافتبول - على رؤساء الاقضية ان يمنحوا افادات موقفة تسمح بالحصول على جوازات السفر وان يقتصروا على ما تفيده السلطة القضائية بصدد عدم ملاحقة الحجاج فى دعاوى جزائية .

المحافظ العسكرى فى مقاطعة داغستان - يجب تعزيز نشاط الدواوين دون استثناء ايام الاحاد والاعياد .

امر حاكم سيياستوبول الشرطة بان تقدم شتى ضروب المساعدة للقادمين ، وذلك بارسالهم مباشرة الى ديوان الحاكم ، لاجل الحيلولة دون استغلالهم من قبل مختلف السماسرة . ولاجلهم اعدوا فى الديوان اوراقا

بطلبات مطبوعة ، وبيانات للخرينة ، والتعهد المأخوذ منهم وفقا للبند ٢ من الرسالة التعميمية بتاريخ ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ تحت الرقم ٢٤١٤ . وعند اطلاعهم على هذه الرسالة التعميمية كان يحضر دائما مترجم لأنه كان من النادر جدا ان يفهم احد منهم الروسية ، وبالأحرى ان يتكلم الروسية .

وحسب تجربة السنة الجارية ، يعتبر رؤساء المحافظات قواعد الحج المقررة عقلانية تماما ويرون من المرغوب فيه المدول عن منع الحج بوصفه تدبيراً لا يسفر عن نتائج ايجابية ، وربط السماح بالحج في المستقبل ايضا بالقواعد ذاتها ؛ ويشير محافظ باكو الى عقلانية السماح بالحج كذلك الى مشهد وكر بلاء مع اقرار قواعد صحية لاجل الحجاج الذاهبين الى هذين المكانين مثل القواعد المقررة لاجل الحجاج الى مكة .

رغبة في فرض الرقابة الصحية في الوقت المناسب على الحجاج العائدين ، يقترح محافظا استراخان وسيمبالاتينسك ان يتقرر ما يلي : جوازات السفر لا يمنحها للمسلمين غير المحافظين حسب محل اقامة المسلمين ؛ كما يقترحون النظام التالي : عن كل جواز سفر ممنوح في المحافظات الاخرى يبلغ رؤساء هذه المحافظات ، في نفس الوقت الذي يسلمون به جوازات السفر محافظ المنطقة التي يعيش فيها بصورة دائمة الشخص الذي حصل على الجواز . ومن جهة اخرى ، كما يرى محافظ موسكو ، تظهر المخاوف من امكان نشوء الحج السرى في المستقبل اذا صدقت الاشاعات المتسربة الى الاوساط الاسلامية والزاعمة ان جوازات السفر لن تعطى الا في مراكز تلك المحافظات التي ينتمى اليها الحجاج رسميا وليس في المدن الكبيرة الواقعة في الطريق ، كما يجري الآن . هذا التدبير سيزيد كثيرا بذل الوقت والنقود ولذا سيكون مرهقا .

قانون

I - مجموعة القوانين . المجلد الاول ، تشكيل لجنة الوزراء ، طبعة سنة ١٨٩٢ .

المادة ٢٤ - من عداد القضايا الجارية ، تحال الى اللجنة من الوزارات : ١ - ؛

٢ - القضايا التي يساير الشك الوزير في حلها وتنفيذها ؛

٣ - القضايا التي يتجاوز حلها حدود السلطة المخولة بصورة خاصة لكل وزير ، والتي تتطلب الحل من قبل صاحب الجلالة .

II - مجموعة القوانين . المجلد ١٤ ، اقرار جوازات السفر ، طبعة سنة ١٨٩٠ .

المادة ٢١١ - منح جوازات السفر للاشخاص من جميع المراتب على العموم بما فيها مرتبة النبلاء ، يقوم به كبار رؤساء المحافظات ؛ اما حيث لا وجود لهم او حيث هم غائبون ، فيقوم به المحافظون وحكام المدن .

المادة ٢١٢ - اوراق جوازات السفر يجرى تحضيرها لدى وزارة الداخلية ؛ وهذه ترسلها حسب الارقام المتسلسلة المسجلة فيها الى جميع المحافظين بقدر ما تدعو الحاجة ؛ ولتجنب النقص فيها ، يجب ان تصل الطلبات بشأنها في الوقت المناسب . عن جوازات السفر الممنوحة تحال قوائم شهرية الى هذه الوزارة بالذات .

المادة ٢١٤ - عند منح جوازات السفر تراعى القواعد العامة التالية :

١ - كل من رعايا روسيا ، ايا كان لقيه ، ملزم ، اذا ما اعتزم السفر الى الخارج ، بان يتقدم بطلب من المحافظ ويقدم بالاضافة شهادة من الشرطة تفيد بعدم وجود اية عقبة قانونية تحول دون سفره .

٢ - يجب على القاطنين في مدن الاقضية ان يراجعوا الرؤساء المحليين الذين يبلغون المحافظ بذلك مع الشهادة اللازمة التي تفيد بعدم وجود عوائق تحول دون سفرهم ، وان الوثائق بدفع الرسوم المتوجبة مؤمنة .

٣ - الدوائر والاشخاص الذين يتوقف عليهم منح الراغبين في السفر الى الخارج شهادات بعدم وجود عوائق تحول دون ذلك ، ملزمة باعطاء هذه الشهادات اذا لم تكن قد تسجلت او وردت بموجب الاصول المقررة الى هذه الدوائر او الى هؤلاء الاشخاص ، في يوم اعطاء الشهادات المعنية ، مطالب شرعية ضد الراغبين في السفر الى الخارج من جانب الدائنين الخصوصيين او من جانب الدوائر والاشخاص الحكوميين .

٤ - يدرس المحافظون الطلبات بهذا الصدد دون تباطؤ ويسمحون بمنح جوازات السفر بدون معاملة اذا لم تكن ثمة عوائق قانونية . واذا توفرت اسباب وجيهة خاصة ، يُسمح باخذ افادة عن عدم وجود عقبة تحول دون السفر الى الخارج بكفالة اشخاص معروفين بامانتهم .

المادة ٢٣٥ - التركمان والكلميك الذين يسافرون الى الخارج ، الى

مكة والتيبث وغيرهما من الاماكن ، يحصلون على جوازات السفر من رئاستهم المحلية بترخيص من وزارة الخارجية .

المادة ٢٣٧ - التتر من القرم المسافرون الى الحج يتعين عليهم ان يقدموا للرئاسة المحلية كفالة من المشاعيات التي ينتمون اليها تفيد بعدم وجود عوائق تحول دون سفرهم وتفيد ان شؤونهم الاقتصادية لن تختل من جراء ذلك ، وان دفع الرسوم وكذلك اداء سائر الفروض مؤمنان . تتأكد الرئاسة المحلية من مأمونية الكفالة المعنية وتبلغ بذلك رئاسة المحافظة التي تمنح المسافرين جوازات السفر بموجب المادة ٢١٤ .

المادة ٢٣٨ - فيما وراء القفقاس يجرى منح جوازات السفر لسكان الاقضية المجاورة لتركيا وايران وسكان موانئ ريدوت-قلعة (٦) وبأكو ودربند سواء في مراكز محافظاتهم ام في مراكز دوائر القضاء حسب الاسس التالية : ١ - لا تعطى الجوازات الا للاشخاص المسافرين الى الخارج فى شؤون تجارية ولمدة لا تزيد على ستة اشهر ؛ ٢ - ينبغي ان يكون رؤساء الاقضية مزودين لهذا الغرض بجوازات سفر بالاعداد التي يرتأها المحافظون ؛ وهؤلاء يعطون رؤساء الاقضية سجلا ذا شريط لتسجيل جوازات السفر ؛ يتعين على الذين حصلوا عليها ان يوقعوا فيه اسماءهم ، كما يتعين على رئيس القضاء ان يبلغ عن كل تسليم لجواز سفر المحافظ الذى يخضع له ؛ ٣ - لا يجرى تسليم جوازات السفر الا بعد التحقق الدقيق من ان طالب السفر الى الخارج لا تحول دونه ودون السفر اية عقبات ، اى ان طالب السفر ليس قيد المحاكمة والتحقيق ، ولا علاقة له بهما ؛ وانه لا سترتب عليه دفع اية اتاوى ورسوم وضرائب للخرينة واية رسوم بلدية وغير ذلك من الضرائب المتأخرة ؛ وانه لا يواجه اية مطالب بديون خاصة مترتبة عليه للغير ، باستثناء الحالات التى يوافق فيها الدائن بالذات على سفره ؛ واخيرا ان يقدم طالب السفر كفالة من المشاعية بدفع الرسوم والضرائب عنه اذا لم يرجع لاسباب ما فى الموعد المعين .

ملاحظة . تحوّل ادارة قضاء شيماهه تسليم جوازات سفر قصيرة المدّة لسكان قضاء شيماهه المسافرين الى الخارج ، بموجب القواعد الواردة فى هذه المادة (٢٣٨) .

المادة ٢٣٩ - فى مقاطعة ما وراء قزوين يعطى رئيس المقاطعة جوازات السفر : ١ - للمسلمين من رعايا روسيا المسافرين الى مكة لاجل الحج ، وكذلك للاجانب الذاهبين من البلدان الاسلامية المجاورة عبر اراضى المقاطعة الى الخارج ، و ٢ -

- المادة ٢٥٣ - لقاء دفع بدل طبع الاستمارات ، تعطى جوازات السفر :
- ١ - للأشخاص المسافرين الى القدس لزيارة الأماكن المقدسة .
- ٨ - للارمن والمسلمين المقيمين في منطقة ما وراء الففتاس او القادمين اليها مؤقتا ، في حال سفرهم الى المناطق الايرانية والتركية المجاورة ، وكذلك لمسلمي محافظة توريدا من جميع المراتب في حال سفرهم الى مكة لاجل الحج .

الاعتبارات والغائمة

الاعتبارات المعروضة اعلاه التي تؤكد مخاوف وزارة الخارجية تضاف على مسألة حج المسلمين اهمية على مستوى الدولة بأسرها ، وتلزم ، اغلب الظن ، عند حلها ، بالتنازل عن المقتضيات الصحية بقدر معين . ولأجل تلبية هذه المقتضيات بافضل نحو ، ونظرا للمخاطر الناجمة عن الحج السري ، ورد اقتراح بانشاء هيئة للحج تؤمن للمسلمين منافع معينة وتصرفهم بالتالي عن الاسفار السرية الى الحجاز وبلاد ما بين النهرين . ولا يمكن النكران انه لا يمكن لهذه الهيئة ان تؤدي الى نتائج ملائمة ، طيبة الا اذا استفاد المسلمون بكامل الثقة من تعليمات الحكومة وعدلوا كليا عن الحج السري . ولكن آراء الاشخاص الذين يعرفون السكان المسلمين عن قرب تشير الى ان التعصب الاسلامي ظاهرة مكتومة الى حد ان تدخل الحكومة المسيحية في قضية اداء الشعائر الاسلامية المقدسة لا يؤدي ، نظرا لجهل اغلبية السكان ، الى توقف الحج السري . واذا اعتبرنا هذه الفرضية وان قابلة للتصديق ، فلا ريب في ان الهيئة الرامية الى تشجيع الحج تفقد اهميتها الصحية الحاسمة ولن يكون من الممكن تبرير وجودها بالنقطة في تأمين سلامة الامبراطورية بصورة تامة من نقل عدوى . واذا لم تتوفر هذه الثقة ، واذا قامت الشكوك بصدد توقف الحج السري ، فان وزير الداخلية سيكون ملزما بان يقدم للجنة الوزراء مشروعا آخر بشأن الحج ، يركز اساسا على الاعتبارات التالية :

- ١ - لا يصح اتخاذ اية تدابير لاجل توجيه الحج عبر القسطنطينية .
- ٢ - يجب الامتناع عن اغلاق السبل القائمة لقوافل «الحج» في آسيا الوسطى .
- ٣ - يجب انشاء نقاط عبور على الخطوط الحدودية لاجل الرقابة الصحية على الحجاج العائدين .

٤ - يجب الامتناع عن اللجوء الى اية من تدابير الحماية لاجل حج المسلمين وبخاصة الى التدابير التي تتجاوز درجة الحرص على الحجّاج المسيحيين .

٥ - يجب تحويل قضية تنظيم الحجّ نفسها الى المسلمين مع الحق في تقديم العون الطيب لآخوانهم في الايمان .

المادة الاولى ، الموضوعة بموجب اساس المشروع هذه ، تشير الى ان الحجّاج يحصلون على جوازات سفر من طراز خاص . ان اقرار جوازات سفر كهذه ضرورى تماما لاجل الرقابة الصحية ولاجل مراقبة الحجّاج العائدين الى الوطن .

ومن المرتأى ان يشار على جوازات السفر هذه بلون احمر الى كلمة «الحج» وتزويدها بقسيمة خاصة من اجل عدد العائدين .

ونظرا للتفسير السابق ليست المواد ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، غير تطوير للاحكام الاساسية المعروضة .

المادة ٦ تعين العقوبات التي تؤمن مراعاة القواعد بدقة . وبصدد المقترحات المعروضة في هذه المادة تجدر الاشارة الى انها جميعها تدخل مباشرة في ميدان مخالفات القواعد المتعلقة بجوازات السفر ، ولكنها مع ذلك تشكل من حيث الجوهر تدابير لوقاية الامبراطورية من نقل الامراض المعدية . ولهذا يبدو من المناسب تحديد العقاب الواحد الذي تنص عليه المادة ١٠٢ من لائحة العقوبات التي يفرضها قضاة الصلح .

ولوزير الداخلية شرف تقديم المعروض اعلاه لنظر لجنة الوزراء فيه .
وقع : وزير الداخلية

اليغرميستر د . سيبيالين .

صادق : المدير واغوزين .

مشروع القواعد الموقّعة بصدد حج المسلمين

١ - المسلمون المسافرون للحج الى الحجاز وايران وبلاد ما بين النهرين يتألون جوازات سفر من طراز خاص .

٢ - لاجل عودة الحجّاج بعن وزير الداخلية مرافق البحر الاسود وبحر

قزوين المعينة ونقاط المراقبة الصحية على الحدود البرية . وهذه وتلك
يشار اليها في جوازات السفر .

٣ - عند العودة يخضع الحجاج للتطهير الطبي الصحي ولجميع التدابير
المقررة لاجل الاشخاص القادمين من اماكن خطيرة .

٤ - مؤسسات الحجر الصحي ومؤسسات الرقابة الطبية تسجل فسي
جوازات سفر الحجاج العائدين اشارة الى تنفيذ التطهير الطبي الصحي . هذه
الاشارة توضع ايضا على قسيمة خاصة متواجدة في جواز السفر ، ثم ترسل
هذه القسيمة الى المحافظ المعنى ، حسب مكان سكن الحاج او مكان تسجيله .

٥ - اذا عاد الشخص المزود بجواز سفر للحج الى الامبراطورية عبر
النقاط الحدودية غير المشار اليها في جواز السفر ، فان السلطات الحدودية
ترسله على الفور الى اقرب دائرة للشرطة لاجل تنفيذ المقتضيات الواردة
في المادة ٣ .

٦ - الحاج : ١ - العائد الى مكان اقامته مع جواز سفر لا توجد
عليه اشارة الى التطهير الطبي الصحي ، - ب - الذي سافر الى الحج
بدون جواز سفر او بجواز سفر عادي ، - ج - العائد الى الامبراطورية
عبر مرافق ونقاط غير مشار اليها في جواز السفر ، يعاقب بالاعتقال لمدة
في حدود شهر واحد او بغرامة نقدية في حدود مائة روبل (المادة ١٠٢ من
لائحة العقوبات) .

بصرف النظر عن هذا ، يخضع الحاج ، عند عودته الى مكان سكنه ،
للتطهير الطبي الصحي المقرر . ١

٧ - عند الحصول على القسائم المذكورة في المادة ٤ ، يتخذ المحافظون
التدابير لكي يخضع الحجاج العائدون للرقابة الطبية الصحية خلال فترة
معينة من الزمن .

وقع : وزير الداخلية

اليغرميستر د . سيبيياغين .

صادق : المدير واغوزين .

ملاحظات

١ - ف . ك . بليفه (١٨٤٦-١٩٠٤) . وزير الداخلية فى روسيا . رئيس فيلق خاص من الدرك (١٩٠٢-١٩٠٤) ، رجى متطرف ، قتله الاشتراكي - الثوري سوزولوف .

٢ - محافظة توريدا - ارض شبه جزيرة القرم .

٣ - سيبياغين د . م . (١٨٥٣-١٩٠٢) . وزير الداخلية فى روسيا (سنة) ١٩٠٠ . ملهم سياسة الروسية فى الاطراف القومية .

٤ - المركز - مدينة اليسافتبول . قبل سنة ١٨٠٤ ، وفى سنوات ١٩١٨-١٩٣٥ ، ومنذ ١٩٨٩ غيانجا ، من ١٩٣٥ الى ١٩٨٩ كيروفوباد .

٥ - نوخا (منذ سنة ١٩٦٨ - شيكى) - حاليا مركز ناحية فى جمهورية اذربيجان .

٦ - ريدوت - قلعة . مدينة غير كبيرة على الساحل الشرقى من البحر الاسود عند مصب نهر هوبى . حاليا كوليفى .

ارشيف الدولة التاريخى المركزى . المجموعة ١٢٩٨ . الفهرس I ، الاوراق ١٤-٢٨ . النص المطبوع الرسمى . على الهوامش وفى النص ملاحظات عديدة .

اعتذار

يعتذر المؤلف للقارئ الكريم على الاختلاف في بعض
اسماء الاشخاص والمواقع والقبائل العربية.

وقد بذلنا قصارى جهدنا في تدقيق تلك الاسماء لتأتي
بشكلها الصحيح. الا ان ورودها بصيغ مختلفة في
المراجع العربية ذاتها هو، بالاساس، سبب عدم دقة
بعضها في ترجمتنا، ولذا نكرر اعتذارنا ونأمل أن ننبه
الى الاخطاء الواردة في هذه الطبعة لتلافى ذلك
مستقبلا.

■ ما إن انطلق سراج القرن التاسع عشر، وأمل القرن العشرون (١٨٩٨-١٨٩٩م)، حتى أرسلت السلطات القيصرية الروسية في ذلك الحين، ضابطاً روسياً مسلماً هو عبد العزيز دولتشين، للقيام برحلة إلى المملكة العربية السعودية بقصد الحج كسبب مُعلن، وبقصد وضع تقرير عن مشاهداته وانطباعاته عن حال بلاد الإسلام وأحوالها كسبب مُضمر. وكان الدافع إلى هذه المهمة، في ذلك الحين، اهتمام الروس بمسألة الحج من جهة، والعالم الإسلامي من جهة ثانية.

أما اهتمامهم بمسألة الحج، فنابع من وجود ملايين المسلمين الذين ضُمت بلادهم وأراضيهم قسراً إلى السلطة القيصرية الروسية، وبالتالي محاولتهم معرفة ما يقدمه الحج، كفريضة على المسلم، وكيف يؤثر فيهم وعليهم.

أما اهتمامهم بالعالم الإسلامي، فنابع من أهمية هذا العالم الاستراتيجي، والذي كان في ذلك الحين مساحة من الصراع الفعلي بين الدول الكبرى، أرادت الدولة الروسية أن لا تكون بعيدة عنها.

إن هذا الكتاب يشكل وثيقة فريدة من نوعها، في غناها وتعدد مواضيعها وميادينها، وأخيراً بالتفاصيل المتعلقة بأدق أمور الحياة اليومية في

الجزيرة العربية وفي البلاد التي زارها دولتشين في طريق ذهابه وفي طريق عودته.

ففضلاً عن المقدمة التي تتحدث عن حال الصراع الدولي على منطقة الجزيرة العربية، وعلى العالم الإسلامي، والأسباب الكامنة وراء تفكير الروس في مسألة الحج، يحوي هذا الكتاب جداول وتفصيلات متنوعة عن عدد الحجاج من كل دول العالم، بالإضافة إلى عدد السفن التي تصل إلى جدة، وعدد وأسماء الأدلة والوكلاء، وتفاصيل مذهلة حول كل الأمور، لينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الحدود والطوبوغرافيا والمناخ والسكان والتجارة والصناعة والوضع السياسي والتقسيم الإداري، وعن القافلة، والركب والمحمل السورية والمصرية، في كل من الحجاز ومكة المكرمة والطائف وجدة والمدينة وينبئ، ليفرد بعد ذلك فصلاً عن الحج، بشعائره وكل تفصيلاته في تلك الفترة، ولينتهي بـ ستة ملاحق بأقلام علماء مسلمين أجلاء من التبعية الروسية، عن وصف طريق الحج ووصف بوابات الكعبة، وعن الحج من وجهة نظر روسية، وغير ذلك من المواضيع الفائقة الأهمية.

هذه التقارير الوثائقية حول رحلة عبد العزيز دولتشين، جمعها ورتبها ونسقها الكاتب الروسي يفيم ريزفان، وترجمتها إلى العربية دار التقدم في موسكو. إن هذه الترجمة إلى العربية نتركها للقارئ كما هي، بالرغم من صياغتها غير المتينة عموماً، وبالرغم من بعض الأخطاء النحوية والمطبعية التي تشوبها، لنحافظ بذلك على نكهتها الوثائقية الهامة، ذلك أن كاتبها روسي، وجامعها روسي، ومعرّبها: مؤسسة روسية.

